روايات الهلال





لا أحد ينام في الإسكندرية

إبراهيم عبد المجيد

إبراهيم عبد المجيد

لا أحد ينام فى الإسكندرية

الإهداء..

إلـــــى وائـــــل . الولـــد الصامـــت

من اللذة إلىالجنون ، ومن الجنون إلى النور ، أبني نفسي كاملاً ، من خلال كافة الكائنات (بول إيلور)

"البحر المتوسط بحر صغير للغاية ، إن عظمته وامتداد تاريخه يجعلاننا نتخيله أكبر مما هو عليه الآن ، إلا أن الإسكندرية لا يقل واقعها عما يمكن تخيله عنها .. "

(لورانس داريل)

" انزعجت الآلهة من ضجيجهم الذي حرمها النوم ، فأرسلت عليهم الوباء ، لكنهم سرعان ما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى وازداد ضجيجهم ، فأرسلت عليهم القحط ست سنوات ثم الطوفان الأعظم سبعة أيام ، لقد بلغ من هول الطوفان أن الآلهة ذعرت هي الأخرى وابتعدت إلى الخلف كثيراً في السماء "

(من أسطورة الطوفان البابلية)

" أصوات خفية حبيبة ، أصوات أولئك الذين ماتوا ، أو أولئك الذين بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى ، تتكلم في أحلامنا أحياناً،وأحياناً في الفكر يسمعها العقل ، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى ، مثل موسيقى بعيدة في الليل تخبو "

(كفافيس)

" الإنسان طين وقش

والله صانع الفخار "

-1-

كان هتلر يدور حول مبنى المستشارية في برلين ، عاقداً يديه خلـ ـف ظهره ، محنيا قليلاً ، في حالة من التأمل العميق ، لكنه أيضاً زم شـ ـفتيه مـ ـا أبرز شاربه محدباً قليلاً ، وفتح عينيه في غضب أزاد لمعانهما . في الحقيقة كاد صدره ينفجر ورأسه ، وهو ذاهل تماماً عن حراس المبنى الواقفين ، وحراسه هم الذين يدورون خلفه ، كان يفكر لو يستطيع أن يمسك برئيس حكومة بولندا يعصره عصراً .

اليوم هو الخامس والعشرون من أغسطس ، الجـ ـو صـ ـحو فـ ـوق برلين ..فكر هتلر في الحروب قديماً حين تبدأ بمنازلة بين القائدين ، وتنتـ ـهي بهزيمة أحدهما فيستسلم هو وجيشه للمنتصر ، لكنه لا يستطيع أن يغـ ـامر بذلك ، يعرف جيداً مدى ضآلة جسده ، على الرغم من أنه ، هو نفسـ ـه ، الذي قدمت له النمسا في العام الماضي ببساطة عاهرة مدربة .وهو نفسـ ـه لم يتردد في غزو تشيكوسلوفاكيا المسلحة جيداً فلم تقاوم ، البولنديون فقـ ـط يعاندونه ، لا يريدون أن يعيدوا لألمانيا ما أعطتهم زورا معاهدة فرسـ ـاي . وهو لن يرضى إلا بكل ما ضاع من ألمانيا . هذا هو الوقت المناسب تماماً ، لقد مضت عشرون سنة على الوقت الذي أمضاه في المستشفى بعد أن كاد يفقد بصره في الحرب التي انتهت بكارثة على الأمة الألمانية ، ومرارة البؤس

القديم تتجسد أمامه في كثير من الأحيان ، وآن الأوان لكي يحصد ثمار كفاحه ، منذ انضم إلى " حزب العمال الألمان " إلى تكوينه " للحزب الاشتراكي الوطني " إلى سجنه ، إلى تكوينه لكتائب الصاعقة ، ونضاله ضد الشيوعيين ، حتى وثوبه إلى الحكم وذبحه كل أعدائه والشيوعيين من قبلهم ، لقد سانده الشعب الألماني وهتف له فأدرك أنه المبعوث المنتظر من السماء لكرامة ألمانيا ، لكنه لا يريد إعلان الحرب مبكراً هكذا ، البولنديون بعنادهم يجبرونه على ذلك ، فليندفع إذن داخل مبنى المستشارية .

***

الساعة الآن الثالثة بعد الظهر تماماً ، وقَّع هتلر أمر الهجوم على بولندا ونفث الارتياح ، طلب شيئاً يأكله في مكتبه ، داعب إيفا براون في التليفون . قال إنه لن يراها بعد ظهر اليوم ، تذكر وزير حربه السابق " بلومبرج " وكيف استدرجه ليكون ، ومعه جورنج قائد الطيران ، شاهدين على عقد زواجه من امرأة ،قدم هيملر ، رئيس البوليس السري ، دليلاً فيما بعد ، على أنها عاهرة ولها ملف في دوائر الآداب . لعن بلومبرج وكل النساء العاهرات . وتذكر كيف أزاحه بعد ذلك في حركة تغيير واسعة . لكن هذا كله كان العام الماضي . إنه لا يحتاج أحدا الآن . فلينظر إلى الأمام فقط ، إلى الأمام فقط ، ووجد نفسه يفكر في صديقه موسيليني .

***

في السادسة مساء ، وهو لم يفارق مكتبه ، قدم له " أتوليكو " سفير إيطاليا رسالة من صديقه الذي فكّر فيه منذ ساعات .

" بالرغم من وقوف إيطاليا إلى جانب ألمانيا بلا قيد أو شرط ، إلا أن إيطاليا لا تستطيع التدخل عسكرياً ما لم تقدم لها ألمانيا فوراً كل احتياجاتها من مواد الحرب الموضحة في القائمة المرسلة مع هذه الرسالة ".

راح هتلر يقلِّب القائمة ويغالب قوة هائلة للانفجار . لم يلحظه السفير أتوليكو وهو يهز رأسه من الغيظ ، رقبة هتلر ليست بالطول الكافي ا يلمح الشخص رأسه وهو يهتز . ذلك يحتاج صراخاً ، وهو ما يفعله عادة حين يخطب في الجماهير . لكنه الآن لن يخطب ، يريد ، على العكس ، أن يبدو هادئاً . بانتشاء مفاجئ تذكر يوم دخوله إلى النمسا وراء قواته التي لم تواجه بطلقة واحدة ، كان ذلك صباح الثاني عشر من مارس العام الماضي . يومها اتجه إلى مدينة : ليتز " حيث دخل المدرسة وهو صغير لأول مرة ، وخطب هائجاً في جماهير مجنونة، كان " هيس " سفيره في روما قد هاتفه في اليوم السابق معلناً أن موسيليني يبعث إليه بأحسن تحياته ، وأن النمسا لا تعنيه إطلاقاً. ورد هتلر على هيس بفرحة غامرة وبأنه لن ينسى ذلك أبداً أبداً مهما حدث ، وإذا حدث يوماً وصار موسيليني في حاجة إليه ، فسيكون بجواره حتى لو وقف العالم كله ضده .

في ذلك اليوم تأمل هتلر هياج النمساويين حوله وأمامه وهو يخطب وتذكر كيف كان مولده لأب فقير من موظفي الجمارك ، وكيف كان يتطلع في صباه لأن يكون فناناً ، وكيف فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فيينا نفسا ، مما جعله يترك النمسا كلها إلى ألمانيا ، ثم تأمَّل هذا الدخول الظافر إلى مهد طفولته ، وتذكر مكالمة الأمس من روما ، وخلعته البهجة عن الأرض . ماذا يحتاج المرء أكثر من ذلك ليشعر بأن العناية الإلهية

تسانده ؟ وأخذ قراره بضم النمسا إلى الرايخ .. لكن موسيليني اليوم يخذله وهو لم يبدأ الحرب بعد ..!

اكتأب هتلر، أوشك أن يهـ ـاتف إيفـ ـابروان يـ ـدعوها إلى مكتبـ ـه. "البولنديون المتعجرفون يقفون مثل الأحجار ، وصديقي المخلص الذي يزهو بأنى من المؤمنين بأفكاره يتخلى عنى . أى صنف هم الإيطاليون ؟! قراصـ ـنة حقيقيون .. لكن هؤلاء القراصنة يمكنهم خوض المعارك في البحر المتوسـ ـط ضد فرنسا يشغلوها عنى حتى تنتهي بولندا من الوجود ".. رسالة موسيليني نذير شؤم حقيقي . لذلك حين دق التليفون تردد في تناول سماعته . رفعهـ ـا إلى أذنه واستمع إلى صوت " ريبنتروب " وزير خارجيته يقول إن معاهـ ـدة دفاع مشترك قد وقعت حالاً بين بولندا وإنجلترا ..

لم يكن لأحد في هذه اللحظة أن يحتل ذهن الفورهرر غير " كيتيـ ـل" رئيس هيئة أركان الحرب . استدعاه على عجل ، وقال له بهـ ـدوء كأنمـ ـا ينفض يديه من الأمر كله : أوقف كل شيء فوراً .. إننى أحتاج إلى وقـ ـت لإجراء مفاوضات .

***

لم يكن هذ الوقت طويلا . فقط خمسة أيـ ـام . أطفئـ ـت الأنـ ـوار في باريس . وُزِّعت فى مدن فرنسا المنشورات التي تدعو النساء إلى التطوع في الجيش .. أعلنت الأمة الفرنسية ثقتها التامة في جنرالاتها العسكريين الكبار ، جاملان ودارلان وفيلمان ، رؤساء هيئة أركان أسلحة البر والبحر والجو ، وأعلنت حالة التعبئة العامة ، فظهرت طوابير وقوافل الجنـ ـود تمشـ ـي ف

شوارع باريس عائدة إلى ثكناتها . وفي لندن ازدحمت أرصفة محطة قطار واترلو بالحقائب والأمتعة ، والسيارات والأطفال يغادرون إلى الريف ، وفي إيطاليا أصدر موسليني أمراً بتقسيم الجيش إلى قسمين قسم يتولاه الأمير " أمبرتو " ولى العهد ، بينما يتولى المارشال جرازياني القسم الثاني ، كما صادرت الحكومة البن من الأسواق ، معلنة أن تجارته ستكون تابعة للحكومة نفسها لتزويد الجيوش ، هذا رغم ما فهم هتلر من رسالة موسليني من تقاعس عن مؤازرته في القتال .

اهتزت كل دولة في العالم ، وراحت تحدد موقفها إذا قامت الحرب ، القتال أو الحياد أو الانتظار ، استمرت الاضطرابات في فلسطين ، واقتربت من سواحلها باخرة تحمل ألفا ومائتي يهودي ، لتهريبهم داخل البلاد . خرج قليل من الناس فى ألمانيا يحتجون على الحرب ، وقف بعضهم أمام القطارات ليموتوا قبل أن يروا حرباً جدية تجتاح الدنيا . حدث ذلك في مدن أوروبية كثيرة . وفي قناة السويس مرت الباخرة " ماريت باشا " حاملة جنودا فرنسيين وسنغاليين ، آخذة طريقها إلى سوريا ولبنان ، لتعزيز الدفاعات الفرنسية . في القاهرة تأجل الاحتفال بخريجي كلية فيكتوريا ، تقرر زيادة دوريات البوليس ، وزيادة التدابير ضد التجسس ، وتحويل الضباط الاحتياطي إلى الجيش العامل . قرر محمود غالب باشا وزير المواصلات ، تحويل بعض عربات السكك الحديدية إلى مستشفى ميدان . أقيمت الغارات التجريبية. خصصت سبع بواخر عند بولاق ، لترحيل سكان القاهرة إذا اقتضت الحال . في الاسكندرية التقى " كاننجهام " القائد العام للأسطول البريطاني ، " برفعت على ماهر باشا " رئيس الوزراء في المقر

الصيفي في بولكي ، لبحث التدابير البحرية اللازمة إذا اندلعت الحرب ، واجتمعت لجنة الوقاية من الغارات برئاسة محافظ المدينة ، وقررت زيادة مراكز الإطفاء إلى ثلاثة ، وتكليف أصحاب السيارات بطلاء مصابيحهم باللون الأزرق القاتم بدلاً من الأزرق الفاتح ، وأقيمت أيضاً الغارات التجريبية ، ونُصبت الشباك المعدنية خارج الميناء لصد هجوم السفن وأجريت التجارب الليلية لوحدات الإضاءة الكاشفة فوق سماء المدينة تحسباً لغارات الطائرات ، ووصل السيد مايلز لامبسون السفيرالبريطاني قادماً من لندن لمقابلة جلالة الملك بقصر المنتزه ، واقترح هتلر على الحكومة البريطانية تسوية التراع بتسليم إقليم " دانزج " إلى ألمانيا حالاً ، وقيام استفتاء بين سكان الممر البولندى يقررون فيه مصيرهم ، وحدد للرد يومين ، طالبا أن يرد عليه رئيس حكومة بولندا نفسه ، أو وزير مُفَوّض .

صار هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الموقف المتدهور ، وكتم العالم أنفاسه انتظاراً لإنتهاء اليومين ، وصار السؤال هل يمكن لأحد ، أو لقوة غير منظورة ، إنقاذ سكان الأرض من الجحيم القادم ؟

لم يعد هناك جدوى لأى احتجاجات شعبية ، ولا أى انتحارات ، دارت عجلات الموت ، لقد تقرر فتح كتاب الجحيم .

***

" وقال لى : إذا رأيت النار فقع فيها
فإنك إن وقعت فيها انطفت ،
وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك "

- 2 -

فى الليلة الأخيرة لمجد الدين جلس صامتاً وسط أفراد عائلته ، راحوا ينظرون إليه غير قادرين على تصديق الأمر كله . لكنه بدا بينهم كمن لم يتغيّر أبداً . في الأربعين لكنه فى صورة ابن العشرين . وجه مستطيل قوى القسمات بارز الوجنتين ذو عينين خضراوين ، شعر الرأس أشقر لولا أنه مغطى دائماً بالطاقية البيضاء . ولا يزال له الجسم القوى نفسه للشاب الصغير .

- لماذا لا تسمح لنا بالقتال ؟

تساءل أحد أزواج أخواته الثلاث ثم أكمل :

نستطيع قتال القرية كلها لو استدعى الأمر ، ولا يزال في البيت سلاح قديم ، ونحن رجال .

لكن مجد الدين طلب من الجميع أن يناموا ، الصباح رباح ، ويحلها من لا يغفل ولاينام ، كلماته الأثيرة التي يعرفونها عند الضيق ، وتعرفها أكثر زوجته الشابة زهرة كلما غشيته الأزمات .

انصرف الجميع إلى غرفهم بالدور العلوي بالدار الكبيرة ، انصرفت أمه هادية التي انطفأ نور عينيها إلى حجرتها بالدور الأرضي مستندة على

ذراع زهرة التي كانت تحمل طفلتها " شوقية " ذات العام الواحد على ذراعها الأخرى .

أتت من كل أركان الدار الرائحة التي يحبها مجدالدين . رائحة طين الجدران التي شواها الحر بالنهار ، الرائحة المعجونة برائحة الروث القادمة من الزريبة ، والمعجونة أيضاً برائحة حصائر الجبن ، ومخضّات اللبن المعلقة على الجدران ، ووجد مجد الدين نفسه يصعد أعلى السطح .

تأمل برج الحمام الأبيض ، وأرهف السمع ، فسمع قرقرة خافتة لا تكاد تبين ، تأمل مأوى الأرانب ولم يسمع شيئاً ، أحس بالجو خانقاً . لم تنكسر حدة الحرارة منذ أيام ، والرطوبة تشتد يوماً بعد يوم كأنما لا ينصرم الصيف . ما الذي أحيا كل القديم الميت الآن ؟ ولماذا حقاً لا يريد أن يقاوم؟

***

مثل مطر شديد مفاجئ نزل على القرية راح الناس يتحدثون سراً وعلانية ، عن المعارك القديمة بين عائلتي " الخلايلة " و " الطوالبة " ، وجاء شيخ البلد يطلب من مجد الدين ، أن يترك القرية في نهاية الأسبوع .

الثأر بين العائلتين انتهى منذ عشر سنوات ، حين لم يبق في القرية من الخلايلة غير مجد الدين ، ومن الطوالبة غير خلف ، مجد الدين حامل القرآن الذي أعفي لذلك من الجهادية ، وخلف صديقه منذ الطفولة . لقد جَعَلَتْ هذه الصداقة بينهما ، كلا منهما يتحايل على ألا يقابل الآخر في معركة قُتِل إخوة مجد الدين الخمسة ، ومات أبوه محسوراً عليهم ، وبقى هو وأخوه

"البهي "الشارد دائماً في الآفاق ، وبقى أولاد عمه ، أزواج أخواته الآن . قتل إخوة خلف الستة أيضاً ، ومات أبوه محسوراً عليهم بدوره ، والقرية كلها عرفت قصة العهد لذي أخذه كل من مجد الدين وخلف على نفسيهما . لقد قررا منذ أكثر من عشر سنوات إيقاف نهر الدم وسأل مجد الدين صديقه :

والآن يا خلف لم يبق غيرى ليموت ولن أترك نفسي أقاتلك .

ليس لى شيء عندك يا مجد الدين .

إذن ستسعى وراء البهي ، إذا كان ذلك فاقتلني يا خلف .

لن أسعى وراء أحد يا مجدالدين ، العار لحقنا جميعاً ، القاتل والمقتول . انتهت القصة من زمان إذن ، والبهى الذي صار يعيش في الإسكندرية ، لم يعد للظهور بالقرية أبداً. لكن العمدة نكش الآن تراب السنين ، إنه لا ينسى ما فعله البهى به ، وإحياء قصة الثأر القديم بين الخلايلة والطوالبة مجرد حجة لطرد مجد الدين ، العمدة فجأة قرر إظهار ضعفه وحقده معاً ، ومجد الدين منذور ، كما كان إخوته جميعاً ، لدفع ثمن خطايا البهى . ترى ماذا في الإسكندرية حتى يعشقها البهى كل هذا العشق وهل سيلحق مجد الدين غداً به أم سيختار بلداً آخر في أرض الله الواسعة ؟ .. يا أرحم الراحمين ..يهتف مجد الدين بلا صوت وهو يجلس مرتكناً بظهره إلى قاعدة برج الحمام ، يخرج من صديريته علبة دخان ويلف سيجارة رفيعة . لم يحب من إخوته أحداً كما أحب البهى . ها هى الأيام تجمع بينهما كما يقال .

مات أبوك يا بهى وليس على لسانه إلا اسمك .

ليس لى عيش في القرية يا شيخ مجد ، لقد هدنى السجن .

بلدنا حلوة يا بهى .

أنت طيب يا شيخ مجد لا ترى الدنيا إلا من خلال القرآن .. لماذا حقاً تبقى في هذا البلد الوسخ !؟

ولم يرد مجد الدين .. لم يعرف ، ولا يعرف حتى اليوم كيف يجيب عن سؤال البهى واستمر البهي ذلك اليوم يتحدث. قال :

أبوك مات وإخوتك قتلوا . لم يبق غير النسوان وأنا . وأنا لا أفيدك .

بعد ذلك رحل البهى إلى الإسكندرية ، عشر سنوات كاملة من الانقطاع ، كان مجد الدين حريصاً على أن يزوره مرة أو مرتين كل عام ، زيارات سريعة لم تطل الواحدة منها عن ليلة يعود فى صباحها محملاً بكلام كثير جميل للأم هادية . كان يجد البهى دائماً فى ثياب نظيفة ، بنطلون وقميص إذ خلع لباس الريف منذ وقت طويل ويعيش فى حجرة واحدة لكنها نظيفة ، يحرص البهى دائماً على تعطيرها بالبخور والمسك ، ولا تفارق جيبه علبة عنبر تشع رائحة خلابة ، لكنه كان يبدو شاحباً مجهداً ، ولا يخفي آلاماً كثيرة يجدها في المدينة عن مجد الدين ، الذي لم يخبر أمه أبداً بهواجسه عن آلام أخيه ، بل يقدم إليها دائماً ما يسرها عن ابنها المسكين .

كانت هذه كذبة مجد الدين الوحيدة في حياته . كانت يؤلمه دائماً الحياة لتي يحياها أخوه بالإسكندرية ، لكنه عود نفسه على أن يقول لأمه غير ذلك ، إنه يحب أخاه ويقول ما يحبه له أن يكون . خمس سنوات كانت الفارق بين عمريهما ، تمشي معهما وكأنها نصف قرن من الألم العجيب ،

البهى هو الأكبر ، ودائماً ما كان الأب ينظر إليه ويقول " لله في خلقه شئون ، هذا ابني من صلبي وهؤلاء أبنائي أيضاً ، وكلهم من أم واحدة ، وفيهم من يزرع ومن يتاجر ومن يحمل القرآن إلا هو الوالد الذي جاء محملاً بخطايا العالمين " ! .

لقد كره البهى مبكراً كل محاولة لأن يتعلم حرفاً في الكتاب أو الزاوية أو البيت . ولم يكره شيئاً مثل كرهه للفلاحين ! قالوا ذلك لوسامته ، وقالوا لهيبة في قلبه ، وقال الأب دائماً والحسرة في عينيه " هكذا هو خلْقَه " . اختارت له الأم اسم (البهى) لأنها ولدته فى ليلة السابع والعشرين من رمضان . لقد رأت وهو يترلق منها طاقة نور تخرج معه تضيء الحجرة وتمشي على الجدران .

وبكت القابلة وهى تلفه في القماط ، وتقول لأمه أن تخفيه عن العيون فهو فضلاً عن طاقة النور التي خرجت معه ، ولد مختوناً ، إنه ولد طاهر من البداية منذور لخير عميم .

وهكذا لم ير الناس البهى إلا حين استطاع المشي ، فتسلل من كوة الباب الخشبي الكبير ، وتدحرج في الزقاق الضيق يحيط بوجهه الضوء العجيب . ولم ينته جزع الأم إلا بعد أن أنجبت بعده ثلاث بنات ثم مجد الدين . لم تعد أم الذكور فقط . جزع الأب الذي لم ينته . قد فطن مبكراً إلى أن في عينى البهى نزفاً غير مألوف في العائلة ، مع أن للعيون فى العائلة اللون الأخضر نفسه الذي أخذه الجميع من الأم ، في عينى البهى وحده اللون الأزرق ! وهذا أيضاً عجيب .

ما كان البهي يبلغ مرحلة الصبا ، حتى راح يخرج من الدار مع الصباح ولا يعود إلا في المساء ، لينام دون حديث مع أحد ، لم يسأله أحد أين يمضي يومه ، الأم ممتلئة الحنان ، والأب لا يستطيع أن يفسر لنفسه ، هذا الضعيف الذي قذف به الله إلى قلبه تجاه الغلام . شيئاً فشيئاً صار البهى وسط العائلة مثل خيال ، يخرج الإخوة في الصباح الباكر إلى الحقول ، ويخرج هو بعدهم لكن لا يعرف أحد إلى أين ، يعودون في المساء متعبين ليتناولوا عشاءهم ويناموا مبكراً ، وتظل الأم لا تنام ، إلا بعد أن تسمع صرير كوة الباب ، وخفقات البهى المتسلل عائداً ، ثم راح يغيب لأكثر من يوم وليلة ويعود ينام في أقرب مكان يقابله ، مع البهائم ، مع الدجاج ، فوق الفرن ، في الباحة ، بين الحجرات . المهم أنه لم يعد ينام في حجرة بها أحد من إخوته، ولا يزال الأب لا يدرى سر هذا الضعف الذي يتملكه أمام ابنه العجيب ، والابن المسالم لا تأتي من جرائه أى شرور حتى الآن ، ثم انكشف سر البهى وملأ فضاء القرية ، إنه ممسوس بالعشق يمشي وراء النساء فوق الترع وفي الأسواق ، ونساء القرية أيضاً وفتياتها كن ينتظرن مروره بين الأزقة ليتطلعن إليه من خلف الأبواب وفوق الأسطح ، صارت مواقيته محفوظة للنساء ، وهالة النور التي قالت عنها أمه أنها انزلقت معه يوم مولده لم تكن قد فارقته بعد ، فقط لا يراها غير النساء والفتيات . وانتقل خبره إلى القرى المجاورة فصارت النساء والفتيات يأتين ليجلسن على الترعة التي تفصل البلد عن الحقول ينتظرون مروره ، تفزع إليه صاحبات الحاجة ، تلمسنه ، تفزع منه الفتيات الصغيرات . يقفن بعيداً ويضحكن وشىء يزلزل أجسامهن . وإخوته وأبوه في دهشة مما يسمعون عن الصبي ، حتى

جاء يوم رأوه فيه يظهر على رأس الحقل . كان هناك إخوته الخمسة . فتوح والقاسم وخليل وعمران وسليمان . ولم يكن مجد الدين ، أصغرهم ، معهم ذلك اليوم . في البداية اندهش الإخوة من ظهوره ، لكنه بعد أن جلس عند الساقية ، انشغلوا عنه بالعمل . بعد لحظات رأوه يقف يدور حول الجميزة العجوز أكثر من مرة ويتطلع إلى بعيد ناحية القريـ ـة ، ثم سمعـ ـوه يصـ ـرخ يناديهم . وقفوا بين شجيرات القطن القصيرة ومعهم فؤوسهم . رأوه مـ ـن بعيد عدداً كبيراً من الرجال يأتون مسرعين رافعين فؤوسهم وعصيهم ناحية البهى . " الطوالبة " هتف الإخوة ، لم يكن حتى ذلك اليوم بين العائلتين أى دم . اقترب رجال الطوالبة فاندفع البهى ناحية إخوته كتلة من الرعب .

سيقتلوننى .

اهرب أنت من هنا . بلِّغ أباك وأولاد عمك بسرعة .

وأنطلق البهى من خلفهم أسرع من فرس ، وهجم إخوتـ ـه الرجـ ـال المهاجمين ، ودارت المعركة وطالت . والبهى في طريقه رأى أباه وأبناء عمـ ـه وأبناء خاله ، يسرعون ناحية الحقل حاملين العصى والفؤوس . لم يعد معهم ، أخذ طريقه بالسرعة نفسها إلى البيت ، كانت الأم تقف في رعب فـ ـارتمى على صدرها . كان بالكاد في السادسة عشرة ، انفجر باكياً . ربتت علـ ـى ظهره تسأله فى ألم .

لماذا فعلت ذلك يا ولدي !؟

غطيني يا أمي .

وأخذته إلى أقرب غرفة ، ثم غيرت رأيها وصعدت به إلى غرفة علوية " حتى لا يقتلك أبوك إذا عاد " قالت وسعمها البهى . أغلق عليه الباب ونزلت تنتظر نهاية المعركة ، كانت تدرك أنه اليوم ، فتحت أبواب الجحيم التي لن تنتهي إلا بعد أن تأكل النار كل الحطب .

وفي الحجرة العلوية كان البهي يدرك ذلك أيضاً . القحبة ، الفاجرة ، زوجة عبد الغنى ، أكبر أبناء الطوالبة ، هى التي أغوته ، هى التي مدت يدها بالنهار يوم السوق ، وسحبته من قفاه ، وهو يمر أمام الباب ، وأدخلته إلى الدار . " كل هذا النور !" قالت وسمعها صامتاً، وتركها تتأمل عينيه ، وتمشي بيدها على صدره . لقد سحرته . وضعت أصابعها عليه فمشى في جسمه نمل جعله أسيراً لها . سحبته إلى غرفة قريبة وهو مستسلم ، تتابعه نظرات الدجاج والبط فى ردهة الدار . الغرفة الكابية التي بلا نافذة أضاءت فجأة . أدركت هى النور ، ولم يدرك هو أنه دخل في ظلام ! " يخرج من جسمك يا عريس ، لابد أن أحمل سرك ، أشعلني وأدخلني فى جنتهم " . سمعها وتركها تفعل ما تشاء . لقد حملته فوق سبع السماوات .

خرج من عندها خفيفاً كريشة . ما الذي كان يثقله ، وأفرغه فيها حتى يصير خفيفاً هكذا ؟ ولم تعد الشوارع الضيقة ضيقة ، ولا البيوت السوداء سوداء ، ولا روث البهائم في الطرقات له رائحة منفرة .

لم يكن قد مضى على زواجها من عبد الغني شهر واحد. لذلك لم تخرج إلى السوق مع نساء العائلة ، لا تزال فى حكم العروس . وبعد ذلك لم تخرج ،أيضاً عاندت واختلقت الأعذار عاماً كاملاً ، رأى أبناء الطوالبة

كبيرهم ، عبد الغني ، يخضع للزوجة الصغيرة الجميلة ، فتعجبوا من سطوة الجمال على الرجال . لكن النساء ، نساء الإخوة الأخريات ، فكرن ودبرن حتى نجحن . وبالأمس رفعها عبد الغني عن الأرض ، ثم طرحها عليها بين إخوته ونسائهم وأمه وأبيه ، وداس على صدرها بقدمه ، ووضع السكين فوق عنقها " من يا بنت الجزمة ؟! " .

ولم تتردد . قالت بصوت واهن " البهى " . ذلك الولد الصغير الفاسق ! هتف الزوج ، وبصق على وجهها ، ومشى بالسكين عميقاً ، لكنها ضحكت ، وجلجلت ضحكتها في صحن الدار الكبير، وانقذف الزوج بعيداً إلى الوراء ساقطاً على مقعدته ، بينما طارت السكين من يده .

يا بوي ، يا بوي . هتف كأنه يتنهد ، وزاغت عيناه ثم تجمدتا على الفضاء اللانهائي . لقد غرس السكين في العنق ، وهو على يقين من ذلك ، لم ينبثق دم .

انفجرت فيه حزمة من الضوء .

قامت هي تضحك بلا انقطاع . جرى إخوته الرجال يبحثون عن السكين ، فلم يجدوها فى أي مكان ، سيجدونها بعد ذلك في قلب صحن الدار ، ويندهشون كيف لم يرها أحد ذلك اليوم ، سيجدونها صدئة يفركها أحدهم بيده فتذوب رماداً . وحمله الإخوة إلى حجرته . لم يستطع القيام وحده ، كانت هي تقف في ركن بعيد تضحك وتنتجب معاً . أثارت شفقة النساء وخوفهن ، هن اللائي فكرن ودبرن . اقتربن منها ، وأخذته إلى الزريبة ، وجلسن حولها في ركن من القش . كانت ترتعد بلا توقف . قلن

إنها ستموت الليلة . نسى أمرها الرجال الذين انشغلوا بـ أخيهم الأكـ بر العاجز . قدمت لها النساء إناء لبن طازجاً ، ابتلعته تاركة نصفه يسقط على صدرها ، ولا تتوقف عن الضحك والنحيب ، ثم مالت فوق القش ونامت ورأين جانبها يتحرك مع أنفاسها كما يتحرك جانب البهيمة المتعبة .

عند الفجر خرج الرجال من حجرة أخيهم متبـ اطئين . صـ رخت النسوة . مات ، هتف الرجال ، قُتل ! دمه في عنق الخلايلة " لايكفينا فيـ ـه الولد الصغير العايق " لم ير أحد الزوجة وهى تتسلل من الزريبة مـ ـع أول ضوء وتختفي . وفي الصباح ترصد أبناء الطوالبة البهى في الطريـ ـق . كـ ـان الخبر قد شاع ، وكان البهى عائداً من قرية مجاورة . لم يدرك أحد أن النساء والفتيات ، اللائي يغسلن أوانيهن في الترعة ، قد تباعدن إلى مسافات بعيدة ، حتى امتد صفهن إلى خارج زمام القرية . كل نساء القرية خرجن يغسلن أوانيهن ذلك اليوم، وهكذا قبل أن يدخل البهى شوارع القريـ ـة أعلنتـ ـه النساء ، فانثنى إلى الحقول حيث يوجد إخوته ، وعادت النساء ينكمشن ، ويأخذن مكانهن المعتاد فوق الترعة ، عند منتصف القرية حيث يسبح البط ولا يبتعد ، وكان الطوالبة بدورهم قد وضعوا عيوناً لهم فعرفوا وجهة الفتى الصغير .

***

نزل مجد الدين تاركاً السطح . فتح كوة الباب الخشبي وخرج إلى دار خلف ، صديقه الباقي من العائلة الأخرى ، الذي أمر العمدة بطرده أيضـ ـاً خارج القرية .

إلى أين انتهيت يا خلف ؟

يا شيخ مجد أنا ليس لى عيش هنا ، من زمان ومالي وتجارتي كلها في طنطا ، وأنا أعرف أنى غير المقصود . العمدة فجأة قرر الإنتقام مما فعله به البهى زمان ، فأحيا حكاية الثأر بينا من سنين , سوف أترك القرية غداً . أعرف أنى أستطيع العودة في اليوم التالي ، لكنى لن أعود .

وقدم خلف لمجد الدين سيجارة كوتاريللي . وسأله :

– سمعت أن أولاد عمك أزواج أخواتك يريدون قتال العمدة .

– لن يحدث قتال ، منعتهم .

– وماذا ستفعل ؟

– سأترك القرية غداً .

وخرج مجد الدين من دار خلف ، مدركاً لأول مرة ، أنه إنما ينصاع لأمر العمدة ،ليس خوفاً ولا إذعانا ، لكن لرغبة قوية عميقة فيما يبدو ، لترك القرية واللحاق بأخيه الشارد في الإسكندرية .

قبل هذ الليلة الأخيرة لمجد الدين بيومين ، كان الرد الذي طلبه هتلر قد جاءه إعلاناً سريعاً بالتعبئة بين الشعب البولندى ، ونداء من رئيس بولندا إلى شعبه ، بأن يقف خلف جيشه ، دفاعاً عن الحرية والشرف .

انتهت المهلة إذن ، ولم يعد هناك مفر من دوران آلة الشر ، وفي صباح تلك الليلة الأخيرة لمجد الدين ،بالضبط في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة ، بدأ الهجوم الكبير على بولندا .

كان اليوم هو الجمعة أو سبتمبر عام 1939 . لم يتعود مجد الدين الخروج إلى الحقل يوم الجمعة . كان يحب أن يمضي اليوم كله في " زواية " القرية الصغيرة ، ولكنه خرج ذلك اليوم إلى الحقل . لم يحب أن يذهب إلى المحطة من داره مباشرة . وكان قد طلب من زهرة أن تسبقه إلى المحطة في المساء ، لقد أرسل العمدة في الصباح ، عدداً من الخفراء إلى دار مجد الدين ، فعرفوا أنه في الحقل ، وسيغادرالقرية من هناك . وفي المساء وقف شيخ الخفراء وخفراؤه على رأس الكوبرى الصغير ، الذي يربط القرية وطريق الحقول ، ليمنعوا مجد الدين من العودة إلى داره . لم يصدق العمدة أنه سيترك القرية بسهولة لكنهم شاهدوه بالفعل يبتعد عن القرية ، على ظهر حمار صغير أقرب إلى الأتان . أطلقت عدة أعيرة نارية للترهيب . لم يشأ مجد الدين حتى أن يلتفت . إنه حقاً يريد الخروج ....

***

" إن الألم كثر ...

والليل يغدو أكثرنضرة إذا سلخت

عنه القشرة "

-3-

كانت محطة السكة الحديد ذلك المساء ، مثلها كل مساء خالية إلا من الناظر المسكين ، الذى لا يستطيع أن يبرحها قبل القطار الأخير في العاشرة ، ومثل كل مساء أيضاً ظل الرصيف حجرياً عريض الأحجـ ـار وجامـ ـداً ، واللافتة التي تعلن اسم البلدة كما هى بيضاء حائلة عليها خطوط سـ ـوداء شاحبة ، ومرفوعة على الحاملين الحديدين الصدئين، ولا عصفور يقف فوقها أو يطير حولها .

لم تكن عصافير على الأشجار القريبة أيضاً ، والقضبان الأربعة بـ ـين الرصيفين سوداء لامعة الأسطح ، بينها تخثر المازوت ، وتجلط فوق العوارض الخشبية والزلط . القضبان تلمع دائماً من أعلى في نهارات الصيف ، وتبدو كأنما سطوحها بيضاء .

كان الطريق الذي يمر من المحطة إلى البلدة كما هو ، رفيعـ ـاً متربـ ـاً ساخن التراب ، قليل التعرجات ، قليل أشجار الكـ ـافور والكـ ـازورين ، وليس عليه فى هذا الوقت عادة غير رجل واحد يمشي .

ولأنه فى مثل هذا الوقت من كل يوم ، يظهر هذا الرجل في منتصف الطريق كان الأمر يحتاج إلى وقت أطول ، ليتأكد الواقف على المحطة ، مـ ـا

إذا كان هذا الرجل قادماً إليه ، أو ماضياً نحو البلدة . الحقيقة أن الرجل دائماً يختفي ، ولا يعرف أحد أين ذهب ، كأنما الأمر خدعة بصرية ، مما الذي يجعل العين لا ترى تبديلاً فى المشهد كل مساء ، في المسافة بين البلدة والمحطة أيام الصيف ؟ .. هل هى حرارة الجو . وانكسار الضوء فوق التراب ؟ والخضرة أيضاً كانت ، كما هى كل يوم ، ممتدة حول الطريق الترابي ، ولا يتحرك فوقها طير كثير . بعض غربان على ذؤابات النخيل العالي ، وأبو قردان فوق أفرع الجميزات العجوز .

لقد أخذ مجد الذي طريقه إلى المحطة وسط هذا الجمود . بدت له الدنيا كشيء مهمل ، يراه ذات ظهيرة من فوق رابية ، في يوم من أيام بؤونة . هل ما حدث له منذ قليل حقيقة ؟ هل هو حقاً الذي انصاع لأوامر العمدة بهذه السهولة ، وخرج من القرية كما تخرج الشوكة من العجين وأسهل ؟ .. لقد رأى زهرة من بعيد تقف فوق رصيف المحطة ، وجوارها أخوها ، وعلى ذراعها الطفلة الصغيرة شوقية ، وجوار أقدامهم "قفتان " و" سلاَّلي " . راحت تشير إليه أن يسرع . كانت الأتان بطيئة أكثر مما ينبغي ، فحثها على الإسراع ما استطاع . قبل أن يصل إلى المزلقان ترك الأتان . وعبر إلى الرصيف وحده . ولأن القطار كان قد اقترب كثيراً من المحطة ، هرول مجد الدين ، فتعثر بأحد الأسلاك الممدودة فوق الأرض بين التحويلات ، فترك بلغته التي انخلعت من قدمه ، وعبر القضبان ، صاعداً إلى الرصيف . رأى ناظر المحطة في بزته الرسمية ، تلمع أزراره النحاسية في الفضاء ، ويلمع طربوشه الأحمر ، فوق وجهه الأسود السابح في ضوء الغروب . بدا له الناظر كأحد جنود الهجانة . كان بوده أن يصافحه على

مهل ، فهو صديقه عبد الحميد ، ابن القرية المجاورة ، زميله في حمل القرآن . لقد التقيا معاً قبل عشرين سنة ، في مديرية طنطا ، لدخول الاختبار الخاص بحفظ القرآن ، والذي على أساس اجتيازه ، يتم اعفاؤهما من الجهادية معاً ، وكان على كل منهما ، حسب القانون ، ألا يعمل في شـ ـيء غـ ـير قـ ـراءة القرآن بعد ذلك . أمضى كلاهما عشر سنوات لا يعمل ، ثم كان لابد مـ ـن العمل . بعد السنوات العشر لا يمكن أن تظل الحكومة في مراقبتهما . راح مجد الدين يشارك إخوته في الفلاحة ، بينما التحق عبد الحميـ ـد بالسـ ـكة الحديد ، وألتقيا من جديد .. تعددت لقاءاتهما بعد سفرات مجد الدين لزيارة أخيه البهى بالإسكندرية . لماذا حقاً لم يستطع أى منهما العمـ ـل مقرئـ ـا أو منشدا للتواشيح ؟ ربما هو صوت ، صوت مجد الدين خافـ ـت مشـ ـروخ ، لكن صوت عبد الحميد جهوري وقوى . كثيراً ما فكر مجد الدين أن يسأل عبد الحميد عن ذلك ، لكنه يتراجع . في الحقيقة ينسى .

كان القطار قد خل إلى المحطة ، في اللحظة نفسها التي وصل فيها مجد الدين إلى زهرة ، رأى مجد الدين صاحبه القديم يتقدم نحوه ، يرفـ ـع معـ ـه إحدى القفتين ، ويدخلها معه إلى العربة ، عاد وفعل ذلك بالقفة الثانيـ ـة ، كان أخو زهرة ، قد أدخل " السلاَّلي " الكبير إلى العربـ ـة، وقـ ـال نـ ـاظر المحطة :

– على مهلك يا شيخ مجد ، سأوقف القطار بعض الوقت ، أريـ ـد أن أصافحك يا رجل كما ينبغي.

اندفع كل منهما في حضن الآخر ، فكر مجد الدين هل يعرف صديقه سر خروجه من القرية اليوم ،؟ نفث القطار البخار الأبيض، وصفَّر له الناظر أيضاً ، وأطل مجد الدين من النافذة يقول لأخي زهرة " الحمار عندك قبـ ـل المزلقان " وازدادت سرعة القطار وصوت العجلات .

***

الآن فقط أدرك مجد الدين أن الأمر انتهى ، لقد طرد حقاً من بلدته، حتى لو كانت بداخله رغبة غامضة في الخروج . هذا شيء لم يحدث لأحـ ـد من قبل ، ولم يره في حياته على الأقل .

جاء المحصل فأطلعته على " التسكرتين " اللتين اشترتهما قبل وصـ ـول مجد الدين ، انصرف المحصل فلاحظ مجد الدين نظرة الرعب في عينيّ زهرة ، أبتعد عن عينيها ليرى فى آخر العربة، أمرة يجلس حولها خمسـ ـة أطفـ ـال ، ذكور وبنات ، في جلابيب قديمة ممزقة وحفـ ـاة . لقـ ـد رأى هـ ـذه المـ ـرأة والأطفال أنفسهم من قبل في القطار عند زيارته الأخيرة للبهي منذ منتصف العام . يا أرحم الراحمين . لا يصدق لكن هذا ما حدث .بل ورآهـ ـا مـ ـرة أسبق . يخيل إليه أنه منذ درج على زيارة أخيه ، وهو يرى هـ ـذه المـ ـرأة ، وهؤلاء الأطفال العراة الحفاة .

المرأة لا تشيخ ، والأطفال لا يكبرون رغم مضي السنوات . الصمت في العربة كبير ، عميق النوم لولا صوت العجلات تحـ ـت المقاعـ ـد. لقـ ـد ابتعدت زهرة إلى طرف المقعد، وفرشت على المقعد جلباباً أخرجته من أعالى السلالى ، وأنامت الطفلة فوقه ، ثم غطتها بالشال الأسود الذي أخرجتـ ـه

من السلالي بعد ذلك ، وطلبت من مجد الدين أن يحكم إغلاق النافذة التي بينهما . يغلق زجاجها أيضاً أمام الشيش . لقد حل الظلام والهواء البارد راح يتسلل إليهم مع حركة القطار .

كيف يمكن أن تمضي الرحلة ؟ أى نوع من الكلام يمكن قوله الآن بعد أن أنامت زهرة الطفلة وجلست تنظر إلى زوجها الذي راح يبادلها النظر بدوره ، وإن لم يخالط عينيه الرعب نفسه الذي ملأ عينيها ؟

كانت زهرة تتألم في الحقيقة ، لأنه ليس لها من الإخوة الرجال غير أخيها الذي جاء معها إلى المحطة يودعها ، وهو أيضاً غير شقيق لها ؛ أخواتها البنات وأمها " سيدة " لا يستطعن قتال العمدة . أجل . كانت تود لو أن لها عزوة كبيرة تقاتل العمدة ، ما دام مجد الدين قد منع أبناء عمه من القتال . لابد أن مجد الدين خشى من ترمل أخواته إذا مات رجالهن ، لكن كان لابد لأحد أن يمنع خروجهما ، رغم أنف مجد الدين نفسه ، هى تسافر معه مكسورة القلب ، فلا عزوة لها تساعد زوجها ، لكنها راضية أيضاً تقوم بما يجب على الزوجة الوفية . نظرة الرعب في عينيها ستنتهي بعد قليل ، لابد ، وحدث ،تبدلت النظرة إلى حنان بالغ ، تمنت لو تركوه الليلة يعود إلى داره .

في مثل هذا الوقت يكون قد عاد من الحقل ، واغتسل وتعشى ، وأطعم البهائم ، ومسح على أجسادها ، وغير لها الماء ، ووضع لها العلف ، وساعد زهرة على حلب الجاموس ، ثم صلى العشاء ، وانفرد عن الجميع بالمصباح الغازي ، وراح يقرأ في الغرفة القرآن .

– هذا ما حدث على أى حال ... ها .. ها ..ها ..ها .

جاءهما صوت غليظ ، نظر مجد الدين ليرى صاحبه . لم تشـ أ زهـ ـرة الالتفات . امتعضت في صمت ، رأى مجد الدين صاحب الصوت ، قصـ ـيراً سميناً ذا طربوش حائل ، يجلس على طرف المقعد ولا تكاد قدماه تصلان إلى أرضية العربة . كان يتحدث بدهشة بالغة لآخر يجلس أمامه إلى داخل المقعد قليلاً ، لذلك لم ير مجد الدين منه غير طربوشه وقفاه ، وباقة قميص بيضـ ـاء متسخة قليلاً . واستمروا يتحدثان . ولقربهمـ ـا مـ ـن مجـ ـد الـ ـدين كـ ـان يسمعهما .

– لن تتركه فرنسا ولا انجلترا ، إنها بداية حرب عالمية جديدة .

– وهذا ما يجعلني أضحك بشدة.

– ماذا تقصد بهذا الضحك ؟ أقول لك حرب عالمية سيموت فيهـ ـا ناس .

– أقصد أننا منقولون للعمل بالإسكندرية نفس يوم هجوم ألمانيا على بولندا ، هذه مسألة مقصودة ، اتفاق مع هتلر .

راح مجد الدين يسمع الكلام مندهشاً . كان يعرف مما يتناثر في القرية ، ومما يقوله الراديو الضخم الذي نادراً ما يستمع إليه ، أن هناك استعداداً للحرب ، إن ألمانيا تثير المشاكل مع الدول الأخرى ، وإن الناس تخشى قيام حرب جديدة تكون جديدة تكون أشد فتكاً من الحرب السابقة . لقد نسى هذا كله خلال الأيام السابقة . ها هو يعود إليه . لذلك أنصـ ـت لكـ ـلام الرجلين .

لم ألحق بالجريدة المسائية في طنطا ، خطفها الناس من الباعة ، الإذاعة قالت إن وارسو تتعرض من الصباح الباكر إلى غارات شديدة ، وإن الجنود الألمان يدخلون بولندا من أكثر من جهة .

– هذه نتيجة أطماع الدول الأوروبية ، إنها حروب الطماعين .

– المشكلة أن هذه الحرب ستصل إلينا .

– لأننا منقولون إلى الإسكندرية في اليوم نفسه ؟! لا يمكن طبعاً . هذا تشاؤم لا محل له ، ما علاقة الإسكندرية بحرب تجرى في أوروبا ؟

بدأ الحديث وقد أخذ طابعاً غريباً على مجد الدين ، لذلك أخرج المصحف الصغير من جيب صداره ، لكنه قبل أن يفتحه عاد الحديث بين الرجلين .

– الإسكندرية نفسها ستكون سبب وصول الحرب إليها يا محترم ، لا تنس أن إيطاليا في ليبيا .

– هل تظن أن موسيليني يفعلها ؟

– إنه أستاذ هتلر في الفكر ، إذا لم يلحق به هذا العام في العام القادم .

– نحن على كل حال لن نبقى بالإسكندرية غير عام واحد ، ثم إنني أشك في اتساع الحرب ، لقد ابتلع هتلر تشيكوسلوفاكيا وقبلها النمسا ، ولم يتحرك أحد .. سيبتلع بولندا ولن يعارضه أحد ، وأوروبا كلها مرعوبة

، والاتحاد السوفيتي وقع معاهدة معه ، ثم لماذا نذهب بعيداً ، ليت ألمانيا أو إيطاليا أو الاثنتين معاً يحتلان مصر ويخلصاننا من الإنجليز .

***

انقطعت أصوات عجلات القطار الذي يقف الآن فى محطة كفر الزيات. سكت الرجلان بدورهما ، وأضيئت مصابيح بيضاء أسفل سقف العربة ، فازداد لمعان المقاعد الخشبية الصفراء النظيفة ، صعد إلى العربة رجل وثلاثة أطفال ذكور . الرجل أنيق فى بدلته " الشارك سكين " البيضاء الصيفي وطربوشه نظيف وحذاؤه المقسم بين الأبيض والأسود ذو سن رفيع مدبب . الأطفال يرتدون بنطلونات قصيرة زرقاء ، وقمصاناً بيضاء ذات أكمام قصيرة ، للبنطلونات حمالات زرقاء أيضاً بها خطوط بيضاء رفيعة . وجوارب الأطفال بيضاء طويلة وأحذيتهم السوداء لامعة عريضة البوز ! لكن الأطفال بدوا وقد كفوا في الحال عن البكاء .جلس الرجل في مواجهة مجد الدين ، الذي رآه يضع إصبعه السبابة على شفتيه ، يحذر الأطفال الذين جلسوا أمامه ، من إصدار أى صوت . ثم رآه مجد الدين يخرج علبة سجائر مذهبة من جيب الجاكت ، ورآه يضغط على العلبة فتخرج منها سيجارة رفيعة ، أشعلها الرجل ، ثم راح ينفث دخانها الأزرق ، مغمضاً عينيه بارتياح.

تحرك القطار ولم تكن المحطات التالية مجهولة لمجد الدين ، ساعتان ونصف الساعة ويصل القطار إلى الإسكندرية ، وهكذا تعلم من زياراته السابقة للبهى . هل سيجده في حالة طيبة هذه المرة ؟

ذلك اليوم البعيد عاد الأب وأبناؤه من المعركة ، يحملون القاسم ملفوفاً في جلباب أحدهم ، صرخت الأم ، وانفرد مجد الدين ، الذي كان في الحادية عشرة ، بأحد الأركان ، وراح يبكى . القاسم هو أكثر الإخوة حنانًا على مجد الدين ، وهو أشجعهم ، تعرف شجاعته القرية والقرى المجاورة .

دفن الطوالبة ميتهم المغدور من زوجته في العصر ، ودفن الخلايلة قتيلهم بالليل ، ونامت القرية على الصمت والرعب . في اليوم التالي لم يخرج أحد من داره .وفي اليوم الثالث خرج الناس ، بعد أن سرت شائعة ، بأن الخلايلة قد رضوا بحكم الله . ابنهم العايق حسر عميد أبناء الطوالبة حتى مات كمداً ، والطوالبة قتلوا عميد ابن الخلايلة ، فتساوى الجميع ولا دين لأحد على أحد . لكن عند نهاية الأسبوع عثر على أحد أبناء الطوالبة ، مقتولاً خارج البلدة ، وفشلت كل محاولة ، من العمدة أو المركز أو المديرية ، للصلح بين العائلتين ، ولا أحد يتهم أحداً بالقتل . أيقن الجميع أن الأيام ستجرى في المجرى الذي قدره الله لها . رأس برأس حتى تفنى العائلتان .ولم يعد غريباً أن يعرف الناس من أى عائلة يكون القتيل القادم . بدت اللعبة شديدة الإحكام مهما طال الوقت وترهل بين القتيل والآخر . وكلما قتل واحد ، ازداد ازورار الناس في القرية عن البهى . لقد كان هو سبب اشتعال القرية الهادئة التى لم تكن تعرف الثأر إلا حكايات قديمة ، عن أزمان لم يعشها أحد من الأحياء الآن . تمنى البهى لو قتله أحد من الطوالبة، لكنهم كانوا يهملونه دائماً. يشعرونه بالمهانة ، فهم لا يقتلونه استصغارا لشأنه ، وهو يعرف لذلك كان كثيراً ما يخرج من القرية ، ويغيب أياماً في طنطا أو

كفر الزيات. وكانت زوجة عبد الغني قد صارت تغني على أطراف الحقول ، وتمشي جوار الترعة خارج زمام البلدة ، وإذا أخطأت ودخلتها طاردها الأطفال بالحجارة هاتفين " البهية للبهي " هكذا أسموها ، وكان اسمها القديم " وجيدة " ،كثيراً ما كان البهي سمع هتاف الأطفال هذا ، ويتمنى لو جاء صباح ، وجدوا فيه " وجيدة " أو بهية كما صاروا يسمونها مقتولة، لكن ذلك لم يحدث . تماماً كما لم يقتله الطوالبة . قتلوا من إخواته خمسة الآن . وقتل إخوته منهم خمسة أيضاً . ومل الأطفال الهتاف كلما شاهدوا " وجيدة " فدخلت القرية وفتحت لها الناس الأبواب يقدمون لها الطعام والشراب ويتابعونها مشفقات ، وهي تمشي مغنية في الفضاء بصوت عذب . كانت بريطانيا قد أعلنت الحماية على مصر ، راح الناس يشاهدون قطارات الجنود ، وهي تمر أمام القرية ، ويحكون عنها قصصاً غريبة . نزلت قوات المركز والمديرية من البوليس إلى القرية تختار أفضل الرجال ، تسوقهم إلى الحرب في البلاد البعيدة ، نسي الناس حكاية البهي ، وتراجع الثأر بين العائلتين ، وانشغل الناس بقصص " السُّلطة " ، وما تفعله بالفلاحين ، والشباب الزينة الذين اختفوا في ظروف غامضة ، والرجال الأبطال الذين عادوا من الحرب والذين لم يعودوا ، وكيف انتصرت بريطانيا على ألمانيا ، وإدارة الله التي تجعل النصر حليف غليوم الثالث ، فينقطع من مصر وباء الاحتلال . أيضاً شيئاً فشيئاً بهتت قصص الحرب ، وثورة سعد زغلول بعد الحرب . كانت القرية تتذكر أبناءها الشهداء في الثورة والحرب قبلها ، أبناءها الضائعين ومن بينهم كان البهي الذي اختفى سنوات الحرب ولم يعد ..

***

كان القطار يتحرك من محطة لأخرى ، والكمساري يفحص بدقة تذاكر الرجل الأنيق وأطفاله ، وفتح مجد الدين المصحف كيفما اتفق ، فوقعت عيناه على سورة " الأعراف " وسألته زهرة فجأة :

– همّا عملوا فينا كده ليه يا شيخ مجد ؟

كانت آيات كثيرة من السورة في الصفحات السابقة . لم يفكر أن يقرأ السورة من أولها . وارتفع صوته قليلاً غير آبه بأحد .

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) صدق الله العظيم . قال ذلك لنفسه ، وأغمض عينيه و أغلق المصحف وراح يقرأ من محفوظاته .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) . (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله ليتوكل المؤمنون) . (وإنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) . (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ... إلى آخره....) كان يرفع صوته شيئاً فشيئاً حتى كاد يملأ العربة (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن

يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً) . (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون)

ومال الرجل القصير إلى زميله وهمس :

– الرجل يقرأ المصحف مغلق بين يديه . يقرأ بصوت عال ويبدو شارداً عما يقرؤه . لابد أنه يحمل هماً كبيراً .

– سترى ما هو أكثر من ذلك إذا طالت الحرب ؟

سكت الرجل القصير مندهشاً من تعليق زميله . وفكر فى الإسكندرية كيف ستستقبلهما بالليل .

اليوم صلى الملك فاروق صلاة الجمعة في مسجد مصطفى أودة باشا بشارع الفتوح بالجمرك . هكذا أعلنت صحف الصباح . لقد كان في استقبال الملك ، على ماهر باشا صاحب المقام الرفيع ، وعبد الرحمن عزام باشا ، وصاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وبالطبع محافظ المدينة . لقد عاد الملك إلى قصر المنتزه العامر كما يحدث بعد كل صلاة . وأعلن في الصحف الصباحية اليوم أن مواليد الإسكندرية هذا الأسبوع بلغوا خمسمائة وعشرين من أبناء المدينة وخمسة وعشرين من الأجانب ، أما الوفيات فكانوا مائة من أبناء المدينة وأجنبياً واحداً .

وكانت أسباب وفيات السكندريين : الشيخوخة أو الحمى القرمزية أو الحمى الشوكية والملاريا والسل الرئوي بالنسبة للكبار ، والدوسنتاريا ،

والسعال الديكي والتيتانوس بالنسبة للأطفال، أما الأجنبي الوحيـ ـد وهـ ـو يوناني فقد قتله قبرصي سكران .

" هذا العالم الصغير القاتل
موجه إلى البرىء
يأخذ الخبز من فمه
ويعطى بيته للنار .."

-4-

– دخول المدن بالليل أمر صعب .

هكذا قال الرجل السمين لرفيقه ، وهما يمران جوار مجد الدين ، في طريقهما إلى باب العربة ، استعداداً للنزول ، لم يستمع مجد الدين لرد رفيق الرجل ، الذى بالفعل لم يرد .

– زهرة . أصح . وصلنا إسكندرية .

قال مجد الدين وهو يهز زوجته من كتفها. نهضت مذعورة قليلاً ... " يا ساتر يارب " قالت لنفسها ، بدت تدرك أين هي بالضبط ، تحسست رأسها فوجدت الطرحة السوداء مكانها . تحسست صدرها فوجدت النقود تحت ثيابها . حملقت فى مجد الدين فتأكدت أنه مجد الدين !

على الرصيف وقفت حاملة الطفلة ، وانشغل هو بمتابعة المرأة وأطفالها الخمسة ، والرجل الأنيق وأطفاله الثلاثة . ما الذي يجعله يفعل ذلك حقاً ؟ المدهش أن المرأة وأطفالها اختفوا من أمام عينيه ، رغم أنه لا يوجد زحام في المحطة ، ربما لأن الأنوار كابية . لكن هكذ يحدث في كل مرة يزور فيها البهى . يرى المرأة وأطفالها في القطار ، ويختفون على الأرصفة .

الرجل الأنيق وأطفاله لم يختفوا . رآهم حتى خرجوا من أقرب الأبواب . لقد وقف على الرصيف طويلاً حتى كاد ركاب القطار كلهم يختفون .

– شيَّال ؟!

– أجل .

وحمل الشيَّال الطويل القوى الحافي قفة على كتفه اليسرى ، واحتضن الاخرى تحت إبطه الأيمن . قال لمجد الدين أن يتبعه حاملاً السلالي. كانت خطوات الشيَّال واسعة سريعة ، وكادت زهرة تتعثر أكثر من مرة ، ومجد الدين متحير ، لا يستطيع أن يطلب من الرجل التمهل . كانت عيناه مركزتين على القدمين الحافيتين لشيال لا يعرف لماذا يتذكر أنه كان يمكن أن يكون حافياً أيضاً ، بعد أن ترك بلغته على الأرض ، حين تعثر وهو يهرول إلى المحطة ، لولا أن زهرة كانت قد أحضرت بلغة أخرى معها في السلالي ...

" صعب أن تدخل المدينة بالليل " ... رنت الكلمات في رأسه ، حين خرج من باب المحطة إلى فنائها الواسع . قابله ظلام عريض عميق . مصابيح الميدان المواجه للمحطة كلها مطفأة والأشجار شديدة السواد ، وليس من ضوء إلا فوانيس عربات الحنطور الحمراء ، المخالفة لتعليمات الأمن .

كان في فناء المحطة عدد قليل من عربات الحنطور ، وعربات الكارو والتاكسيات . أنزل الشيال القفتين إلى الأرض بمساعدة مجد الدين . أعطاه مجد الدين قرش صاغ .

- الحرب قامت يا رجل ، هذا لن يكفيني عشاء .

لم يفهم مجد الدين معنى قيام الحرب . هل بدأت في الصباح كما سمع المسافرين لتصل هنا بالليل ؟ هل هي قريبة إلى هذا الحد ؟ طال تفكيره فيئس الشيال من الزيادة وانصرف .

- إلى أين ؟

تساءل الحوذي العجوز الذي اقترب من مجد الدين .

- غيط العنب .

- خمسة صاغ .

- موافق .

اقترب الحوذي بالحنطور . ساعد مجد الدين في حمل متاعه . ثم صعد مجد الدين مع زهرة يجلسان على مقعد الحنطور . ظلت زهرة تحمل طفلتها ، وتدعو الله ألا تستيقظ وسط هذا الظلام .

فرقع الحوذي بسوطه في الفضاء ، وتحرك الحصان. انطلق في البداية بقوة فجأة فاهتزت العربة ، واندفعت زهرة إلى الخلف ، ثم إلى الإمام بشدة ، فكادت البنت تسقط تحت قدميها ، وتماسكت وتنفست ، وأحست بهواء بارد منعش يهدهد وجهها ويتسرب إلى جسمها . " الجو حنِّين " ، قالت لنفسها إذ أشاعت النسمة الباردة المنعشة فيها شيئاً من الطمأنينة . لقد نامت زهرة من جديد من اهتزازات العربة ، وكان هذا عجيباً لمجد الدين إذ إنها نامت في القطار معظم الرحلة .

– أين في غيط العنب ؟

تساءل الحوذى ورد مجد الدين .

– شارع **12** بيت نمرة **88** .

– أنا أعرف الشارع ، لكن النمرة عليك أنت ، طبعاً تعرف تقرأ .

قال الحوذي ذلك ، وأخرج من صداره زجاجة صغيرة داكنة بحجم كف يده ، رفعها إلى فمه بعد أن فك غطاءها ، وأخذ منها جرعة سريعة .

– تأخذ لك شفطة كينا .

لم يرد مجد الدين . ولم يطلب الحوذى رداً . فطن كل منهما للطريق .

لم يكن هناك غير قليل من المارة . رجال يُعدون على الأصابع . عربات حنطور تُعد على الأصابع أيضاً . سيارة أو اثنتان أجرة ، تمر من جوارهما بين وقت وآخر. دخل الحوذي منذ قليل في شارع عمر بن الخطاب . المحلات الصغيرة مضاءة بالفوانيس الصفراء الصغيرة . فوانيس تضاء بالشموع ، نادراً ما يظهرمحل مضاء بالكهرباء . عند مبولة الحضري ، دخل الحوذي في شارع إيزيس ، كانت محلات الشارع قليلة ومعظمها مغلق ، حين دخل السائق في شارع راغب ازدادت الإضاءة قليلاً بالمحلات . ازداد عدد المارة ، والسيارات الأجرة والحنطور ،كانت هناك عربة ترام تمشي أمامهم من بعيد ، مصابيح الاعمدة كانت مطلية باللون الأزرق القاتم . الضوء لا يكاد يصل إلى الأرض ، إضاءة المحلات الكهربائية القليلة تتسلل إلى الأرض الخالية فيظهر بلاطها مكسراً في أماكن كثيرة . الساعة

بعد لم تصل إلى الحادية عشرة مساءً . لم يصادف مجد الدين في الطريق أي مقهى غير واحد عند نهاية شارع إيزيس ، يجلس رواده القليلون جداً على ضوء لمبة كهربية واحدة ، مدفونة في أبعد مكان بالمقهى . كما رأى مقهى آخر عند آخر شارع راغب ، أمام الكوبري مباشرة جهة اليسار . مقهى صغير لايجلس فيه غير ثلاثة أشخاص على ضوء الشموع . لقد توقف الحوذى الآن أمام الكوبري وقال :

– يبدو أن الكهرباء انقطعت .

لقد رأى مجد الدين حقاً خيمة سوداء نزلت على الدنيا منذ قليل . لقد انطفأت مصابيح الشارع ، والمحلات القليلة ، وتراكمت كتل الظلام أمامه . استمر الحوذى يتحدث .

– الكهرباء انقطعت ، والكوبري مفتوح للمراكب ، يعنى لازم ننتظر كان ممكناً أن أدور بكما من عند كوبري كرموز ، لكن المشي على المحمودية بالليل وفي الظلام خطر ، خطر عليَّ وعليكم وعلى الحصان .

كانت زهرة قد استيقظت في الوقت الذي تمنى فيه مجد الدين أن تنام . قالت :

– إحنا فين !

– في راغب .

– راغب ! راغب من ؟

- اسكتي يا زهرة . نامي ، الكهرباء مقطوعة والكوبري مفتوح للمراكب ، قدامنا ساعة زمن .

لكن زهرة لم تنم . أخرجت ثديها أعطته للبنت التي استيقظت في الظلام . كان مجد الدين يفكر فى المرات التي سبق وزار فيها البهي، كيف كان التيار الكهربي ينقطع في الليل لأسباب يعرفها الناس ، ويتحدثون عنها في الصباح ، منها مطاردة البوليس للصوص الذين يهاجمون السفن المارة بترعة المحمودية ، أو القبض على بعض الشباب من الذين ينتمون إلى جماعات سياسية . وكان يعرف ماذا حدث في الظلام من مشاكسات جنسية . كل امرأة يداهمها الظلام ، تمتد ا أيدى بعض المارة الذين يصبحون خلفها أو جوارها فجأة ، رغم أنها كانت تمشي وحيدة في الطريق . لذلك لا تكاد تنقطع الكهرباء ، حتى تبحث كل امرأة او فتاة عن اخرى تلوذ بها ، لتشجع كل منهما الأخرى ، وكانت الأيدى لا ترحمهما أيضاً ، لكنهما يصبحان أكثر جرأة ، فيسبان صاحب اليد الممدودة .

كان عدد من الرجال قد تجمع أمام الكوبري ، وثلاث نساء آثرن الوقوف معاً في فم المقهى الذي تضيئه الشموع، و تحسس مجد الدين زهرة جواره ، وهو يعرف أنها جواره ، وتجمعت عربات الحنطور وتقاربت ، بينما أخذت التاكسيات طريقها ناحية كوبرى كرموز ، وقد امتد نورها الأزرق قليلاً أمامها .

أخرج الحوذى زجاجة الكينا مرة أخرى وقال هامساً :

- المراكب الماشية في الترعة وقادمة من الميناء مترسة أسلحة . مدافع وعربات وحواليها عساكر تتحرك وفي أيديها بطاريات . الحرب يبدو قادمة إلى هنا ..

ثم خاطب مجد الدين : لماذا جئت الإسكندرية اليوم يا أخ ؟. ألا تخاف من الحرب ؟

أضاء نور الشارع فجأة لم يرد مجد الدين. بدأ الكوبري يتحرك ليعود إلى مكانه فوق الترعة .

***

عبرت " الحنطور "الكوبري ، تكاد تنخلع من مطباته . من الـ يمين ، وبعد الكوبري مباشرة ، تأتي رائحة دقيق ، من وابور الطحين عالي الجدار ، ذى الشبابيك المسدودة بالشبك السلكي الضيق ، التي اكتسـ ـت بـ ـذرات الدقيق الأبيض ، فظهرت وسط الغبش ، قبل نهاية دوران شريط الترام آخر الشارع ، وأمام نقطة البوليس التي تتصدر الدوران المنـ ـرف الحـ ـوذى إلى اليمين داخلاً شارع اللبان ، الذي يسميه الناس شارع (12) لأن عرضـ ـه اثنا عشر مترا ، وهو أوسع وأطول شوارع المنطقة ، لكن زهرة الـ ـتي رأت أكثر من عربة ترام مضاءة بأضواء خفيفة واقفة في الدوران هتفت:

- إيه ده .. قطر.

قال مجد الدين بهدوء :

- تروماي يا زهرة : تروماى .

وضحك الحوذى وسأل ما إذا كانوا يأتون الإسـ كندرية أول مـ رة فأجاب مجد الدين بالإيجاب وسكت . ومرة أخرى أقبلت رائحة الدقيق من وابور طحين آخر على يسار الحنطور في شارع اللبان ، الذي كانت العربة تمشي فيه بصعوبة ، تنخلع أكثر مما كانت فوق الكوبري، أرض الشارع غير مبلطة ، ومفروشة بالدبش الأبيض الصغير . بعد لحظات طلب مجد الـ دين من الحوذى أن يقف .ها هو البيت على يمينه . إنه لا يخطئه . بيت صغير من دورين محشور بين بيتين أعلى منه بدور واحد .

***

قال البهي وهو يصنع لهما الشاي على سـ برتاية في ركـ ن الحجـ رة الصغيرة :

– أنتم محظوظون لأنكم وجدتموني ، أنا راجع تواً من المقهى .

وسأله مجد الدين الذي كان ممدداً على حصير فوق الأرض ، ومستنداً بظهره إلى الحائط :

– وماذا تفعل بالمقهى حتى هذا الوقت ؟

– لا شيء يا شيخ مجد .ثرثرة وشرب شاي .

وراح يضحك وهو يصب الشاي في الأكواب الصغيرة كانت زهـ رة مقعية في ركن آخر من الحجرة، وتعطيهما ظهرها وترضع ابنتـ ها الـ تي لم ترضع كفايتها في العربة ، كانت تفكر كيف سينامون جميعاً في غرفة واحدة ، وكانت تجاهد دمعاً يكاد يجرى على وجنتيها ، تتذكر دارهم الكـ بيرة فى

البلد .. فتحت الطفلة عينيها العسليتين اللوزيتين ونظرت إلى أمها ، بينما لم تترك حلمة البز من فمها ثم اندفعت في البكاء . هل انتقل الإحساس بـ الألم من الأم إليها ؟ أغلب الظن أنه كذلك ، لكن زهرة سرعان مـ ا انتقلـ ت بمشاعرها إلى الدهشة من نظافة وأناقة حجرة البهي ، ورائحة المسك الـ تي تنتشر فيها ،والبهي ذاته الذي يرتدى البنطلون والقميص كأبنـ اء المـ دن وحذاء أبيض . هذا رجل آخر غير الذي رأته منذ عشر سنوات . هل تفعل الإسكندرية ذلك بكل الناس ؟

وتساءل البهي :

– لماذا لا تحدثني عن سبب خروجك من البلد ، لم أعرف أنك تكـ ره البلد أو تحب الإسكندرية .

قلت لك إني من زمان أريد الخروج .

– وأرضك ؟

– مع أخواتي وأزوجهن.

– إذن عليه العوض ..

ولأنه سمع أنينا خافتا من ناحية زهرة سألها:

– ما الحكاية يا زهرة ، لماذ تبكين ؟

ولم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يقص عليه الحكاية كاملة . وسـ كت الجميع . أعمقهم سكوتاً كان البهي. إلى هذا الحد كان لعنة على أهلـ ه ، وحتى اليوم . ما الذي تريده الأقدار منه ، لقد تعذب السنين الفائتـ ة بمـ ا

يكفي وزيادة.هل كان عليه أن يقتل نفسه بيديه مبكراً ، كل ذلك لأنه ولد فتنة للنساء . لقد ترك نفسه يمشي في كل وقت وفي كل مكان لكن أحداً من الطوالبة لم يقتله . خاض أهوال الحرب الفائتة ولم تعطه الأقدار فرصة الموت .. أجل . ترك البلد وراح يتسكع في أسواق القرى المجاورة.. التقطته بائعة سمن وزبد من " شبرا النملة " . كان صيته قد سبقه إلى كل القرى ، والفتنة لا تزال تشع من عينيه ، التقطته بائعة السمن والزبد، وكانت (بهية) تترصده وتمشي وراءه في البلاد . لم يعد يطارده الأطفال من القرىالأخرى أيضاً . يئسوا وصارت بهية ظله أو نوره على الأرض ، وحين يأتي الليل تختفي في الحقول ، ويختفي هو عنها ، ويظن أنها لا تعرف طريقه أبداً، وفي الصباح يجدها وراءه .

-لا تمشي ورائي (بهية) في الطرقات .

تبتسم وتمشي بيديها على صدره، وتزوغ عيناها إلى بعيد ، ويرى دموعها فيعطيها ظهره ويمشي يكاد يبكي ... فكر أكثرمن مرة أن يمسك بها ويقفان معاً أمام القطار. لكنه لم يقدر على ذلك أيضاً ، إنه أضعف من أن ينتحر . وكان يرى خطوط الشيخوخة تظهر مبكرة فى وجهها وشعرات رفيعة تنبت على ذقنها ، وحين التقطته بائعة السمن ترك نفسه لها غير خائف من شيء . بل وفكر بشيطانية أنه قد يكون سبباً في جنون امرأة أخرى ، وتمنى أن يكون سبباً في جنون كل نساء القرى ، آه لو صارت النساء كلهن في الريف يمشين وراءه معتوهات . وكأنما كانت بهية تعرف ، اختفت فجأة . ودعته بائعة السمن إلى بيتها بجرأة ، فذهب معها قوى القلب آملاً أن يكون سبباً فى جنونها . رآها تقدمه لأبيها باعتباره تاجراً كبيراً من طنطا

، يريد سمنهم وزبدهم كله طول العام ، ورأى في نظرة أمها لؤماً وشراهة وشكاً فيه ، ففكر أن يجنها أيضاً ! أعدوا له حجرة ينام فيها ، وطلب منهم أن يجمعوا ما يستطيعون من سمن وزبد وبيض من القرية ، عرف من المرأة الجميلة الملحمة قليلاً ، أنها أرملة دهس زوجها السابق أوتومبيل في طنطا . كانت تأتي في غرفته كل مساء . لم يشك في معرفة والديها بذلك ، أدرك ما يتم ترتيبه له . لكنه لم يخلق للزواج والحياة الأسرية .في فجر اليوم السابع تسلل خارجاً ..كانت الشابورة تلف دور القرية السوداء . كان مشهداً لا ينساه . بيوت شاحبة السواد تدور في بخار الماء الأبيض بحجم الكون . هل يختلف الجحيم عما يراه ؟ بدت له البيوت حيوانات خرافية تدور معذبة في عماء كامل .ولما لامست قدماه شريط السكة الحديد ، أخذ طريقه إلى طنطا وليس إلى قريته ، وحين قابله مزلقان ، جلس يشرب الشاي في خص أعد له على الطريق . كان يريد الانتظار حتى تنقشع الشابورة ، ويرى الدنيا أوضح .

ولما انقشعت الشابورة رأى أمامه فريقاً من جنود الهجانة فوق الجمال يجرون فريقاً من الفلاحين المربوطين في حبل طويل . لم يكن لديه أى فرصة للهرب . ترجل أحد الجنود وأمسك بذراعه . بهدوء قيده مع المقيدين . وهو بدوره لم يعترض . ولم يسأل . لم يصرخ . ساقوه مع الآخرين إلى المديرية في طنطا ، ومن هناك إلى معسكرات الجيش في القاهرة . لقد خطفته " السلطة " ليخدم ويحارب سخرة في جيوش إنجلترا التي أعلنت الحماية على مصر .

" الإحساس " بإيقاعات الإسكندرية
ينتقل عبر الشوارع إلى الأجساد
قبلات جائعة ،أو عبارات تردد،
بأصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة " .

-5-

بدا أن كل شيء كان مهيئاً لاستقبال مجد الدين وزهرة . بالليل أخبرهما البهي أن صاحب البيت " الخواجا ديمتر " رجل طيب يسكن بالطابق الثاني في غرفتين ، وأمامهما غرفة مستقلة يمكن أن يؤجرها لهما. وعرفا منه أن بالدور الأرضي هنا تعيش امرأة اسمها " لولا " مع زوجها في الغرفة المواجهة لغرفته ، قال لهما البهي أيضاً إنه سيتركهما ينامان في غرفته الليلة ، وسيخرج لينام في مدخل البيت ، حيث يكون الجو أطيب حرارة ، وتكون الفرصة أكثر للاستيقاظ مبكراً . لم يكن أمام مجد الدين إلا أن يوافقه ، وإن اندهش قليلاً من حديث أخيه عن الاستيقاظ مبكراً ، ثم قال له أن يوقظه معه ليخرج يبحث عن عمل .

مضى أكثر الليل في كلام آخر عن الحي وسكانه ، لم يعلق بذهن مجد الدين منه شيء ، فهو يعرفه من قبل ، واندهشت زهرة من الحديث عن الخلاف بين المسيحيين والمسلمين ، وكيف صار غير واضح الآن . بينما

الخلاف الحقيقي هو بين أبناء بحرى وأبناء قبلي . قال البهي إن أبناء بحرى من رشيد ودمياط وغيرهما مسالمون دائماً ، لكن أولاد قبلي من الجعافرة والجهانوة يتربصون بهم ويهينونهم . هناك صراع دائم بين الجعافرة والجهانوة أنفسهم ، لكنهم يتحدون على أولاد بحري . وقال إنه يعمل ليوم يقود فيه أولاد بحري لكسر شوكة الصعايدة ، وسيكون هذا اليوم قريباً جداً . لقد وجدت زهرة نفسها تسأله على نحو مباغت :

-انت يتشتغل إيه يا بهي فى الإسكندرية ؟

تأملها قليلاً وابتسم ثم قال :

-اسألي الشيخ مجد الدين .

وتركها وحمل بطانية ومخدة ، وخرج لينام في مدخل البيت.. العجيب أن زهرة نامت بلا حلم واحد. وضعت رأسها على المخدة فوق سرير البهي، وأخذت ابنتها في حضنها ونامت . لم تشعر حتى بمجد الدين وهو يتمدد على الأرض جوار السرير الضيق . لقد أمرها أن تنام هي فوق السرير ، وكان عليها كزوجة ريفية أن ترفض وتتركه له ، ولكنها وجدت نفسها بلا تفكير تصعد السرير وتنام . كانت امرأة غيرها هى التي تفعل ذلك ، لذلك في الصباح جلست أمامه خجلانة . شغلت نفسها بإعداد الشاي له وللبهي.

خرج مجد الدين يبحث عن عمل دون تأخير ، وخرج البهي بعده لا يعرف أحد إلى أين .

قال لمجد الدين وزهرة ، وهو يتناول معهما الشاي :

– لقد مر بي الخواجة ديمتـ ـري مبكـ ـراً ، فأخبرتـ ـه بحضـ ـوركما ، وبرغبتكما فى استئجار الغرفة المقابلة لشقته ، ووافق . بل لقد صعد وأخبر زوجته أن تستقبل زهرة اليوم – ثم خاطب زهرة – يمكنـ ـك أن تصـ ـعدى إليهم بعد ساعة أو أكثر .

في حوالي العاشرة وجدت زهرة نفسها وحيدة بغرفة البهي ، فصعدت إلى الدور الثاني . ما كادت تخرج من باب الغرفة حتى وجدت أمامها امرأة جميلة . شقراء ترتدي قميص نوم شفافاً . عارية الكتفين والذراعين ، كانت تغتسل من حنفية الدور . قالت المرأة بفزع " يا أختى " وقالـ ـت : زهـ ـرة بارتباك " صباح الخير " تركت المرأة ماء الصنبور وسألت زهرة :

–أخت البهي ؟

– زوجة أخيه .

نظرت إليها المرأة من أعلى إلى أسفل .

–وأين أخوه ؟

– خرج يبحث عن عمل ، وخرج البهي معه .

واستجمعت زهرة شجاعتها، وبادلت المرأة النظرة المستنكرة ذاتها،ثم صعدت إلى الدور الثانى .

***

جلست زهرة صامتة بين الست مريم ، وبنتيها الجميلـ ـتين كاميليـ ـا وإيفون. الست مريم في حوالي الأربعين ، لها وجه مستدير أبيض ، وشعرها

كستنائي قصير تركته محلولاً بلا غطاء . كذلك كان شعر بنتيها محلولا ، إلا أنه كان طويلا يترل إلى الظهر ، للبنتين الشعر الكستنائي نفسه ، والعيون العسلية لأمهما ، وأيضاً استدارة وجه الأم ، مع ضيقه قليلاً من أسفل وغمازتين في خديّ كاميليا ، تشدان النظر وتبعثان على الابتهاج ..زهرة ترتدي الثوب الأسود الفلاحي الطويل الذي أتت به امس ، ثوب ذو رقبة مربعة واسعة قليلاً يسهِّل رضاعتها لطفلتها ، وفوق رأسها طرحة سوداء تنسدل على صدرها من الجانبين ، تغطي ما يمكن أن ينكشف منه بسبب اتساع " قَبَة " الجلباب . تحت الطرحة غطاء رأس محبوك يغطي شعرها كله . كاميليا وإيفون لا تكفان عن تأمل زهرة بدهشة من اكتشف إنساناً من كوكب آخر ! الحقيقة أن صمت زهرة هو الذي كان يدهشهما ، وكذلك حاجباها المزججان بعناية وعيناها السوداوان اللوزيتان . كانت زهرة صامتة حقاً ، وفي نفس الوقت تتأمل الأيقونات المعلقة على الحائط المقابل ، تعرفها زهرة جيداً. رأتها كثيراً في بيت عطا بقال القرية ، الذي تقوم زوجته فريال بخياطة ملابس النساء . عند الست مريم ماكينة خياطة برجل تراها زهرة في ركن من الحجرة . ماكينة خياطة فريال في القرية صغيرة تعمل باليد ، وتضعها فريال فوق طبلية ، وتنكفئ عليها طول الليل ، حجرة الست مريم أصغر من بيت فريال ، لكنها ليست من الطين . كذلك هي مدهونة باللون السماوي فتبدو مشرقة ، والشباك المفتوح على الشارع يغمرها بالضوء ، فضلاً عن الباب المفتوح على الردهة ، زهرة ترى بابا آخر من داخل الغرفة ، فتدرك أنه يؤدى إلى غرفة أخرى " خازنة " . زهرة تجلس على كنبة وجوارها الست مريم ، وعلى كنبة أخرى تجلس كاميليا

وإيفون ، والكنبتان مفروشتان بكليمين نظيفين عليهما رسـ ـوم رياضـ ـية.. دوائر وخطوط حمراء وخضراء وزرقاء ، وعلى الأرض كلـ ـيم بـ ـني بـ ـلا رسوم . في السقف مروحة صغيرة متوقفة يتدلى جوارها سلك يحمل مصباحاً أسفل المروحة . لابد أن المروحة لا تعمل أبداً وإلا قطعت سلك المصباح . السقف من ألواح الخشب الممدودة فوق عروق قوية ، ومدهون كله باللون الأبيض . وعلى الحائط صورة قديمة للست مريم في حوالي العشرين ، تقف جوار ديمتري بفستان الفرح . ديمتري في الصورة أصلع قليلاً ذو شعر أسود ، ترى كيف صار الآن ؟ زهرة لم تره بعد. تحت الصورة ساعة حائط صغيرة ، وتحت الساعة دولاب زجاجي صغير به الأواني الصيني ، أدراجه مقفلة في نصفه الأسفل ، وفوقه راديو صغير " تليفونكن " خشبي عـ ـريض القاعـ ـدة نصف دئراي له زراران كبيران متجاوران من أسفل. في الركن هناك جوار ماكينة الخياطة توجد منضدة صغيرة قديمة ، فوقها أنواع من القماش الجيد ، والثياب الجديدة التي لم تكتمل .الثياب والقماش عند مريم اكثر منها عنـ ـد فريال في البلد . " الناس هنا تحب تلبس " . قالت زهرة لنفسها ثم فكرت ، " هذه هي ستنا مريم الحقيقية ، وهذا هو ابنـ ـها سـ ـيدنا عيسـ ـى– عليـ ـه السلام .. وجه ستنا مريم مريح أبيض ناصع ريان ومحدب الذقن قليلاً مثـ ـل وجه إيفون وكاميليا ، ووجه سيدنا عيسى مرح ، ولكن وجهه في الأيقونة الأخرى وهو في سن النبوة يبدو حزيناً رغم هالة النور التي تحيط برأسـ ـه . هل كانت للبهي هالة من النور حقاً ؟ نعم كانت تمشي معه . ولكن وجـ ـه البهي ليس كوجه المسيح . ياسبحان الله . إنه أقرب إليه فعلاً . أستغفر الله العظيم " .

أمس أيضاً قال لهما إن " بهية " هنا في الإسكندرية . لقد ظهرت منذ عام . رآها تدخل المقهى تنظر إليه ثم تخرج تقف على الرصيف الآخر تتطلع إليه . لم يدرك أنها بهية إلا بعد انصرافها في المساء فتجمد في مكانه . مازالت تأتي بالنهار تراقبه من بعيد وتختفي بالليل .

وقال إنه كان يمشي ليلة على شاطئ المحمودية فسمع صوتاً يناديه . ظنه نداهة القرية . لكنه لا ينسى صوتها أبداً . بعد قليل من الدهشة ، تقدم ناحية الشاطئ ليجدها تقف أمام كوخ من الصفيح ، ترفع في يدها لمبة سهاري تداري عليها بكفها الأخرى من الهواء . أفسحت له الباب فدخل الكوخ وهو مرعوب . عيشة ضنك و تنام على الخيش ولديها خبز كثير أغلبه عفن مما يجود به الناس ، ولديها تفاح وموز . أجل . أعطته تفاحة وجلست تنظر إليه صامتة ، أخذها معه إلى البيت . فكر هل يأكلها أو يلقي بها . وضعها جواره فوق السرير ونام . وظلت فوق السرير حتى تعفنت فألقى بها من النافذة وسكت طويلاً . ثم قال لمجد الدين : " إذا مت فادفني في البلد .. " .

***

– عندك كام سنة يا زهرة .

سألتها الست مريم وأجابت زهرة .

– عشرين .

قالت كاميليا وإيفون وأمهما في وقت واحد :

–أول مرة تشوفي إسكندرية ؟

– نعم.

وسألتها الست مريم :

– وزوجك لماذا لم يرتح اليوم من السفر ؟

– هو هكذا لا يحب الكسل ؟

– ربنا معاه ، لا أحد يجد عملاً بسهولة الآن .

– ربنا موجود .

ودفعت زهرة مائة وستين قرشاً إيجار شهرين للغرفة ، ودخلتها فوجدتها واسعة ، لكن شباكها على منور صغير وليس على الشارع . قالت في نفسها لا بأس ، فهي تشعر بألفة مع هذه السيدة وبناتها ، وسألتها الست مريم ما إذا كانت معها نقود أخرى لتأثيث الغرفة فأجابت بالإيجاب ، فسألتها ما إذا كانت تحب أن تفعل ذلك اليوم ، ففكرت زهرة قليلاً ثم قالت لنفسها ، ما الذي يمنع أن يعود مجد الدين ليجد الغرفة مؤثثة وجديدة . وافقت . قامت الست مريم ودخلت الغرفة الداخلية لترتدي ملابس الخروج . رأت زهرة بسرعة في الغرفة الداخلية سريراً نحاسياً بأعمدة عالية محاطاً بناموسية بيضاء ، تماماً مثل سريرها في البلد ، إلا أن سريرها فى البلد ظهر عليه الصدأ في اكثر من موضع بالأعمدة ، ستشترى واحداً مثله اليوم .

كانت الست مريم قد أغلقت الباب بسرعة ، وعادت البنتان تنظران إلى زهرة في استغراب ، مما أشعرها بالخجل هذه المرة ، فطامنـت رأسـها وراحت تنظر إلى الكليم السادة فوق الأرض تبحث فيه عن خطوط وألوان لا تراها . قامت كاميليا بسرعة وفتحت الصوان الصـغير تحـت الراديـو الساكت ، وأخرجت مجلة ، وجلست جوار زهرة ، وفتحتـها بسـرعة في صفحات تعرفها ، وسألت زهرة :

– تعرفي أسمهان ؟

– نعم.

– تحبي صوتها ؟

–لما أسمعه .

انطلقت البنتان تضحكان ، وقدمت كاميليا المجلة إلى زهرة قائلة .

– هذه هي صورتها .

رأت زهرة الجمال الطاغي لوجه أسمهان الذي لم يسبق لهـا رؤيتـه ، وقالت بهدوء وهى تتأمل العينين الناعستين ، وطابع الحسن المميـز لوجـه أسمهان .

– هى حلوة قوى كدة ؟

لكن كاميليا قفزت بالأسئلة :

– عندكم راديو في البلد ؟

– عندنا ثلاثة ، واحد عند العمدة ، وواحد في القهوة ، وواحد في بيتنا .

وبان على وجهها شيء من الألم ، وسكت الجميع ، ومسحت زهرة دمعة في عينيها قبل أن تتكون ، لكن كاميليا قلبت المجلة إلى صفحة أخرى بها امرأة مشرقة الوجه ، على شفتيها المكتنزتين صبغة ثقيلة بنية ، وترتدي فستاناً ضيقاً يبرز تفصيلات جسدها بطيش ونزق ، وقالت :

– وهذه هي إستر وليامز . هل عندكم سينما في البلد ؟

خرجت الست مريم في اللحظة نفسها من الغرفة ضاحكة تقول لزهرة التي بدأت ترتبك :

–كاميليا شقية يا زهرة .

لكن زهرة لم ترد . انجذبت إلى الفستان الأسود الذي لا يصل إلى قدمي الست مريم وإلى البيشة ذات اليشمك الذهبي على أنفها، ووضعت الطفلة شوقية على الكنبة وقالت :

– أول مرة أترك شوقية .

– سنعود بسرعة قبل الغداء ، كاميليا ستعتني بها ، تتغدى معنا اليوم ، أم أنك لا تحبين أكل القبط ؟

ارتبكت زهرة قليلاً . أدهشها أنها لم يسبق أن أكلت أو شربت شيئاً عند فريال الخياطة في البلد ، طالما سمعت وهي صغيرة كلام النساء عن الرائحة غير الطيبة لأكل القبط . وقالت بهدوء .

– أنتم طيبون ولابد أن أكلكم طيب .

فأخذتها الست مريم من يدها برفق وخرجتا .

***

تمشي الست مريم على الرصيف بثقة ، بينما لا ترفع زهرة عينيها عن الأرض غير المرصوفة ، لذلك تتأخر عنها خطوتين أو ثلاث . الشارع المفروش بقطع الدبش البيضاء يتعذر المشي فيه ، والرصيف كذلك لم يتم تبليطه بعد ، وهو أعلى من الشارع تحده قطع البازلت المستطيلة ، ومفروش بالرمل والأحجار الصغيرة تمهيداً للبلاط . خذى بالك هنا حفرة بالوعة ، هنا محبس مياه . تقول الست مريم بين حين وآخر ، وتتوقف زهرة لحظة ، لتتجاوز ما ترشدها إليه الست مريم بحذر .

– هذا هو الترام . هل رأيتيه يا زهرة ؟

– أمس بالليل .

– هيا نركب ، احفظي النمرة ، ثمانية يروح أبو وردة .

– من أبو وردة ؟

ابتسمت الست مريم وقالت :

– شارع في بحري .

لاحظت زهرة أن هناك ثلاث سيدات ركبن قبلهما ، يرخين جميعاً البيشة على وجوههن ولا يتحدثن ، وقالت الست مريم :

– سترل في العطارين . هذا الترام يمشي في خط دائري . من هنا إلى العطارين ثم شارع عبد المنعم وشارع استانبول وصفية زغلـ ـول والغرفـ ـة التجارية ، ثم المنشية وبحري من شارع التتويج ، ويرجع بنفس التذكرة ... فسحة يعني ...

لم ترد زهرة التي لم تفهم كيف يمضي الإنسان كل هذا الوقت بالترام بدا لها أن لا عمل هنا للنسوان ! وابتسمت وتحرك الترام فارتبكت للحظة ، ودق قلبها بعنف . كيف تخرج من البيت دون إذن زوجها ؟ وكيف تركت ابنتها مع ناس تلتقيهم لأول مرة ؟ وهل يكفي قول البهي عنهم أنهم طيبون ؟ متى كان البهي يقول شيئاً نافعاً ؟ لكنها تستطع أخذ قرار بالعودة، خطف عينيها الفضاء الأبيض واستسلمت له . إلى أين تأخذها هذه المدينة حقـ ـاً ؟ وتركت نفسها تتطلع إلى البيوت التي لا ترتفع عن طابقين أو ثلاثة ، أبوابها الضيقة المفتوحة على الصمت .

واجهاتها القديمة معلق بشرفاتها غسيل عشوائي قليل . محلات قليلـ ـة تحت أبوابها . لاحظت أن الست مريم ، دفعت للكمساري قرش تعريفـ ـة ، وأخذت مليماً وتسكرتين ، ولما رأتها الست مريم تتطلع إلى واجهة تعـ ـرض الأواني ، والأدوات الصينية والزجاجية الجميلة قالت إنهـ ـا محـ ـلات أحمـ ـد إبراهيم ، أشهر المحلات في كرموز وراغب ، إنهما يمكن أن تشتريا منها مـ ـا تحتاجه زهرة ، بعد العودة من شراء الأثاث .

ذابت زهرة مع الحركة البطيئة التي تدب في الشارع حولهـ ـا ، ومـ ـع صعود ونزول الركاب من الترام وداهمتها رائحة عجيبة فجـ ـأة ، فـ ـرأت

نفسها وسط شارع مكتظ بمحلات اللحوم ، وعربات فوقها الكوارع ، ولحمة الرأس و " عفشة " البهائم وذبائح صغيرة معلقة على واجهات المحلات عليها أختام حمراء ظاهرة ، وزحام من النساء بالملاءات اللف .

هنا نترل ، هنا باب عمر باشا ، نعبر شارع الخديو وندخل العطارين نزلنا وزهرة زائغة العينين ، بدأ هواء منعش في شارع الخديو يهدهدها ، لاحظت أن اللون الكابي يغلب على الدور الأول للبيوت ، وبدأت تظهر محلات العطارين مفتوحة كلها ، وطويلة من الداخل أشبه بالورش ، رفعت زهرة رأسها أكثر من مرة إلى شرفات البيوت .

البيوت هنا عريضة ضخمة ، وترتفع قليلاً عما رأته من قبل ، وأبوابها واسعة وراءها فراغات كبيرة ، مكتظة بالعلب والكراتين ، وأشياء أخرى مرصوصة لا تعرفها ، الشرفات جميلة ، مسنودة على دعامات من حيوانات منحوتة ، أسود صغيرة ونمور وكباش ، وجدران الشرفات من اسيجة حديدية سوداء وخضراء لامعة . نساء قليلات يقفن في الشرفات ينشرن ثياباً أو يجلسن في الشمس .

كثيرات منهن عجائز، تركن شعرهن الأبيض والمحنَّى ، وكشفن عن أذرع بيضاء مترهلة ، تظهر من خلف الأسيجة .من الأرض كانت زهرة تشم رائحة الماء المرشوش أمام المحلات . في أكثر من زقاق ضيق لمحت مقاهي صغيرة يجلس فيها واحد أو اثنان . يشربان الشيشة أو يقرآن الصحف . فجأة مرت أمامها " دُفعة " من الفتيات الصغيرات الجميلات ، يضحكن وقد ارتدين البنطلونات الملونة الضيقة وفوقها بلوزات ضيقة أيضاً ، وقد

ملأن وجوههن بالأحمر والأبيض ، وقصصن شعرهن " ألاجرسون "
فاندهشت كيف تقص الفتيات شعرهن على هذا النحو الرجالي ، أدركت
الست حيرة زهرة فقال لها " ماتخديش في بالك " ، وسمعت زهرة نداء من
داخل أحد المحلات " ياعزيز امتى نبقى إنجليز " ، ثم سمعت الفتيات
الصغيرات ينطلقن في الضحك الصاخب ، وتقول إحداهن" بعينك ياروح
أمك ، ولو بقيت فرنساوي " وشمت زهرة رائحة تبغ كثيفة ، ورأت أمامها
دكاناً ذا واجهة حمراء . عليه كتابة سوداء كبيرة وعلى بنكه ميزان ،
وخلفه رجل يجلس يدخن الشيشة ، وعلى أرفف المحل كراتين صغيرة ،
وعلب سجائر كثيرة . وتعددت المحلات ذات الواجهة الحمراء ، كأنها
علامة مميزة لمحلات الدخان ، وأشارت الست مريم إلى شارع تهل منه رائحة
السمن وجوز الهند والسكر ، وقالت " هنا بياصة الشوام ، كلها حلوانية ،
وشارع الليثي أشهر شارع أنتيكات فى إسكندرية ، ويبيع تحفاً فرنساوي ،
ونجفاً بلجيكي ، وساعات سويسرية ، وكراسي طليانية ،وحاجات غالية من
كل الدنيا " كانت زهرة تفكر فى الوجه الخواجاتي القوى ، للرجل الذي
رأته يدخن الشيشة في محل الدخان . واندفعت امرأة خارجة من زقاق جانبي
، بقميص نوم أبيض ، تسوق رجلاً من قفاه ، ودفعته إلى الشارع بعد أن
ضربته على قفاه ضربة قوية ، ثم وقفت لحظة تنظر حواليها ، حافية منكوشة
الشعر ، يطل من عينيها المتعبتين الشرر، وعادت تدخل إلى الزقاق الذي
كانت ثلاث نساء متبرجات قد ظهرن في حلقة ، ووقفن يتابعنها وهى تطرد
الرجل ، ثم عدن خلفها إلى قلب الزقاق . صبي مقهى صغير كان يمر حاملاً
صينية ، فوقها فنجان قهوة وكنكة صغيرة ، وكوب ماء كاد يصطدم

بالرجل المضروب الذي وقف يترنح ، لكنه تفاداه بمهارة ، وضحك وهو يهتف " هنا الضرب على القفا يحلى " . ومشى الرجل المترنح ناحية زهرة التي جفلت ، واختبأت خلف الست مريم ، التي بسرعة انحنت ، وخلعت الشبشب من قدمها ، ولوحت به للرجل الذي عاد إلى الخلف في هدوء ضارباً لها تعظيم سلام ، والباعة فى واجهات المحلات يضحكون .

مرت الست مريم وزهرة من شارع الليثي ، وخطفت العاديات بصر زهرة، كذلك العدد القليل من الرجال والنساء ، الذين يتحركون ببطء ورشاقة بين التحف يعاينونها ويتفرجون عليها . وارتفعت في الجو رائحة " الجملكة " " والأستر " " والكحول والبويات " .

– خلاص . دخلنا الشارع العربي ، ستجدين موبيليا من كل صنف .

ولاحظت زهرة أن أحد الأزقة ، مفروش كله بالأحذية ، من كل لون وصنف على المناضيد العالية والمنخفضة ، والرصيف . ولاحظت زقاقاً آخر طويلاً ، مفروشاً بالملابس القديمة ، ومعلقاً على واجهاته قمصان وجواكت وبلاط قديمة ، ورائحة مكتومة تهل منه ، ودخلتا شارعاً قصيراً ، غير واسع وغير ضيق ، أمام أبوابه مقاعد مرصوصة ، صالونات وأنتريهات خشبية ومكسوة ، ومقاعد خيزران ، وصبية صغار يمشون عليها بالمنافض الريش .

– صباح الخير يا مقدس وليم .

– صباح النور يا ست مريم .

يعرفها بالاسم ، فكرت زهرة ، وأدركت أنه هنا يمكنها أن تجلس قليلاً ، هي محتاجة لذلك ، إذ كادت تصرخ طالبة ترك الحي كله .

المقدس وليم فى حوالي الخمسين ، قصير قوي البنيان ، يرتدي جلباباً بلدياً نظيفاً ، وعلى رأسه طربوش .

– عاش من شافك .

قالت ذلك وهو يقدم كرسيين ، للست مريم وزهرة اللتين جلستا على الفور ، رائحة الأرضية الأسمنتية المرشوشة منذ قليل بالماء ، تصعد إلى أنف زهرة ورائحة البخور التى تأتى من الداخل العميق المظلم للمحل تريح أعصابها ، وظهر صبي صغير ، فقال له الرجل :

– هات بسرعة " سطل " خروب .

ومشى المقدس وليم ، على أماكن بعينها في الحائط ، فأضاء المحل الكبير الطويل بالنور ، ولمعت فى زواياه الدواليب والأسرَّة والمناضد والمقاعد وغيرها من الأثاث . وسألته الست مريم .

– إيه الأخبار يا مقدس ؟

– أخبار وحشة . الحرب قامت والدنيا ولعت .

– الحرب قامت أمس فقط يا مقدس .

صار لنا شهور في رعب ، والإنجليز السكرانين طفشوا الزبائن ، والله فكرت أبيع المحل لواحد مغربي أو يوناني . لماذا نذهب بعيداً . أمس بالليل العيال الصيَّاع مسكوا ثلاثة انجليز سكرانين ضربوهم وسرقوا فلوسهم ، جاءت أورطة بوليس من كوم الدكة ، سحبوا الناس على المديرية وضربوهم على قفاهم لما عموهم – وضحك – أنا كنت هناك . رحت

المديرية لأنهم قبضوا على عامل عندي . غاظني عسكري هندي واقف يقول للمخبرين المصريين وهم يضربون الناس " آجين و آجين " يعـ ـنى كمـ ـان . تصوري هندي . كنت عايز أقول له إن غاندي نفسه دايخ مـ ـن الجـ ـوع علشان اللى زيه يبقى بني آدم مش عميل انجليزي ! .

قالت السيدة مريم بطريقة مدربة على سماع هذه القصص :

– وبعدين !!

– سابوا الناس طبعاً .. العيال الصَّياع فص ملح وذاب .

قالت زهرة :

–كل واحد له يوم .

تأملها المقدس وليم وقال :

–انت بنت حلال .

ومرت أمامهم امرأة عجوز ملأت وجهها بالأصباغ ، وصبغت شعرها باللون الأصفر الفاقع ، تحمل حقيبة جلدية حمراء رخيصة ، وترتدى تحـ ـت الجوب القصير ، شراباً أحمر طويلاً خفيفاً تظهـ ـر تحتـ ـه عـ ـروق سـ ـاقها الخضراء . انكمشت زهرة في نفسها . وقال المقدس وليم " مسـ ـير الـ ـبر يتطهر "ولم تستطع الست مريم أن تخبر زهرة أنه هنا ، خلف الشوارع الـ ـتي مشينا فيها ، وفي الأزقة الضيقة – تمارس كثير من النساء الدعارة . لابـ ـد أن زهرة قد فهمت ذلك وحدها . لكن زهرة كانت بدأت تشعر بألم خفيف في ثدييها ، وبقطرات من اللبن تتسرب من حلمتي الثديين ، وتظهران بقعـ ـاً

على جلبابها . لابد أن تعود إلى ابنتها بسرعة . وتشترى بسرعة ما تريـ ـد .
وقالت لها الست مريم (في عودتنا نشترى قماش التنجيد والقطـ ـن . غـ ـداً
يكون عندك فرش عروسة . مبروك عليك يا زهرة) لكن زهرة التي كانت
في حاجة إلى السعادة بالفعل ، كانت تشعر بكثير من الضيق والخوف مـ ـن
المدينة .

***

" أريد رجلاً عاقلاً كي أشاوره فى

إحدى المشكلات ...

– ما في مدينتنا عاقل قط سوى

هذا المجنون "

-6-

هل كان الإسكندر يعلم أنه لا يقيم مدينة تحمل اسمه خالداً في الزمان وإنما يقيم عالماً بأسره وتاريخاً كاملاً ؟ أغلب الظن أنه كان يعرف . هو لم يكن معيناً بالخلود فقط ، وإنما بتغيير الدنيا .

المسافة من جزيرة فاروس (الأنفوشي حاليا) إلى راقودة (كرموز الآن) يقطعها السائر على قدميه في نحو ساعة . ولابد أنه كان يستغرق الوقت نفسه قديماً لأنه لم تكن هناك مبان يدور حولها . كانت الأرض مسطحاً من رمال ، لذلك حين وقف الإسكندر بفرسه في راقودة رأى آخر نقطة في البحر ، فاروس ، فقرر أن يصل بينهما ، ومات قبل أن يتم ذلك . لقد كان بطليموس الأول ، وخلفه الثاني ، هما اللذان أنجزا بناء الإسكندرية . وضع الإسكندر حجر أساس المدينة وأوكل مهمة تخطيطها إلى دينوكراتيس البارع في الهندسة ، فخططها مثل رقعة من الشطرنج . شوارع مستقيمة . لماذا حقاً جعلها مثل رقعة الشطرنج ؟ هل كان يقصد أن تكون مسرحاً للعب والموت ؟ . لقد كان أهلها فى زمن أغسطس ، بعد موت كليوباترا وأنطونيو ، ثلاثمائة ألف من الأحرار ، ومثلهم من العبيد ، لكن

أهل الإسكندرية كانوا مغرمين بمصارعة الديكة ، والتندر بالشعر على الحكام ، لذلك حين دخلها نابليون بونابرت ، لم يكونوا يتجاوزون الثمانية آلاف !! .

الإسكندرية منذ ذلك الوقت تجرى أمام الوقت! تتسع . تزدحم . يدخل رقعتها الغرباء من كل المسالك . صارت ميناءً حقيقياً . قامت القصور في الفضاء الذي بين رأس التين وأبي العباس ، وحفر محمد على ترعة المحمودية ، ورسم المهندس اليهودي " منشَّى " خارطة تطوير المدينة ، الذي لم يتوقف في عصر أبناء محمد على ، إبراهيم وسعيد و إسماعيل ، ولما كثر الأجانب خرجوا إلى فضاء الرمل شرقاً ، اشتروه ، وبنوا فيه القصور والمنازل الباذخة ، قامت فوق البحيرات الصغيرة ، جنوب وشرق المدينة ، قرى ريفية بالرمل والسيوف والمندرة والحضرة ، تآكلت بعد ذلك بدورها ، وصارت أحياء مزدحمة ، بالوافدين الفقراء من شمال وجنوب البلاد .

ولكن المدينة ظلت تتقدم ، احتل الغرباء ، الأجانب شمالها ، واحتل الفقراء جنوبها ، وحين قامت سكة حديد ترام الرمل ، ازداد العمران شرقاً بشمال ، كما كانت السكة الحديد ، بينها وبين القاهرة ، طريقاً سهلاً للضائعين ، والباحثين عن الثروة من الدلتا والصعيد .

بين الأجانب مئات وآلاف من شذاذ الآفاق يأتون إلى المدينة العالمية حتى صارت كبرج بابل ، ومن أهل البلاد آلاف من الضائعين مثل مجد الدين سبقوه إليها وسوف يلحقون به .

لم يعد الشمال كافياً للأجانب فزحف فقراؤهم ، من اليونانيين واليهود والطليان والقبارصة ، إلى بعض الأحياء الشعبية كالعطارين واللبان ، واقتربوا واختلطوا بأهل البلاد الذين يستوطنون الجنوب ، وها هو مجد الدين يصل الإسكندرية وهي تقف على قمة العالم . لقد أضيف للغرباء من اوروبا ، الجنود من أوروبا وسائر دول الكومنولث ، وهو الفلاح المطرود ..!

لايزال مجد الدين يخرج من بيته كل صباح ، باحثاً عن عمل وسط عالم يغلي فوق بركان . أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا بعد يومين من هجوم الألمان على بولندا ، وتم تأليف وزارة حرب تولى فيها تشرشل وزارة البحرية ، وأعلنت فرنسا بدورها الحرب على ألمانيا . والملك الصغير ، فاروق ، الذي لم يصل إلى العشرين بعد ، لا يزال يتنقل بين قصري رأس التين والمنتزه ، ولا يزال الوزراء في مقرهم الصيفي ببولكي حتى اضطر أحد قراء جريدة الأهرام أن يوجه نداء للملك والوزراء بالعودة إلى القاهرة ، لأن موظفي الدولة ، ابتداء من وكلاء الوزراء ، حتى أصغر موظف في الدواوين الحكومية ، لا يستطيعون أخذ أى قرار ، فتعطلت مصالح الناس في " زمن صعب " على حد تعبيره .

في الإسكندرية قدم سفير ألمانيا إلى صاحب الدولة على ماهر باشا ، خطاباً يعلن فيه أن حكومة ألمانيا لا تريد لمصر إلا كل الخير ، إلا أن حالة الطوارئ أعلنت في مصر كلها ، وانتشرت بالإسكندرية قوات البوليس ، وبلوك النظام ، " ربما أيضاً لأن الملكة فريدة ، احتفلت بعيد ميلادها ، في الخامس من سبتمبر ، في قصر رأس التين ، الذي توافد عليه كبار رجال

الدولة " . وتم توزيع المنشورات والملصقات ، في كل أرجاء البلاد باللغتين الفرنسية والعربية ، تعلن للناس حالة الطوارئ ، وجاءت الأخبار عن استمرار الاضطرابات والمناوشات بين العرب واليهود في فلسطين ، بعد أن تمكن البوليس من القبض على ألف يهودي ، من الذين أرسلتهم السفينة ، التي كانت تحمل ألفاً ومائتين سراً إلى الساحل ، وأعلن رئيس وزراء مصر ، أن حياد إيطاليا هو الذي يبعد الخطر عن مصر، فأعلن وزير إيطاليا المفوض فى مصر، تأكيد صداقة حكومته لمصر ، وشعبها ، وانقسم الناس بين مؤيد لدخول الحرب مع انجلترا ومعارض لها ، بين مشجع لإنجلترا وحليفتها فرنسا ، ومشجع لألمانيا وهتلر الداهية ،وأعلنت الدولة المصرية أنها ستوفى بتعهدات معاهدة 1936 لإنجلترا ، ولكنها لن تشترك بجيشها في الحرب ، ولم يمنع ذلك الملك ، من إصدار مرسوم ملكي بتكوين جيش مرابط جديد ، يكون قائده عبد الرحمن بك عزام وزير الأوقاف وتكون مهمة هذا الجيش حماية المنشآت في السلم والحرب ، ودعم الجيش الأساسي بالمؤن والعتاد في الحرب ، والمشاركة معه ، إذا اقتضت الحال . وجاء في مرسوم إنشاء هذا الجيش الذي اعتبر الملك قائده الأعلى ، أنه يتكون من الذين بلغوا سن التجنيد ، ولم يقبلوا بسبب عاهة خلقية أو مرضية .

لقد أثار دهشة الناس تكوين هذا الجيش المشوه وخضوعه لوزارة عملها البر والإحسان . ورغم اليقين بابتعاد الحرب عن مصر ، بدأ الحديث عن الغلاء يزداد وانخفضت الأسعار في البورصة ، وبدأت فترة رواج للتجارة مع المعسكرات الإنجليزية . لكن الناس ظلت تعيش حياتها ، فالملك والوزراء ما لبثوا أن عادوا إلى القاهرة ، وفي الإسكندرية ظل الإقبال على

ورق يانصيب مؤسسة المواساة ، وازدحم المشاهدون أمام سينما الكوزمو ، ليشاهدوا تشارلز لوتون ومورين أوهارا في فيلم " أحدب نوتردام " ، وتم وضع الملاجئ تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية بالاتفاق مع بلدية الإسكندرية ، وأعلنت ببا عز الدين أنها ستقدم في الصيف القادم أيضاً عروضها بالإسكندرية ، على مسرح ديانا بمحطة الرمل ، واستضاف كازينو الشاطبي فرقة من الآنسات اللبنانيات ، لتقديم رقصة الدبكة ، في الحفل السنوى للجمعية الخيرية المارونية ، وامتلأت المينا الشرقية بالسفن الحربية والبحرية ، وأقيمت معسكرات في مناطق مصطفى كامل وسيدى بشر .

وشهدت نسمة العصاري عربات الحنطور ، وهى تحمل الجنود وبنات الليل السكندريات ، والوطنيات واليونانيات واليهوديات والأرمنيات وغيرهن ، وهن يتترهن على الكورنيش . لم يكن جنود الإمبراطورية يتوغلون كثيراً فى المدينة . كانت النساء هن اللاتي يأتين إليهم . وامتلأت الخمارات الكبيرة والصغيرة ، الغنية على الكورنيش ، والفقيرة في ازقة بحرى والمنشية بالجنود الاستراليين والنيوزيلنديين والهنود الذين اختلطوا مع قباطنة السفن وبحارتها وعمال الوقود الأقوياء والقوادين الذين يعرفون الطرق المظلمة الضيقة العفنة إلى البيوت النخرة التي تقشر بلاطها وسكنت سقوفها الخشبية الفئران وعلى مداخلها جلست العجائز ذوات الشعر الأحمر يدخن النارجيلة ويسمحن للزبون للمرور بعد أن يعاين الفتيات الصغيرات ، اليهوديات والأرمنيات والسكندريات أيضاً ، اللاتي ينسكب الضوء الأبيض من لحمهن اللامع من وراء غلالات قمصان النوم القصيرة البائسة . بيوت بحرى المفتوحة على الميناء أو القائمة خلف شارع التتويج ، وبيوت العطارين

المختفية خلف المحلات ، أو بيوت الفراهد وباب الكراستة أو " كوم الناضورة " ، التل الذي أقامه " كافريللى " مهندس نابليون ذات يوم ليكون إحدى نقاط الدفاع عن المدينة !

***

كل صباح ، مبكرا للغاية ، يرى مجد الدين اكثر من ترام يقف في دوران سيدى كريم ، الناس يصعدون إليه ويجلسون في صمت ينظرون من خلف زجاج النوافذ المغبشة بالندى الساقط عليها عند الفجر . كان مجد الدين لا يستطيع أن يمنع التفاتة منه إلى قسم البوليس الذي يتربع في نهاية الدوران ويقرأ لافتته كل صباح . " نقطة بوليس غيط العنب " . لماذا لا يستطيع أن يكف عن ذلك ؟ لا يدرى .

كان هناك كثيرون لا يركبون الترام . يأخذون طريقهم صاعدين المنحدر الصغير عابرين الكوبري . يتخلف منهم عدد أمام وابور الطحين ، كما سبق وتخلف عدد أمام الوابور الموجود بشارع اللبان ، ويستمر الآخرون في طريقهم الذي عرفه مجد الدين ، يتوزعون على شاطئ المحمودية . من الجنوب يذهبون شرقاً إلى شركة غزل ونسيج محرم بك ، ومن الشمال يتوزعون شرقاً وغرباً إلى معامل الثلج ، أو الزيوت ، أو شركة الغزل الأهلية بكرموز ، وسيمشي مجد الدين غرباً كثيراً بعد ذلك ، ويعمل في شركات زيوت وصابون وكُسْب ومخازن حتى يصل إلى ميناء البصل ليعمل في شركات محالج وكبس القطن . ذلك كله سيكون فيما بعد . الآن

هو لا يعرف شيئاً عن هذه المصانع الكائنة بكفر عشري وميناالبصل . هو الآن محصور بين راغب وكرموز .

لم يحب أن يقف للعمل في وابور الطحين ، الأول أو الثاني . ماذا يمكن أن يعمل في وابور الطحين وهو الفلاح المزارع ؟ وماذا يمكن أن يعمل في غيره ؟ لابد أنه فقط يريد أن يعمل فى مكان بعيد عن البيت . ولا يزال يصر على الخروج مرتدياً جلباباً جديداً نظيفاً وجزمة أجلسيه لامعة كان يحتفظ بها دائماً للسفر .

في ترعة المحمودية يشاهد أكثر من سفينة تبحر على مهل ، داخلة إلى الميناء أو عائدة إلى الجنوب ، كما يتوقف أكثر من صندل بعيداً خاصة أمام الشركات . هناك دائماً معدية مركونة إلى الشاطئ القريب من الكوبري ، تعمل حين ينفتح الكوبري للسفن فتنقل هى الناس من الجهتين ، نادراً ما يشاهد نساء في الصباح الباكر . كل صباح يداخله فجأة يقين بأنه سيقابل أحداً يعرفه ، ولا يقابل أحداً . والحقيقة أنه يتمني لو حدث ذلك .

إنه يحتاج إلى أحد يأخذ بيده في هذه المدينة . البهي لم يعد يصلح لشيء ، يمضى اليوم على المقهى . أما كيف يعيش ومن أين يحصل على المال فهذا مالا يصدقه مجد الدين . قال البهي في غيط العنب أكثر من مائة شخص من قريتهم ، يعرفهم هو واحداً واحداً ، ويعرف لماذا تركوا القرية إلى الإسكندرية ، أى فضائح ارتكبوها قبل رحيلهم ، وأنه فرض عليهم إتاوة بواقع خمسة قروش يدفعها الواحد منهم له كل شهر .

وهكذا يفوز بخمسة جنيهات ، منذ شهرين تمردوا عليه ، ذهبوا إلى نقطة البوليس واشتكوه للمأمور ، الذي نظر إليه غير مصدق أن مائة شخص يخشون هذا الوقف أمامه . طردهم المأمور ، وخارج النقطة قرر البهي أن يدفع كل منهم عشرة قروش ، والآن صاروا عزوته ، وهو يريد أن يقودهم لهزيمة أبناء قبلي . يتذكر مجد الدين كلام البهي ولا يصدق ، ويظل يستمع لنداء أحد يعرفه ولا يتحقق النداء ، وتتعدد الصباحات ، والبحث عن العمل ، كل يوم يرى الناس حفاة عراة الرؤوس ، أولئك الذي يمشون أو يهرولون معه يبحثون عن عمل وكل يوم يلاحظ أن شاباً بعينه يتعمد أن يقترب منه ، يبدو تائها لا تستقر حدقتاه على حال ، تدور عيناه بشكل لم يسبق لمجد الدين أن رآه ، وعندما تكلم وقال " كن يوم عنى دانخان " أدرك مجد الدين أنه أخنف أيضاً ، وعادة يبدو غاضباً للحظة حين لا يفوز بعمل ثم يبتسم ويبدأ يهرول مع الباقين ، ولكنه يقترب قاصداً مجد الدين الذي للحظة فكر أن عدم اختياره للعمل هو بسبب وقوف هذا النصف المعتوه جواره ، لكنه يعرف أن هؤلاء أولاد الله المباركين فاستغفر الله العظيم . ينحرف إلى اليسار لأن الأغلبية تنحرف بعد عبور الكوبري إلى اليسار .يتوقف مع المتوقفين أمام باب معدني كبير لأحد المصانع .

– ما نوع الشغل هنا .

– ثلج .

– وماذا نفعل في الثلج ؟

– نقوم برصه أو نقله إلى العربات الثلاجات التي تقوم بتوزيعه ، هذا المصنع سيغلق الشهر القادم ، إنه لا يعمل في الشتاء .

يخرج أحد العاملين بالمصنع، ينظر إلى زحام طالبي العمل ، يختار عدداً قليلاً ليس من بينهم مجد الدين . لاحظ مجد الدين أن معظم الباحثين ع ن عمل مؤقت ممزقو الثياب ، فضلاً عن حفائهم ، فأدرك أن العمل شـ حيح للغاية ، لذلك لم يشأ أن يغير جلبابه وحذاءه اللامع . لن يظهر بمظهـ ر رث أبداً . وحين يجد عملاً سيشترى الملابس المناسبة جديدة . لقد أخذت زهرة معها ثلاثين جنيهاً كان يدخرها خلال الأعوام السابقة صرفت منها عشرين الآن ، اشترت كل الأثاث المطلوب . كان مجد الدين يتألم لتـ دافع راغـ بي العمل بقسوة وجهالة ، حين يطلب مندوب الشركة خمسة منهم أو عـ دداً أقل . وكان يتخير مكاناً بعيداً إلى الوراء . أمام باب شركة الغزل الأهلية ، الباب المعدني الأخضر الكبير . وقف مع الواقفين كل يوم . خرج الرجـ ل الأسود الذي يخرج كل يوم يختار العمال ، اختاره وقال بصوت واثق:

– انت . تعال .

تقدم مجد الدين منه . ابتسم له الرجل وقال :

– من الغد سأعطيك عملاً ... عليك بالحضور ببنطلون وسترة .

ووجد عملاً بالشركة في دحرجة بالات القطن من العربات التي تنقلها من المحالج حتى بداية عنابر ماكينات الغزل . لكن العمل لم يدم أكثـ ر مـ ن ثلاثة أيام ، ثم عاد للبطالة والجرى مع الآخرين ، يبدأ جريهم من السـ اعة السادسة لينتهي فى الثامنة . يكونون قد مروا على كل الشركات الواقعـ ة

على ضفة المحمودية الشمالية ، شركات الزيوت والصابون والثلج والغزل ، وعرضوا قوتهم على الصنادل والسفن الراسية على مسافات متباعدة ، قادمة من الصعيد تفرغ شحناتها من القصب والفول والقطن والحبوب والبلاليص والقلل . عادة يكون هناك مقاول له أنفار يأتون معه هم الذين يفوزون بالعمل لتفريغ السفن . إذا لحق مجد الدين أو أحد من زملائه بالعمل يكون اليوم بعشرة قروش .في الثامنة ، يتقدم مغالباً حزنه إلى المقهى المجاور للكوبري ، ويجلس طالباً كوباً من الشاي .

بعد لحظات يتشجع وينهض يشتري جريدة الأهرام ، من الولد الصغير الذي يبيع الصحف أمام المقهى فوق صندوق خشبي صغير ، دائماً يكون في المقهى وحده ، ويظل يسمع صوتاً يناديه ، ويخيل إليه أنه سيقابل أحداً يعرفه ، حتى جاء يوم تناوله الجريدة وقدم جنيهاً كاملاً للولد البائع الذي اعتذر عن عدم وجود فكة معه . تحير مجد الدين وترك الجريدة لكن الولد الذي صار يعرفه ، طلب منه أن يقرأ الجريدة بالمقهى ثم يعيدها . جلس مجد الدين يقرأ أو يتأكد من أن الدنيا شديدة الزحام . البدء في توزيع أكياس الرمال من قبل مصلحة الدفاع المدني على المستشفيات والمنشآت العامة .

إعلانات عن ساعات ماركة لو نجيت ، زينيت ، فولكان ، سهرة الراديو مع فتحية أحمد وفرقتها . قبلها في الثامنة والنصف تستمع إلى مونولوجات فكاهية لحسين المليجي ونعمات المليجي وقبلها في السابعة ما تيسر من سورة الحج بصوت طه الفشني ، والملكة إليا صابات تصل إلى محطة إيتسون قادمة من بالمورالى في طريقها إلى مقر باكنجهام ،وارسو تختفي

من الوجود خمسة ملايين بولندي على الأقل راحوا ضحية الحرب في خلال شهر واحد . المدافع الجبارة التي لم يرها العالم من قبل تهدم وارسو . ويقول لنفسه : دنيا شديدة الزحام يا مجد الدين فإلى أين أنت ذاهب ؟ينهض ليعيد الجريدة للولد فيراه قد حمل الصحف وأطلق ساقيه للريح ؟ يتابعه مدهوشاً فإذا بشرطي يمسك به من ذراعه وهو يقول " وكمان بتقرأ الجورنال " ويدخل شرطيان آخران المقهى يمسكان بشخصين جالسين ويساق الجميع إلى عربة شرطة مغلقة ، ومخصصة أساساً لنقل المجرمين بين السجون أو المحاكم .و تسقط الصحيفة من يده ، ويصعد إلى العربة " البوكس " التي فوق الكوبري . يشاهد عربة تسد شارع راغب، وأخريين تسدان الطريق المحاذي لترعة المحمودية من الجهتين .

يضطر الناس إذن إلى العبور على الكوبري فتتلقفهم الأخيرة ، ومن يبدي مقاومة يشبعه الجنود ضرباً على قفاه ، وركلاً في أى مكان .

***

فى تخشيبة نقطة بوليس غيط العنب ، تم حشر أكثر من عشرين شخصاً قبض عليهم في الصباح بينهم مجد الدين لأول مرة في حياته، وقبل أن يفكر في أي شيء وجد الشاب نصف المعتوه جالساً أمامه مع الجالسين ، وقد استقرت عيناه عليه فى ابتسامته اللانهائية ، فابتعد عنه بعينيه إلى الجدران الصفراء التي يراها من خلال أسياخ التخشيبة العالية السوداء التي تشكل جداراً نصف دائري حولهم تتباعد أسياخه لمسافات قليلة كنوافذ السجون .

مبنى النقطة دائري يفتح بابه الرئيسي على دوران الترام ، حوائط ـه صفراء عالية ، وبالداخل يجلس أومباشي كثيف الحاجبين ، خلفه طاولة من الخشب الأسود القديم ، وثلاثة جنود لا يكفون عن الحرك ـة ،وفي رك ـن بنادق معلقة على الحائط ، وفي ركن آخر باب مغلق يفضي إلى غرفة المأمور ، الأومباشي يركز نظره على مجد الدين ، ثم يأمر أحد الجنود أن يفتح ا ـه باب التخشيبة ، ويشير إليه أن يتقدم نحوه .

– ما اسمك .

– مجد الدين خليل سليمان .

– شكلك مختلف عن الصيَّاع يا مجد الدين ، لماذا لا تحمل معك بطاقة شخصية .

– أنا نسيت البطاقة في البلد ؟

– بلد ... أى بلد ؟

– بلدنا .... أنا وصلت إسكندرية من أيام فقط .

– أنت فلاح .

– أجل .

– زيارة أم إقامة دائمة ؟

– إقامة بإذن الله .

– طيب معك خمسة قروش ؟. كل من يدفع للحكومة خمسة قروش يخرج .

– معي ..... لم يطلب مني أحد شيئاً .

وهكذا قال مجد الدين كأنه يتنفس الصعداء ، مد يده في جيب صداره تحت الجلباب ، وأخرج الجنيه الذي معه وقدمه للأومباشي . كانت الساعة قد دخلت في الثانية ظهراً . مضت ست ساعات وهو محشور في التخشيبة صامتاً مع المحبوسين . قال الاومباشي إنه لا يملك " فكة الجنيه " ، وأرسل أحد الجنود " ليفك " من كمسارية الترام ووجد الأومباشي مجد الدين لا يتحرك فسأله :

– لماذا لا تعود إلى التخشيبة ؟ خائف على الجنيه .

وجد مجد الدين نفيه يقول :

– لا . لكن هذا الولد المسكين الأبله ، لماذا يبقى معنا ؟

تأمله الأومباشي لحظة ثم ابتسم وقال :

– سنأخذ منك عشرة قروش إذن ونخرجه مادمت تريد ذلك .

وقام من خلف مكتبه إلى التخشيبة وسحب من بين الجالسين الولد الأبله الذي ظل ينظر إلى مجد الدين بابتسامته اللانهائية ويلوى عنقه يتابع النظر إليه حتى خرج من النقطة ، وعاد مجد الدين يجلس بين المحبوسين الذين أغلق عليهم الاومباشي الباب بالقفل هذه المرة .

– أخذ منك جنيه ؟

– لأ. طلب خمسة صاغ . الجنيه ليفكه ويعطني الباقي .

– إذن معك خمسة صاغ ؟

– طبعاً معي جنيه كما رأيت .

– هل تصدق أننا جميعاً محبوسون من أجل خمسة صاغ . من أيام صدقي باشا وأي واحد يمشي بدون بطاقة يدفع خمسة صاغ غرامة . لو فيه خمسة صاغ مع أي واحد هنا لم يكن قد خرج للعمل . أي والله . وأنت تبحث عن عمل ومعك جنيه .

اندهش مجد الدين من كلام محدثه . فكر للحظة أن يدفع الجنيه لهم جميعاً ثم عدل عن الفكرة . إنه يحتاج إلى كل مليم الآن . قال :

– وكيف سيخرجون ؟

مثل كل مرة في المساء يأتي شيخ الحارة يستدل علينا ويضمّنا ونخرج .

وحط صمت من جديد . تأخر العسكري ، وجلس مجد الدين القرفصاء واضعاً مرفقيه على ركبتيه ، وأراح رأسه بين كفيه . البهي هو الوحيد الذي يمكن أن يخلصه من هذه الورطة .

بدا بداخله شعور بأن الأومباشي أوعز للعسكري ألا يعود بالجنيه . ماذا يحدث لو حل المساء ولم يعد ؟ كيف سيكون حال زهرة ؟ كعادته في الأزمات سلم أمره لله ، وجلس على مقعدته ، ووجد مكاناً يمد فيه ساقيه ، وأغمض عينيه للحظة ، فوجد نفسه يمشي فوق سطح قطار سريع ، وحوله جنود من كل سحنة ، يتحدثون بكل لغة ، يحملون بنادق كأنها رماح

ويمشون في رمال تغوص فيها أقدامهم فوق سطح عربات القطار ، وفوقه وفوقهم طيور سوداء ضخمة لا يعرف أسماءها .فتح عينيه في دهشة من هذه الرؤيا الخاطفة ، وواجهته أقدام المحبوسين معه الممدودة أمامه أيضاً . أقدام مرتكزة على كعوبها ، ومتساند بعضها على بعض أو متباعدة ، أقدام كبيرة بدت له في البداية أحذية ، ثم تبين أنها أقدام عارية منحوتة من أسفل ، سوداء الباطن كلها عاليها وسافلها . بعض الكعوب بلغ به التشقق أن تهدلت منه شرائح الجلد الناشف المبروم ، تحتاج إلى أصابع تشدها، لكن صاحبها لا يفعل ذلك . أصابع الأقدام لها نتوءات بارزة من أعلى ، أكثر من نتوءين للإصبع الواحد . أظافر سوداء طالت والتوت إلى أسفل فكست الأصابع من الأمام ، تصد عنها غوائل الطريق . ها هي قدم بها أربعة أصابع ، وأخرى بها ست ، الإصبع الصغير السادس متدل من الجانب ، كطفل معلق على جانب أمه يكاد يترلق واقعاً على الأرض . العجيب أن هذا الإصبع السادس نظيف . قدم قريبة تنتهي بلا أصابع . قدم مصمتة مجزوزة بسكين ، تكرمش جلدها الأمامي. قدم مثل مستطيل قديم من الخشب ، رآها مجد الدين مثل فم بلا أسنان !! في كل الأقدام تقريباً، حول بز القدم ، هالة زرقاء أو سوداء أو حمراء .

– هذه الجزمة التي في قدميك ألا تضايقك ؟

فوجئ بالسؤال من الرجل المجاور له ، هل رآه وهو يتأمل الأقدام الحافية ؟ ربما . يريده أن يخلع الحذاء فيسرقه . إنه هو محدثه السابق فيتأمل وجهه جيداً .

وجه متعب بحق . بشرة تميل إلى الاحمرار قليلاً لكـ ن بـ لا نضـ ارة والتدقيق فيها يوضح سوء التغذية والهزال . الوجه نحيل يحمل أنفاً مـ دبباً ، والأنف صغير والفم ، والشارب أشبه بالزغب ، وأعلـ ى الوجـ ـه عينـ ان عسليتان ضيقتان وأعلى الرأس شعر أسود مدرج بمشط واسع ، وبـ دأت شعيرات بيضاء تظهر ، والرجل بشكل عام يحمل عذاباً غامضاً، ولما لم يـ رد مجد الدين استمر الرجل :

رأيتك تنظر بتمعن إلى الأقدام ، الحفاء هنا ليس مجرد فقـ ر ، أحيانـ اً يكون هواية .

اتسعت عينا مجد الدين واستمر الرجل في الحديث :

– تريد أن تعرف كيف يهوى المصريون الحفاء ؟ تعرف إذا خلعـ ت جزمتك . ألا ترتاح إذا خلعت جزمتك ؟

– أرتاح طبعاً .

أجابه مجد الدين باسما فاستمر الرجل :

– إذن هناك من يحب أن يكون مرتاحاً من البداية !

كان الصوت مرتفعاً قليلاً ، فراح بقية المحبوسين يتابعونه ضـ احكين ، واستمر الرجل :

– عندما تدخل بيتاً ليس فيه كراس هل تستطيع الجلوس على الأرض والجزمة في قدميك ، طبعاً لا ، تخلع الجزمة ، نحن بيوتنا كلها بلا كراس،

هنا اضطر مجد الدين أن يضحك مع الآخرين ، الذين جلجلت ضحكاتهم ، فنهرهم الأومباشي ، وتذكر مجد الدين الجنيه ، فنظر إلى الأومباشي الذي صرخ قائلاً أن ينتظر " ابن الكلب العسكرى " واستمر الرجل يتحدث إلى مجد الدين .

– الأهم أن الجزمة تدوب ، ويضطر الإنسان لشراء أخرى. الحافي مرتاح . كل شهر يطلع له جلد جديد في قدميه ، يعنى جزمة جديدة ، لولا الملامة كان الواحد يبيع منها ! طبعاً . اثنتا عشرة جزمة في السنة مجاناً نعمة من الله . الواحد لا يستطيع أن يشترى جزمة واحدة بعشرين قرشاً .

ارتفع الضحك إلى صخب ، وعاد الأومباشي ينهرهم ، وكان مجد الدين قد انجذب تماماً إلى الرجل النحيل صاحب الحديث العجيب . هذا الرجل سيكون صاحبه لوقت طويل . لابد أنه سليقاه فى طريقه كثيراً . ويبدو أنه هو الذي كان يسمع صوته يناديه في كل صباح باكر . لقد أطلت من عيني كليهما دموع أفرزها الضحك البهيج . كذلك بقية المحبوسين .

وحط فوقهم الصمت من جديد ، وسكت كل شيء كأنما هى لحظات خشوع مرسلة من السماء ، ليسمعوا صوت الرجل نفسه الذي كان يحدث مجد الدين ، وهو يتلو بصوت خفيض ، معجباً بالكلمات ، مندهشاً من معانيها الحزينة .

– " يا مجلس إسكندرية طال عليك صبري "

– " أكلمك بالروميكا ، ولا بالعبري ؟ "

– " تاخذ فلوس الناس تبعثر فيها على الكوبري "

– " بدل ما تاخد فلوس الناس تعال خد ... "

ولم يقل الكلمة التى توقعها الجميع .. سكت فانقشع الصمت بطلقات الضحك التي زلزلت أركان النقطة . وهاج الأومباشي ، وفزع عدد م ن العساكر وتراخى الضحك إلى ما يشبه الحشرجة .

لكن ثلاثة عساكر اندفعوا إلى الداخل مفزوعين ، يمسك كل منهم في يده الحزام الجلدي العريض الذي كان قد خلعه من بنطلونه . بدا أنهم كانوا في معركة وخسروها . هتف الأومباشي فيهم :

– مالك يا عسكري انت وهو .

– معركة كبيرة يا حضرة الأومباشي في شارع اللبان ؟

– مسلمين ومسيحيين ؟

– لا الصعايدة والفلاحين .؟

– اضطرب قلب مجد الدين ، واستمر الأومباشي يحدث العسـ ـكرى المفزوع :

– الفلاحون ليس لهم في العراك ، بعد قليل تنتهي بسلام .

– لا .. هذه المرة لا ، البهي خليل عامل زعيم ، وحـ ـالف ليكسـ ـر شوكة الصعايدة .

– هناك إصابات يا عسكري ؟

– كتير .

كاد مجد الدين ينهار حين سمع اسم البهي . أمر الأومباشي العسكري أن يجمع بقية زملائه من غرفتهم الملحقة خلف النقطة ويحملوا السـ ـلاح ، وبدوره راح يدق التليفون طالباً مديرية الأمن . تحدث طالباً قوة من جنود بلوك النظام، ثم وقف وتقدم من التخشيبة وفتح بابها صارخاً :

– هيا اخرجوا ، القيامة قامت يا ولاد الكلب ...

كان أسرعهم إلى الطريق مجد الدين .

" من كل بلد لبلد
فردت قلعي بقماشي
الريح ليه معاكساني
غريب وصابح ماشي "

-7-

شارع اللبان صار خالياً إلا من جنود البوليس ، حضرت قـ ـوة مـ ـن بلوك النظام على عجل وأخذت مواقعها على الجانبين بالخيزرانات والدروع ، عربة بوكس كبيرة تقف مكتظة بالفلاحين والصعايدة معـ ـاً ، ولا يـ ـزال الجنود يطاردون المتشاجرين فى الأزقة ، ويعودون ببعضـ ـهم يقذفونـ ـه إلى

العربة البوكس . النساء يتطلعن من خلف النوافذ . الرجال والشباب الصبية يقفون في فوهات الأبواب. صوت سيارة إسعاف تأتي من ناحية كرموز . امرأة تجلس منهارة فوق الأرض جوار البهي تبكي في صمت ، حافية ممزقة ثيابها السوداء ، منكوشة الشعر ذاهلة العينين ، لكنها تبكي كالعقلاء ، وأخرى ، شابة ، تقف منتحبة في صمت أيضاً في أحضان مجد الدين ، الذي راح يربت على ظهرها ، وعيناه لاتفارقان وجه أخيه الجميل الذي يغطيه الدم، ومازالت عيناه مفتوحتين ، إنه ينظر إلى مجد الدين . في عينيه أسف وخوف على مصيره . في عينيه اعتذار للأخ الصغير .

– ادخلي يا زهرة إلى البيت .

كان واضحاً أن الضربة شجت رأس البهي من الخلف ، لا فائدة ، جرت المعركة امام البيت تماماً كأن البهي كان يريد لأحد أن يراه وهو يقاتل . لم يصدق أحد قصصه القديمة، مجد الدين فقط كان يصدقه دائماً . ما كان عليه أن يحارب أحد اليوم . تقدم مجد الدين ، وجلس واضعاً رأس أخيه على فخذه ، وراح يهتز بألم لم يعرفه أحد من العالمين .

اقترب منه رجال الإسعاف ، ضابط بوليس شاب أصاب المرأة المقعية جوار الجثة ، والتي لم يفطن إليها مجد الدين بعد ، رعبا من الضابط قامت جافلة ومشت مسرعة .

– من هذه المرأة ؟ تعرفونها ؟

سأل الضباط أحد الجنود .

– إنها مخبولة تُشاهد دائماً تمشي وراء القتيل .

لم يفهم الضباط شيئاً . اتسعت عينا مجد الدين يفكـ ـر في " بهيـ ـة " .
سأله الضابط :

– تعرف القتيل ؟

– أخي .

– هل تتهم أحداً ؟

لم يرد مجد الدين . قال الضابط الشاب :

– بعد دفن الجثة يمكن لك التقدم للشهادة أو بأى اتهام .

وأشار لرجال الإسعاف ليحملوا الجثة . أخذوها من فوق ساق مجـ ـد الدين الذي لم يستطع القيام ، مد يده للواقف جواره .

– خذ بيدي يا أخي .

كان هو الرجل النحيل الذي صاحبه فى التخشيبة منذ قليل . مد إليه الرجل يده ، فنهض مجد الدين وقال الرجل :

– دميان و اسمي دميان : تماسك يا رجل .

تقدم منهما رجل عرفه دميان :إنه الخواجة ديمتري فلتـ ـاؤوس أحـ ـد المسيحيين المتعلمين في الحي ، والذي يعمل ملاحظاً للعمال في جراج البلدية بالحضرة . لقد سبق لدميان أن طلب منه السعي ، لإلحاقه بأى عمل بالبلدية ، لكن الرجل اعتذر بلطف بعد شهر عجز فيـ ـه أن يجـ ـد عمـ ـلاً . سـ ـأله ديمتري :

– هل تعرفه يا دميان ؟

أجاب دميان الذي سره أن ديمتري لم ينسه :

– أجل ، إنه صديقى !

– إذن اركب معه الإسعاف ، سألحق بكما فى المستشفى الأم يري في تاكسي ، هذا رجل غريب .

كان مجد الدين يسمع ذلك ، وعيناه لا تزالان تتابعان المـ رأة الـ تي كانت جالسة جوار جثة البهي ، إنها " بهية " ولا أحد غيرها ، لقد صـ ارت بعيدة الآن في نهاية الشارع. يا أرحم الراحمين .

***

مشت سيارة الإسعاف حاملة القتيل ، مسجي فوق نقالة في الوسط ، بين مقعدين طويلين يجلس على أحدهما دميان ومجد الدين ، وعلى الآخـ ر رجلا الإسعاف . لم تكن العربة مسرعة ، ولم تدق جرسـ ها الـ ذي يفـ تح الزحام ، لا زحام في الطريق ، وهي أيضاً تحمل ميتاً !

كانت الحركة البطيئة للعربة كحركة جواد هادئ ، وكحركة زورق فوق مياه رقيقة ، يضرب مجد الدين البحر بذراعه ، لا عصا معه ، فينشـ ق الماء عن طريق الحشائش الخضراء فيتهادى الفرس الرقيق ، يضـ رب مجـ د الدين من الغيظ الهواء فيتراح على الجانبين جدارين أملسين أبيضين زجاجيين تتقاطر فوقهما حبات المطر الثلجية اللؤلؤية . دموع بيضاء ودم أبيض وألم ، وهو يمشي وقد طار الهواء من الفراغ . ويتمزق عرقـ اً ، فيخلـ ع جلبابـ ه

وصديريته وفانلته ، ويبقى فقط سرواله الذي التصق به فصارا شيئاً واحداً ، كل شيء يقفز أمامه من الجدران يتدحرج فوق الأرض . نساء جم يلات وبنات أبكار وأحجار وقردة وعجائز متشحات بالسواد ووج ه ألي ف لا يتذكره . رآه وسمعه يناديه كثيراً . تعال . تعال يا مجد الدين فيمشي وراءه إلى أين، لا يعرف ، لا يستطيع العودة ولا الانعتاق من أسر الصوت الحنون ، وتتدحرج أمامه كل الخيالات التي رآها من قبل ، وبينها إخوته القتل ى ، وأبوه الميت ، وأمه العمياء ، وأخواته البنات، وأولاد عمه ، وك ل عائل ة الطوالبة والعمدة ، لكن الجميع أطفال ، والجميع يجرون أمامه يضحكون ، وهو يريد أن يمسك بأحد ، أى أحد منهم ، ولا يستطيع ، الصوت الحنون لا يتركه يعود ، حتى وصل إلى نهاية ، الحافة التي يرتفع منها البحر الأبيض ، ولا يرى فيها إلا أذرعا معذبة ، ويسمع منها أصوات الأنين ، وه و عل ى أطراف أصابعه يكاد ... ، بل وقع بالفعل .

– لا تبك يا رجل ، ستقتل نفسك .

ربت دميان النحيل على كتفه ، وأحاطه بذراعه ، كان مجد الدين قد اندفع في بكاء أليم ، انتهت قصة البهي بيد البهي ، لقد عاد بعد الح رب الأولى ، وبعد أن انشغلت البلاد سنوات بالثورة ، وقال لمجد الدين " قريتنا هذه لا تتحرك ، إنها مثل خنفسة كبيرة لا تغادر جحرها " .

وكان عليه هو أن يحركها من جديد .

كان ظهوره وحده كافياً لإضرام النار . وكان قد ع اد أق وى مم ا ذهب. لوَّحته الشمس وأحرقه البرد معاً ! أصبح يحمل شارباً كثاً ، وص ار

عزوفاً عن الكلام ، وتحت عينيه برزت تجاعيد مبكرة ، وظهرت مسحة ألم لم توجد من قبل .

لم تصدق العائلة أنه كان كل الوقت في جيش السلطة . ومن أين أخذوك ؟ من الطريق ؟ لماذ لم تخبرهم بهويتك ، أصلك وعائلتك فيتركوك ، قلت لهم ولم يتركونى ... لكن أحدا لم يصدقه غير مجد الدين . هناك بعض الناس منذورون للألم العظيم ، أيوب كان منهم ، والبهي الآن ، لذلك اختار البهي أن ينام في غرفة مجد الدين. وبالليل قال له كلاماً كثيراً عن الحرب ، عن السفينة التي شحنوه فيها مع الجنود إلى أوروبا ، عن الخنادق والثلج فوق الجبال ، والقتال على الحدود الفرنسية الألمانية . بلاد لا يعرفها وبرد لا يحتمله ونساء جميلات يأتين للجنود وقت الراحة ، أو يذهب الجنود إليهن في القرى " كنت أخاف يا مجد الدين لكنهن كن يشددنى شداً فهل يحاسبني الله على الأجنبيات أيضاً ؟ وهل أنا الذي ذهب إلى هناك ؟ اسمع . أنا أعرف كلمات انجليزية كثيرة وفرنسية أيضاً . " بون جور " يعنى" صباح الخير " جود مورنينج " يعنى صباح الخير أيضاً " كومنت آلية فو " . يعنى أزيك و " هاو أريو " يعنى أزيك أيضاً " وآدى ما " و" آبيان توت " يعنى إلى اللقاء ، وكذلك " باي باي " و " سي يو "و " سافا بيان " يعنى بخير ، و " فاين " يعنى بخير كذلك ، وبعد سنة انتقلنا إلى فلسطين نحارب الأتراك . الله يسامحنى حاربت مع الإنجليز ضد الأتراك المسلمين لكن غصباً عنى "

ولم يكن الظهور الجديد للبهي كافياً لغلق كتاب الماضي ، ظهوره يعنى وجوده ، يعنى الثأر . اشتعل الجحيم حتى لم يبق من العائلتين غير مجد الدين وخلف البهي لم يكن محسوباً دائماً ، وهذا كان سر ألمه الكبير .

بالطبع كانت هناك الأخوات أيضاً ، والأم بعد موت الأب كم ـداً ، لكن ورث البهي ومجد الدين مساحة كبيرة من أرض العائلة . وكان نصيب مجد الدين ثلاثة أفدنة وكذلك كان للبهي ، الذي باعها سراً ، واختفى من القرية من جديد . البكاء الصامت جعل نور عيني أمه يخبو . إلى هذا الحـ ـد كانت تحبه أمه ولا تبوح . إنها لا تنسى طاقة النور التي خرجت معه . وكان قد عاد من الحرب بلا هالة من نور ، بدا وقد انطفأ فيه كل شيء . كيـ ـف حقا انقلبت حياة الطفل الطاهر إلى ظلام ؟ وكان مجد الدين علـ ـى يقـ ـين بعودته يوماً . كادت الأم تعمى تماماً ، وإذا البهي يقف فجأة وسط الدار . منذ نزوله على المحطة طار الخبر . طيرته أولاً النساء ، ثم حمله الأطفال مـ ـع الهواء ، وقبل ان تترل بنات هادية بأمهم من الدور الثاني، كان البهي يصعد إليها : " يا نور عيني " هتفت وارتمت عليه . لكنه كان جامداً ، قبّل وجهها ويديها في صمت .

في المساء أخبر مجد الدين بالمدينة التي أمضى فيها ذا ـك الوقـ ـت . الإسكندرية البيضاء التي يـ ـأتيها الأجانب من كل الدنيا ، ويرحـ ـل إليهـ ـا أبناء البلاد الفقراء من كل الأرض ، ولم يشأ أن يخبر أحداً بعنوانه . قال إنه سيزورهم بين وقت وآخر ، في الصباح لم يجدوه في البيت ، ودخلت هادية في صمت أكثر جلالاً ، ومجد الدين يشجعها ويحثها على الحفاظ على مـ ـا تبقى فى عينيها من نور . شيئاً فشيئاً استراحت الأم ، فالبهي يظهر بين وقت وآخر مهما طال الوقت بين ظهوره .

ثم لاحظ أهل القرية أن دارا جديدة تبني من الطوب الأحمر المجلـ ـوب من قمائن كفر الزيات . يسأل أهل القرية البناءين عن الـ ـدار وصـ ـاحبها

فيقولون إنهم لا يعرفون شيئاً إلا أنها دار حكومية . والدار كانت تبنى خارج زمام البلد على أرض مهجورة لا يملكها أحد . ثم تلقى العمدة خطاباً رسمياً مختوماً بخاتم المحكمة الشرعية في طنطا ، يطلب منه تقديم التسهيلات ، الا تي سيطلبها منه ممثلو العدالة ، في المحكمة الشرعية الجديدة ، الا تي س تبنى ف القرية ، مع نهاية العام كانت الدار قد تم بناؤها ، والعمدة ينتظ ر بش غف ممثلي العدالة . وحين رفعت لافتة " دار القضاء الشرعي الجديدة " وتحت ها شعار العدل ، والميزان والكف على كتاب الله أدرك أن وقته ق د ج اء ، ليقدم التسهيلات التي يمكن أن يطلبها ممثلو العدالة . ظهر للمحكمة ق اض شرعي وحاجب وكاتب . قدم له الكاتب خطاباً جديداً يطلب فيه منه تقديم خفيرين نظاميين لحراسة المحكمة . وأقام العمدة وليمة عامرة لممثلي العدالة .

كانت الدار من طابق واحد ، ثلاث غرف ومنظ رة ودورة مي اه ، وبدأت المحكمة في تلقى الشكاوى .

كانت الشكوى الأولى من امرأة غير عادية ، خضرة بنت شيخ البلد تشكو ضرب وإهانات زوجها لها .

خضرة من جميلات القرية ، وزوجها هو ابن عمها المرهوب الجانب ، استدعت المحكمة زوجها بين دهشة أهل القرية ، هذه أول مرة في حيات ه ، يسمعون فيها أن امرأة شكت زوجها في المحكمة ، ذلك لم يحدث قط عل ي طول تاريخ القرية . لم يذهب الزوج ، وقرر ألا تعود خضرة إلى البيت حتى لو تنازلت عن شكواها ، أعلنته المحكمة بالحضور مرة ثانية خلال أس بوع عن طريق كاتبها، ولم يمتثل . حكم القاضي بطلاق خضرة .

اهتزت القرية لهذا الحكم الذي لم يعهدوا مثله . اختفى القاضي من المحكمة أسبوعاً ، وظهر البهي يمشي فى أزقة القرية لعدة أيام ثم اختفى . رأى الناس أبا خضرة يمشي منكسراً في الطرقات . كيف حقاً تذهب امرأة تشكو زوجها للحكومة ، أى شجاعة وأى كفر ؟

كان طبيعياً بعد ذلك أن يشدد الرجال على النساء ، حرّموا عليهن مجرد المرور من أمام المحكمة ، مضى عام كامل بلا شكوى واحدة ، ولا حكم واحد ، فاطمأن الناس ، ولأن خضرة اختفت من القرية ، وتزوج زوجها السابق بأحسن منها ، والحقيقة كانت غير ذلك ، بدأت قصة خضرة وزوجها تنتمي إلى الماضي . لكن امرأة أخرى تقدمت بشكوى تطلب فيها إنصافها في ميراثها الذي يستولى عليه زوجها ، فما كان من القاضي إلا أن حكم بعودة ميراثها إليها ، وطلاقها معاً ، لأن الزوج خائن للأمانة الشرعية . اهتزت القرية مرة أخرى ، ثم فوجئ عدد من الرجال ، على مسافات زمنية متباعدة ، باستدعائهم للمحكمة ، كان الواحد يذهب غير مدرك لما ينتظره ، يهجم على زوجته قبل الذهاب ، يضربها لتعترف ما إذا كانت قد تقدمت بشكوى من أى نوع ضده والزوجة المغلوبة على أمرها ، تنكر فعل أي شيء من ذلك . يذهب الزوج إلى المحكمة فيفاجأ بشكوى زوجته ، بل ومعرفة القاضى بتفاصيل حياته الشخصية مع زوجته فينهار ، وينتظر حكم المحكمة ، التي يطلب قاضيها هذه المرة من الزوج ، أن يعود ويحسن معاملة " أهله " . كان الواحد منهم يعود ويطلق زوجته بلا نقاش .. في ثلاثة أعوام تم طلاق عشرين امرأة . والبهي يختفي ثم يعود بين حين وآخر ، راكباً فرساً شهباء ، يمرح بها على حافة الترعة ، وعلى أطراف

الحقول ... لقد انتهت قصة الثأر المؤلمة ، وصار شغل القرية الشاغل هو هذه المحكمة التي زلزلت الأسر والبيوت ، والتي امتد نشاطها إلى القرى المجاورة، خاصة فيما يختص بالمواريث .؟

لقد ظهر أن عشرات من النساء ، ضاعت حقوقهن بسبب الأزواج ، أو الإخوة الأقوياء ، وكانت المحكمة منصفة لهؤلاء المظلومات ، حتى يوم أغبر استدعت فيه المحكمة العمدة ذاته ..

ذهب العمدة وأقصى ما فكر فيه ، أن المحكمة فى حاجة إلى بعض المساعدة في تنفيذ الأحكام ، لكن القاضي لم يستقبله في مكتبه ، بل في قاعة المحكمة الصغيرة ، ولم يسمح له بالجلوس . هو عمدة حقاً ، لكن للمحكمة تقاليدها التي تسرى على الصغير والكبير ، وكان السؤال المفجع للعمدة هو أنه يهين زوجته هى نفسها التي تقدمت بالشكوى ، وأنه لا يعاشرها بالمعروف ولا يعاشرها كما أمر الشرع ، بل يعاشرها من الخلف ! .

من الممكن أن تتخيل العمدة وهو يقفز إلى الفضاء ، وهو يهجم على القاضي والحاجب ، لولا الخفراء الذين ذهبوا في معيته ، ومنعوه أن يرتكب هذا الخطأ . كانوا في دهشة ورعب ، الخبثاء منهم كتموا ابتساماتهم ، ترك العمدة المحكمة ولم يرد على أي سؤال . ركب فرسه وسابق الريح . في منتصف الطريق توقف . الفضاء الواسع حوله ، والزرع الأخضر فوق الأرض ، أعاد إليه الإحساس بالهدوء .... هذه القرية هادئة على مر الزمان . لم يعكرها إلا حوادث الثأر بين الخلايلة والطوالبة ، التي انتهت وصارت ذكرى الآن . ولا يظن أن حوادث مثلها يمكن أن تعود بين أي

عائلتين ، بعد النهاية الأليمة للخلايلة والطوالبة معاً ، ثم هذه المحكمة التي هزت القرية وأظهرت كل موبقاتها . لابد من قتل القاضي هو والكاتب والحاجب وهدم المحكمة .

لابد أن يتصل بالسلطات يطلب فيها نقل المحكمة . هذه محكمة " للشيطان " .. لكن لا يمكن أن تكون زوجته قد فعلت ذلك ؟ لقد حاول أكثر من مرة أن يعاشرها على غير العادة ، لكنها رفست بعنف ، وهو لم يعد إليه . كان شاباً فيه نزق . مستحيل أن تتذكر زوجته ذلك الآن وأن تشكوه .

لحظات ووصل العمدة إلى بيته وقف أمام زوجته يرتعش بالغضب بما يتناثر إلى آلاف من القطع الصغيرة ، سوف يموت إذا لم يفعل شيئاً ، الخفراء الجزم سينشرون الخبر ، لكنها الزوجة الجميلة الغنية بنت الأكابر التي يحبها بحق . وأنهار باكياً أمامها ولم يتكلم ، نام طالباً من الله الموت .

في الصباح نذهب إلى المحكمة ، إذا كانت هناك شكوى قتلنا ابنتنا ويا دار ما دخلت شر .

في الصباح لم يكن هناك أحد بالمحكمة . كانت مفتوحة الأبواب تجرى بينها الريح . حتى اللافتة التى فوقها كانت مخلوعة وملقاة على الأرض بإهمال . في الظهيرة كان هناك رجال البوليس من المديرية . وامتلأت القرية بالضحك والبكاء . لم تكن المحكمة حقيقة ، هى مجرد حيلة ابتدعها شيطان لخراب القرية . ونامت القرية على السؤال من يا ترى يكون هذا الشيطان؟

قال الناس إن " الحكومة عرجاء لكن تصيب الغزال " . واستطاع رجال البوليس الوصول إلى أول امرأة اتجهت إلى المحكمة . إلى خضرة التي اختفت من القرية بعد طلاقها . وجدوها في طنطا تعيش مع البهي ، الذي صار يوزع وقته بينها وبين القرية . وقالت إنها حاولت كثيراً منعه من الاستمرار ، لكنه كان قد صمم على خراب بيوت الناس كلها في البلد .

قاطع الناس بيت مجد الدين وأهله بعض الوقت ، لكن لعلم مجد الدين بالقرآن وورعه ، ولماضي البهي ، عاد الود بين الناس وبين مجد الدين ، وصار البهي ذكرى فى سجنه بطنطا ، ولم يعرف أحد أنه حين خرج من السجن اتجه للإسكندرية غير مجد الدين ، ولم يعرف أحد شيئاً عن خضرة أبداً . " يعنى هي حاتفوت منها . زمان أبوها قتلها والاّ أخواتها " . تعليق كل من يذكر اسمها أمامه ، مضت سنوات بعد ذلك لم يظهر فيها البهي بالقرية ، صار نسياً منسياً ، العمدة تذكره فجأة، هو الذي يستطيع أن يبحث عنه في كل البلاد ، ولما فكر في شيء يفعله ، طرد مجد الدين من البلدة ،وحتى لا يتذكر الناس الإساءة التي لحقت به قال إن الطرد بحجة الثأر ، وطرد معه خلف آخر من تبقى من الطوالبة . لكن الناس في القرية ، عادوا يذكرون بقوة ما فعله البهي بالعمدة ويضحكون في سرهم ، ها هو البهي مسجى أمام أخيه ، بلا حيلة ولا قوة ،ولا طيش ولا ضعف ، اختار موته بيده في المدينة التي قال عنها إنها بيضاء .

" ونجنا كلنا من الغلاء والوباء والزلازل
والغرق والحريق وسبي البربر ومن
سيف الغريب ومن قيام الهراطقة "

" كيرياليسون "

-8-

عامود السواري هو اسم العامود الكبير الذي أقامه أهل الإسكندرية تخليداً لذكرى الإمبراطور الروماني دقلديانوس . قدموه إيه هدية وتقـ ـديراً

للرخاء الذي شاع بينهم .؟ نسوا أن دقلديانوس هو أكبر من عذبهم ، وعذب المسيحيين بوجه عام في مصر وفلسطين .

عامود السواري يتوسط منطقة راقوده، في منتصف شارع كرموز تقريباً ، يفصله عن الشارع سور كبير يحيط بالمنطقة الأثرية كلها . على يسار آثار كوم الشقافة هذه ، مدافن المسلمين التي تشغل مساحة كبيرة من شارع كرموز إلى شارع الرحمة . هذه المدافن تسمى مدافن العامود نسبة إلى عامود السواري ، وهى تنتهي شمالاً على شارع المدرسة التليانية الضيق الهادئ الذي نادراً ما يفطن إليه المارة أو العربات ، لذلك يشهد كل مساء أعداداً من العشاق ، يستغلون الظلام فيتبادلون الغرام ، أحياناً يوغل بعضهم في الحب غير خائف .

خلف عامود السواري يمتد جبل كوم الشقافة ، حيث تسكن بعض العائلات النوبية ، وبعض من قبائل الغجر ، يبيع النوبيون عادة ، الفول السوداني واللب في قراطيس في الشوارع ، ويخرج الغجر فى رحلات قصيرة داخل المدينة ، يمارسون أعمالهم التقليدية ، من قراءة الكف والودع والحظ ، فضلاً عن الرقص وبيع الخلاخيل والغوايش وغيرها من المشغولات الذهبية الفالصو .

في شارع كرموز تمشي عربات الترام ، تبدأ مسيرها من شاطئ المحمودية ، في منتصف المسافة بين كوبري كرموز الموصل إلى غيط العنب من الناحية الشرقية ، وبين كوبري كفر عشري الذي يربط بين شاطئ المحمودية بالقرب من الميناء ، أمام النقطة التي يبدأ منها خط سير الترام

،وعلى الضفة الجنوبية لترعة المحمودية ،يقع "سكن" لعمال السكة الحديد ، الذين يعملون في خطوط السكك الحديدية جنوب المدينة ، وخلف هذه الخطوط الحديدية تقع بحيرة مريوط التي تمتد أكثر مما تمتد الإسكندرية حتى تصل إلى الغرب إلى العامرية ، وفى الشرق إلى قرب " إدكو " سيكون على مجد الدين أن يكتشف كل هذه الأماكن ، لكن ذلك سيحدث فيما بعد .

كان يذهب إلى المقابر كل يوم ، يجلس أمام مقبرة أخيه يقرأ القرآن أطول وقت ممكن . كان في طريقه إلى المقابر يرى عامود السواري عالياً ، ويدرك أنه أثر من الأزمان الغابرة ، ويفكر تفكيراً غريباً ، أن يصعد ويجلس فوقه ، يمضي ما تبقى له من حياته ، بلا طعام أو شرب ، ولا يكف عن الصياح باسم الله ، تماماً كما فعل القطب الكبير ، السيد أحمد البدوي ، على سطح أحد البيوت فى طنطا حتى مات.

– لا يمكن أن تظل على هذا الحال .

قال له دميان الذي ذهب خلفه يوماً إلى المقابر .

– ماذا أفعل يا دميان ؟

تخرج تبحث معي عن عمل . إنى أوفق الآن في معظم الأيام ، ثم إنك لن تمضي عمرك جالساً بين المقابر ، هذا كفر والعياذ بالله .

تأمله مجد الدين ملياً ، وقال .:

– معك حق يا رجل .

لقد تمت صداقة عظيمة وبسرعة بين الرجلين . يوم قتل البهي ، انتهى كل شيء بالمستشفى بسرعة ، بفضل وجود الخواجة ديمتري ودمي ـان . في صباح اليوم التالي صرحت النيابة بدفن الجثة . عند الظه ـيرة كان ـت ق ـد ووريت . وفي اللحظة التي انزلقت فيها جثة البهي المكفنة من يد الح ـانوتي أسفل المقبرة ، أدرك مجد الدين الذنب العظيم الذي ارتكبه فى حق أخي ـه ، لقد خالف وصيته بأن يدفن في البلد ، لقد ضحك تلك الليلة ، وقال له إنه في حال موته ودفنه بالبلد لن يسبب مشاكل لأحد !. لم يكن ممكن ـاً لمج ـد الدين تغيير ما حدث . هو لا يستطيع العودة إلى القرية الآن ، وأمه لا يجب أن تعرف بما جرى ، على الأقل لبعض الوقت ، والله يعلم عج ـزه وقل ـة حيلته.

لقد دفع الخواجة ديمتري عشرة الجنيهات تكاليف المقبرة وال ـدفن ، وقال لمجد الدين هامساً " تستطيع أن تعيدها حين ميسرة " وكان مجد الدين على ثقة من قدرته على إعادتها ، فأرضه فى البلد تدر دخلاً ، وأخواته لابد سيرسلون إليه نصيبه كل موسم زراعي . الذي شغل مجد الدين هو هذا الود الذي يظهره الخواجة ديمتري له ولزوجته هو وأسرته ، مع أنهم لم يتع ـارفوا إلا منذ أسابيع . قالت الست مريم لزهرة " سلفك البهي كان أميراً " وقال ديمتري لمجد الدين " أخوك كان ابن حلال " فكر مجد الدين أن البهي لاب ـد من إنه كان يقدم لهم خدمات عند الحاجة ، وأمر زهرة أن تخلى غرفة البهي ليتسلمها الخواجة ديمتري .

لم تكن هناك حاجة إلى ما في حجرة البهي ، لذلك يبعت كلها الب ـائع روبابيكيا في الصباح باستثناء ثيابه التي أخذها مجد الدين ، ووزعه ـا عل ـى

الفقراء في المقابر ، ووجدت زهرة مظروفاً في الدولاب به عشرون جنيهاً أعطتها لمجد الدين وهي تجهش بالبكاء . ها هو البهي يسترهما أمام الخواجة ديمتري ، ويستطيع مجد الدين الآن إعادة الجنيهات العشرة برغم كرم الرجل الكبير ، وحكت زهرة لزوجها الحكاية التي لم يسألها عنها ، كيف شارك البهي في المعركة وكيف مات . وقالت إنها سمعت أصوات صياح في الشارع ، وكانت في غرفة الست مريم ، فنظرت معها من النافذة .رأت البهي يطير بعصاته بين الرجال كالرهوان ،كل من طاله نالته منه ضربة أعجزته .كان على غير ما عرفته تماماً . رأته جنياً حقيقياً يجندل الرجال . كان معه فلاحون كثيرون ، وكان الصعايدة أكثر ، لكن عينيها لم تكونا تريان غير البهي . وفي اللحظة التي أوشكت فيها المعركة على الانتهاء ، بعد أن اختفى معظم الصعايدة من الشارع ، ظهرت جماعة منهم من ذقاق واحد قاصدة رجلاً واحداً هو البهي . انهالت العصى كلها فوق رأسه . كانت هي قد نزلت إلى الشارع صارخة لكن البهي كان قد مات . خيل إليها أنه ينظر إليها يشهدها على شجاعته . سألها مجد الدين ما إذا كانت " بهية " عادت تظهر بالشارع ، قالت إنها لم ترها غير يوم مقتل البهي ، لقد رأتها ولم تصدق وسرعان ما ذهلت عنها بالنظر إلى البهي المقتول .

ظل مجد الدين يخرج كل يوم ، بعد الظهر إلى المقابر يوزع النقود على الفقراء ، ويقرأ بنفسه القرآن ، ويعود مع المساء يتناول عشاءه ، وجبته الوحيدة بعد الفطور ، ثم يقرأ القرآن حتى صلاة العشاء ، ثم ينام ، ونادراً ما دخل معها في كلام . صمت أكثر حين لاحظ أنه كثيراً ما يجد امرأة أو أكثر ، أمام قبر البهي يبكين ، ويضعن فوقه ، ورداً وصباراً ، وحين يقترب

تبتعد الواحدة منهن ، أو يبتعدن إذا كن أكثر ، ويغادرن المكان دون كلام . لقد قرر أن يعرف سرّ هاته النساء . ذهب إلى الحانوتي في المحلات المقابلة للمدافن مباشرة وسأله . ابتسم الرجل وقال له "والله هذا أول ميت أجد كل أقاربه نساء . إنهن يأتين إليَّ فأدلهن على المقبرة . أنا لم أرهن يوم الدفن ، لكنهن لا ينتهين حتى الآن " . وسكت لحظة . يبدو أنه ابن حلال ، انهن يجزلن لي العطاء . ثم سكت أكثر وقال : العجيب أن رجلاً جاء وسألني عن المقبرة منذ أيام ، فأخذته إليها، فهجم على المرأة التي كانت سبقته وضربها ضرباً مؤلماً ، وسحبها من شعرها مقسماً بأغلظ الإيمان أن يطلقها والعياذ بالله . وسأل مجد الدين إذا كان يعرف شيئاً عن هذا الرجل ، فتركه مجد الدين بلا جواب .

***

– انت لا تعرف عني إلا أنني دميان عبد الشهيد . لكني أعرف عنك إنك ابن ناس . أنا أيضاً ابن أصول ، وأرجو أن تصدقني ، كان عندنا مماليك . هكذا يحكون عنه في بلدنا ديروط . أنت من بحري ، وأنا من قبلي . بحري فيه أعيان كتير ، وفي الاثنين الفقر أكثر . طبعاً . لازم حد يأخذ من حد ! معقول الكلام ! أنت سامعني يا مجد الدين .

– سامعك .

هكذا يرد مجد الدين في كل مرة ، صار دميان يمر عليه كل صباح يصحبه في رحلة البحث عن عمل . في الأيام الخالية من العمل ، وعادة تكون أكثر ، يجلسان بالمقهى على الكوبري . يشتري مجد الدين الجريدة

ينبهر دميان بحرب الغواصات . زوارق الطوربيد الألمانية التي تدمر السفن البريطانية وتختفي كالعفاريت داخل مياه المحيط الأطلنطي . وعرف من مجد الدين كثيراً من حياته ، وأهم ما عرفه أنه لم يخدم في الجهادية لأنه من حفظة القرآن .

صار دميان ينادي مجد الدين بالشيخ مجد الدين ، وقال له ضاحكاً ، إنه لا يوجد قانون يسمح بإعفاء حفظة الإنجيل من الجهادية أيضاً . ثم ضحك وقال " ومن الذى يستطيع حفظ الإنجيل !؟" .

وفي كل مرة يقص على مجد الدين شيئاً من حياته حتى اكتملت أركان القصة . قال إنه فجأة هتف واحد من أهل القرية أن السيد "بسخرون" كافر وبسخرون هو الجد القريب لدميان ، وليس البعيد صاحب المماليك . لماذا هو كافر السيد بسخرون ؟ قال الرجل لأنه لم يتم تعميده وهو طفل والحقيقة أنه كان هناك نزاع بين عائلتين على قطعة أرض ، واستطاع الخصم أن يروج هذه الإشاعة عن السيد بسخرون .

– وما هو التعميد يا دميان ؟

التعميد يعنى التنصر . من غيره يظل الإنسان حيران بين الجنة والنار .

– يعنى لا أحد يحاسبه ؟

– بالضبط .

ابتسم مجد الدين وقال :

– طيب وهل هذا يسىء إلى الشخص أو يضره ؟

– بطبعاً . لا تسألني كيف . لكنها مسألة صعبة جداً . أنا لا أعرف جوهر الصعوبة لكن أحس به . حالة مثل الوقوع من فوق الجبل لكن لا تصل أبداً إلى الأرض . تظل معلقاً في الفضاء . في فراغ خال من كل شيء . لا سخن ولا بادر ولا حتى هواء من أي نوع . تعرف يا شيخ مجد لقد حدث لي ذلك مرة .

– وقفت بين الجنة والنار .

– أجل . أحسست بها وأنا راكب الأسانسير . هي مرة واحدة ركبت فيها الأسانسير في عمارة في المنشية . كنت أقوم بتنظيف سطح العمارة . كان هناك عمل كثير . كان سطحاً قذراً ولا خرابة . لم أستطع النزول على قدمي . تصور . لم أستطع النزول !. المهم . ركبت الأسانسير ودست على الزرار . نزل بسرعة شديدة جداً . أحسست أني في مكان مفرغ من كل شيء . تذكرت مسألة الجنة والنار والوقوف بينهما . ولولا أني رأيت من خلال زجاج الباب الطوابق وهي تتحرك أمامي كنت صرخت من الخضة .

تأمله مجد الدين في دهشة المعجب المصدق ، وبمشاعر دافئة حقيقية واستمر دميان يحكى قصة عائلته . قال :

ذهب جدي إلى الكنيسة في أسيوط ، إلى " دير المحرق " . أكبر كنيسة في أسيوط ، وعاد بالقسيس الذي عمَّده وهو طفل . كان رجلاً أعمى يمشي على عكازين !! لكن لم يصدقه أحد . السبب أن القسيس نفسه كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا في شبابه قبل دخول الدير .

تساءل مجد الدين وهو يشعر برغبة حقيقية في المعرفة .

– طيب هل ضروري أن يتم التعميد والإنسان صغير ؟

–الأصح . لكن يمكن التعميد في أي وقت . التعميد بسيط جداً ؟. يمسـ ـك القسيس بالطفل ويغطسه في مغطس رخام فيه ماء . طبعاً هنـ ـاك موسـ ـيقى وترتيل وتهاليل وتباريك . فيه حفلة يعنى.!

–كان واجب جدك يتعمد من جديد .

ضحك دميان وقال :

رفض بشدة . صمم أنه قد تم تعميده ، وأنه يخضع لمكائد . لكنه كان في داخله حزيناً . نام ولم ينهض إلى اليوم .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

المهم . أبي وأخوته كرهوا البلد . قسموا الأرض فيما بينهم وسـ ـاروا في البلاد .أبي عمل بالتجارة حتى ضاعت فلوسه وأفلس تاركاً أمـ ـي وأنـ ـا وبنتين وولدًا آخر مات بعد ذلك بالتيفود ، البنتان تزوجتا وتعيشـ ـان مـ ـع زوجيهما في سوهاج . أمي تعيش حتى الآن معي . لا تتحرك مـ ـن فـ ـوق الأرض إلا للنوم . وهكذا تشردت عائلة كبيرة من أجل كذبـ ـة صـ ـغيرة ، لكن الحمد لله أن أحداً لم يقل إن " أبونا " عجز عن تعميد جـ ـدي ، أو إن مياه المغطس نشفت فيه حين أراد تعميد جدى . هذ يعني خطايا كـ ـبيرة . يعنى لعنة قديمة في العائلة . أجل . كثيراً ما يفاجأ " أبونا " وهو يعمّد أحـ ـد

الأطفال أن مياه المغطس نشفت فجأة ، أو أن الطفل نفسه لصق بيديه ولا ينفصل عنها .

احتار مجد الدين كيف يعلق لى هذا الحكاية لصديقه الطيب . قال وهو ينظر إلى عينيه :

- أنت رجل صالح يا دميان .

ضحك دميان وقهقه وقال :

- يخيل إليك . أنا منذ سنوات طويلة لم أدخل الكنيسة . كنيسة ماري جرجس على بعد خطوتين من بيتي ، ومن بيتك أيضاً ، لكني لم أدخلها لا في الآحاد ولا في الأعياد . هل تعرف السبب ؟

ارتبك مجد الدين ثم قال :

- بسبب حكاية جدك .

- لا .. أنسى . أنا دائماً أنسى . أحياناً أقول يا واد أنت صايع بلا عمل لماذا لا تذهب إلى الشهيد جورجيوس ، مارى جرجس يعنى يشوف لك شغلانة ثابتة ، ثم أنسى . رغم أني أعرف لماري جرجس معجزات كثيرة . المسلمون أحياناً يأتون في المولد ويطلبون منه المساعدة . ماري جرجس ولي كبير . طبعاً أنت تعرف الأولياء . تعرف أن مجلس الإسكندرية حاول هدم مسجد " أبو الدرداء " لتوسيع الطريق للترام، لكن كل من رفع معولا على المقام شُلت يده . فتركوه مكانه وصار الترام يدور حوله . وأنا أعرف أن سيد البدوي كان يأتي بالأسرى من الأعداء . " الله الله يا بدوي

جاب اليُسرى " . أنت من طنطا وتعرف القص أكثر مني . ثم يا أخي أنا محتار ماري جرجس له كرامات والسيد البدوي وأبو الدرداء لهما كرامات كلهم على حق ، ليه يكون فيه قبط ومسلمين ؟!

وسكت لحظات طويلة ثم قال دميان من جديد :

– عندي فكرة . ما رأيك أذهب أنا إلى ماري جرجس أطلب شغل وتذهب أنت إلى أبو الدرداء أو أبو العباس وتطلب شغل . أو حتى نعمل العكس ! يمكن ماري جرجس زعلان مني لأني بعدت عنه كتير .

***

لم يكن مجد الدين يتوقع أن تبكي زهرة بهذه اللوعة ساعة انطلاق المدافع في المساء معلنة أن غداً هو أول شهر رمضان . كان هو أيضاً يشعر بامتداد الحزن في صدره وحاجته للانفجار في البكاء ، لكنه تجلد . يعرف الفارق بين رمضان في مدينة واسعة ، ورمضان هناك في قريتهما التي يحنو عليهما فيها جميع تراب الأرض. لكن طرقاً خفيفاً على الباب الموارب جعل زهرة تجفف دمعها بسرعة .

كان الخواجة ديمتري وزوجته يتقدمان لتهنئة جيرانهما بحلول رمضان . قال مجد الدين للخواجة ديمتري بعد أن جلس على الأريكة جواره :

– يا أخي أنتم فتحتم نفسي على إسكندرية .

قال الخواجة ديمتري باعتزار :

– الإسكندرية مدينة عريقة يا سيد مجد الدين .

أحس مجد الدين بالمعني العميق في كلام الرجل . وكان اليـوم هـو العاشر من أكتوبر تسَّلم فيه عملاً في شركة الغول الأهلية بدا له سيسـتمر إلى وقت طويل . من يدرى قد تفتح له هذه المدينة صدرها الحنون الذي لم يره بعد . وقال الخواجة ديمتري .

– ما رأيك في جولة معى بالشوارع الآن ؟ رمضان يحب السهر .

وقالت الست مريم لزهرة :

– تعالى اسهرى اسمعي الراديو معنا .

خرج مجد الدين مع ديمتري ودخلت زهرة مع الست مريم إلى حجرتها المضيئة بالكهرباء . رأت الحجرة بيضاء باهرة ، البنتان إيفـون وكاميليـا تكادان تشتعلان من البهجة . كانت ماكينة الخياطة في وسـط الغرفـة . جلست مريم على الكرسي أمامها ، وجلست زهرة على الكنبة مع إيفـون ،وجلست كاميليا على الكنبة المقابلة إلى زهرة في سعادة مدهشة ، وزهرة لم تعد تشعر بالخجل الآن . سألتها لماذا دائماً تنظر إليها بهذه الدهشة ، فقالت لها كاميليا " أصلك جميلة جداً " . وضحك الجميع . وقالت الست مريم في سعادة كلمتها الأثيرة عن كاميليا .

– خذي بالك يازهرة كاميليا شقية .

وسمعت دقات خفيفة على الباب الموارب . كانت هناك نسمة بـاردة لكنها منعشة . نهضت كاميليا ، وهتفت في سعادة " دي سـت لـوللا " وأشرق وجه الست مريم بالابتسام ، وكذلك وجه إيفون . ووجدت زهرة نفسها تحملق في الست لوللا الشقراء الملفوفة القوام المتوردة الوجه ترتدي

روباً من القطن ، الباتستا الأخضر المشجر، وفي قدميها شبشب أخضر م ن القطيفة ، أما رأسها فهو عار، وشعرها الأصفر كثيف ب ارق ككهرم ان .
قالت لوللا وهي تجلس :

– الأفندي بتاعي خرج يسهر مع أصحابه على القهوة ، عمل حجته رمضان .

قالت الست مريم باسمة :

– واحنا كمان ، الأفندية بتوعنا خرجوا . يعنى في الهوا سوا .

ضحك الجميع ، بمن فيهم زهرة هذه المرة ، فتحت كاميليا الرادي و فانساب صوت عبد الوهاب ،وبدا أن البنت تعشقه ، "جفنه علم الغ زل" كانت أغنية عبد الوهاب، وموسيقاها الإسبانيولية المذاق جعل ت الفت اة تتمايل برأسها ضاحكة ، وفجأة هتفت :

– أبو فروة !!

وسكت الجميع . كانت زهرة مندهشة ، بينما كان الجميع يستمعون للصوت الغامض الذي يرتفع في الشارع . صوت بائع أبو فروة ال ذي لا تظهر حروف كلماته أبداً لكن الجميع يعرفون أنه بائع أبو فروة الذي يغيب طوال العام ويظهر مع بداية البرد. نزلت إيفون اشترت بخمس ة ق روش ، وبسرعة أحضرت كاميليا موقداً كحولياً أكبر من " السبرتاية " المشهورة ، موقد به أكثر من شريط ، وبدأت تش وى أب و ف روة. كان ت زه رة تعرفه .كثيراً ما اشتراه مجد الدين من طنطا ، وحينما أخذت لوللا ثمرة من ه وضعتها بين أسنانها للحظات ،بدا فمها جميلاً ج داً ، وأس نانها بيض اء ،

وأحست زهرة أنها أمام امرأة غير عادية ، وراحت تتابعها وهي تأكل الثمرة على مهل وباستمتاع بطيء ، حتى إنها كانت تغمض عينيها أيضاً لحظات ، ثم قالت لوللا ..

– ياسلام على أبو فروة بالشيكولاتة ، المارون جلاسـ ـيه يعـ ـنى يـ ـا كاميليا .

– الله ... الله على المارون جلاسيه ؟

كانت هذه أول مرة تسمع فيها زهرة هذه الكلمة . ولم تبد دهشـ ـة كانت دهشتها داخلية ، فهذه كاميليا المنطلقة المرحة ، وهذه إيفون أختـ ـها تبدو هادئة ، لله في خلقه شئون حقاً .

انتهت أغنية عبد الوهاب وإذا بكاميليا تنهض تعبث فى زرار الراديو وتقول سأبحث أيضاً على عبد الوهاب . وبالفعل وجدته . عرفت الموسيقى وهتفت : " مضناك جفاه مرقده " يا ست لوللا . إذن هناك ألفة بين لـ ـوللا وكاميليا . قالت زهرة لنفسها ، ولم تفهم الاغنية الصعبة ، التي كـ ـثيراً مـ ـا كانت تستمع إليها في القرية فتبتعد عن الراديو أو تخفض صوته أو تغلقه .

لم تفهم الأغنية قط . وتطوعت كاميليا تشرحها لها . كل ما أدركته زهرة أن الست مريم سعيدة بابنتها وجرأتها ، أما هي ، زهرة، فلـ ـم تفهـ ـم أيضاً شرح كاميليا وقالت مبدية دهشة غير حقيقية " يا سلام ، كـ ـل دا في الأغنية دي " . وضحك الجميع ...ثم هتفت كاميليا : " عم محمود " .

قالت لوللا " تاني ، حتى في رمضان " . وجاء صوت عم محمود مـ ـن الشارع يهتف " الحادثة الجديدة " . أخذت كاميليا قرش تعريفة من أمها ،

ونزلت بسرعة . شرحت إيفون بهدوء لزهرة الامر ، عم محمود يأتي كلما حدثت حادثة غير عادية ، يبيع ورقة مطبوعة ، بها تفاصيل الحادثة قبل أن تنشرها الصحف . تفلت زهرة في " عبِّها " وقالت " يا ساتر يارب " ، ودخلت كاميليا صامتة .

– أقرئي .

قالت لها أمها باسمة . ردت كاميليا :

– أحسن تقراها إيفون .

تناولت إيفون الورقة المطبوعة ، وقرأت صامتة ، فاحمر وجهها من الخجل ، ثم قالت بلا مبالاة مصطنعة" أبداً . دى واحدة ست مجوزة اثنين في وقت واحد " . ضربت لوللا على صدرها رعباً وتفلت في عبها أكثر من مرة وقالت الست مريم بهدوء :

– قطعى الورقة وارميها في الزبالة .

***

لاحظ مجد الدين أن الأطفال قد خرجوا بكثرة في الشارع ، رغم الظلام وعدم وجود أعمدة إنارة . مشى مع الخواجة ديمتري في الاتجاه الآخر ناحية كرموز وقال الخواجة ديمترى :

– قطيعة تقطع انجلترا على ألمانيا في يوم واحد ، لم ينبنا غير الغلاء والظلام .

كانت المحلات مفتوحة تبيع على أضواء الشموع أو المصابيح الصغيرة ، وبعضها تجرأ وأضاء أكثر من مصباح كهربي ، لكن الإضاءة كلها بداخل المحلات . ما يتسرب من ضوء إلى الخارج كان يعين الأطفال على اللعب والمارة على المشي . لقد خرج معظم الناس يشترون ما يحتاجونه من طعام للسحور وللغد . رأى مجد الدين فرناً أفرنجياً ، وفكر أن يشتري خبزاً فقال له ديمتري إن الفرن يسهر للصباح ، إنهما يستطيعان شراء الخبز في العودة ، أما الآن فليذهبا أولاً إلى كوبري كرموز لشاء الدخان .

بعد عبور الكوبري مباشرة كان هناك محل أبيض الواجهة ، زجاجه لامع ، الضوء داخله من مصباح أبيض صغير ، والبائع أبيض الوجه ، متورد ، يرتدي بالطو أبيض . لاحظ مجد الدين أن بالمحل عديداً من أنواع السجائروالمعسِّل والتبغ . اشترى ديمتري بقرش صاغ دخاناً وقال :

– دخان تركي طازج له رائحة منعشة .

اشترى مجد الدين مثله ، وقرر أن يكون زبوناً عند صاحب المحل ، فالدخان السائب أفضل من المحفوظ في العلب .

في عودتهما نظر مجد الدين من فوق الكوبري إلى ترعة المحمودية المظلمة على الناحيتين . شاهد عدداً كبيراً من الصنادل والسفن الواقفة . أدرك أنه في الغد ستكون هناك فرص عمل كبيرة للعاطلين ، وفي شارع ألبان كان الأطفال قد أوقدوا فوانيسهم غير آبهين بتعليمات الوقاية وراحوا يدورون على البيوت يطلبون " العادة " أو يجلسون فى حلقات صغيرة يتسامرون .. ولم يشأ ديمتري أن يعود بسرعة . قال لمجد الدين :

– ما رأيك في فنجان قهوة ، نعطي الحريم فرصة للسهر .

ووجدها مجد الدين فرصة حقيقية لتتخلص زهرة من حزنها . ودخـ ـل المقهى المجاور للحلواني :" جَزَرْ " الذي كان يغـ ـص بالجالسـ ـين يشـ ـربون ويلعبون النرد والدومينو والورق على أضواء مصابيح صغيرة . كان دميان يلعب الدومنيو مع أحد الأشخاص وحولهما ثلاثة آخرون ، تركهم دميان و إذ شاهد مجد الدين ، أقبل يرحب بهما . قال له مجد الدين :

– أنت أيضاً تسهر يا دميان ؟

– رمضان يا شيخ مجد يحب السهر !

وما إن جلسوا حتى هتف دميان :

– من الغد تفتح مطاعم الشعب أبوابها للفقراء يفطـ ـرون بتعليمـ ـات الملك، يعني الفقير ضَمَن الأكل لمدة شهر . يعيش الملك وعلى ماهر كمان .

رد رجل يجلس في ركن بعيد من المقهى وهتف قائلاً :

– ومحمد عبد المطلب والست فتحية أحمد !

***

لم يكن رمضان ليشفع عند الحكومة المصرية لتخفيف حالة الطـ ـوارئ وإجراءات الوقاية ، بل على العكس ، تم التشديد على اتبـ ـاع تعليمـ ـات الوقاية ، ولم تتأخر البلدية بالإسكندرية ،وسائر البلديات ، في إقامة الغارات التجريبية النهارية والليلية ، وارتفعت أسعار بعض السلع وبخاصة البترولية ، الكيروسين والبترين والغاز الطبيعي، كذلك أسعار الزيت والأرز والدقيق ،

وخرج بعضها من نظام التسعيرة، مثل الزيت، فارتفع سعره كثيراً ، وجـ ـأر الناس بالشكوى خاصة وقد بدأت بعض مطاحن الدقيق في خلطه بنسـ ـب أكبر مما هو قانوني بدقيق الذرة وكان من ظواهر التشديد علـ ـى تعليمـ ـات الوقاية عدم السماح بإقامة سرادقات دينية أو سرادقات للتسلية ، مما تعود عليه الناس في الساحات والجوامع وغيرها من الميادين ، لذلك بدا رمضـ ـان مثل شجرة جرداء في صحراء بالنسبة للذين تعودوا عليه في المدن .

في الدنيا كانت الحرب البحرية لا تزال مشتعلة وأسطورة الطـ ـرّاد " شار نهورست " وزميله " جيزناو " اللذين يقومان بمهاجمة القوافل البريطانية صارت تملأ الدنيا . بدا الطردان مثل شـ ـبحين لا يعـ ـرف أحـ ـد موعـ ـد ظهورهما .إنما يقومان بضربتهما ثم يدخلان إلى الميـ ـاة العميقـ ـة في المحـ ـيط الأطلنطي ، وكذلك كانت تفعل البارجتان " ردتشلند " و" جراف شبي " ، وحدثت أول غارة لسلاح الجو الألماني علي فرنسا ، كانـ ـت عبـ ـارة عـ ـن طلعات استكشافية ، طاردتها الطائرات الفرنسية و أسقطت بعضها، لكـ ـن الظاهرة أثارت انتباه العالم ، فها هي الطائرات الألمانيـ ـة تسـ ـتطيع تجـ ـاوز الإلزاس واللورين ، وبدأت المخاوف تزدادحيث امتدت الحشود الألمانية من حدود فرنسا إلى حدود هولندا ، وقال الألمان أن الحدود الفرنسية ضيقة ، لذلك لابد من التمدد بالقوات ، ليس لألمانيا أى مطامع في هولندا . وظهر في الأسواق البرتقال اليافاوي ، وقيل إن محصوله وفير الآن بفلسطين ، وإن الحكومة تجد صعوبة في تصديره إلى أوروبا بسبب الحرب ، لـ ـذلك صـ ـار رخيصاً جداً فى الأسواق ، وأنعم صاحب الجلالة الملك فاروق برتبة لـ ـواء على صاحب السعادة بيكر باشا ، حكمدار بوليس إسكندرية ، وتم تحذير

الناس من التوجه إلى ضاحية سيدى بشر ليلاً خارج نطاق شريط الترام ، حيث كثرت حوادث القتل والسرقة بالإكراه والاغتصاب ، وتقرر أن يسافر ضباط الجيش بالدرجة الأولى في السكك الحديدية لأول مرة ، تقديراً لمركزهم الممتاز في المجتمع ، وصونا لكرامتهم وغادر صاحب السمو الملكي الأمير محمد على الإسكندرية إلى القاهرة بعد إنتهاء مصيفه ، وقدم تياترو بنا عز الدين رواية الفودفيل (حرامي أرستقراطي) ، وبلغ سعر الجنيه الذهب مائة وخمسة وثمانين قرشاً وسجائر الكرافن ثلاثة قروش للعلبة عشر سجائر ، وستة للعلبة عشرين سيجارة ، وتقرر أن يكون ضباط الجيش المرابط من خريجي كلية التربية الرياضية الذين يعانون من البطالة دائماً ، وبدأ عرض فيلم العزيمة ، وتم تعديل قانون الحياد الإمريكي ورفع الحظر عن تصدير السلاح للحلفاء وإعدام ثلاثة جنود ألمان ، وكانوا قد قتلوا الجنوال فون فريتش أثناء القتال قرب وارسو ، واستمر الملك يؤدي صلاة الجمعة كل أسبوع في جامع ومكان آخر ، فصلي حتى الآن في جامع كخيا بالقاهرة ، والدخيلة بالإسكندرية ، وصدر تقرير الأمن العام يؤكد أن الحرائق دمرت هذا العام ثمانمائة وثمانية وخمسين بيتا ، وحرقت ما قيمته خمسة آلاف جنيه ، وأقيمت التدريبات في مرسى مطروح لقوات سلاح الحدود على المدافع المضادة للطائرات ، وعين الأميرالاي على الشريف بك مديراً عاما لمصلحة الحدود ، وزار المارشال جورنج قائد الجو النازي الشهير إيطاليا فحبس العالم أنفاسه من نتائج الزيارة وخطب عصمت إينونو رئيس جمهورية تركيا طالباً حياد بلاده وتركها بعيداً عن الحرب ، وصدر قرار بعدم استقدام فرق التمثيل الأجنبية توفيراً للنفقات ، وتقديراً لفرق التمثيل المصرية ، وعلق

أحد الخبثاء بأن طرق المواصلات العالمية مقطوعة بالأصل ، وأعاد " سيرج بوجولوسكي " وهو فنان أجنبي مقيم في باريس ، لوحة " المستهتر " التي كان سرقها من اللوفر في يونيو الماضي . قال إنه يحب الفنان الفرنسي " واتو " من فناني القرن الثامن عشر ويحب هذه اللوحة ، وأراد أن يجرى عليها بعض الترميمات ، وقال الخبراء إنه في الحقيقة أفسدها مما جعل الحكم يصدر عليه بالسجن عامين ، وأقيمت الصلوات في الإسكندرية بالمدافن الفرنسية ، وعلى أرواح وقتلى الحرب الأولى من الفرنسيين ، وحضر الصلاة قنصل فرنسا العام وأعيان الجالية الفرنسية ، وبدا في الأفق ان هتلر لن يهاجم الجبهة الفرنسية قبل الربيع القادم ، وطعن عز الدين عبد القادر الذي اطلق الرصاص على سيارة النحاس باشا من قبل ، في الحكم الصادر ضده بعشر سنوات، وتأجل نظر الطعن ، وأقيمت أعياد الميلاد الملكية اكثر من مرة أحدها للأميرة فوزية بمناسبة بلوغها التاسعة عشرة ، وتم الاحتفال في وقت واحد بالقصر الملكي بالقاهرة ، والقصر الإمبراطوري في طهران ، حيث أنها زوجة ولي العهد الإيراني ، وأقيم عيد ميلاد الأمير محمد على ولي العهد الذي أتم الخامسة والستين ، وكذلك الأميرة فائزة التي تستقبل عامها السابع عشر ، واحتفلت سفارة رومانيا ببلوغ صاحب السمو الملكي الأمير ميشيل سن الرشد ، أى الثامنة عشرة من عمره ، وهو ابن الملك كارول الثاني ، والأميرة هيلين اليونانية ، ووقعت أكبر معركة جوية بين القوات الفرنسية والألمانية فوق إقليم الإلزاس ،وأسقط الفرنسيون تسع طائرات ألمانية ، وحاول الملك " ليوبولد " ملك بلجيكا ، والملكة " أولهلمينا " ملكة هولندا ، الصلح بين الأطراف المتحاربة ، فتقدما بمبادرة لذلك ، وظهر إعلان

أقراص ري زيكس (Re-Zex) يعلن " يا رجل مصر إن العلم قد جاءكم من أمريكا البعيدة ، كأنك في العشرين مع أنك في الخمسين ، بأحد عشر قرشا ، ثمن علبة أقراص ري زيكس ولا تخجل بعد من نقص قوتك الجسمية والحيوية " وخطب هتلر في مشرب البيرة بميونيخ حيث سبق له أن أعلن الثورة عام 1923 ، وأعلن أن ألمانيا تقاتل في سبيل مجالها الحيوي ، ثم بعد ذلك أعلن عام 1937 أن المجال الحيوي لألمانيا هو أوروبا الشرقية ، وأن بولندا وروسيا البيضاء وأكورانيا ، دول يجب أن تزال من الوجود ، وتباد شعوبها ، وتدخل ضمن الممتلكات الألمانية ، لذلك عندما دخل بولندا لم يتوان عن دخولهم من الناحية الأخرى لتأمين أوكرانيا وروسيا البيضاء ، إذا حدث وانقلب هتلر عليهم ، اقتسم الروس معه بولندا ، وبعد انصراف هتلر ، انفجرت قنبلة في مشرب البيرة فانهار سقفه ، لكن لم يصب أحد بسوء ، وتبرع صاحب الجلالة بمبلغ ثلاثمائة جنيه ، لصندوق الإحسان التابع لوزارة الشئون الاجتماعية ، وبدأت المخاوف في بلجيكا وهولندا من احتمال خرق ألمانيا لحيادها ، وارتفع سعر البيض المصري إلى مائتين وثمانين قرشاً للألف بيضة ، بعد أن كان مائة وثمانين ، واحتفلت تركيا بذكرى وفاة أتاتورك ، وبدأت امستردام في غمر أجزاء من حدودها بالمياة لعرقلة أى هجوم ألماني ، وأعلنت بلجيكا التعبئة العامة وأجريت مناورات مشتركة ، بين الجيش المصري والبريطاني في الصحراء الغربية ، وتم بناء مركزين للتليفون الأوتوماتيكي بالإسكندرية في الإبراهيمية وجليمونوبلو ، واشتكى أصحاب مصانع الكبريت من التسعيرة الجبرية الحكومية التي لا تناسب ارتفاع اسعار الخشب ومواد الصناعة وعثر في ناحية فيكتوريا على جثة شاب في حوالي الخامسة والعشرين ملقاة في ساقية ، وانفصل لوريل وهاردي ، وظهر

هاردي في الصحف يقوم بتمثيل فيلم جديد مع هاري لا نجدن ، فعم الناس الغم ، وقامت طالبات مدرسة الاميرة فائزة بتوزيع ملابس داخلية وخارجية ، على طالبات التعليم الابتدائي بالإسكندرية ، بمناسبة عيد ميلاد صـ ـاحب السمو الملكي، وتقدمت امرأة فقيرة إلى النائب العام تشكو اختفاء ابنتـ ـها التي كانت قدمتها لأحد مكاتب الخدمة للعمل منذ سبعة أشهر ، واكتشفت بعد البحث أن مخدوم الفتاة الأول ، باعها لامرأة تدير أحد بيوت الـ ـدعارة بقنا ، وأن هذه المرأة بدورها باعتها لبيت دعارة آخر في المنيا ، الذي باعها بدوره لبيت دعارة في الإسكندرية ، ثم بيعت لبيت دعارة في طنطا ، وهكذا استمرت طوال هذه الشهور السبعة تباع لمختلف بيوت الـ ـدعارة شمـ ـال وجنوب البلاد .

***

" إن المدينة تصبح عالماً عندما يحب

المرء أحد سكانها .. "

-9-

في " العيد الصغير " تأكد مجد الدين من ضـ ـياع أرضـ ـه . زاره زوج أخته وعرف بموت البهي وأوصاه مجد الدين بأن لا يكلـ ـف أمـ ـه مشـ ـقة

الحضور لزيارة قبر ابنها والأفضل أن يتكتم الخبر . أخبره زوج أخته أن هناك مشروعا لطريق سريع في القرية ، سيمر من أراض كثيرة ، من بينها أرض مجد الدين ، وأن لا أمل لأحد في تعويضات مناسبة ، وأن العمدة هو الذي وراء هذا المشروع . تذكر مجد الدين قول البهي له " عليه العوض في أرضك "وسكت طويلاً حتى سمع ابن عمه وزوج أخته يقول :

الأحكام العرفية ماشية في البلاد والعمدة يقدر ينفي أي واحد ، العمدة يقدر يقتل أي واحد ، الطوارئ تعطيه الحق فى أي تصرف ، ربنا يستر على البلاد والناس .إذن يمكن قتل مجد الدين بسهولة ، هذ ما يوحى به كلام زوج أخته .

على أي حال إذا حدث وحصلتم على أى تعويضات أرسلها إلىّ .

سلمه زوج أخته عشرين جنيهاً أحضرها له من محصول الأول . أدرك مجد الدين أن هذه آخر نقود يتسلمها من أرضه وخيرها ،وأدرك أنه لافاك له من البقاء في الإسكندرية وإلى الأبد ..

كاانت نسمة البرد قد مشت أكثر في الإسكندرية، بل وأمطرت السماء لعدة أيام على فترات متقطعة بالليل فوحلت الأزقة والشوارع في المناطق الجنوبية للمدينة ، كانت زهرة لا تعرف كيف ستقضي العيد في المدينة الجديدة ، فوعدتها كاميليا وإيفون ، بأن يصحباها في نزهة بالمركب في ترعة المحمودية ، ثم زيارة حديقة الحيوان ، لكن زهرة قالت إنها لا تستطيع عمل ذلك . قالت لها الست مريم إذن عليها أن تصحبها إلى حلقة السمك في الأنفوشي عصر يوم الوقفة لشراء الأسماك للعيد ، وإن أسماك الإسكندرية

لا تقاوم ، فوافقت زهرة على الخروج معها ، خاصة أن مجد الدين طلب منها أن تحتفل في العيد ، وكأنها في قريتها ولا داعي للحزن الذي لا طائل من ورائه . كان هو قد تعود أن يشتري " الفترة " من طنطا ،و اشتراها هذالا العام من " الميدان " .. اشترى كميات قليلة جداً من اليماميش ، وليس كما كان يشتري كل عام . وكانت زهرة في حاجة للخروج من البيت مرة أخرى ، صحيح أن حياتها في البيت تمضي بهدوء وتسعدها الفتاتان الجميلتان بروحيهما الجميلتين وكذلك الست لوللا ذات الجسد البارع والجمال الطاغي ، والتي بدا أنها تتمتع بخفة طبع محببة ، لكن ذلك لا يكفيها . تعودت في القرية أن تخرج للشمس والريح في الحقول ، وإلى الظل والهجير مع مجد الدين أو وحدها . قدماها تطلبان المشي ، وجسدها يلح فى طلب الهواء النقي .

ركبت الترام مع الست مريم ، ترام أبو وردة . ستترل في نهايته ، وتمشي قليلاً في شارع التتويج حتى الشاطئ . أمامها قصر الملك الأبيض ذو النوافذ العديدة ، والنخيل السلطاني العالمي يتمايل تحت الريح ، والحرس شاكي السلاح ، وقليل من الرجال يمشون في الطريق . كثير من النساء في الملاءات اللف المحبوكة على أجسادهن السمينة . سيارات قليلة من نوع ستروين وبكار تقف مع الناس أمام حلقة السمك . رائحة يود البحر تغلب على رائحة الزفارة وتنعش الصدور ، الهواء بارد ، والغيوم االسوداء تغطى البحر ، وصوت موج البحر ، الذي تحجب رؤيته بناية الحلقة وقسم البوليس ، يصل إليهما . أمام الحلقة يجلس الباعة على الرصيف أو يقفون بالصديري الأسود أو الأبيض ، وتحته اللباس الإسكندراني الواسع ، أبيض

أو أسود فضفاض وعلى الرأس البرنيطة ، ذات الحافة الدائرية المشغولة باليد . وعلى المناضد المنخفضة طاولات الأسماك المدهشة ، موزة فضية ، بطاطا بيضاء وسوداء وحمام ، أجل ، سمك أحمر كبير البطن ، قالت عنه الست مريم إنه لا يصلح الشيء، والفقراء يصنعون منه شوربة السمك ، وجفلت زهرة بعيداً عنه إنها لا تحب أن تكون من الفقراء وتشتريه ، رغم لونه الجميل . لكن المرجان اكثر جمالاً منه وقيمة ، لذلك اشترت منه ، واشترات كذلك من البوري " المليان " ، ورأت الدنيس والشراغيش ، والميرا ، والمرمار . كانت الست مريم تشرح لها ميزة كل نوع . حتى " البساريا " قالت عنها إنها تصلح لعمل طاجن فاخر رغم سعرها ، وإنه لا يعيب من يشتريها أن يكون من الفقراء لأنها لذيذة الطعم ، وأنها ستعلمها طهوها وستشتريها أمامها وستعلمها أيضاً طهو صيادية الأرز الأحمر ، ولأمر غير مفهوم فكرت زهرة فجأة في تمثال محمد على باشا فوق جواده بالمنشية ، وهل يمكن له أن يترل عن قاعدته ، يعيدها إلى قريتها ومعها مجد الدين. ولابد أن الست مريم ، أدركت بفطنتها شرود زهرة عنها للحظات ، لذلك قالت لها :

– ما رأيك أن نمشي قليلاً على الكورنيش ، مازال الوقت مبكراً على المغرب ؟

– السمك يفسد .

– الجو بارد والسمك طازج .

ومشيت زهرة كطفلة تركت نفسها لأمها لا تبتعد عنها ..

***

في العيد أدرك مجد الدين ضياع أرضه ، وبقاءه في الإسكندرية ، وما كاد زوج أخته يفارقه ، حتى وجد أنه في حاجة للخروج . لا تكفيه زيارة البهي ، وتوزيع الرحمة عليه ، ولا عمل له في العيد ، لا عمل عموماً للعمال المؤقتين . وتمني أن يزوره دميان ، وفي صباح اليوم الأخير فقط زاره دميان . لكنه كان وقتاً مناسباً إذ أوشك مجد الدين على الانفجار فهو لا يعرف إلى أين يذهب في الإسكندرية أبعد من المحمودية والمقابر في كرموز .

– ما يرأيك أن تعطي زوجتك فرصة للجلوس مع الجيران وتأتي معي؟ .

هكذا قال دميان بعد أن جلس مباشرة فوافق مجد الدين بلا تردد . لاحظ أن دميان يرتدي حذاء . منذ أسبوع وهو يرتدى حذاء جديداً ويرتدي هذه المرة بنطلون صوف نظيفاً فوقه سترة صوفية قديمة لكنها نظيفة . قال لمجد الدين :

– مضى علينا شهر نعمل بانتظام .. اشتريت الحذاء متفائلاً بعد انقطاع العمل ، لكن دحرجة البالات عملية شاقة يا شيخ مجد وأنا هزلان .

– ستعود يا دميان : تحمَّل حتى نجد عملاً أفضل .

– اشتريت الحذاء الجديد أيضاً متفائلاً بالعثور على عمل أفضل، لكن أنا لاأعرف أي عمل أفضل مما نفعل ؟

ضحك مجد الدين بهدوء ثم خرج مع صديقه يستقلان الترام ، وسط

صخب الأطفال في شارع اللبان ، بملابسهم ، ودراجاتهم الملونة التي يجرونها على الأرض غير الممهدة بصعوبة ، وبين تجمعات الأطفال حول باعة البالونات والبخت والآيس كريم رغم البرد .

في دوران الترام بسيدى كريم ، كان الأطفال أكثر ، حيث الأرض مسفلتة وكانت أصواتهم تملأ الفضاء . واستقل مجد الدين الترام مع دميان .

كانت مشاهد الأطفال لا تنقطع حول الترام التي تمشي بطيئة . عصافير ملونة بهيجة . نزلاً في الشارع الخديو .كان معظم محلاته مغلقة ، انحرفا إلى ميدان المحطة .

الفرقة الموسيقية العسكرية تتوسط الحديقة وتعزف أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ، حولها زحام من الأطفال والشابات والشباب ، وفلاحون وافدون وأبناء المدينة .

– خد بالك من اللصوص في الزحام .

قال : دميان لمجد الدين وهما يقتربان من المستمعين . لقد وقفا ساعة كاملة مرت عبقرية لم يشعرا بها . لم يكن مجد الدين يعرف من قبل أن الموسيقى يمكن لها أن تحمل الإنسان إلى هذه السماوات من الأثير .

ومشياً يبتعدان في صمت كأنهما خارجان من صلاة ، لكن حلقة الحاوي بدت مغرية بالوقوف .

– هنا السرقة حقيقية . نصف الواقفين لصوص حقيقيون يعرفهم الحاوي .

قال دميان ورد مجد الدين :

- في جيبي نصف جنيه إذا أرادوا فليسرقوه .

ابتسم دميان وقال :

- أنت واعي يا شيخ مجد ، أنا أوعى منك . ليس في جيبي شيء

وانطلقا يضحكان ويقتربان من الحلقة .

في الوسط كان الرجل الذي في حوالي الخمسين ، يقف مرتدياً بنطلوناً قديماً ضيقاً وسترة ضيقة أيضاً تحتها بلوفر برقبة أبيض وحذاؤه رخيص أسود ، كبير الحجم بلا رباط ، تباعدت أذنا كل فردة منه ، وبدا أنه لم يسبق للرجل أن مسحه بالورنيش ، وساعد على كبر الحذاء ضيق نهاية البنطلون ، وارتفاعه عن قدمه قليلاً ، ودقة الساق ونحولها ، فكان الجورب القديم يسترخي فوق الحذاء .

- انظر ، جزمة شارلي شابلن ، وشاربه أيضاً !

هتف دميان ، وكان للرجل شارب شارلي حقاً ولا يزال يحتفظ بالشعر الأسود . لم يكن مجد الدين يعرف شارلي شابلن وسأله دميان :

- ألم تشاهد السينما من قبل ؟

- نعم .

- سآخذك يوماً لفيلم من أفلام شارلي شابلن .

كان الحاوي يشرح ما سيقوم به . المعجزة التي لا يعرفها أي سـ ـاحر في العالم .ولا " هوديني " الكافر ! لم يكن أحد يعرف من " هوديني " هذا . قال الحاوي إنه يستخدم احد الأشخاص كطلمبة مياه . وسيجعل المياه تترل من فمه وأنفه حقاً . وأشار إلى فلاح شاب حاف ، يرتدي جلباباً غير نظيف وشعره منكوش أن يتقدم منه , أمره أن ينحنى فانحنى . وحين رفع الفـ ـلاح رأسه قليلاً وهو منحن إلى لجمهور ، نهره الحاوي أن لا يفعل ذلك ، حتى لا يعطل سير المياه . " المية ما تطلعش العالي يا حمار ! " وضحك الجمهـ ـور . وقف الحاوي خلف الرجل عند عجيزته تماماً ، وراح بيده يدير ذراعـ ـات وهمياً كذراع طلمبة المياه والكل في صمت ، وفجأة فرد الرجـ ـل المـ ـنحنى كفيه تحت فمه ،وانهمر الماءمنه دفعة واحدة على كفيه ، ونهض وقد اختنق ، فراح يسعل بقوة ، والحاوي يضربه على ظهره بقوة لمساعدته على التنفس ، ثم يدور سعيداً بين الجمهور الذي استغرق في الضحك والدهشة .. " شفتو العملية الجبارة . أتحدى أى ساحر . ولا هتلر نفسه ... هتلر اللي هـ ـيعلم الإنجليز الأدب ، ويعمل فيهم حاجات وحشة ، يعنى .. " وارتفع ضـ ـحك الجمهور أكثر بعد أن قال اللفظ القبيح ، وكان في يده " دفٌّ " صغير راح يتلقي يه القروش والملاليم والبرونزات والنكلات ، التي يجود بها الجمهور . كان الفلاج الذي شاركه في العرض قد عاد إلى الجمهور ، ثم بدأ الحـ ـاوي يتحدث عن لعبة أخرى سيقوم بها ، لكن دميان هتف له طالبـ ـاً أن يعيـ ـد الطلمبة . بدا الحاوي لم يسمعه أو يتجاهله ، فاستمر دميان يهتـ ـف طالبـ ـاً ذلك ، وانضم إليه عدد من الجمهور فوقف الحاوي حائراً . كان قد أخرج

شرائطه الملونة التي سيقدم بها عرضاً جديداً من شنطة قماش على الأرض ، فأعادها إليه ونظر إلى ديمان في تحد :

– تريد عرض الطلمبة ، طيب تعال أنت .

كان دميان قد تابع بعينيه الشخص الذى سبق وشـ ـارك في العـ ـرض ورآه قد ابتعد حتى اختفى . وترك نفسه للحاوي الذي أمسك به من ذراعه وقال للجمهور :

– لو مانزلش منه ميه يبقى مسدود .

انطلق الجمهور يضحك ، وتضايق دميان ، وردد بعـ ـض الجمهـ ـور الهتاف مؤكداً أن المياه ستترل منه ، أمره الساحر أن ينحني قـ ـائلاً كلمـ ـة قبيحة أخرى ، فامتثل دميان ، بعد أن فكر للحظة في خطأ الأمر كله ، لقد أراد أن " يحرج " الحاوي المسكين أمام الناس ، لكنه ليس في ذكائه ، فربما يجعله الرجل مسخرة للمشاهدين ، لكنه لم ينسحب . انحـ ـنى ، وتراجـ ـع الحاوي إلى الخلف قليلاً ، ممثلاً أنه يدقق النظر إلى مركز إلـ ـيتيّ دميـ ـان ، والجمهور يضحك ، ثم بدأ الحاوي يدير إصبعه السبابة في الفضـ ـاء أمـ ـام الإليتين ، والجمهور يضحك ، والحاوي يقول " لازم ننظفها " والجمهـ ـور يضحك ، دميان يرتفع الدم في وجهه ومجد الدين يتأسف على الوضع الذي وضع صديقه نفسه فيه ، ثم هتف الحاوي " هـ ـوب "وأدار ذراع الطلمبـ ـة الوهمي ، ولكن لا مياه تترل من فم دميان ، والحـ ـاوي يقـ ـول " انتظـ ـروا المفاجأة . لا يأس مع الحياة . النداء العظيم الخالد للزعيم سعد زغلـ ـول " ! ثم تراجع إلى الخلف ، وبأقصى ما استطاع من قوة ، ركل دميان فى إليتيه

، فألقاه أرضاً على بطنه ، وكاد وجهه يصطدم بالأرض ، لولا أنه استند على ذراعيه . ووقف الحاوي يقول للجمهور " طلمبته فاضية عذبت الجان علي الفاضي علشان كدة ضربته فيها ! " .

وكان مجد الدين قد تقدم يساعد دميان على الوقوف ، والجمهور انطلق في ضحك صاخب ، حين قفز دميان فجأة على ظهر الرجل جالساً فوقه مما جعل الرجل ينحني إلى الأرض من قوة اندفاع دميان الذي صار يجلس على ظهره فعلاً ، وراح بيديه يضرب الرجل ضربات سريعة على قفاه ، ثم قفز من فوقه إلى الأرض واقفاً مستعداً لأي شجار . لكن الحاوي نظر إليه ثم جرى إلى أشيائه المكومة على الأرض ، وجمعها فى شنطته القماش ، وجرى تاركاً المكان كله .

لقد تناثرت النقود التي سبق أن جمعها واندفع إليها الجمهور من كل الأعمار يجمعها ، وانصرف مجد الدين ودميان صامتين تاركين المكان كله داخلين في شارع النبي دانيال آخذين طريقهما إلى محطة الرمل . لم يستطع مجد الدين بعد أن ابتعد بدرجة كافية ، أن يمنع نفسه من سؤال دميان :

– ما الذي جعلك تفعل ذلك ؟ كلنا يعرف أن الحاوي نصاب لكنها فرجة وأكل عيش .

– أنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك حقاً يا شيخ مجد ، المؤكد أنني كنت أقصد الضحك معه .

***

لم يكن مجد الدين قد رأي من قبل الدنيا ملونة كما هي اليوم . العيد في القرية يتسع لألعاب الأطفال والصبية والقراقوز وصندوق الدنيا ، وملابس الأطفال الجديدة أيضاً لكن شيئاً ما يجعل الملابس تبدو قديمة. ربما رداءة أنواع الأقمشة وطريقة التفصيل ، لكن المؤكد أن لون البيوت الكابي ، والغبار الذي تثيره الحمير التي يركبها الأطفال ، لهما أثر فى أن يظهر كل شيء كأنه قديم ، هو على أى حال لا يريد أن يتذكر القرية الآن . فلتأخذه الإسكندرية إلى جوفها . الفضاء الأبيض الآن أشد بياضاً منه في غيط العنب . زرقة البحر الممتدة تمنح الإنسان الإحساس بالراحة والوداعة ، انجلت الغيوم عن المدينة اليوم وخفت الرياح الباردة ، وقيل للناس اخرجوا للمرح .

– بوارح لحدِّ بحري والمكس ، إنجليزي وفرنساوي واسترالي وغيرها

قال دميان لمجد الدين حين رآه يحملق في السفن الحربية ، التي تملأ الميناء الشرقية من بعيد عليها أعلام أجنبية ، وعلى سقفها مدافع كبيرة وصغير وجنود يتحركون بأعداد قليلة ،وتتحرك ظلالها إلى جانبها صاعدة نازلة مع الموج . هل يمكن حقاً أن يصل هتلر إلى الإسكندرية ؟ كل شيء حوله يوحي بذلك منذ وصوله .

وكان الوقت ظهراً ، وبدا تمثال سعد زغلول عالياً مهيباً وهو ينظرإلى البحر ، مشيراً إلى أسفل . بالحديقة تحته الأطفال يمرحون ، والشباب والشابات في جلسات وادعة . هذا يوم خريفي بديع ، حبس فيه حارس المطر مياهه عن الشعب السعيد .

– هؤلاء جنود أستراليا .

كان مجد الدين يتأمل عدداً من الجنود الطوال ، على رءوسهم بيريهات زرقاء . استطرد دميان .

– إنهم يتحدثون الإنجليزية كالإنجليز لكنهم أطول ، إذا وجدت اثنين من الجنود فالأطول عادة هو الاسترالي، بلادهم واسعة .

أراد مجد الدين أن يعابث صديقه فقال :

– وماذا يفيدني من تمييز الاسترالي عن الإنجليزي ؟

تأمله دميان قليلاً ثم ابتسم وقال :

– صحيح . ماذا يفيدك أو يفيدني ؟ ربما يكون للكلام أي فائدة لا نعرفها.

ضحكا وانطلقا يمشيان ، وقابلا اعداداً من الجنود الأفارقة يمرحون وغيرهم من الهنود . فقال دميان:

– جنود من كل الدنيا . الأفريكان لهم ذيول صغيرة . كل الناس تقول ذلك ، الهنود يمشون واثقين فى أنفسهم كأنهم في عزبة يمتلكونها . تعرف أنني اتمنى لو ضربت أى واحد منهم على قفاه وجريت .

– هؤلاء مساكين يا دميان تركوا بلادهم غصباً ، ولا أحد منهم يعلم إذا كان سيعود أم لا .

وسكت دميان متأثراً بحق ، لكن أعداداً من الجنود الإنجليز ظهروا يمشون على الكورنيش بينهم عدد من المجندات الجميلات . كان كل جندى

قد أحاط زميلته بذراعه ، مشى يقبلها قبلات لذيذة سريعة وسط الجو المنعش ، وعلى غير موعد أقبلت من الخلف أعداد من عربات الحنطور تجرى في سباق مجنون ، حاملة الأحباء من أولاد البلد ، ومن الأجانب والسكارى من الجنود والمجندات ، فرفع المشاة قبعاتهم وبيريهاتهم تحية للراكبين ، وامتلأ الفضاء بالصخب المجنون .

- الآن نحن في المنشية . هذا تمثال إسماعيل باشا.

قال دميان وأشار إلى النصب نصف الدائري الأبيض يتوسطه التمثال .

- إسماعيل باشا جد الملك فاروق . واحد من أهله يعنى . هو الذي بنى دار إسماعيل للنسوان تولد . ويقولون إنه هو الذي بنى مدينة الإسماعيلية ، وإنه الذي علَّم البنات .

كان مجد الدين في غير حاجة الآن لسماع أي كلام . أسلم نفسه لدميان حقاً لكنه كان يريد أن يشرب من الهواء الخفيف المنعش . ومن مياه البحر فصدره يتسع بالنشوة ، وسيؤجل صلاة الظهر إلى العصر ، أو يؤجلهما معاً حتى يعود إلى مترله في المغرب . لقد أخبره دميان انهما سيمشيان حتى الأنفوشي، وهو سعيد بذلك . لابد أن دميان أدرك رغبة صديقه الخفية فقد سكت فجأة عن الكلام ، ومشى صامتاً .

***

حين أمطرت الدنيا بعض أيام في رمضان صرت الشوارع موحلة ، والأرصفة التي بلا بلاط أيضاً ، في الصباح الباكر يخرج الناس إلى أعمالهم ،

يده الاخرى ساندويتش طعمية يقضمه بشراهة ، ثم يضع ما يتبقى منـ ـه ،في أي شق يقابله في أى حائط .

رأى مجد الدين حميدو يحمل الناس يعبر بهم بين الأرصفة نظير الملاليم ، ولما سأل دميان هل هذا العمل العجيب أمر عادي في الإسـ ـكندرية ، قـ ـال دميان " ذلك يحدث أيام الجوع فقط " .

اليوم ألحت صورة حميدو على مجد الدين ، وهو يمشي مع دميان على شاطئ البحر ، في بحري والأنفوشي . كان الهواء يلعب بـ ـرؤوس النخيـ ـل الهندي الأخضر السعف ، الزاهي الخضرة الطويل السامق الرقيـ ـق ، أمـ ـام العمارات الكلاسيكية الباروكية الشرفات والواجهات . للهواء هنا طعـ ـم الماء العذب السلسبيل ، والكورنيش يستدير في ليونـ ـة وفلائـ ـك الصـ ـيد مركونة إلى الشاطئ فوقها وأمامها الشباك مكومة أو مفردة ، ولا أحد مـ ـن الصيادين ، فاليوم عيد وكل شيء في حراسة الله .

زحام الفتيات والفتيان ، ورائحة اليود والعشب تسـ ـرى منعشـ ـة في الفضاء ، وباعة اللب والفل السوداني والبطاطا المشوية ، والحنـ ـاطير الـ ـتي كانت قد أسرعت من قبل ولا تزال تأتي مسرعة تتوقف بالعشاق أمام باعة السمك المقلي وفواكه البحر ، بلح البحر والجمبري والجندوفلي والكابوريا ، لكن مجد الدين وجد الموقف كله لا يليق به . كيف وهو الشيخ الـ ـورع يشاهد كل هذه المشاهد من العشق والدلال والعبث ؟ لذلك طلـ ـب مـ ـن دميان العودة بأسرع ما يمكن خاصة وقد اقتربا من العصر ، والمسافة مـ ـن العصر إلى المغرب في الشتاء تمر كملح البصر . قال دميان :

– نحتاج إلى كوب من الشاي في أى مقهى ، ما رأيك ؟

فكر مجد الدين أن الجلوس بالمقهى أكثر مناسبة له من هذا الصخب . أخذه دميان بعيداً عن الشاطئ ، من شارع التتويج ، بين حركة الترام والمحلات المزينة والأطفال . لابد أنه أدرك ما يدور بذهن صديقه . بسرعة وصلا إلى المنشية ، التي انفتحت أمامهما واسعة نظيفة تجلو البصر بالضوء الساقط بين عماراتها القصيرة العريضة ، المفتوحة والبازارات والصيارفة الذين يجلسون على الرصيف أمامهم " البنك وشرفاتها الكبيرة الواسعة ذات الأسياخ الحديدية ومحلاتها المغلقة في العيد سوى المطاعم " الزجاجي به العملات الورقية والفضية من كل بلاد العالم . يجلس كثيرون منهم اليوم رغم العيد يرتدون نظاراتهم التي لا تفارق عيونهم ، وتمثال محمد على باشا يقف شامخاً فى وسط الميدان . جلسا فى مقهى النيل ، وقال دميان :

– هذه قهوة السماسرة . أمامك البورصة – وأشار إلى المبنى الأبيض الفخم ، ذى النوافذ الطويلة المرتفعة ، والشرفة الفسيحة ، الذي يتوسط الميدان . وهذا شارع توفيق . البورصة مغلقة اليوم ، هذه البورصة ما أكثرما فتحت من بيوت ، وخربت أيضاً بيوتاً كثيرة ..

علق مجد الدين بسرعة على حديث دميان ، وكان يدور ، بلا إرادة منه ، بعينيه على الجالسين يتفرس سحناتهم المتخمة بالنعمة ونظاراتهم البيضاء السمكية أو القاتمة ، ذهبية الشنابر . الذين كانوا لا يرتدون النظارات، كانت عيونهم مسلطة على شيء بعيد غير موجود . وكانت رائحة " التبغ " ترتفع جذابة في الجو ، فأشعل لنفسه سيجارة وأخرى لدميان ،ووجد "

حميدو " يدخل المقهى حاملاً " كرسي الورنيش " . رآه يقف بدوره يتفرس الجالسين ، ويدق بظهر الفرشاه على الكرسي دقات خفيفة ، مسـ ـموعة ، ورآه بسرعة يتقدم ناحية ضابط إنجليزي ، يرتدي زيه العسكري ، وقد خلع " الكاب " الصوف الأخضر ووضعه جواره فوق المنضدة ، وكان للضابط وجه أحمرقوى ، وكان في حوالي الثلاثين من عمره .

جلس حميدو أمام قدميه واضعاً تحتهما كرسي الورنيش ، وبدأ يمسـ ـح الحذاء الأسود ، ذا الرقبة والكبسولات البيضاء، انشغل الضـ ـابط بقـ ـراءة جريدة أجنبية .

لم يرفع مجد الدين عينيه عن حميدو ، الذي رآه بعد أن انتهى من تلميع الحذاء الأسود يتحسسه بأصابعه . لم يدرك ماذا يفعل بالضـ ـبط . سـ ـحب حميدو كرسي الورنيش من تحت القدمين ، وأراحهمـ ـا بهـ ـدوء إلى الأرض ووقف . أعطاه الضابط ورقة نقدية من فئة الجنيه رآها مجد الدين جيـ ـداً . أخذها حميدو ، ومد يده وأخذ العصا التي كان الضابط يضعها فوق المنضدة والضابط مندهش العينين .

هى لحظة ، قبل أن يتكلم الضابط أو يحتج ، كان حميدو فيها قد جرى من أمامه بالعصا والجنيه . حاول الضابط اللحاق به . وقف وما كاد يتقدم مسرعاً ، حتى سقط سقطة فظيعة على الأرض كاد رأسه يشج فيها ووجـ ـه يتشوه . لقد افاده وجود أكثر من كرسي أمامه استند عليها . فسقطت به ولم تصطدم بوجهه . في النهاية صار ملقى على ظهره فى ألم رافعـ ـاً رأسـ ـع متطلعاً إلى قدميه . حين تحسس حميدو الحذاء كان قد ربط الفـ ـردتين كـ ـل

منهما في الأخرة برباط الحذاء نفسه ، لذلك أراح قدمي الضابط بيديه إلى الأرض . لقد حدث هرج بالمقهى .ووقف أحد الضباط الإنجليز بعيداً وأخرج مسدسه ، بينما وقف جندي هندي ذاهلاً يتابع بعينيه حميدو الذي يجرى في شارع توفيق ، وضحك رواد المقهى للحظة ثم دخلوا في الصمت ، إشفاقاً على الضابط الشاب المتألم فوق الأرض . وتقدم إليه الجرسون بسرعة ، وفك قدميه ، وساعده على النهوض ، والعودة إلى مقعده ، صار كل رواد المقهى ينظرون إليه في صمت ينتظرون رد فعله ، وكان هو صامتاً بدوره ، ثم قال بالعربية " ابن خرام " فضحك الجميع ، ونهضوا تاركاً المقهي في خجل .

***

تقدمت الأيام الأخيرة من العام بسرعة . تزايد فيها المطر حتى كاد يغرق المدينة .هذه المدينة في الشتاء تصبح كالذي ركبه عفريت . المطر لا ينقطع لعدة أيام ، ثم يغيب أياماً ليعود متصلاً . كثيراً ما يترل البرد من السماء بللورات ثلجية صغيرة . قلَّت فرص العمل وتم توفير مجدد الدين ودميان من شركة الغزل ، وعليهما العودة للهرولة من جديد على الشركات . قلَّت السفن القادمة إلى المحمودية . قالت الست مريم لزهرة إن الإسكندرية في هذه الأسابيع الأخيرة من العام تهب عليها نوَّات متعاقبة شبه متصلة حتى عيد الغطاس ، وسوف تزداد هذه النوات مع الشهر القادم آخر شهور العام ، وقالت كاميليا ضاحكة إن أصوات الرعد ستكون كالقنابل وسوف تهز البيوت ، وإن البرق سيخطف الأبصار وراحت زهرة تنظر إليها بإعجاب ، وقالت كاميليا إن أحسن مشاهد الإسكندرية، تكون في الشتاء

على الكورنيش ، عندما يندفع الموج عابراً الشارع ، ضارباً العمارات بالمياه ، وأن الشتاء يمنعها من الذهاب لمشاهدة فيلم عبد الوهاب الجديد " يحيا الحب " ، وصار ظهور عم محمود بائع نشرات الحوادث قليلاً ، بسبب الظلام والبرد والمطر ، لكن أخبار الحوادث كانت تنتقل بين الناس ، فعرفوا حادثة الشاب الذي قتله زميله بالليل في حى اللبان ،والشاب الثاني الذي عثروا على جثته داخل كشك مغلق بحي الفراهدة ، وثاني حادثة لفتاة تتزوج من رجل وهى متزوجة من رجل آخر ، والشاب الذي قتل والده منذ وقت طويل. وارتفعت الراية السوداء فوق سجن الحضرة يوم إعدامه ، وكان مجد الدين يمضى أكثر نهاره بالمقهى عند الكوبري في الأيام الصحو التي لا يحصل فيها على عمل ، يؤانسه في الجلسة دميان يطلب منه قراءة الصحيفة التي اندهش كثيراً لأصرار مجد الدين على شرائها كلما تعطل . كيف تدفع خمسة مليمات في كلام لا يفيد أغلبه كذب ؟ ومجد الدين صار مغرماً بمعرفة شئون الدنيا ، وكان يكتفي بقراءة المانشتات عن حالة الحرب في العالم ، ثم صفحات الحوادث والوفيات لا يعرف لماذا .

كان هتلر قد قام بتصفية خصومه من الأرستقراطية الألمانية وبقايا الإمبراطورية وسائر معارضيه بعد حادث ميونيخ واحتفلت المفوضية الإيطالية بعيد ميلاد الملك فيكتور عمانويل ، ومنعت الحكومة المصرية الاتجار بأعقاب السجائر وهي التجارة التي راجت بين أطفال الشوارع ، الذين يبيعون الأعقاب في المقاهي والنوادي ، ووسائل النقل ومحطاتها ، ويجمعونها بسرعة كما تلتقط العصافير حبوبها ، أجل ، وإن كانوا يلتقطونها باليد ، لكن في سرعة العصافير ، ثم يبيعونها لمحلات الأدخنة الشعبية ،

وخطب المستر تشرشل وزير البحرية الإنجليزية الداهية ، متحدثاً عن خسائر الحلفاء في البحر في الأسابيع العشرة الفائتة منذ اندلاع الحرب وكيف ان انجلترا لا تعبأ بالتهديد ، وزارت الهيئة الوفدية ضريح سعد زغلول في يوم الجهاد الذي لم تحتفل به الدولة، وعرضت سينما الأهلي فيلم على الكسار (سلفني ثلاثة جنيه) .

وتم إنشاء معسكرات جديدة لتدريب الجيش المرابط الذي استعرض قواته وزير الأوقاف في معسكرات سيدى بشر ودمنهور وظهر الجنود في العرض وهم يرتدون البنطلونات الكاكي النصف في عز البرد والبلوفرات الصوف بنصف الكم فوق القمصان الكاكي ذات الأكمام الطويلة ، والطواقي على رؤوسهم ، والبنطلونات معلقة فى أبدانهم بحمالات عريضة وعلى أكتفاهم بنادق " اللى آن فيلد " الطويلة . وافتتح المونسنيور الموسم الشتوى بالإسكندرية بعزف موسيقى أرجنتينية وغناء إسباني ، وتم توزيع استمارات على سكان كرموز مينا البصل والجمرك ، لكى يجددوا رغبتهم في الترحيل من الإسكندرية ، إذا وصلت الحرب ، والأماكن التي يرغبون في الترحيل إليها ، ولم يتم توزيع الاستمارات على منطقة غيط العنب ، وهى إدارياً تابعة لكرموز ، وإن كانت ترعة المحمودية تفصل بينهما ، وافتتح الملك الدورة البرلمانية الجديدة وقتل ضابط كان يقوم بالحراسة أمام المحافظ بالإسكندرية برصاصة انطلقت من أحد الجنود وشيعت جنازة الضباط في موكب رسمي ،ثم نقل إلى بلده قويسنا حيث دفن في موكب رسمى آخر ، وأعدم الجندي ، وطعن محام بالإسكندرية في الحكم حيث لم تعط المحكمة الفرصة كاملة للجندي الذي أصر على أن الرصاص انطلق من بندقيته دون

قصد ، ورفعت الراية السوداء فوق سجن الحضرة للمرة الثانية فى أقل من شهر .

وغرقت الباخرة الهولندية سيمون بوليفار فلاح في الأفق أن الحرب قادمة مع ألمانيا ، وتراجعت محاولة الصلح التي قام بها ملك بلجيكا وملكة هولندا ، وأعلن ان انجلترا تنفق على الحرب ستة ملايين جنيه يومياً حتى الآن ، وصارت بولندا خراباً كاملاً ، وتم حصر اليهود في حي واحد ، تحيطه الأسلاك الشائكة ، وما كاد صباح الأول من ديسمبر يصعد إلى الدنيا ، حتى جاءت الأنباء بالهجوم الروسي على فنلندا ، وازداد إغراق سفن الحلفاء بالألغام الألمانية ، وارتبك العالم من عنف الهجوم الروسي وضرب هلسنكي بالطائرات ، وكانت الطرادات الإنجليزية قد أعدت خطة لإغراق البارجة الألمانية المخيفة : " جراف شبي " ، واستدرجها الطراد أشيل ، والطرد أكستر في معركة يتابعها الناس كل يوم . مباراة دامية بين الذئاب استمرت عدة أيام ، دخلت بعدها جراف شبي إلى ميناء مونتيفيدو المحايد بالأرجنتين فتربص بها الطرادان خارج المياه الإقليمية. ماذا ستفعل جراف شبي وكيف تخرج من هذا الحصار ؟ كان هناك جرحى وقتلى من رجالها وأسرى من البريطانيين الذين ألتقطتهم جراف شبي بعد إغراق سفنهم ، لكنها الآن لا تستطيع الخروج إلى المحيط الأطلنطي. جاءت التعليمات لقائدها بإغراق السفينة خارج المياه الإقليمية ، و إغرقها القائد وجنوده أمام المتابعين من كل مكان في الأرجنين ، الذين انتقلوا إلى مونتيفيديو يشاهدون المباراة المميتة ويسجلونها . وعاد لوريل وهاردي إلى العمل معاً فسعد جمهورهما الكبير ، وصدمت سيارة جيش بريطاني مواطناَ مصرياً في شارع

المكس فتوفي على الفور، ولم يعثر على أهله ، وألقى محمد موسى نفسه من نافذة المستشفى الأميري فمات ، ولم يعرف أحد هل قتل أم انتحر أم انتابته نوبة هستيريا مفاجئة ، واستمر القتال بين روسيا وفنلندا، التي ثبت جنودها وحققوا انتصارات مذهلة ، وانتحر الجنرال " لنجسدورف " قائد البـ ـاخرة جراف شبي بعد أن عقد مؤتمراً صحفياً قال فيه للصحفيين إنه لا يملك شيئاً يقدمه لهم لكن في الغد سيعطيهم شيئاً كبيراً وبر بوعده وأعطاهم انتحاره ، وهدد هتلر انجلترا بأنه سيقضي عليها بألف طائرة كل يوم ، واشـ ـتعلت في الشرق الأقصى الحرب بين الصين واليابان فبدا العالم كله كتلـ ـة نـ ـار ، في مكان مجهول منها يجرى مجد الدين ودميان وعشرات مثلهما للبحث عـ ـن عمل . وكان مجد الدين متحيراً للغاية في أمر ذلك الفتي الصغير شبه المجنون الذي يفاجأ به دائماً يقف جواره أمام أبواب الشـ ـركات ، أو يهـ ـرول إلى جنبه من مكان إلى مكان . لم يكن أحد يعطيه عملاً أبداً ، وتعود مجد الدين على لهجته الخنفاء و أشفق دائماً عليه ، وأعطاه أكثر من مرة خمسة قروش كاملة ، ورآه أكثر من مرة يتابعه حتى إذا رآه قد دخل إلى المقهى وجلس ، دخل خلفه وجلس بعيداً ينظر إليه فاغر الفم ، فيأمر له مجد الدين بكـ ـوب ساخن من الشاى، ويقول له دميان هذا قرينك يا مجد الدين خرج لك مـ ـن تحت الأرض ويتأمل مجد الدين الفتي المعتوه ويرى فيه واحداً من أبنـ ـاء الله الصغار ، الضائعين المباركين أيضاً .. من يدري .

واقترب العام من نهائيته فأحست زهرة بالفعل بالخوف مـ ـن صـ ـوت الرعد وقوة الأمطار ، وكثيراً ما أظلمت الدنيا نهاراً كاملاً ، لكن جلسـ ـاتها مع الست مريم والبنتين اللتين كثيراً ما تخلفتا عن المدرسة بسبب المطر كانت

تشعرها بدفء حميم خاصة حين تنضم لوللا إليهن بنكاتها التي تطلقها على الناس في الشارع ، الباعة وأصحاب المحلات ، والتي صار زوجها يضربها كثيراً في الأيام الاخيرة ، ويسمعون صوت صراخها قادماً من أسفل ، لكنها عادة ما تهدأ وينقطع كل صوت ثم يرتفع صوت ضحكها . صارت هذه عادة ليلية ولم يتحدث أحداً إليها عن شيء ولم يسألها عن الأسباب .

وكانت آخر حكايات أم حميدو لزهرة عن الكونت زيزينيا ، الذي يقاضي الآن بلدية إسكندرية لأنها استولت على أملاكه بالرمل . كانت هناك بالفعل قضية مرفوعة من الكونت على بلدية الإسكندرية يتهمها فيها بالاستيلاء على أراض مملوكة له على البحر ، من جليمو نوبلو إلى سابا باشا ، وقالت لها إنها عملت خادمة فى بداية حياتها في سراى الكونت بالرمل ، وهى تعرف أنه على حق فخط الرمل كله ملكه . غير أنه بخيل . هكذا قالت . لذلك رزقه الله بمن أخذ منه كل شيء .

وسألتها أم حميدو فجأة هل تعرف المرأة المسكينة التي كانت تمشي دائماً وراء البهي في الطرقات . قالت زهرة إنها لا تعرفها لكن أم حميدو ابتسمت وقالت إن في غيط العنب " ناس كتير من بلدكم يعرفونها وقالوا إنها كانت فى شبابها تحب البهي وأنه سبب جنونها " سكتت زهرة ولم ترد ولكن أم حميدو عادت تقول إنها تعرف " نسوان كتير " همن عشقاً بالبهي . إن في وجهه جاذبية قاتلة للنساء ، وهى تصدق أن تلك المرأة ضحية من ضحاياه . قالت زهرة بهدوء " هذا تاريخ قديم يا أم حميدو " . في ذلك الوقت كان الحانوتي قد عثر على " البهية " جوار قبر البهي ، ممددة في الوحل غارقة في مياه الأمطار ممسكة بعصاها بكلتا يديها تشد عليها شداً .

كان يراها منذ أيام جالسة لا تتحرك أمام قبر البهي ، غير آبهة بالأمطار والبرد ، وحاول كثيراً أن يبعدها ، لكنها كانت تنظر إليه نظرة تخيفه فيبتعد . الليلة دخل المقابر يسرق كفنا جديداً ، لسيدة موسرة دفنت في الصباح ، فرأى البهية ميتة في عودته ، فكر قليلاً فيما يمكن عمله ، ورقَّ قلبه لحال المرأة المنكوبة . وفكر أنه لو أبلغ البوليس سينتهي الأمر بدفنها في مدافن الصدقة إذ لا يبدو أن ثمة أهلاً لها ، فضلاً عما يسببه البوليس من إزعاج . نظر للكفن الذي سرقه ملفوفاً ومكوماً تحت إبطه وإلى المرأة التي تحت المطر واستغفر الله ولفها بالكفن المسروق ثم دفنها داخل مقبرة البهي !

انتهي العام بلا هدنة بين المتحاربين ، بل زيارات للجبهات العسكرية من قبل القادة والملوك والرؤساء ، ورسالة من الملك جورج الخامس إلى الشعب والجيش بمناسبة عيد الميلاد ، ورسالة للجيش من الجنرال جاملان في فرنسا وذهب هتلر بنفسه يمضي عيد الميلاد مع جنوده في الميدان الغربي ، والجميع تمنوا النصر لشعوبهم وجيوشهم ، ومازال الفنلنديون يسجلون انتصارات مذهلة ، وطردت عصبة الأمم روسيا من عضويتها ، وعرض يوسف وهبي فيلمه " أولاد الشوارع " في القاهرة ، التي ظهر بها كثير من إصابات التيفويد ، وبيعت عشرات من زجاجات الكونياك والشمبانيا والويسكي في الإسكندرية وسهرت ملاهيها على ضوء الشموع فى وداع العام القديم ، ورقص جنود العالم مع نساء العالم ، وبكى بعضهم ، راجين أن يأتي عام جديد أفضل ، وقبل انتهاء العام بيومين حدث زلزال رهيب دمر قرى عديدة في تركيا ، وأخفى مدينة أرذنجان من الوجود ، وكانت زهرة تتمنى انتهاء شهر كيهك البارد هذا ، ومجد الدين ودميان يجدان عملاً يوماً

ويجلسان بالمقهى أسبوعاً ، وفي صباح اليوم الأخير من العام جلس الفتى المعتوه بالمقهى أمام مجد الدين الذي أمر له بكوب الشاي لكن الفتى بكى فجأة ، فقام مجد الدين وجلس جواره ،وسأله لماذا يبكي ، فقال وقد اختلطت دموعه بمخاطه .

- أبويا قتن أمى بنِّين إمبانح .

***

" صلوا من أجل خلاص العالم

ومدينتنا هذه وسائر المدن "

"كيرياليسون "

-10-

دقت أجراس كنيسة مار جرجس بشارع الرند في المساء . الليلة يقام قداس الميلاد ، وغداً يبدأ العيد بذكرى ميلاد السيد المسيح ، وخرج الشباب والفتيات في أبهى زينتهم ، وكذلك فعل الرجال والنساء ، وسرت

في الجو رائحة العطور الرخيصة من المارة ، ومن الذاهبين إلى الكنيسة ، ومن نوافذ كثيرة في البيوت . صارت في الجو حالة من المرح والغبطة جعلت الفتيات والصبية والشباب من المسلمين يشعرون أيضاً بالانتشاء والفرح ، وخرج كثير من الأسر المسلمة تبارك العيد لجيرانها الأقباط ، ورأت زهرة كاميليا وإيفون وأمهما ، ثلاث وردات ملائكية تشع وجوهها البهجة التي لم تر مثلها من قبل . قالت لهن .

– كل سنة وأنتم طيبين .

هكذا أوصاها مجد الدين بالليل أمس . لقد عرف من دميان بالعيد حين سمعه يقول :

– غداً ينتهي صوم الميلاد ، ثلاثة وأربعون يوماً من الصوم عن الروح باستثناء السمك ، وكل طعامنا بالزيت يا شيخ مجد حتى أن المعدة ضجت وثارت وكادت تقفز من الحلق .

وسأله مجد الدين :

– إذن تصومون ثلاثة وأربعين يوماً كاملة في العام .

ضحك دميان وقال :

– يا شيخ مجد ، العام كله تقريباً صيام ،أنتم لديكم شهر واحد ، ونحن لدينا أصوام ، عذاب يا رجل يخفف منه الفقر الذي يجعلنا في صوم طبيعي .

وسكت لحظة ثم قال :

– أحياناً يخيل لى أن الصوم من أيام الاضطهاد ، خذ م ثلاً الص وم الكبير ، هذا الصو مدته خمسة وخمسون يوماً ، هذا أهم الأصوام لأن السيد المسيح صامه . السيد المسيح صام أربعين يوماً فقط ، لكننا أض فنا إليه ا أسبوعين ، واحدا قبل الأربعين يوماً لإعداد النفس للصوم . والث اني بع د الأربعين يوماً كرمز لأسبوع الآلام الأخير للسيد المسيح .

ابتسم مجد الدين وقال :

– دميان أنت شيطان .

وسكتا وقال دميان :

– هل ستزورني بعد غد ؟ إن لدينا عيداً ، عيد ميلاد السيد المسيح .

تأثر مجد الدين بحق ، وقرر أن يزوره أكثر من مرة خلال العيد ، وسمع دميان يتمتم قائلاً :

" المجد لله فى الأعالي وعلى الأرض السلام ،وفي الناس المسرة " فابتسم وبالليل أخبر زهرة بالحديث كله ، فأدركت لماذا تتغير رائحة طبيخ الق بط عن المسلمين : " صيامهم كثير وطبيخهم بالزيت ، وحياتهم كرب ، استغفر الله العظيم " .

وقالت كاميليا وهي تكاد تقفز من السعادة :

– رايحين القداس يا زهرة، الصلاة يعنى ، نس بح ونهل ل ونقاب ل أصحابنا .

دهشت زهرة من كلام كاميليا الذي لم تفهمه ، ولكن لابد أنه أمر حقيقي وجميل ، لأن الأم ابتسمت كوردة وإيفون أيضاً . ولا تعرف زهرة كيف واتاها هذا الإحساس المفاجئ بالرغبة في الذهاب معهن إلى الدير ، لكن شحب وجهها للحظة من الفكرة العجيبة فصافحتهن مرة ثانية ، وسمعت صوت الست لوللا قادمة ، فقررت أن تقضي معها بعض الوقت . لقد تأخر مجد الدين في الخارج اليوم ، ولعله وجد عملاً جديداً ، فالأعمال هنا تبدأ في الصباح الباكر ولا تنتهى قبل السابعة مساء .

تواصلت أعياد المسيحيين ، وهطلت الأمطار بشدة في الغطاس ،وتحولت السماء إلى أفواه قِرَب تطرد المياه إلى الأرض ، وبالليل جلست زهرة مع الست مريم وبنتيها ولوللا يمصصن القصب معاً ، اكتشفت زهرة أن المسحيين يفعلون ذلك أيضاً مثل المسلمين ، وقالت إيفون بثقة : هذه عادة فرعونية ، ليست مسيحية ولا إسلامية، أجدادنا الفراعنة كانوا يفعلون ذلك ، توافق اليوم مع عمادة السيد المسيح بنهر الأردن ، عمده يوحنا تعرفينه يا زهرة ؟

- لا أنا مش فاهمة .

ضحكت كاميليا وقالت :

- يوحنا هو سيدنا يحيي بن زكريا ، أنا كل يوم أسمع عم مجد الدين وهو يقرأ القرآن ويقول " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى "

بدت زهرة ذاهلة من هذه البنت التي تنصت لتسمع مجد الدين الذي عادة يرتل القرآن في المساء بصوت خفيض للغاية ، لكن لابد أنه يصلهم

واضحاً ، وقالت لوللا : " خلونا في القصب أحسن ، إحنا مش فاهمين حاجة " ، وضحكت ، وكان الخواجة ديمتري يعمل ليلاً في جراج البلدية هذا الأسبوع فهو يعمل بنظام الورديات ، وكان عيد الأضحى على الأبواب ، فقالت لوللا مبتهجة " يارب اجعل حياتنا كلها أعياد " وبدأ المطر يخف من فوق سماء المدينة والسحب السوداء تقف بعيداً وانتهي يوسف بك وهبي من عرض دراما القاتل على مسرح برنتانيا بالقاهرة ، وتم ضبط عصابة كبرى لتزييف النقود وفي حوزتها ثلاثون ألف ورقة من فئة الجنيه ، وعرضت سينما الكوزمو فيلم المطربة ملك الجديد " العودة إلى الريف" . وأرسلت الحكومة المصرية لضحايا زلزال تركيا ألفين وأربعمائة بطانية من الصوف وأمصالاً لحقن خمسين ألف شخص ضد الأوبئة وقال دميان لمجد الدين : هل لابد من زلزال هنا كي يعطونا أيضاً بطاطين ؟ ثم ابتسم وقال : الموت من البرد أفضل من الموت بالزلزال على أى حال ! وتم الانتهاء من بناء مستشفى الصدر بالعباسية ،وأعلن عن تشكيل الجيش التشيكوسلوفاكي بفرنسا ، ومر عيد الأضحى ولم يصل أحد من القرية ليزور مجد الدين ، لقد كان في اليوم التالي عيد الغطاس ، وسرت بين بعض المسلمين همهمة غامضة ، هذه الأمطار المباركة بالنسبة للمسيحيين في الغطاس ، إذا استمرت لا تكون مباركة بالنسبة للمسلمين في عيدهم ، وفوجئ الناس بيوم العيد يأتي صحواً ترتفع فيه الشمس مبكرة ، وتشرب الأرض ماءها الذي ظلت تستقبله حتى منتصف الليل الفائت ، وقال الخواجة ديمتري لمجد الدين وهو يباركه بالعيد " لقد وزع الله رحمته بالتساوي على الناس يا شيخ مجد " شرح له ديمتري أن الماء ظل ينسكب

أمس وأول أمس ليل نهار ، يوم الغطاس وقبله ، وكان يمكن أن يفسد فرحة المسلمين بالعيد فيظلون في بيوتهم فلا يخرجون للصلاة ولا التهنئة ، لكن الله سلم ، قال مجد الدين " ونعم بالله ، كل ما يأتي من عنده فرج " قال ديمتري ضاحكاً : أردت فقط مداعبتك ، أنا أعرف إنك رجل صالح لا تفرق بين مسلم وقبطي ، وهذه الدولة يا شيخ مجد شعارها من أيام سعد باشا " الدين لله والوطن للجميع " ، ولكن أولاد الحرام يحبون أن يشعلوا نار الفتنة وخصوصاً فى الأحياء الفقيرة مثل حينا . سكت مجد الدين طويلاً ، تذكر البهي حين قال إن الفتنة بين المسلمين والمسيحيين تراجعت كثيراً وقال لديمتري :

– الفتنة موجودة في كل وقت وبين كل طائفة وأختها ، بلدنا محسودة يا خواجة ديمتري ، ونحمد الله إن الحرب لاهية الناس .

وانتهى عيد الأضحى ، ولا تزال لجنة مشروع القرش ، تجمع التبرعات من أجل الصناعة الوطنية المصرية في القاهرة والأقاليم ، وهجم على الإسكندرية نوع من الناموس لم يعرف من قبل جاء من ناحية بحيرة مريوط ، فقام معمل تحليل الأوبئة بالمدينة بتحليله ، وانتهى إلى أنه ليس ناموساً لكنه نوع من الذباب الضعيف ، الذي يقضى عليه البرد ولا خطر منه ، وتكفلت الأيام الباقية من شهر طوبة بالقضاء عليه ، وأقامت جمعية المواساة سحبها السنوي على ورق اليانصيب ، وخصصت دار الأوبرا عروضها لجنود الكومنولث ، وكانت الملكة فريدة والملكة نازلي ، تحرصان على حضور هذه العروض وجاءت الأخبار أن شارلي شابلن انتهى من إخراج فيلم الدكتاتور العظيم ،وانتهى عرض فيلم يوم سعيد بالإسكندرية

ولحقت به كاميليا وإيفون فى آخر حفلة ، وراحتا تحكيان لزهرة عن عبد الوهاب وهو مفلس ، وعن الممثلة الجديدة الطفلة " الأمورة " التي اسمها فاتن حمامة ، وقدمت السيدة عزيزة أمير الشكر للشعب المصري على صفحات الصحف لتشجيعه لفيلمها " الورشة " وخصت بالشكر رجال الجيش ونقاد الفن ، وأقيمت مناورات مصرية بريطانية شرقاً هذا المرة عند الكيلو ثمانين بطريق السويس واختيرت الفتاة ريتاهيوارث ملكة جمال للعام الحالي ألف تسعمائة وأربعين واكتشفت مقبرة جديدة بناحية سقارة ، يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، وتبرع الملك فاروق بآلة تشغيل سينمائية ، للترفيه عن الجنود وأهالى مرسى مطروح ، لفظت ترعة المحمودية ثلاث جثث في شهر واحد هو شهر مارس ، من بينها كانت جثة " الفتى الأخنف " وتوصل البوليس إلى الجاني ، الذي كان أباه ، الذي أصابته لوثة فاعترف بقتله الأم من قبل ، وانفرد مجد الدين ثلاثة أيام في غرفته لا يبارحها ، معتبراً نفسه سبباً في قتل الفتى المعتوه ، لأنه لم يصدقه يوم بكى وأعلن قتل أبيه لأمه ، لقد نصحه دميان أن لا يذهب إلى نقطة البوليس وإذا كانت هناك جريمة حقاً فسوف تظهر ، وها هي قد ظهرت ولكن راح ضحيتها الفتى المسكين ، أنقذه من حزنه دميان الذي صار يأخذه كل مساء إلى مقهى بعيداً على شاطئ المحمودية بين كوبري راغب وكوبري كرموز حيث يعيش " باعة الترمس " في بعض البيوت المتناثرة على الشارع الموازي للترعة يضعون الترمس في أجولة من الخيش يربطونها بإحكام ، ويتركونها في ماء المحمودية الجارية عدة أيام فتضيع مرارة الترمس في الماء العذب ، فيسحب الباعة الأجولة إلى الشاطئ ويبدأون في بيعه على " عربات يد "

صغيرة ، يطوفون بها مع الصباح الباكر ، في أحياء راغب وكرموز ومحط ـة مصر ومحرم بك وغيرها مما يقع شرق المدينة ، والقباري وكفر عشري غرب المدينة ، ويعودون مع المساء فيصلون مع الليل مرهقين ، يتركون عرباتهم في أمان على شاطئ المحمودية ، ومع الصباح يبدأون جولتهم . قليلون من ـهم يسهرون في المقهي المنعزل . منطقة خالية تصلح للقتل وللحب وللص ـلاة أيضاً والخشوع .

بالمقهى الصغير جداً ، الذي هو عبارة عن عدة مناضد خشبية ومقاعد من القش وكشك من الصفيح به يتم صنع الطلبات ، بهذا المقه ـى كان ـا يجلسان كل مساء تهب عليهما ريح طيبة من المحمودية محملة بالبخر الأبيض ، حاملة نسمة شتوية متأخرة كأنها النفس الأخير للشتاء وأمامها تمر السفن فاردة أشرعتها يشدها على الشاطئ رجال أشداء ربطوا الحبال بص ـواريها ولفوها حول صدورهم ،وحول السفن الكبيرة فلائك ملونة عليها ش ـباب وشابات ونساء وأطفال يمرحون ويغنون ، ويأتون من كل ناحية وينت ـهون عند الترهة ثم يعودون ويشعر مجد الدين أن كل شيء حوله حر إلا هو لقد تم تقييده في الإسكندرية إلى أجل غير معلوم . الإسكندرية التي رأي " غفارة " بائع النشارة يقف أمس أمام عربته وحماره ويهتف "يارب اجمع شمل إيطاليا على ألمانيا علشان إسكندرية تولع بالأجانب والنسوان " وض ـحك الم ـارة وأصحاب المحلات ، الذين يشترون منه النشارة ، يرشونها على الأرض قبل كنس الدكان آخر النهار ، لغفارة عربة خشبية ، ذات ص ـندوق خش ـبي يرتفع لحوالي المتر، ويمتد طوله مع طول العربة ، أى حوالي المتر ،ويجر العربة حمار منهك دائماً وعجوز ، ولقد كتب غفارة على جانبي العربة " الحمول ـة

أربعة أطنان ، والنقل لعموم القطر ، ومستعدون لتوصيل النشارة بالتليفون " ويظل الناس يقرأون هذا الإعلان ويضحكون ، فالعربة كلها من الخشب والحمار والنشارة وغفارة نفسه لا تزن ربع طن .. لقد ظهر غفارة أم س وقد وضع على وجهه طربوشاً نزع عنه الزر وربطه من ن احيتين بأس تك يشده على رأسه من الخلف ، وجعل للطربوش فتحتين صغيرتين ثبت فيهما قطعتين من الزجاج راح يطل من خلفهما ، وفتح دائرة في الطربوش ثب ت فيها " فلتر " مياه ،وقال للناس إنه سمع أحد المتعلمين يقرأ فى الصحيفة عن اقتراح تقدم به أحد الأطباء لوزارة الصحة باستخدام الط رابيش كأقنع ة واقية من الغازات ، ما دامت الأقنعة غير متوافرة في الأسواق ،ولأن مح يط الرأس يساوي محيط الوجه ، فالطربوش يمكن إحكامه على الوجه بأستك ، ويكون على كل شخص بعد ذلك أن يجعل للطربوش عينين من مادة " الميكا "، ولم يعرف غفارة من أين يشترى الميكا فوضع زجاجاً ، كما يمكن تثبيت فلتر تنقية الهواء ويتم التنفس من خلاله وغفارة لم يجد فى محلات العط ارين فلتراً لتنقية الهواء فاشترى فلتراً صغيراً لتنقية المياه ، لكن لا توجد غ ازات يا غفارة ولم تحدث غارات في مصر ولا في إسكندرية ولاغيرها .

يعرف غفارة ذلك ويقول إن الجو بشكل عام ملوث وفي ه سم وم ، وليس مهماً أن ينتظر غارات عسكرية تلقى على الناس الغازات ، وكان ت المدافع قد انطلقت فى الإسكندرية وسائر مدن القطر ولكن لإعلان بش رى انتظام التاج الملكي لدرَّة جديدة كريمة ، إذ أنجبت الأميرة فوزية طفل ة في الثامن من إبرايل وأذيع الخبر فانطلق عدد كبير من أفراد الشعب إلى القصر الملكي بالقاهرة يهنئون ، وعلى غير ما هو منتظر ، لم يهاجم هتلر هولن دا

ولا بلجيكا ولا فرنسا ، هاجم النرويج والدنمارك ، وكانت روسيا قد انتهت من فنلندا ، وشهدت البحار الشمالية أكبر المعارك حتى النرويج ، بينما استسلم ملك الدنمارك بسرعة ودعا الشعب إلى الهدوء والسكينة ، واشتد ضغط الألمان على قوات الحلفاء فى النرويج ، ووصلت إلى مصر قوات من روديسيا استقبلها في ميناء السويس أحمد راسم بك محافظ السويس ، الذي لم تذكر الصحف أنه شاعر كبير يكتب بالفرنسية وعاشق النساء من كل أنواع العالم ومعبود فتيات الطبقة الأرستراطية ، وكان معه في الاستقبال ، وزير انجلترا المفوض في السفارة البريطانية ، الذي خطب في الجنود مرحباً بهم باسم جنود الأمبراطورية ، لا في مصر فقط ، ولكن في كل " الوطن الأكبر من نيوزيلنده إلى الهند " وانتابت دميان نوبات سعال جاف متكرر وقال لمجد الدين إنه استخدم كل الوصفات الشعبية الممكنة وإنه يخشى أن يكون قد أصيب بربو ، في هذه الحالة سيموت ، لأن ثمن زجاجة حبوب منداكو ثلاثون قرشاً وهو دواء نادر يأتي من انجلترا التي انقطعت بيننا وبينها المواصلات .

ثم صعد الحزن إلى وجهه ، وقال لمجد الدين إنه قرر أن يذهب إلى الكنسية ويعترف بعصيانه ويواظب على الصلاة في الآحاد . كان مولد النبي قد مر بالناس في صمت ، سمع القرآن من الراديو ، لم تقم أي سرادقات ليلية ، لكن بيعت كميات رهيبة من حلاوة المولد ومن الأحصنة والعرائس الحلاوة ، وكان دميان صائماً الصوم الكبير الذي رأي فيه أسبوعين زيادة وذهب شارد اللب إلى الكنسية وعاد زائغ العينين : " بكيت كثيراً يا شيخ مجد وباركني أبونا وطلبت من القديس مارى جرجس أن يجد لى عملاً دائماً

ولك معي ، وكما ترى لم أعد أسعل ، أعطاني أبونا زيتا ذهب بكل سعال ، الهداية حلوة يا شيخ مجد . أنت صاحب الفضل في هـ ـدايتي حـ ـتى لـ ـو لم تقصد . أنا كنت نسيت أن هناك إيماناً ومؤمنين ".

وأهدت الست مريم لزهرة علبة من " ثلـ ـج هيـ ـزلين " Hazelin Snow وعلبة بودرة وعلمتها كيف تستخدمها كأساس للبودرة ، وأهدتها قلم روج ، وقالت لها " أنت ما زلت صغيرة فلماذا لا تفعلين ذلـ ـك لمجـ ـد الدين ؟ " ورآها مجد الدين ففطن للأمر ولم يتكلم ، هذه المدنية سـ ـتتعلمها زوجته أراد أو لم يرد عليه أن يسكت حتى لا تمضي إلى المدينة أكثر ، لقـ ـد علمته الحكمة أن النهي عن شيء يدعو للتهافت عليه ، وزاد على ذلك بأن قال لزهرة " لقد صرت جميلة كما لم تكوني " وفي نفسه لم يكن يكـ ـذب ، كان يعود متعباً من جولاته على المصانع بطول ترعة المحمودية ، لقد وصـ ـل إلى مخازن بنك التسليف في كفر عشري ، وحمل على ظهره الأجولة طـ ـوال النهار ، وعمل بمحالج القطن بمينا البصل وسط مئات من النسـ ـاء الـ ـلاتي يعملن في حمل القطن قبل حلجه وعزل البـ ـذرة ، ورأى صـ ـدور الرجـ ـال مشفوطة للداخل مما يعتورها من أمراض صدرية بسبب غبار المحالج وخاصة الذين يقفون على ماكينات " الفرفرة " التي تقوم بأهم مراحـ ـل الحلـ ـج ، ورغم ذلك لم يكن العمل دائماً فالقطن الموجود ، من الموسم الماضي وهـ ـو قليل ، فكان ينتقل بين المراكب الراسية بالمحموديـ ـة لتفريـ ـغ شـ ـحناتها أو تحميلها من الميناء ويمسك بنفسه يتلفت باحثاً عن أحد فيجد دميان لا يفارقه لكنه لم يكن يبحث عن دميان ، بل عن الفتى الأبله المقتول الـ ـذي تخايلـ ـه صورته في الفضاء كثيراً ، وهكذا مع الأيام ، العمل أو الانقطاع، صـ ـارت

هذه المنطقة الشاسعة جنوب الإسكندرية ميدان مجد الدين ودميان ، وميدان مؤلم يعود منه مشتاقاً لشيء جميل ، ولم يكن كاذباً حين قال لزهرة إنها صارت أجمل .

وبدأت ببا عز الدين موسمها الصيفي مبكرة عن موعده بتياترو ديانا بمحطة الرمل كما تفعل كل عام ، وعرضت سينما مترو القاهرة فيلم ساحر أوز الذي صارت موسيقاه هي موسيقى الجنود في الخنادق وميادين القتال في أوروبا ، وبدأت نذر الخماسين تهب على الإسكندرية من الصحراء الغربية ، وأصفر الجو يوما كاملاً وامتلأ بالعاصفة الترابية ، ومع حلول شهر مايو كانت جمعية المواساة قد أتمت بناء مستوصفها في مينا البصل ، وقررت بلدية الإسكندرية منع الاستحمام بالأنفوشي هذا العام والأعوام القادمة إذا استمرت الحرب ، واحتفل المسيحيون بيوم القيامة وبدوا أكثر فرحة من يوم الميلاد ، وكانت امتحانات نهاية العام الدراسي قد بدأت ، ولاحظت زهرة أن شحوباً بدأ يظهر على كاميليا ، وأنها لم تعد بالبهجة المعتادة لها ، الامتحانات وبداية الأجازة الكبيرة ، واندهشت زهرة من هذا الكلام ، وراحت تتابع شحوب كاميليا ورأتها أكثر من مرة تجاهد لتخفي دموعها وأدهشها أن الشحوب انتقل إلى إيفون أيضاً ،وتحدثت مع الست مريم التي بدت متحيرة ، ودخلت لوللا في النقاش وقالت لو بنت واحدة كنا قلنا الحب . نظرت زهرة إليها بغيظ ، وارتفعت حمرة الخجل إلى وجه الست مريم ، وبالليل فكرت زهرة كثيراً في البنتين وقالت لنفسها إن واحدة منهما فى ورطة والثانية تعرف ، وعلى الفور أضافت لنفسها إنها كاميليا الشاحبة أكثر ، الملائكية الوجه مثل ستنا العذراء مريم هي التي فى ورطة ، إنها مثل

جذوة نار لن تخمد إلا إذا انتهت، واستغفرت ربها وطلبت منه السلامة للبنتين والعائلة الطيبة . امتلات الشوارع والحدائق بأوراق الخس والملانة وفروع البصل وبقايا الرنجة والسردين وقشور البصل ، في صناديق القمامة حقاً ، لكن الرائحة كانت تصعد للمارة والسكان ، وخرجت زهرة لأول مرة تركب فلوكة فى المحمودية مع كاميليا وإيفون والست مريم ، وذهبن إلى حديقة الحيوان . كان كل شيء حولها ضاحكاً حتى البنتين ، لكن ليس كضحكهما المعتاد ، كما أن كاميليا تركتهن واختفت لأكثر من ساعة ثم عادت ولمحت زهرة في وجنتيها دماً جديداً وفرحة سرعان ما اختفت بعد جلوسها بدقائق ، كاميليا الآن لا ترى في البيت إلا وفي يدها كتاب بالإنجليزية ، إنها وأختها في البكالوريا في مدرسة نبوية موسى أشهر مدارس الإسكندرية .

وانتهى شم النسيم وأيام الأعياد ، واستسلمت النرويج في النهاية وهزم فيها الحلفاء وحبس العالم أنفاسه منتظراً الضربة القادمة لألمانيا وهاجم الطرادان الألمانيان " شارنهورست " " جيزناو " حاملة الطائرات البريطانية جلوريوس وأغرقاها في أقل من ساعة ونصف الساعة ، وأصدر وزير الدفاع الوطني قراراً بحظر الزواج على ضباط الجيش المصري الذين هم في رتبة الملازم ثان ، حتى لا تشغلهم الأعباء العائلية عن الشئون العسكرية وتم تأجيل فكرة الاصطياف في مرسى مطروح هذا العام ، إلى أجل غير مسمى ، نظراً لظروف الحرب ، ولعدم وجود أماكن إقامة أصلا للمصيفين ، وبدأت الولايات المتحدة تصدر الطائرة" بل إير كوبرا " المطاردة السريعة ، التى تطير بسرعة سبعمائة كيلو متر فى الساعة إلى الحلفاء بسعر عشرين ألف

جنيه للواحدة ، ومنع الصيد بالميناء العربي ، كما منعت من قبل السباحة بالأنفوشي وأصدر اللواء بيكر باشا ، حكمدار بوليس الإسكندرية ، أوامره باعتبار الثامن من مايو يوماً للطوارئ فجرت غارات تجريبية وعمليات إنقاذ تمثيلية ، وأعلن عن طلب متطوعين ومتطوعات لتدريبهم . وأذيعت أماكن المخابئ العامة وسعتها بأحياء الجمرك والمنشية واللبان والعطارين وميناء البصل ومحرم بك والرمل ، وأعلن خمسون من كبار شخصيات مدينة سيدني في استراليا موافقتهم على الاقتراح بمنح مساحات من الأراضي في شمال غرب القارة مجاناً لجمعية الاستعمار اليهودية لإسكان اليهود الفارين من أوروبا، وألفت حكمدارية العاصمة في مصر فرقة من رجال البوليس والجيش قوامها نحو ستمائة شخص من ضباط وجنود وكونستبلات ، ووضعت هذه الفرقة تحت تصرف القلم السياسي ، وجاء فجر العاشر من مايو بالأنباء التي خاف العالم أن تحدث يوماً ، إذ ضرب الألمان ضربتهم الكبرى ، وغزت جيوشهم هولندا وبلجيكا ، والأراضي الواطئة في فرنسا ، لقد انتهى الهجوم على النرويج وظهر للعام أن في ألمانيا أعظم بعث عسكري مرعب عرفته البشرية ، وها هي ألمانيا تنشر الرعب في كل أوروبا ، استقال المسيو تشامبرلين وألف ونستون تشرشل الوزارة ، ووقف في مجلس العموم يقول إن سياسته هى " الحرب من البحر والبر والجو وهدفه كلمة واحدة هي النصر " وأزاح الملك فاروق الستار عن تمثال مصطفي كامل ، ملك شاب يزيح الستار عن الزعيم الشاب ، ونشرت الصحف كلماته التي صارت مضرب الأمثال " أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا وإن لى روحاً من نور الوطنية الساطع لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد " وبدأ

في إعداد أماكن بمحافظة البحيرة لترحيل سكان الإسكندرية عند اللزوم وظهر للعالم أن ألمانيا غزت فرنسا بمائة وست وعشرين فرقة ، واستسلمت هولندا لأنه لا فائدة من المقاومة ، وأذاعت الملكة ولهلمينا رسالتها بالإنجليزية ، قالت فيها أنه تبين اليوم أن كل صلواتنا من أجل الوفاق والتفاهم ذهبت عبثاً ، لقد غلبت أمتي بفضل تفوق العدو وقواته لكنها لن تغلب أدبياً ولا معنوياً ، وستظل روحنا قوية سليمة واعلنت الصحف في مصر عن خط دفاع جديد يشمل الدلتا من الإسكندرية حتى بورسعيد ثم القاهرة ، واتضح أنه خط دفاع تقدمه بوليصة التأمين على الحياة ، لشركة (الصن لايف) ، واعتبرت قناطر محمد علي الخيرية منطقة محرمة على الجهور منذ منتصف مايو ، واجتمعت لجنة الأسعار بالإسكندرية بدار البلدية لتحديد أسعار السلع ، وتقرر العمل بالأسعار السارية فيما عدا الكبريت فقد تقرر زيادة سعره .

وأصدرت مصلحة البريد طابعاً تذكارياً يحمل صورة الأميرة فريال التي بلغ عمرها عاماً ونصف العام ، وحددت قيمة الطابع بخمسة مليمات ، واستطاع الألمان فتح ثغرة في الخطوط الفرنسية عرضها خمسون ميلاً اندفعوا منها ، وصارت قواتهم المدرعة خلف خطوط الجيش الفرنسي بستين ميلاً ، وهكذا تم تطويق قرابة نصف المليون جندى فرنسي خلف خط " ماجينو " درع فرنسا الذي لم يشن عليه الأمان هجوماً مباشراً ، بل فتحوا فيه ثغرتين والتفوا حوله ، وألقى الجيش البلجيكى سلاحه بعد أن خسر ثلاثة أرباع المليون من جنوده ، وفي الإسكندرية تم ترحيل فنيات الملاهي الأجنبيات فئة (الأرتيست) على إحدى البواخر وأعلن أنه سيتم التخلص من كل فيتات

الملاهي الأجنبيات خشية عمل هن بالتجس س ، لك ن فتي ات الترفي ه الإنجليزيات الـ A.S.T . يزددن في الإسكندرية والقاهرة ، وأق يم لهـ ن معسكر في منطقة مصطفى كامل على البحر مباشرة وبوسع من يش اء أن يقترب ليراهن بلباس البحر ، وقال بعض الكذابين الخبثاء إهن أحياناً يترلن بدونه ، وحدث أول ترحيل في الإسكندرية لكن لأطفال الملاجئ إلى المحل ة الكبرى والمنصورة ، وبلغ مجموعهم ألف طفل وطفلة واعتقل شخص مع ه أوراق بها كتابات رمزية ، وتم ترحيله مخفوراً إلى حكم دار الق اهرة ،ولم يخالف التموين الإسكندرية هذا الشهر غير تاجر واحد ولم تقع غير حادث ة سرقة واحدة لمحل مجوهرات بالصاغة ، ومخالفات النظام بلغت خمسين مخالفة لكن كلها خاصة بالمرور وحدثت واقعة شروع في قتل واحدة ، وص ارت بريطانيا مثل رجل وقور سقط عنه سرواله فجأة فراح يرفعه إلى مكان ه ولا يستطيع ، إذ يعود ويسقط ، حتى نجح في النهاية ، بعد أن كاد قلبه يتوقف ، إذ صار على بريطانيا سحب قواها من فرنسا بأق ل خس ائر ونجح ت في إجلائها من دنكرك وكاليه وغيرهما ، مستخدمة كل ما تملك م ن س فن صغيرة وكبيرة وزوارق المتطوعين ، وتمت أكبر عملية هروب ع ن طري ق البحر في التاريخ ، حيث نقل قرابة اربعمائة ألف جندي إلى جزيرتهم ، تحت القصف الألماني في البحر ، وكان مجد الدين يقرأ الأخبار لدميان فلا يصدق أن الإنسان يمكن أن يصنع كل هذا الدمار ويسأله دميان هل في اوروبا ناس مثلنا أم شياطين ؟ وكيف تتحمل الأرض هذا ولا تنفجر ؟ ولما رأى دمي ان صورة لوريل وهاردي ، سأل مجد الدين عن اسم الفيلم فقال " عفاري ت

الجو " فاقترح عليه أن يشاهداه معها ، يتنازلان عن وجبة عشاء أو غداء ، ويريانه مادامت السينما لا تعرض شيئاً لشارلي الآن .

اندهش مجد الدين من الفكرة فسأله دميان هـ ـل السـ ـينما حـ ـرام ، فأجاب مجد الدين بأنه لا يقصد هذا ، ولكن يخيل إليه أنه إذا دخل السينما لن يعرف كيف يخرج منها ، وضحك دميان الذي صار مثل طفل وديع منذ ذهب إلى الكنيسة واعترف وتوسل للشهيد ماري جرجس !

كانت الغارات قد اشتدت على باريس وبدأ العالم يحبس أنفاسه . هل يدخل هتلر باريس ، هل تسقط أجمل مدن العالم ؟ ونشرت الصحف قصيدة شوقي التي كتبها عن باريس بعد انتهاء الحرب الأولى " العصر أنت جمالـ ـه وجلاله والركن من بنيانه المسموك ، أخذت لواء الحـ ـق عنـ ـك شـ ـعوبه ، ومشت حضارته بنور بنيك " . بدا الوضع فى فرنسا سـ ـيئاً ومخيفـ ـاً ، إذا أسرت الفرقة المدرعة الألمانية ثمانية آلاف جندي بريطـ ـاني وأربعـ ـة آلاف جندي فرنسي ، كان يقود الفرقة المدرعة مقاتل ألماني ذكى اسمـ ـه إيـ ـروين روميل سيحفظ اسمه المصريون فيما بعد . كانت فرقته المدرعة تسمى فرقة " الأشباح " و كانت بمثابة رأس الرمح الذي اخترق مناطق السوم ، متقـ ـدماً نحو نهر السين ، آسرا كل من في طريقه من الإنجليز والفرنسيين ، حتى احتل " شربورج " واستسلمت له بقواتها البالغة ثلاثين ألفاً . وكانت الطـ ـرق في فرنسا تفيض باللاجئين الذين تطاردهم رشاشات الطائرات الألمانيـ ـة، لقـ ـد تفكك الجيش وعين ديجول وكيلاً لوزارة الدفاع الوطني ، واستولى الاتحـ ـاد السوفيتي على جمهوريات البلطيق ، لكن من لديه الوقت ليقف أمام ذلك ، لقد سقطت باريس فانخلعت القلوب من فظاعة الحرب ، بكـ ـت كاميليـ ـا

حقيقة ورأها زهرة ففكرت أن باريس هذه لابد أن تكون شيئاً كبيراً إلى الدرجة التي جعلت كاميليا تبكي ، قالت كاميليا إن حلم حياتها كان أن تسافر إلى باريس يوماً ، وأنها لا تصدق أن عاصمة الجمال يمكن أن تسقط .

ألف المارشال بيتان حكومة جديدة ألقت سلاحها وعقدت الهدنة مع ألمانيا ، وهرب ديجول فجأة من "بوردو " إلى بريطانيا حاملاً شرف الأمة الفرنسية ، وفي المساء دخل الخواجة ديمترى غرفة مجد الدين وقال إنه عرف من قريب له ، يعمل ملاحظاً للعمال بالسكك الحديدية ، بأن المصلحة في حاجة إلى عمال دائمين ، لمواجهة ضغط العمل هذه الأيام ، التي تصل فيها عشرات القطارات كل يوم ، محملة بالمؤن والسلاح والجنود ،وأن مجد الدين يستطيع أن يذهب في الغد إلى مبنى إدارة السكك الحديدية بالقباري لتقديم الطلب .

كان دميان هو أول من فكر فيه مجد الدين . لم يسأل الخواجة ديمتري عن ذلك ، لابد أنهم يحتاجون لأكثر من عامل . بسرعة أخذ طريقه إلى بيت دميان . في الصباح كانا يتقدمان بطلب العمل . قُبلاً على الفور ، وكان عليهما إجراء الكشف الطبي المعتاد . هذا هو العمل " الميري " الذي سيضمن لهما حياة كريمة .

من حولهما كانت حالة الطوارئ القصوى قد أعلنت ، ذلك أنه منذ أيام قليلة ، بالضبط في العاشر من يونيه ، وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا . اهتز العالم ،وانتحبت الأمهات الإيطاليات ، وهن يرين أبناءهن يستدعون للقتال .

وأعلن وزير خارجية أمريكا ،أن دخول إيطاليا الحرب كارثة إنسانية كبرى وقطعت مصر علاقاتها بإيطاليا على الفور ، وبدا الرحيل الحقيقي لعائلات كثيرة من الإسكندرية إلى الريف ، وتم توزع آلاف من الأقنعة الواقية من الغازات ، فاستخدمها بائعو الطعمية ، للوقاية من بخار الزيت والقلي ، وكذلك استخدمها الخبازون أمام الأفران ، ورفض غفارة أن يغير قناعه الذي صنعه بنفسه من الطربوش ، فهو لا يثق في شيء توزعه الحكومة وقال دميان لمجد الدين وهو يتسلم خطاب العمل :

– لقد أهدانا الشهيد جورجيوس هذا العمل يا شيخ مجد ، لقد توسلت إليه كثيراً .

– أنا أيضاً ظللت ليالي طويلة أذكر أسماء الله حتى جاءني الرسول في المنام فاطمأن قلبي .

وبالليل ، ومجد الدين سهران ، ممدداً جوار زهرة النائمة ، يفكر في عمله الجديد ، فكر أنه لا أحد في العالم يعرف عنه أي شيء . ماذا لو مات ؟ هل يهم ذلك أحد . لقد دخلت إيطاليا الحرب ، وبدأ الناس يهجرون الإسكندرية وهو مضطر للبقاء ، إنها رحلة قهرية أرادها الله ، وعليه أن ينام الآن ، في المدينة التي صارت عيونها مفتوحة على السماء .

***

" الدببة المتوحشة الفاتنة

المولودة يوم الحرب بالذات

تنطق بأمنيات بريئة "

-11-

لهذا النهار طعم مختلف ، وهو أبيض من أي يوم ، هكذا أحس مج د الدين والضوء يسقط على وجهه إذ يغادر البيت في الصباح .

توقف قليلاً فوق العتبة ... نظر يميناً ويساراً . الشارع خال إلا م ن ثلاثة أشخاص . واحد عند نهاية الشارع من ناحي ة ال يمين ، والآخ ران يتجهان إلى " سيدي كريم " . الناس نيام لا يزالون أو استيقظوا ولم يغادروا بيوتهم بعد ..شمس الصيف تفاجئ الدنيا كل يوم بالصباح قب ل موع ده ، أمس ، في مقر إدارة هندسة السكك الحديد وصفوا لهما الطريق إلى العمل . يغادران غيط العنبط مشياً على شاطئ قناة المحمودية . في منتصف المس افة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري سيجدان سكناً ك بيراً لعم ال السكة الحديد ، جواره سكن صغير لعمال الحركة بالسكة الحديد أيضا، بين السكنين طريق صغير ينتهي ببوابة على خط السكك الحديدية ، الش بكة الكبيرة المعقدة لمنطقة " الزيتون " كما سمعا اسمها ، عليهما بعد عبور البوابة ، العودة إلى اليسار لمسافة طويلة لا تقل عن كيلو مترين ليص لا إلى مق ر عملهما ، البوسطة رقم 3 لم يفهما بالطبع لم اذا يس مى مق ر عمل هما "بالبوستة " رغم أنهما لم يعملا في البريد ، لم يشأ أي منها أن يس أل ع ن ذلك .

في طريق عودتهما قال دميان :

– ناس مجانين ، نمشي من غيط العنب حتى سكن السكة الحديد على المحمودية ، ثم نعود المسافة من وسط السكة الحديد .

سأله مجد الدين :

– ماذا يمكن أن نفعل ؟

– مكان العمل على هذا النحو يكون في مقابل غيط العنب . أمام شارع اللبان بعد زقاقين تجد السور الذي يفصل السكة الحديد عن غيط العنب سنجد في السور فتحة ، أو نفتحها نحن ، أو نقفز من فوقه . اليوم سيفعلان ذلك ، وسيفعلانه كل صباح فهذا عمل دائم وفي الحكومة . ووقف مجد الدين أمام بيت دميان يناديه . بدا له البيت نائماً كله حتى الجدران . باب البيت منخفض مظلم ، الصهد يخرج منه محملاً بأنفاس مزدحمة للسكان . هواء الصباح منعش حقاً ، الندى الساقط على الشوارع والبيوت مع الفجر ، لا يزال يرسل طراوته إذا ابتعد المرء عن فوهات البيوت . رائحة صابون تصعد من بعض أركان الطريق .إنها مياه الاستحمام في الفجر ، ألقت بها النسوة المشبعات المرويات قبل أن يلحظهن أحد . البيوت فقط تبدو متعبة كالحة الواجهات ، أبوابها الرئيسية بلا ضلف خشبية أو معدنية ، سلالمها ضيقة ، وفوهاتها مظلمة تنبعث منها رائحة التعب . لكن مجد الدين اليوم سعيد ، ويحس بطراوة الصباحات الشتوية رغم أننا في الصيف . وظهر دميان خارجاً مضيئاً من الباب المتعم .

– ما أجملك يا شيخ مجد الـ دين في البنطلـ ون الكـ اكي والسـ ترة الكاكي .

ابتسم مجد الدين ولم يعلق ، فقط نظر إلى رأس دميان الذي وضع فوقه بيريه أزرق ، يشبه سائقي القطارات . وانطلقا كطفلين مرحين إلى السور في الجنوب .

أمام السور الحجري الذي يرتقع إلى حوالي المترين ونصف توقفـ ـاً . فكر مجد الدين أن القفز من فوق السور قد يكون عملاً محظوراً . ارتبـ ـك للحظة . سمع دميان يقول :

– ليس عالياً كما ترى . سوف أشبك يدى وتطلع أنت عليهـ ـا ، ثم تتعلق بالسور وتجلس فوقه . بعد ذلك تعطيني يدك لأصعد معك ، ثم نـ ـترل من الناحية الأخرى .

وشبك دميان يديه ، لكن مجد الدين تردد ، رفع قدمه عن الأرض ثم أعادها .

– صعب أن أدوس بالجزمة على يدى مخلوق كريم .

– ماذا ؟

–كيف أدوس بالجزمة على مخلوق كرمه الله .

تأمله دميان غير مصدق لما يسمع . ثم رأى مجد الدين يخلـ ـع بالفعـ ـل حذائيه ويلقي بهما خلف السور . ابتسم دميان وهز رأسه عجباً من وداعة صاحبه . وشبك يديه فداس عليهما مجد الدين بقدمه اليمنى ، ثم قفز ممسكاً

بالسور . من أعلى أحس بخشونة أحجار السور التي لا يزيد عرضها على عشرين سنتيمتراً ، ودفعه دميان إلى أعلى أكثر واستطاع مجد الدين أن يجلس في النهاية فوق السور ، قال مفاجئاً :

– السور يهتز .

– لا تخف يا رجل . السور حديد ! .

ووقف دميان يفكر كيف سيصعد الآن . من الصعب أن يمسك بيد مجد الدين ويقفز ، ذلك قد يجذب مجد الدين إلى أسفل ، ولابد أن مجد الدين فكر في ذلك ، قال :

– تستطيع أن تدوس على قدمى ، اعتبرها درجة سلم ، وأعطني يدك خلع دميان بدوره حذاءه ، وألقى به خلف السور ، وقفز بقوة ممسكاً أعلى السور ، ضاغطاً إلى أسفل حتى ارتفع قليلاً ، مما ساعده على وضع قدمه فوق قدم مجد الدين الذي أمسك به من سترته يساعده على الصعود ، فارتفع دميان كثيراً أعلى من السور بجذعه . الله .. الله ماذا حدث ؟ تراك ، وانهارت كتلة كبيرة من السور بهما معاً . انهارت سليمة متماسكة وبهدوء ، فترل مجد الدين على مقعدته ، بينما ارتطم صدر دميان بالسور نفسه ، وأحس كلاهما بألم شديد مكان سقوطه ، إلا أنهما بعد لحظات أحسا فيها أن الدنيا دارت بهما وجدا عيونهما متقابلة ،فانطلقا يضحكان بسعادة . وحدهما يضحكان في فضاء واسع ولا صدى لصوتهما. تحامل كل منهما على كفيه ونهض يبحث عن حذائه . لم يكن أى منهما بعد قد نظر حوله ولا رأى ما رأى .

– أول ما بدا لهما الفضاء ذاته الرائق الوسيع ، والشمس الصـ ـاعدة قوية على يسارهما ، والسماء الصافية البعيدة لكن الأرض بدت قاحلـ ـة . جير ورمال وصخور صغيرة ، قضيبان مهملان صدئان ، بعدهما فضاء مـ ـن أرض حسكية مملوءة أيضاً بالصبار القصير ، ثم قضبان قليلة بينـ ـها زلـ ـط ومازوت ناشف بدا منفصلاً عن الأرض ، حال سواده إلى الرمادي بفعـ ـل التراب السافي ، وعلى مسافات متباعدة نباتات شوكية مهوشة دائماً.

مشيا إلى اليمين . دميان في دهشة من اتساع الأرض ، بعـ ـد أن رأى اتساع الفضاء. كيف حقاً لم ير كل هذا من قبل رغم أنه يعيش في غـ ـيط العنب منذ سنين طويلة ؟ كيف حقاً لم يفكر من قبل فى تجاور السور القريب من شارع اللبان لا يفصلة عنه إلا زقاقان ؟ هذا الاتسـ ـاع في الجنـ ـوب لا يضاهيه إلا اتساع البحر في الشمال !!

كانت بعض خطوط السكك الحديدية تبدو منتهية عند عارضة تصادم جديدة مرفوعة على عمودين خرسانيين قصيرين ، وعربات كثيرة مصفوفة على أكثر من خط .بدت لهما قد صفت بعناية ، ففي كل خط نوع واحـ ـد من العربات تقريباً . العربات المسطحة في خط، كذلك المغلقـ ـة الكـ ـبيرة والنصف مغلقة في خط ثالث . كل العربات لونها بنى حائل إلا المغلقة فلونها رمادي وتميل إلى السواد . أرضية العربات المسـ ـطحة مكسـ ـوة بعـ ـوارض الخشب السميك ، والفلنكات الممسوكة إلى بعض بخوض الحديد العريضـ ـة السميكة المثبتة بالمسامير القوية فى العوارض لكن المكان بدا مهجوراً رغـ ـم العناية البشرية الواضحة فى تخزين العربات . فكر مجد الدين بحق أنه قد غُرر بهما وأن آدم عليه السلام حين هبط من السماء ، نزل فى مكان شبيه بهـ ـذا

المكان ، وأن الله الذي أرسل عنايته مع آدم ، سوف يتخلى عنهما هنا ، فلا طير واحد فى السماء ، لكنهما شاهدا بعيدا ماسورة ترتفع عن الأرض وتنحنى ويتدلى منها خرطوم من المشمع يكاد يصل إلى الأرض وجوار الماسورة يجلس رجل تحت سقيفة صنعها من فروع الأشجار العارية وجوار شجرة توت مورقة خضراء عريضة .

– إذن يوجد ناس هنا .

هتف دميان الذي لابد كان يفكر على طريقة مجد الدين .

– تعال نقترب منه نسأله .

الرجل في عمر كل منهما تقريباً ، لكن ثيابه ممزقة عند ركبتيه وكتفيه وحاف ، كان واجما وجوما كهفيا ، فبدا أنه لم يسمع اقتراب أقدامهما ، عندما اقتربا منه تماماً فكر كلاهما أن يمضي في حال سبيله ويتركانه . فهو يبدو شيئاً منسياً ، لكن لأن الإنسان كثيراً ما يفكر في شيء ويفعل ما كان قد قرر العدول عنه سأله مجد الدين :

– أين نجد البوسطة رقم ثلاثة ؟

أشار إليهما بالسبابة ، إشارات يفهمان منها أنهما في الإتجاه الصحيح لكن دميان الذي لم يعجبه صمت الرجل هتف :

– مالك يا رجل ؟ .. تكلم .. نحن في أول النهار .

نظر إليه الرجل ملياً حتى ارتبك دميان بحق ، بل وانكمش في نفسه من الرعب ، كاد مجد الدين ينفجر ضاحكاً غير مصدق ما يحدث لصديقه

- امش .

هتف الرجل بصوت خفيض لدميان .؟

- حاضر .

قال دميان باستكانة ، ومشى صامتاً بلا روح ، ومجد الدين يكتم ضحكة . بعد أن ابتعدا بما يكفي قال دميان :

- هذا عفريت يا شيخ مجد .

لكن كشكاً خشبياً كبيراً ظهر لهما . كشك جدرانه من الفلنكات المتجاورة المغروسة في الأرض، وفوقها صف ثان من الفلنكات القصيرة ، متصل بالصف الأسفل بخوص معدنية عريضة ، وفوق الجميع سقف جمالوني من الصاج المتعرج .

كان هناك جوار الكشك شخص مقع جوار " راكية " نار ، يمسك بيده " كوزا " كبيراً له يد طويلة من السلك المجدول .

- السلام عليكم ؟.

قالا معاً ، فرفع إليهما الرجل المقعى رأسه . كان يصنع شاياً يغلي في الكوز ، وصعدت رائحته الطيبة إليهما .

- لابد أنكما العاملان الجديدان ، مجد الدين ، ودميان ، ,أنا حمزة ، نحن فى انتظاركما .

***

يستحق اليوم أن يكون عيداً . نزلت زهرة إلى السوق في سيدى كريم خلف نقطة البوليس واشترت زوج حمام بخمسة قروش ، ودجاجة بعشـ ـرة قروش وذبحها لها السنوسي الجزار في شارع الفواكه ، ونظفتـ ـها وسـ ـلقت الدجاجة والحمام الذي حشته بالفريك الصعيدي ، الذي اشترته من بشرى العطار في شارع راغب ، فملأت الرائحة الذكية ردهـ ـة الـ ـدور الثـ ـاني ، وصعدت إلى الفضاء ، ونزلت أيضاً إلى الدور الأرضي ، حيـ ـث خرجـ ـت لوللا مسرعة واشترت حماماً ودجاجاً وعادت تطهيه ، ولم يفتها أن تصـ ـعد إلى الدور الثاني ، وتعلن لزهرة أنها لم تتحمل الرائحة الجميلة لطعامها ،ممـ ـا اضطرها لتقليدها ، وتطلب من زهرة . التى اندهشت جداً . أن تسامحها ، مما يجعل زهرة تصمم أن تتذوق لوللا " قنصة " الدجاجة ، بينما السـ ـت مريم تتابعهما باسمة فهى تدرك المعنى الملغز لأفعال النسوان !!

كانت الطفلة شوقية تروح وتجيء لاهية في الردهة بـ ـين الحجـ ـرتين ، وتعاكسها كاميليا من بعيد ، من خلف الباب المفتوح ، فتسمع ضـ ـحكاتها وضحكات شوقية معاً ، لكن قطة صـ ـغيرة صـ ـعدت مـ ـن الـ ـدول الأول ،ووقفت أمام الردهة تنونو وتتلفت مما جعل شوقية تفزع إلى أمها . فتتعثـ ـر بعتبة الحجرة المنخفضة ، إلا أن أمها تلقتها ورفعتها إلى حضنها تربت علـ ـى ظهرها وتطمئنها .

كانت شوقية قد صرخت مما جعل كاميليا تخرج بسرعة من الحجرة . في وسط الردهة . أدركت الموقف . نهرت القطة وكانت الشمس تسـ ـقط على جلبابها القصيرة الضيق الخفيف ، فبدا جسمها الصغير مدكوكاً وقويـ ـاً يتفجر بالأنوثة . جسد ضامر حقاً لكنه متعطش تواق للتمرد ، فيـ ـه قـ ـوة

المهرة . جسد يفرق نفسه على عينيك ويتقدم منك وأنت بعيد فلا ترى غيره أمامك ، وتشد رائحته – رائحة الخمر القديم – أنفك تستفزه وتحرك الروح .

إن أى شخص يتحدث مع كاميليا يغالب رغبة حقيقية في احتضانها بغتة وبلا مقدمات ، فصفحة بطنها الضامر ، وصدرها الناهز المبشر ، تبدوان مرفأ طبيعياً لكل جوعان ، كاميليا الصغيرة الرقيقة ، تمتلك جسداً مقدساً بهالة من الفتنة الحارة . لقد رأت زهرة كاميليا تحت الشمس فهتفت لنفسها " سبحان الخالق .. ولا الغزال " ... سمعتها كاميليا فابتسمت ولم تعلق . لأن صوت دقات الطبول ارتفع قوياً في الفضاء ، مع موسيقى نحاسية وآلات نفخ تؤدي مارشاً عسكرياً .

– السينما .

هتفت كاميليا وجرت إلى شباك حجرتها . تبعتها زهرة مبتسمة . تراجعت إيفون الهادئة عن إفريز الشباك ، وتركت الغرفة لزهرة ،ودخلت هي إلى الغرفة الداخلية تتفرج من شباكها . ظلت الست مريم مكانها وراء ماكينة الخياطة وإن صارت تعمل بهدوء.

عربة السينما صندوق خشبي كبير عليه أفيشات من الجوانب الأربعة ، يدفعها رجل يرتدي زيا عسكرياً هو في الحقيقة زي الفرق الموسيقية الشعبية ، وحوله وأمامه فريق موسيقى أبرز أعضائه يحمل طبلة مستديرة ضخمة قطرها حوالي متر على بطنه من الأمام ، ومعلقة فى عنقه بحزام من الجلد وفي يديه مطرقتان من قماش يضرب بهما الطبلة من الناحيتين وحوله

بقية الفريق يضربون طبولاً أصغر بالعصى أو يدقون الكفوف النحاسـ ـية أو ينفخون في الساكسافونات نفس المارش العسكري ، وحول الجميع أطفـ ـال يضحكون ويرقصون .

- الله عليه كلارك جيبل .

قالت كاميليا لزهرة :

- من ؟

- كلارك جيبل.

- الرجل أم الست ؟

ضحكت كاميليا وقالت :

- الرجل طبعاً : الست أسمها جوان كراوفورد .

سكتت زهرة لحظات وقالت نافضة يدها من الأمر كله .

- أسماء صعبة .

لكن كاميليا قالت :

-الفيلم اسمه الرغبة الآثمة .

هتفت الست مريم من الخلف .

- بنت .. عيب .

وسكت الجميع . فكرت زهرة في أمر هذه الفتاة الجامحة التى كانت حزينة طوال الشهور السابقة والتي بكت عندما دخل الألمان باريس ، ما الذي أعادها للمرح من جديد ؟ لابد أنها تخلصت من ورطتها . وأدركت زهرة فجأة أنه ما كان عليها أن تتفرج على السينما هذه المرة . لقد قررت ذلك المرة السابقة حينما شاهدت امرأة شبه عارية تقفز إلى البحر في الصورة . هذه المرة رأت الممثل ذي الشارب المحفوف يحتضن الممثلة وينحنى عليها بطريقة جريئة ويكاد يقبلها . كيف حقاً يدورون فى الشوارع بهذه الصور الخليعة أمام البنات والنسوان ؟ تراجعت وقالت :

– تعالى يا كاميليا معايا .

دخلت كاميليا خلفها إلى الحجرة ..كانت زهرة كل هذا الوقت تمسك بنتها في يدها ، تركت البنت وكشفت غطاء الحلة ، وأخرجت بالملعقة الكبيرة كبدة الدجاجة ، ووضعتها في طبق صغير قدمته لكاميليا . اندهشت كاميليا من هذا السلوك ولم تعترض فقالت لها زهرة :

– عمك مجد الدين استلم شغل جديد .

– مبروك . لذلك تحتفلين به – وسكتت كاميليا لحظات ثم قالت – هل كل واحدة تحب زوجها مثلك يا ست زهرة ؟

– مثلي .والست ليس لها في الدنيا غير زوجها . هل تتعلمون غير ذلك في المدرسة ؟

– نتعلم هذا بالضبط في المدرسة ، وأكثر .

وسألتها زهرة فجأة :

- ما الذي يعجبك في الممثل أبو اسم صعب هذا ؟

كانت كاميليا تمضغ الكبدة الساخنة بسرعة أرنب وتنفخ في يديها .

قالت بعد أن انتهت :

- عيناه ، عيناه عميقتان يا ست زهرة.

وسكتت. فكرت زهرة في فارق السن بينهما ، مجرد خمس سـ نوات زهرة في الواحدة والعشرين لكن كاميليا جريئة أكثر مما ينبغ ـي لفتـ ـاة في السادسة عشرة . ماذا يمكن أن يفعلوا ببنت كهذه في البلد ؟

- أنا خائفة عليك يا كاميليا ؟

- من ماذا ؟

- لا اعرف . خائفة وخلاص .

ضحكت كاميليا وقالت وهى تترك الغرفة :

- لا تخافي . عمر الشقي بقي .

***

كان انتهاء العام الدراسي هو سبب عودة كاميليا إلى بهجتها . لقـ ـد مرت المحنة بسلام .ربما لم تكن على في حاجة إلى أكثر من لقاء آخر وتسقط إلى الأبد . كيف سمحت لنفسها بالانزلاق في هذه العلاقة المحكومـ ـة سـ ـلفاً بالفشل . بالموت على أقل تقدير . ومتى سمعت أن " الهزل " ممكن في الحب

؟ لكنها كانت أياماً حلوة رغم كل شيء . كان البداية مسابقة بين طلبـ ـة العباسية الثانوية وطالبات نبوية موسى ، والمباراة في مدرسة رأس التين . من كان صاحب هذه الفكرة الجهنمية ؟ ناظرة مدرسة نبوية موسـ ـى تتحـ ـدى الجميع . صاحبة آراء حرة ، وإن كانت متشددة في التعامل مع الفتيـ ـات. وهى تطلب المستحيل وتثق في قدرتها عليه ، تطلق الفتيات علـ ـى الفتيـ ـان وتثق في قدرة فتياتها على ضبط النفس . الذي حدث أنه كان أمامها هـ ـي بالذات وكانت الأسئلة صعبة في الآداب والعلوم لكنه أبدى قدرة مذهلة . قرأ أبياتاً من شعر كيتس الإنجليزي ، وشعر بودلير الفرنسي . قرأ بالفرنسية ، كان منقذاً لزملائه في كل ما تعثروا فيه . وكان سبب فوز فريق العباسية فوزاً ساحقاً ، حتى إن فتيات نبوية موسى بكين بحرقة .... لا تسـ ـتطيع أن تنكر أنها فكرت فيه بالليل للحظات . تجسد لها وجهه الشاحب الحـ ـزين . وثيابه البسيطة ، نظيفة لكنها تنم عن فقر ، كما ينم الاصفرار البسـ ـيط في بشرة وجهه . لكن له عينين نديتين دائماً ، على وشـ ـك البكـ ـاء طـ ـوال الوقت . عينان حزينتان راضيتان . هذا هو مصدر الجذب فيه إنه حقاً شاب آسر .

نامت ولم تفكر أنها ستلقاه مرة ثانية ، لكنها في اليوم التالي رأته يقف أمام باب مدرستها على الطوار الآخر . تجمدت للحظة . أدركت أنه جـ ـاء يقابلها هي وأمسكت بذراع إيفون ولم تتركها . عندما نزلت من الترام عند كوبرى كرموز رأته يترل معها من العربة الأخرى . يقف قليلاً يتابعهما وهما تترلان المترل المؤدي إلى شارع اللبان بغيط العنب ، ثم يمشى هو على ترعة المحمودية فى اتجاه كفر عشري .

صار يتردد على المدرسة كل يوم ، يكتفي بالنظر إليها ، وكلما غيرت طريق عودتها رأته يتبعها . وفي النهاية وقفت بعيداً عن المدرسة تنظر إليه . كانت إيفون مريضة ذلك اليوم . وكأنه كان قد أعد كل شيء . تقدم إليها وفي يده عقد من الفل الأبيض ، وفي قلب الشارع ، وأمام المارة ، أدخله من حول رأسها إلى عنقها ، وهي وقفت مستسلمة تماماً، ثم أخذها من يدها ومشياً إلى حدائق الشلالات .

– كيف واتتك الشجاعة أن تفعل ذلك بالشارع ؟

– الشعر . أنا أحب كل الشعراء المجانين .هل تعرفين قصة حب يسينين مع إيزادورا .

– لا .. أنا لا أعرف يسينين ، أعرف أن إيزادورا كانت راقصة غير عادية .

– هل تعرفين شيئاً عن السيرياليين الفرنسيين ؟

– قليلاً .

– هؤلاء السيرياليون يفعلون ما يريدون دون خوف .

وجلسا تحت أشجار الغار المعمرة العالية الكثيفة . قالت :

– أنا لا أعرف كيف استسلمت لك .

كان هو يتأمل هذه الدجاجة الوديعة ذات العينين الواسعتين ولا يصدق ما حدث وما يقوله .

وقالت :

- ولكن :

- أنا أعرف إنك مسيحية ، صليب في عنقك . أنا مسلم . هذا م ا حدث.. إلى أين ينتهي ؟ لا أعرف .

وفي ذلك اليوم قرأ لها بعض أشعار بودلير ورامبو وإيلـ ـوار الـ ـذي سمعت عنه لأول مرة .

وقال لها " يا جميلتي يجب أن نرى وردة حليبك البيضاء تزدهر ، يـ ـا جميلتي سارعي بأن تكوني أما واصنعي طفلاً على شاكلتي " . ولما وجدها قد خجلت قال لها " كل أزهار الثمار تضيء حديقتي ، أشجار الجمال وأشجار الثمار. وأعمل وحيداً في حديقتي والشمس تحترق ناراً قائمة على يـ ـدى " . وأخبرها أن ما قاله أجزاء من قصيدة بعنوان قصائد للسلام ، كتبها إيلـ ـوار بعد الحرب العالمية الماضية ، يغنى فيها لعودة الجنـ ـود إلى البيـ ـوت ، وأنهـ ـا ليست قصائد غزل .. كانت هي مندهشة من نفسها كيف تسـ ـتمع إليـ ـه عاشق الشعر الحزين هذا ، وهى المرحة المنطلقة ، وهو المسلم وهي المسيحية ، لكنها تعرف أن النهاية ستكون قريبة ، وأفضل أن تنهيها بيديها ..

واستسلمت أكثر . وذهبا معاً إلى حدائق النزهة وأنطونيادس وسـ ـط الزهور الشتوية . وصارت إيفون تعرف القصة وتطلب من أختها أن ترحمها وترحم نفسها . وتتعمد كاميليا الاختفاء فترة ثم تجد نفسها تبحث عنه عند خروجها من المدرسة . قال لها وهما يمشيان وسط أشجار الكافور والسنديان والنخيل الهندي السامق والأكاسيا العارية التي ستشتعل مع مقدم الربيـ ـع :
- كم عمرك ؟ قالت : ستة عشر ، وقال إنه في السابعة عشـ ـرة ، وحلـ ـم

حياته أن ينتهي من التوجيهية ثم الجامعة ثم يسافر إلى السوربون . إن رحلة طه حسين في التعليم هى أمله ، وليس مهماً أن يعود بالدكتوراه ،وإنما المهم هو أن يمشي في الحي اللاتيني ويزور اللوفر والأورسيه والبـ انتيون وبـ ـرج إيفيل والمونمارتر ، ويقرأ على ضفاف السين أشعاراً تطـ ـير في الهـ ـواء . في الحديقة ذلك اليوم تركته يقبلها قبلة سريعة . طلبت أن يعودا بسرعة بعـ ـد ذلك . لم يفهم العاشق الساذج أن جسدها كاد ينفجر ويحتويه ، كاد يخونها ويهزم قدرتها على إخضاعه .

لأسبوع بعد ذلك لم تذهب إلى المدرسة .مرضت بحق وعافت الحركة والطعام ، وبكت أمامها إيفون في اللحظات القليلة التي انفردت فيها معها . قالت إنها ، إيفون ، توسلت إليه أن لا يعود إلى علاقته بكاميليا ، أن يختفي ، قالت له أنت فلاح يا رشدى لا تعرف طبع الصـ ـعايدة . المشـ ـكلة هنـ ـا مضاعفة. اختلاف في الديانة وخروج على أعراف الصعيد . وطلبت مـ ـن كاميليا أن تغفر لها تصرفها اليائس هذا .واختفى رشدى ،ولم يعد يقف امام المدرسة ينتظركاميليا ، التي صارت تتردد على مكتبة المدرسة أكثر من ذي قبل تستعير كتب الشعراء الفرنسيين المترجمة إلى الإنجليزية ، وقرأت بؤساء فيكتور هوجو ثلاث مرات وحفظت شوارع باريس ، ونسيت أن ذلك كان منذ قرن ونصف من الزمان . لقد شفيت بسرعة ، ضحكت وهى تتـ ـذكر اندفاعها المجنون مع رشدى ، ووجدت أنها تخلصت من كل أحساس يقربهـ ـا منه بسهولة بمجرد اختفائه . هل هو اختلاف الديانة الذي سـ ـاعدها علـ ـى النسيان ؟ . ولقد ظهر أثناء الامتحانات . . رأته ينتظرها ممسـ ـكاً بقرنفلـ ـة حمراء . قال لها أنه سيسافر بعد الامتحان إلى البلد ، قريتـ ـه ، فأسـ ـرته في

الأصل من الريف ، وإنه حزين لأن الألمان يهاجمون فرنسا بضراوة إنه يخاف أن تسقط باريس فيدمرها هتلر كما دمر وارسو . ثم قال ، كأنـ ـه يحـ ـدث نفسه ، لكن هتلر لا يستطيع أن يدمر باريس . لا أحد في الدنيا يقدر على ذلك حتى لو احتلها . في باريس قوة روحية توقف أكبر شر ممكن في العالم . فيها قوة الجمال . وقال إنه جاء يودعها . فقط يصافحها وبسرعة. فـ إيفون تقف بعيداً في توتر ، ويعتذر عن أي إرباك سببه لهما .

صافحته كاميليا بسهولة ، تذكرته فقط يوم سقطت باريس . وبكت لأنها تصورته يبكي في قريته على المدينة التي يحبها وقالت إنها تتمنى أن تزور باريس لأنه قال لها ذلك عن نفسه ، ثم سرعان ما نسيت كل شيء . ولكنها طلبت من أمها أن تسمح لها بدراسة اللغة الفرنسـ ـية في مـ ـدارس برليتـ ـز بشارع سعد زغلول . وقالت أمها إنها لا تمانع لكن الدراسة يجب ان تكون صباحية ، في صحبة إيفون التي رغبت هي الأخرى في الدراسة .

عندما شرحت المدرسة الأجنبية الأفعال الفرنسـ ـية ، كتبـ ـت علـ ـى السبورة فعل Aimer ، وقالت مخاطبة إحدى التلميـ ـذات Je t'aime قالت كاميليا دون قصد Je l'aime وكررته لنفسها أكثر من مرة .

***

" وقال اقعد فوق العرش
أعرض عليك كل شيء
فقعدت فعرض عليَّ "

-12-

عاد مجد الدين كما يعود منذ التحق الجديد ، متسخ الي دين وآث ار المازوت ، متعب الظهر والساقين والذراعين ، متع ب الجس د ، وجل س كالعادة فوق السرير مدلياً قدميه إلى زهرة التي وقعت تحتهما تخلع حذاءيهما ثم تضعهما في طشت صغير به ماء ساخن مالح .

– هل ستستحم الآن ؟

– أجل ، أعطنى قليلاً من الجاز أنظف يدي أيضاً .

سكبت بعض الجاز من " الجركن " في كوز صغير وناولت ه إي اه . ناولته الصابونة ووضعت فوق كتفه المنشفة ، والشبشب أمام عتبة الحجرة في الخارج . الحمام فى الردهة ، هو مشترك بين الجميع، وصوت مياه الدش التي تصطدم بالبلاط يصل إلى الجميع لكن لا مفر من الاستحمام . إنه يعود متعباً متسخاً إلى درجة لا يتحمل فيها جلده ، وهو لا يستطيع أن يأكل أو ينام إلا إذا تخلص من كل آثار العمل ، التعب والقذارة ،

كان عليه اليوم ، مثل كل يوم ، أن يحفر أرضاً صلبة تحت الع وارض القديمة .

يرفع القضبان ويرفع العوارض القديمة ، ثم يضع مع زملائه القض بان والعوارض الجديدة أيضاً لأكثر من خط حديدي تحتاج إلى صيانة أو تبديل ، القطارات الوافدة إلى الميناء كثيرة تعود محملة بالعتاد والجن ود ، ك ذلك القطارات القادمة من السويس تحمل جنود الإمبراطورية القادمين من أفريقيا واستراليا والهند تذهب بهم إلى الصحراء . القطارات تتوقف أمام الماس ورة التي رآها أول يوم متصلة بخرطوم ويجلس جوارها الرجل الصامت . هن ا خزان ماء تحت الأرض يمون القطارات البخارية ، والماس ورة والخرط وم يتصلان بخزان ومفتاح دائري ضخم يفصل بينهما ، يفتحه العامل فترتف ع المياه إلى الماسورة والخرطوم لتترل من أعلى القطار . هذا الجه از اسم ه " الغراب " لا يعرف لماذا . والرجل الجالس قال عنه حمزة أحد زملائه : إنه " رجل مجنون " زرع شجرة التوت من زمان ، ولا يزال ينتظر العصافير التى لا تأتي أبداً .

رأة مجد الدين ودميان زملاءهما يتركون عملهم ، ويتقدمون ناحية كل قطار يتوقف للتزويد بالوقود ، ويعودون بصناديق كرتوني ة ص غيرة به ا شيكولاتة وشاي وبسكويت . كان الجنود الهن ود ذوو العم ائم العالي ة والبنادق الطويلة أكثر سخاءً في العطاء من غيرهم ، كان حمزة يعلّق عليهم قائلاً :

– العسكرى الهندي هندى صحيح لكنه ذكي ، أقول له إنجليش إذ جود يقول إنديان إذ فيري جود ويعطيني بسكويت أكثر .

يضحك العمال على طريقة حمزة فى نطق اللغة الإنجليزية ويندهشون كيف يعرف هذه الكلمات الكثيرة التي يتحدث بها مع الجنود ، الذين لا يكادون يبتعدون ويبتعد قطارهم حتى يقف حمزة وسط الخلاء هاتفاً :

" العقاب مـ ـش مـ ـن شـ ـوية
الد . ـى ذ . ـازل عالبريـ . ـة
كـ . ـام لذ . ـا ذذ . ـب وأسـ . ـية
الملايكـ . . ـة بيكتبوهـ . . ـا"

ثم ينظر إلى البسكويت والشيكلاتة أو غيرها مما فاز به هاتفاً :

لوكان هم واحد كنت روقتلـ ـوا بـ . . . . ـالي
إلا تلاتـ . ـة غـ . ـيروا أحـ . ـوالي
هَـ ـمّ جـ ـوانى ، وهـ ـمّ بـ ـرانى
وهـ . ـمّ عالبـ . ـاب يسـ . ـتنانى

***

القضيب الحديدي الذي يمتد طويلاً ينخلع بهدوء ، يرتفع متلكئاً ببطء ظاهرا عن الفلكنات ممزقاً نسيجها الخشبي ، رافعاً معه المسامير الحلزونية تاركاً مكانها حُفراً عميقة شائكة بشظيات الخشب العالقة بجدارها الدائرى الفورسفوري ، ويعلو القضيب فوق الأرض لمسافة ثم يتمدد ويتمدد ، وتخرج منه قضبان أخرى أقل سمكاً منه إلى ناحية ، تتمدد بدورها في الفضاء بنية لامعة ، وتستدير في دوائر واسعة لا تلبث أن تضيق ، وتزداد عدداً ، والقضيب الأول ينكمش ويستدير في دوائر صغيرة متتابعة ، ويرفع رأساً عالياً ، ويمد لساناً مشقوقاً إلى ساق مجد الدين ، الذي يقفز في الفضاء فلا يترل ، ويستقر على سقف قطار مجنون والهواء يطيّر شعر مجد الدين ،ويخلع عنه سترته ، وفانلته وسرواله وهو يتشبث بقوة ، وليس فوق جسمه غير السروال الداخلي في سقف القطار اللامع ، ولكنه يترلق إلى جانب القطار فيتشبث من جديد بالإفريز العالي ، ويصرخ ولا مجيب ، فيتهادى القطار ويبطئ من سرعته شيئاً فشيئاً ، حتى يقف في النهاية وسط طابورين من الناس غريبي الملامح ، لا يكفون عن الضحك الهيستيري ، ولا تكف عيونهم الجاحظة عن الدوران ، ويسقط بينهم فيتلقفه بعضهم يتأملون بشراسة ، ولا يكفون عن الضكح من جديد ، ويمضي القطار نافثاً دخانه الأزرق ، ويرى زهرة في هلع خلف القطار تناديه . مجد الدين . يا مجد الدين . يا شيخ مجد . وهو مرفوع خلفها فوق أيدي الناس غريبى الوجوه والعيون الذين لا يكفون عن الضحك بشراسة ، يصرخ فيضيع بين مئات الضحكات ، حتى تقع زهرة فوق الفلنكات والمازوت ، وتعود مثقلة بالألم تمشي على مهل تعرج ، الشمس الراحلة تسرع في الابتعاد والإظلام القادم يسرع إلى الدنيا ،

ويتركه الرجال غريبو الملامح مقعياً وسط الظلام ، يئن أنينا خافتاً طويلاً ، بأقصى درجات الإحساس باليتم ، ثم يهطل مطر شديد متتابع من السماء ، ويطلق الرعد ضرباته متتابعة وهو يهتز بعنف .

– مجد الدين . مجد الدين . انهض . فيه غارة .

كانت زهرة تهزه بسرعة ، ونهض فزعاً يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أنقذتيني يا زهرة من كابوس فظيع ، والحقيقة أنها لم تستمع إلي أنينه ، بل أيقظتها طرقات الست مريم على الباب وإبلاغها من خلفه بوجود غارة وأن عليهم النزول إلى أسفل بسرعة .

***

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هذا صوت مدافع حقيقية .

في الأيام السابقة كانت بلدية الإسكندرية قد أتمت عدداً من الخنادق المكشوفة فى أكثر من حي شعبي ، لكن السكان راحوا يتبولون فيها ويبرزون ، مما أضطر البلدية إلى توزيع رجال الشرطة لحراسة الخنادق ، وتوقفت عن التوسع في المشروع ، وعقدت المحكمة العسكرية في الإسكندرية حسب قانون الطوارئ ، جلسة لنظر الحكم في شأن فتاة فقيرة تمارس الدعارة بدون ترخيص ، وأوقعت عليها غرامة ثلاثة جنيهات ، كما تمت مداهمة بيت في كرموز يدار للدعارة بدون ترخيص أيضاً ، وحين حاصر رجال البوليس صاحب البيت يصرخ قائلاً : " فين جلوبلز ، فين الجستابو.. أنا هتلر " لكن رجال البوليس الشجعان لم تنطل عليهم اللعبة ، وأمسكوا به وأوسعوه ضرباً علىقفاه ، ووصلت الصحف فجاة كمية كبيرة

من الأسئلة عن " نورماشيرر " ممثلة هوليوود الجميلة ، هل ستتزوج بعد وفات زوجها ، وكانت الإجابة بالإيجاب ، والزوج المرشح هو الممثل " جورج رأفت " الذي كانت علاقتها به متينة في حياة زوجها . لكن الحذر والترقب كان أيضاً في عيون الناس ، فالإيطاليون على مرمى حجر منّا بالإسكندرية ، لذلك حينما ارتفعت أصوات صفارات الإنذار أكثر من مرة بالنهار ، أدركوا على الفور أنها ليست غارة تجريبية ، وحينما رأوا المدافع المضادة تتبعها بالقذائف أيقنوا أن زمن الغارات التجريبية انتهى .

كانت الأوامر قد صدرت بالتشديد على سائقي السيارات بطلاء مصابيحهم بالأزرق القاتم بعد التراخي ، الذي لوحظ فى الشهور السابقة ، والتشديد على السكان بطلاء نوافذ البيوت ، ولصق قطع شاش طويلة وعرضية على الزجاج من الداخل حتى إذا تهشم لا يتطاير ، وأن لا يجتمع الناس فى الطرقات ساعة الغارة ، وأن تتوقف المواصلات ويغادرها ركابها ، وأن تخلى أصحاب البيوت الأدوار الأولى ويجعلوها بمثابة ملاجئ للناس البعيدين عن الملاجئ العمومية ، ,أن يتقدم كل مُضار من الغارات بسرعة إلى البلدية لاستلام أدوات بناء جديدة من خشب وحديد وأسمنت لإصلاح الضرر الذي وقع ببيته ، أو لتدعيم البيوت القديمة ، وحين سمع الناس صوت صفارة الإنذار المتقطع هذه الليلة أحسوا به مختلفاً عن كل مرة . فيه هرولة غير مألوفة . فيه فزع . تمدد القلق في نفوس الناس . الغارات النهارية الأسبوع الماضي كانت سريعة ، ولم تترك إصابات أو خسائر واضحة . الليلة يبدو أن الحرب الحقيقة ستنتقل إلى سماء الإسكندرية .

كانت الساعة الثانية عشرة ، الحرارة شديدة ، وعدد قليل يمشـ ـي في شارع اللبان . بسرعة دخلوا إلى البيوت القديمة ، ووقفـ ـوا في مداخلـ ـها . كما توقفت سيارات التاكسي لكن سائق إحداها لم يبرحها ، نظر إليه أحد الواقفين بمدخل البيت القريب ، ودعاه للدخول حرصاً على روحه فقال :

– يعنى البيت لو قع عليَّ حاعيش ؟!

بدا للكلام معنى .. نظر الواقفون في المدخل إلى بعضـ ـهم لكنـ ـهم لا يستطيعون مخالفة تعليمات الوقاية . الوقوف في مدخل البيت أكثر أمناً حقاً من الشارع المكشوف ! .

لم يكن القمر بدراً تلك الليلة ، كان أكثر من هلال ، لكنه اسـ ـتطاع أن يضيء الشوارع ويخون الجميع .

كان ديمتري أفندي وزوجته وابنتاه قد نزلوا إلى الـ ـدور الأرضـ ـي ، دخلوا غرفة البهي الخالية ، وأطفأوا النور بعد دخولهم ، كانت لوللا قـ ـد انضمت إليهم . لم تفكر أن تلبس شيئاً يخفي كتفيهـ ـا وذراعيهـ ـا بسـ ـبب الارتباك .انضمت إليهم وحدها ولم ينضم زوجهـ ـا .وهـ ـو عاجـ ـة قليـ ـل الاختلاط بالآخرين ، ثم إنه يسكن بالدور الأرضي فما جدوى الانتقال إلى الغرفة المقابلة ، والحقيقة كانت غير ذلك . ما كاد صوت صفارة الإنـ ـذار يرتفع ، وطلقات المدافع تدوى في الفضاء حتى ارتعشت " لوللا " ودخلت في حضنه فضمها إليه أكثر ، ومد يديه يخلع سروالها وسمعت هى وقع أقدام ديمتري وأسرته وأصواتهم ، فحاولت التخلص من زوجها الـ ـذي عانـ ـدها وهجم عليها يريد معاشرتها فذلك في رأيه أحسن وسيلة لطـ ـرد لخـ ـوف .

وقاومته هى ، وقاوت أيضاً رغبتها التى تشتعل بمجرد أن يلمسها . كانت تفكر ماذا يحدث لو وصلت أصواتها وأصواته إلى ديمتري وبناته . لذلك حين نجحت في التحلص من زوجها خرجت بسرعة والتحقت بهم ، وهي بقميص النوم الطويل الأبيض فأضاءت كتفيها وذراعيها في الظلام عيون الواقفين ! .

اهتدى مجد الدين في الظلام بصوت ديمترى لم يترك يد زهرة التي ما إن دخلت الحجرة حتى هتفت صارخة : " ياهوى . البنت شوقية فوق " ، وأصبح على مجد الدين أن يصعد هو لإحضار البنت بعد أن وقفت زهرة في حجرة البهي مع الواقفين .

انقطع صوت المدافع ولم يرتفع صوت صفارة الأمان ، طال الصمت والصبر معاً ، وأرهف الجميع السمع لصوت طنين هادئ بطيء عريض مثل شتاء يأتي من بعيد ، ويزداد الطنين العريض كأنما قوافل من النحل القاتل تقترب من المدينة ، ومثل عاصفة تنهض من الأفق لتجتاح الصحراء ، مثل جيوش الجراد وهي تقترب من الزرع الأخضر ، ززززززز ، إنها الطائرات الألمانية والإيطالية تأتي قاصدة أهدافها ، تأتي متجاورة فى تشيكلات كبيرة ، وتقترب من الأرض ، أصوات القنابل والانفجارات وأضواء البرق تمرق من أمام النوافذ المغلقة في السماء من خلف الشيش المغلق والزجاج .

– افتحوا النوافذ نعرف ماذا يحدث .

هتف ديمتري . كان مجد الدين بجوار النافذة ففتحها وبان الليل أمامهم مثل نهار أبيض ، وبان أمامهم نهار أحمر ، وبان مثل نهر من الدخان الأزرق

، صفحة السماء تشتعل شمالاً ، وسكان الصف المقابل من المباني يصرخون وهم يرون الدخان ، ومجد الدين وديمتري والنساء يرون الضوء القادم من الشمال مشتعلاً جنوبا في السماء كسيف أبرزه محارب سماوى .

(يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تتريل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الإذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) صدق الله العظيم . قال الشيخ مجد الدين وأعاد (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، ويعيد ويرتفع صوته ويهتز وضوء القمر يكشفه للجميع ، بينما هو ذاهل عنهم تماماً ، (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وبدأت زهرة تردد خلفه وصوته يعلو ، و الست مريم تردد ، " نعم نسألك يا الله الآب ضابط الكل لا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير " ، وديمتري يردد معها : " نعم نسألك أيها الرب إلهنا لا تدخل أحداً منا في تجربة . هذه التي لا نستطيع أن نحتملها من أجل ضعفنا ، بل أعطنا أن نخرج من التجربة أيضاً لكي نستطيع أن نطفئ جميع السهام المتقدة ناراً التي لإبليس " ، ويرتفع صوته وترفع الست مريم صوتها ، ونجنا من الشرير إبليس بالمسيح يسوع ربنا ، آمين . ومجد الدين يرفع صوته أكثر يا ربي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك منيِّ حجاباً إلا كشفته ولا حاجزاً إلا رفعته ولا وعراً إلا سهلته ولا باباً إلا فتحته يا من ألجا إليه في شدتي ورخائي ، ارحم غربتي ، آمين يارب العالمين . ويبدأ مجد

الدين قراءة القرآن الكريم بعد الدعاء ولا يزال يهتز ويعيد ديمتري معه ابتهالاته ، ويختلط الكلام فتسمعه فلا تدرك منه إلا إنه حالة روح صادقة ضارعة متبتلة بكل الجوارح لله المخلِّص . (يس * والقرآن الحكيم) إيها الرب إلهنا (على صراط مستقيم) لا تدخل أحداً منا في تجربة (تتريل العزيز) نجنا من الشرير (ما أنذر آباؤهم) من أجل ضعفنا (على أكثرهم فهم لا يؤمنون) نخرج من التجربة (وجعلنا من بين أيديهم سداً) التي لإبليس (فهم لا يبصرون) آمين آمين .

وتأتي الأصوات من الشارع ، رجال وشباب ونساء مذعورات وأطفال يبكون .

– من أين ترتفع النيران ؟

– الكشافات أم القنابل ؟

– القنابل.

– من مينا البصل وباب سدرة وكرموز ، الضرب كله على كرموز يا عم ، البيوت تهتز .

الكشافات لا تتوقف ،مدافع كوم الناضورة وكوم الدكة والمكس والقباري وسيدى بشر كلها بتضرب في وقت واحد ، أكثر من مائة طيارة .

– السماء كلها ذباب أزرق .

– جاء الصوت من الخارج .

– ياخواجة ديمتري . يا عم اطلع من عندك البيوت ستقع .

– من يتكلم .

– أنا غفارة .

كان الصوت غريباً ومكتوماً . أطل غفارة عليهم من الشباك . كان النساء قد تكومن في ركن ملتصقات . وما إن رأته كاميليا وإيفون حتى صرختا (ماما) ، لقد رأتا صوتاً مخنوقاً يأتي من خلف الطربوش القناع الذي يربطه فوق وجهه .

– لا تخفن يا سيدات ، هذا قناع غفارة الواقي من الغارات . يا خواجة ديمتري ، ويا شيخ مجد الدين لا تؤاخذني ، أنا أعرفك وكنت صديق المرحوم البهي ، يا جماعة البيوت تنهار فى كرموز وتهتز هنا ، أفضل لكم الخروج والوقوف في الشارع .

كان ينظر من خلف العينين الزجاجيتين إلى ذراعي لولا ، وكتفها اللامعة في الغبش كما لو كانت هناك غلالة سوداء فوقها والوقت نهار وخرج ديمتري ومجد الدين ، ولم تخرج النسوة .

قالت زهرة :

– العمر واحد .. إذا متنا نموت مستورين .

وأعجب الكلام الخواجة ديمتري الذي طلب من زوجته أن تبقى مع زهرة وكذلك البنتان ، بالطبع بقيت معهن لولا .

– يا لطيف . يا أرحم الراحمين . النار تشتعل إلى السماء .

كانت صفحة السماء فوق المباني شمالاً حمراء ، وكانت سحب الدخان كثيفة ، والطائرات تئز وتدور كالزنابير فوق المدينة ، وكشافات الوقاية تتابعها من باب الكراستة وكوم الناضورة والميناء والمنشية والقباري وكل مكان ، وألسنة طلقات النار متتابعة خلفها . " يا ستار " كان المجتمعون على الرصيفين ، يصرخون وهم يرون عدداً من الطائرات تلقى بقنابلها ، ويسدون آذانهم وترتفع أصوات الانفجار البعيدة قريبة ! ويصيحون " الله أكبر " عندما تصيب الطلقات طائرات تهوى بسرعة بعيدا .مالئة صفحة السماء دخاناً أسود .كانت رائحة الفضاء كله رائحة حريق هائل .؟

كان زوج لوللا ذو الشعر المنكوش قد انضم إلى الناس في الشارع وفي يده سيجارة ، فهجم عليه الشبان وضرب يده لتسقط السيجارة على الأرض ، ونظرا إليه شذرا ، فاعتذر زوج لوللا وهرش رأسه ، وقال :

– الواحد من لخمته نسى أوامر الوقاية .

وفجأة ارتفعت بهم الأرض ، وارتفعوا عنها ، وانخفضوا ، فانزلقت قلوبهم ، وكانت البيوت قد ارتفعت ، وانخفضت أيضاً ، أو خيل إليهم ذلك ، ولكنها لقصرها وصغر حجمها لم تسقط ، ووصلتهم أصوات سقوط البيوت في كرموز .

– هذا طوربيد الذي سقط على كرموز الآن .

صرخ رجل وارتفعت الأرض مرة أخرة بهم ، وانخفضت فصرخ رجل آخر " طربيد ثاني . الرحمة " وارتفعت الصرخات في مداخل البيوت ثم فجأة ارتعش الفضاء بأصوات النساء ، وخرج النساء والرجال والأطفال إلى

الشارع . الأرض لا تتوقف عن الاهتزاز ، والمدافع المضادة للطائرات لا تتوقف عن سيل حممها تقذفه على السماء ، ألقت الطائرات السوداء العريضة شرائط فوسفورية فوق المدينة ، فصار الجو احتفالياً ليلياً . كل شيء واضح الآن والطائرات تدور فوق المدينة في مناورات محسوبة يبدو أنها لن تنتهي ، إذ كلما سقطت طائرة انضمت أخرى جديدة ، وكثير منها كان يقترب جداً من الأرض يصيب هدفه بوضوح ، وامتلأ الفضاء بالرعب وامتلأ شارع اللبان بالسكان الذين صاروا يجرون بلا هدف على سيدي كريم ثم يعودون هرولة ، ويجرون حتى كوبرى كرموز ، وفي الناحيتين كلما اقتربوا من نهاية الشارع ورأوا الفضاء الممتد أمام شارع راغب أو كوبرى كرموز روعهم حجم النار شمال المحمودية فوق الحي الشهير ، لقد امتدت النيران إلى راغب ومحطة مصر ، وصارت الدنيا مصيدة مليئة بالصراخ والخوف والدموع ، وكانت رباطة جأش زهرة هي السبب الوحيد لبقاء الست مريم وكاميليا وإيفون ولوللا في الحجرة ، في بيت لا يكف عن الاهتزاز ، وفوق أرض لا تكف عن الحركة ، لكن إيفون كانت تنتحب بأنين خفيض ، أما كاميليا فقد غشي عليها فوق حجر أمها ، تمددت على الأرض ووضعت رأسها على حجر أمها ونامت . وهكذا ظنت الست مريم ، والحقيقة أنها كانت في إغماءة طويلة ، لم تفق منها إلا في الصباح ، بعد أن انتهت الغارة ، كان هناك عشرات النساء والأطفال قد أغمي عليهم في الشوراع والأزقة ، وانشغل الجيران بأمر الجيران حتى مرت الليلة الطويلة التي لم تكن أحد يتصورأنها يمكن أن تمر .

في تلك الليلة ، عند الفجر ظهر "حميدو " ماسح الأحذية ، ووقف وسط الشارع عملاقاً حافياً يصرخ " يا أولاد الكلب " موجهها شتائمه إلى الطائرات البعيدة ، طالباً أن يذهب معه الشباب إلى كرموز لإنقاذ الناس ، وجرى في الشارع وخلفه عشرات من الشباب وكان غفارة يهرول خلفهم ، ولا يلحق بهم لكنه لم يتوقف ، فقط كان يسند الطربوش بيده اليسرى حتى لا ينخلع ويسقط . لقد فكر مجد الدين أن يذهب معهم ، لكن خاف أن يترك زهرة وحدها . ماذا يحدث حقاً لو مات أو ماتت هي هنا ؟ ورأى دميان قادماً إليه زائغ العينين أصفر الوجه ، ما إن رآه دميان حتى جلس فوق الرصيف ووضع رأسه بين كفيه ، واندفع في البكاء .

– لا تبك يا دميان ، هذا أمر الله .

– الناس ستترك الإسكندرية بالآلاف غدا . أين أذهب يا شيخ مجد ؟

– أبق معي ، أنا لن أتركها .

– ستبقى ؟

– هل أترك عملاً كالذي حصلنا عليه يا دميان ؟ ثم إن الموت بيد الخالق يا رجل . أين عائلتك ؟

– في الدير . الدير فتح أبوابه ودخل فيه ناس كثير . وجامع سيدى كريم أيضاً . القنابل سقطت خلفنا في مياه المحمودية على بعد خطوات .

– وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا دميان . اطلب الرحمة .

– كيرياليسون .. كرياليسون .. كيرياليسون .

***

" إذا امتلأت بالنور نافذة أو دار

فكن على يقين أنه ليس من

مضيء سوى الشمس " ..

انشغل الناس بالغارة الطويلة التي استغرقت ست ساعات ، طلع الصباح والجثث نائمة في شارع الرحمة متجاورة كأنما قام أحد برصها على الأرض بالليل . وظلت الحرائق في باب سدرة يوماً كاملاً ، تكاتفت عليها وسائل الإطفاء والإنقاذ من المحافظة ، لكن الوقت طال لاستخراج الجثث من تحت الأنقاض . امتلأ شارع كرموز والشوارع الجانبية بالناس من جميع أنحاء المدينة أتوا يشاركون في الإنقاذ ، أو يتفرجون على ما يمكن أن يتكرر أو يحدث لهم . وبدأت عمليات الهجرة الجماعية بالإسكندرية ، وتبرع الملك و الأمراء بالأموال للضحايا ، وخصصت المستشفيات للجرحى ، ومدرسة " دون بوسكو " للذين صاروا بلا مأوى ، ونزل على المدينة وجوم إذ لم تنقطع الغارات النهارية ولا الليلية . وشيئاً فشيئاً دخلت المدينة في مجرى العادة والألفة وبدأت حكايات أخرى تطير فوقها ، وفي أزقتها ، وتترل بين السهارى بالمقاهي القليلة التي تفتح أبوابها في المساء ، أو البيوت . فالمراهقون يتحدثون عن قصص الحب في المخابئ العامة ، وعن النساء اللائي تفاجئهن الغارات عراة فبي الحمامات ، أو في أحضان رجالهن ، وفي أحسن الأحوال بقمصان النوم . والرجال يتحدثون عن استقالة علي ماهر باشا ، وتكليف حسن صبري باشا بالوزارة الجديدة ، وعن طريقة شرب الشاي المثلج بالليمون أو اللبن أو سادة في هذا الحر ، وكيف اعترفت إنجلترا بالجنرال ديجول ممثلاً لجميع الفرنسيين الأحرار في كل بقاع الأرض ، والنساء والفتيات يتحدثن عن التطوع في الهلال الأحمر والهجرة من المدينة . ولم يكن الصيف بعد غارة الست ساعات هذه عادياً أبدا . في " غربال " اشتهى سماك امرأة تاجر صعيدى في الوكالة ، امرأة بيضاء باهرة الحسن ، لا

يعرف السماك كيف عاشت من قبل في الصعيد ، ولما لم يجد طريقاً لنيلها ، أشاع أنها على علاقة ، بمدرس شاب يسكن في الشقة المقابلة ، أنها تـ تحين فرصة الغارات ، لتمارس الحب مع الشاب المـ ـدرس في المخبـ ـأ المظلـ ـم ، وتنفست البيوت الإشاعة الكريهة ، فإذا بالزوج يمسك بزوجته الجميلة من شعرها ، ويجرها إلى الزقاق الصغير المسمى بشارع القمر ، المجاور لشـ ـارع النجوم ، والموازي لشارع الشمس ، في المنطقة الهادئة الـ ـتي اختـ ـار لهـ ـا مؤسسها هذه الأسماء الجميلة ، وفي وسط الناس المذهولين طعـ ـن الرجـ ـل زوجته ، ووقف فوق جثتها . لم يمر أسبوع إلا والسماك ، يعود ليلة في حالة سكر ، ويحكي للناس كيف كان هو وراء الإشاعة . لم يعـ ـد محـ ـل ازدراء الناس ، ظهر والد المرأة وأخواتها ،وأمام الناس جميعاً ، وفي المكان نفسه التي قتلت فيه ابنتهم ، قتلوه وشربوا دماءه . لقد بكت النساء في المدينة مرتين ، يوم قتل الزوجة الجميلة ، التي بعدها جفلن من الترول إلى المخابئ ، ويـ ـوم قتل السماك الكريه حيث أدركن مدى الظلم الذي وقع على المرأة الجميلة ، وصرن يترلن إلى المخابئ ، وإن على استحياء ، وعلى شاطئ المحمودية عثر الناس أكثر من مرة على طفل لقيط ، وأخرجوا جثتين موضوعتين في جوالين ، انتفخت الجثتان ، وحملهما الماء من الجنوب ، الجثتان لفتاتين ، ولم يكن بين اكتشاف الجثة والأخرى أكثر من أسبوع . ركنت الأولى تحـ ـت كـ ـوبري راغب ، والأخرى تحت كوبري كرموز بعد ذلك . وفي العالم بـ ـدأ الألمـ ـان معركتهم الجوية الكبرى فوق انجلترا . لقد بدأت معركة بريطانيا منذ العاشر من يوليو . كانت الطائرات المغيرة تخرج بالمئات من الشـ ـواطئ الفرنسـ ـية

والأراضي البلجيكية القريبة تضرب القوافل البريطانية في المانش ، والمـ ـواني الجوية بين دوفر وبلايموث .

لقد بلغ من عنف الغارات ، أن وصل عدد الطـ ـائرات الألمانيـ ـة في إحداها ، إلى ثمانمئة طائرة مغيرة في وقت واحد ، أعلن هتلر أنـ ـه سـ ـيزيل بريطانيا من الوجود ، وأصبح مصير بريطانيا حقيقة في يد طياريها الشجعان الذين خطب تشرشل يحييهم في مجلس العموم قائلاً " أنه لم يحدث في تاريخ الصراع الإنساني ، أن أحس مثل هذا العدد الضخم مـ ـن النـ ـاس بمـ ـا في أعناقهم من دين جسيم ، نحو عدد قليل من الناس ، مثلما نحس به جميعاً نحو طيارينا "

وحضرت أم زهرة من البلد ، حاملة لها سمناً وزبداً وجبـ ـاً قريشـ ـاً وخبزاً أيضاً ، وأغرت بنتها أكثر من مرة ، أن تترك مجد الدين وتعود معها إلى البلد ، فالناس الذين لابلد لهم يهاجرون فكيف تتردد هي ؟ قالت أمها : إن العمدة أقسم لو عاد مجد الدين سيقتله ، لا دية له أثناء الحرب ، فقالت زهرة : إن مجد الدين بعد عمله الجديد لن يعود، ثم سألت أمها هـ ـل فعـ ـل العمدة بهم ذلك بسبب البهي حقاً ، فقالت أمها : إن الزوجة الأولى لمجـ ـد الدين ، التي ماتت قبل أن تنجب له ، كان العمدة يميل إليها مـ ـن قبـ ـل . ولكن زهرة لم ترتح لهذا التفسير فتلك الزوجة ماتت بعد الزواج بعام واحد ، ولم يعد أحد يذكرها ، البهي هو السبب الوحيد المعقول ، وأخبرتها أمهـ ـا أن هادية ، أم مجد الدين أوشكت أن تموت ، بعد أن وصلها نبأ موت البهي ، وعجز مجد الدين عن العودة ، وطلبت منها زهرة ألا تخبر مجد الـ ـدين إلا

بما هو عادي أو حسن ، وإن كان مجد الدين لن يصدق أن هناك أمراً حسناً .

خففت زيارة الأم ، كثيراً من وحشة زهرة ، التي بكت بحرقة يوم سفر أمها ، وأخذت الست مريم وكاميليا وإيفون معهن إلى شاطئ الشاطبي لتتفرج على المصطافين . كانوا قليلين ، وأكثرهم من النساء والفتيات ، وخلعت كاميليا ثم إيفون فستانيهما ، ووقفت كلاهما بشورت وبلوزة من القطن أمام زهرة ، بلوزة واسعة الصدر (جيبونيز) تكشف معظم الظهر . كان هناك عدد قليل من الفتيات قد نزلن إلى الماء ، وعدد قليل من النساء نزلن بجلابيهن ،وقالت مريم : إنها لا تحب النزول ، وكذلك أعلنت زهرة ، بل إنها لا تستطيع ، ظلت تنظر للفتاتين اللتين جرتا على الشاطئ كثيراً ، ولعبتا في الماء كثيراً ، وبعد الظهر بوقت قليل طلبت زهرة العودة، لقد رأت في نهاية الشاطئ فتاة أجنبية شبه عارية ، يقبلها شاب أجنبي شبه عار .

كان الأجانب من الجنود يزدادون في المدينة ، أفواج منهم تذهب إلى الصحراء ، وأفواج تأتي للراحة والاسترخاء بعض الوقت ، وخصصت المدرسة الإيطالية بالشاطبي كمعسكر للأسرى الطليان ، ثم ازداد الأسرى فخصص لهم معسكر آخر خارج المدينة ، فضلاً عن أكثر من معسكر بالقاهرة . كانت الحرب البرية قد بدأت على الحدود ، وبدأت قوات الحلفاء تشن غارات هجومية على القوات الإيطالية في ليبيا ، فضلاً عن الغارات بالطائرات ، فمنذ الرابع عشر من يونيو ، بعد إعلان إيطاليا الحرب مباشرة بأربعة أيام ، أغارت القوات البريطانية ، وقوات الكومنولث ، على القوات الإيطالية فى كابوتزو، ومادالينا ، وأسرت أكثر من مائتي أسير ، وفي

الثالث عشر من أغسطس ، بدأت القوات الإيطالية الزحف الكبير إلى مصر بأوامر من الدوتشي شخصياً ، بدا القصف الإيطالي عنيفاً على الحدود قرب السلوم ، حتى إذا انكشف الغبار والدخان ، تجلت القوات الإيطالية مصطفة في نظام بديع ، في المقدمة راكبو الدراجات النارية في تنظيمات متقدمة ، تليهم الدبابات الخفيفة ، ثم السيارات المصفحة ، فغيَّر البريطانيون خطتهم ، وبدلاً من الانسحاب أمام الإيطاليين صبوا عليهم مدفعيتهم فأصابوا منهم الكثير مما جعل جرازياني يغيِّر شكل الهجوم المباشر هذا ، ويقوم بحركة تطويق للبريطانيين وحلفائهم ، الذين انسحبوا ، ولم يتجاوز الإيطاليون سيدى براني ، ستين ميلاً خلف الحدود المصرية ، وظلوا هناك لوقت طويل عرضة للغارات البريطانية بين حين وآخر ، من البر ومن الجو ، حتى بلغ عدد القتلى الإيطاليين ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل في ثلاثة أشهر بينهم سبعمائة أسير . كان السؤال في الإسكندرية لماذ يحارب الإيطاليون وهم شعب مسالم إلى هذا الحد ؟ وحتى طائراتهم يمكن تمييزها فى السماء عن الطائرات الألمانية ، فالطائرات الإيطالية لا تظهر طويلاً فوق المدينة ، تلقى بحمولتها عشوائياً فى أى مكان وتعود ، بينما يبدو الألماني يعرف هدفه ويبحث عنه ، والطائرات الإيطالية تسقط بأعداد كبيرة وبسرعة ، بينما تراوغ الطائرات الألمانية القذائف فى السماء . لقد بدا للناس أن الإيطاليين لا يريدون الحرب حقاً ، وأنهم دفعوا إليها دفعاً خاصة وهم يسمعون عن عدد الأسرى – في الحروب البرية – الذي يصل المدينة كل يوم . اطمأن الناس أن الإيطاليين لا يمكن أن يحتلوا المدينة ، لكن لابد من هزيمة ألمانيا حتى يكون الاطمئنان كبيراً ، لكن ظل قسم كبير من الناس أيضاً يتمنى هزيمة

الجيوش البريطانية في الصحراء ، وأن تدخل إيطاليا الإسكندرية أو ألمانيا ، المهم أن يخرج الإنجليز ..

***

رأت زهرة كاميليا وإيفون في الصباح الباكر تقفان وسط الردهة بالزى المدرسة الجميل ، لقد انتهت الإجازة الصيفية إذن ، وها هما البنتان مثل فراشتين مرحتين : الجوب الرمادي والقميص الأبيض ورباط العنق الأزرق ، تضفي عليهما براءة طفولية فوق براءتهما العذبة .

كان مجد الدين قد غادر المترل إلى العمل منذ قليل . إنه أول من يخرج ، ومعه الخواجة ديمتري ، في الأسابيع التي يعمل فيها نهاراً .

– هل المدرسة جميلة هكذا يا بنات .

– طبعاً يا زهرة . خصوصاً أول يوم ، عيد ، نقابل زميلاتنا ومدرساتنا ، ونحكى عن الإجازة والصيف . أجمل شيء في الدنيا هو أول يوم في المدرسة يا زهرة ، بعد كده المدرسة وحشة .

وضحكتا ببراءة الحمام الوديع . ولأنه لم يكن لزهرة أن تعيد الأيام ، فتدخل المدرسة وتسكن المدينة ، تمنت أن ترى " شوقية " ، في مثل سعادتهما يوماً .؟ كانت إيفون قد فتحت الراديو على صوت لندن ، وكانت تنساب منه موسيقى جميلة لم تسمعها زهرة من قبل . موسيقى تبعث على الطيران والسباحة في الفضاء مع الملائكة .كيف حقاً لم تسمع موسيقى دون أغانٍ من قبل ، وهل يمكن أن تكون الموسيقى دون أغانٍ جميلة هكذا؟ .

وغادرت البنتان المترل إلى المدرسة ، وحملت نسمة الصباح الطرية زهرة إلى سماوات من سعادة . لن تعود للنوم مرة أخرى ، استلقت جوار طفلتها فوق السرير ، ورفعت عينيها إلى السقف الخشبي الأبيض . هل يمكن أن تكون الإسكندرية جميلة وهى لا تدري ؟ بالأمس خرجت إلى الأنفوشي مرة أخرى بعد وقت طويل في صحبة الست مريم . رأت الناس في الترام أكثر نضارة من المرة السابقة ، رغم الغارات التي لا تنقطع ، وعندما شاهدت تمثال محمد على باشا لم تفكر أن تشكو له ، خافت عليه أن تهدمه الغارات ، وضحكت من فكرة أنه يمكن أن يهرب على حصانه ، اندهشت للعمارات العريضة المهيبة ذات الشرفات المزخرفة على جانبي ميدان المنشية ، كيف حقاً لم ترها من قبل بهذه العظمة .. وحين اقترب الترام من نهاية لسان بحري ، بدأت تسمع صوت الموج نغمات وادعة وتشم رائحة اليود منعشة ، ولما خرج الترام إلى الهواء الطلق من الشارع الطويل البارد ، رأت زهرة البحر أزرق بلا نهاية ، تتهادى أمواجه زبدية الهذري إلى الشاطئ ، وعلى الشاطئ علقت الشباك البنية لمسافات طويلة تتدلى من حافتها السفلية قطع الرصاص الفضية الثقلية ، وجوارها سفن ذات أشرعة ملمومة ، فلائك صغيرة بلا أشرعة ، متوقفة أو مركونة فوق الرمال ، وبعيداً السفن الرمادية الضخمة ، ذات المدافع الطويلة والقصيرة ، تنعكس ظلالها ، وظلال صواريها وأعلامها ، تتراقص فوق الماء ، وعلى الشاطئ زحام النساء الشديد المبهج أيضاً على باعة السمك ، لقد جاءت هنا مرة ، ولم تر ما تراه الآن كان ذلك في العيد الصغير الماضي ، حقاً يختلف الصيف هنا عن الشتاء ، وها هي ترى بعيون جديدة . أى طاقة أعطتها المدينة التى يهجرها

أهلها لتبقى فيها وتحبها ؟ هذا زحام حقاً لكنه مبهج . نسوة ملفوف ات ف
الملاءات تركنها تسقط من على رءوسهن وأكتافهن فتأبطن أطرافها العليا ،
وكشفن عن أكتاف حمراء غضة وأذرع لامعة ، وبان شعرهن تحت أغطي ة
رءوسهن أحمر أو أصفر أو أسود الحواف ، وكلهن ي دخلن في أحادي ث
طويلة مع الباعة ، وينطلقن في الضحك العفوي ، والباعة ارتفعت أصواتهم
، وبانت السعادة في عيونهم فتهللت أساريرهم ، لكن كثيراً من النساء كن
يتحركن حركات مقصودة ، تترك الواحدة منهن الملاءة يقسط طرفها على
رأسها لتظهر كتفها العارية ، وترفع الملاءة ، متعمدة فرد ذراعه ا البيض اء
المغرية ، إلى أقصى ارتفاع ، بحيث يرى البائع إبطها المنتوف بالأمس فقط ،
ناعماً حريرياً يكاد يشد فم البائع الملهوف . نس اء ك ثيرات يش ربن دم
الترسة الذي يقدمه الباعة في الأكواب ، وقد صحبن معهن فتيات صغيرات
مشرقات الوجوه ، بناتهن اللاتي يردن لهن أن يكن مشرقات للأبد .

– لا تفزعي يا زهرة ، دم الترسة كله غذاء ، ويسمِّن أيضاً

– ماهي الترسة ؟

– إنها السلاحف المائية ، يأتي بها الصيادون يذبحونها ، جسدها يقط ع
ويباع لحما بالأقة ، ودمها يشرب ، إنها أرخص أنواع السمك .

ورأت زهرة الأسماك الأخرى أكثر رونقاً مما رأت من قبل ، راح ت
تتذكر أسماءها وتسأل عما لا تعرفه . ولاحظت أن الأنواع الآن أكثر م ن
المرة السابقة ، جمبري أحمر وكابوريا برتقالية ودنيس فضي ومرج ان أحم ر
مرقط ، وبوري أبيض وأحمر ، وقاروص فضي سيوف طويلة بيضاء ملتف ة

كالأحزمة وموزة صغيرة بيضاء مكتترة ، ثعابين خضراء طويلة قوية وبربون أحمر قاتم " وسبارس " تميل إلى الرمادي قصيرة شبه بيضاوية ثقيلة وبطاط ـا بيضاء وبطاطا سوداء ومغازل مليئة باللحم طويلة سميكة وسردين فضـ ي شاهق البياض لامع ينتشر بكثرة في عشرات الطاولات الخشبية عليه زحام شديد ، فهو من أرخص الأسماك ، وهذا موسمه ، والكثير من النساء يذهبن لشراء كميات كبيرة لتمليحه واستخدامه في الشتاء .

لقد اشترت أمس كابوريا وجمبري وثعابين ، أكثر من أقة مـ ـن كـ ـل صنف . أنفقت نصف جنيه كاملاً من الجنيهات العشرة التي تركتها لها أمها ، اشترت خمس أقات من السردين أيضاً لتمليحه . مالذي جعلها تسـ ـرف هذا الإسراف ، وهى تعلم أن راتب زوجها لا يتجاوز ثلاثة جنيهات كـ ـل شهر ، من المؤكد أنها العشرة جنيهات التي تركتها أمها هى التي شـ ـجعتها على التبذير ، لكن الأكثر تأكيداً أنها فطمت البنت أمس ، وهى تعرف أنها لا تحمل طوال أيام الرضاعة ، ورثت ذلك عن أمها . اليوم ستحمل . قالت لنفسها . ارتعش جسدها ، ويرتعش اليوم وهي تستلقى فوق السرير يقظة . هل يمكن للمرأة أن تعرف بوقوع الحمل لحظة وقوعه ؟ يمكن . هى أحست بذلك الليلة المنتهية . أحست بشيء صغير داخلها يعلـ ـق بشـ ـيء آخـ ـر . أحست بتوتر داخلها ينتهي لسكون عميق حتى أن أحساساً عارماً بالراحـ ـة مشى في دمها . سيسعد بها مجد الدين لأنها ستنجب ولداً هذه المرة . هو لا يوضح أبداً حبه للذكور عن الإناث ، لكنه نشأ مثل كل الفلاحين ، وربمـ ـا كل الناس ، يحب الذكور ، ويتمناهم . ستحقق له ذلك ، وستساعدها هذه

المدينة البيضاء الواسعة التي تسع كل هؤلاء الناس م ن ك ل ال دنيا ولا تشتكي .

***

ما كاد مجد الدين يتناول غداءه متأخراً كعادته ، إذ يؤجل الغداء حتى العودة من العمل ، حتى سُمعت صرخة نسائية عالية قادمة من أسفل .إنها ا لوللا . هذا صوتها . هتفت زهرة وأردفت :

– إنني أعرف صوتها .

– إنني أعرف صوتها.

وعندما ارتفعت الصرخة مرة أخرى بسرعة ، خرجت زه رة م ن الحجرة لتقابل الست مريم في الردهة . سبقتها الست مريم إلى أس فل إذ لم تنقطع صرخات لوللا . لحقت بها زهرة وكاميليا وإيفون . لحظة وهتف ت الست مريم وزهرة معاً يناديان مجد الدين المتعب . لم يكن الخواجة ديمتـ ري قد عاد بعد ، وكان مجد الدين قد ارتدى جلبابه ، استعداداً لأى موق ف ، بعد أن كان يأكل مرتدياً ملابسه الداخلية !

في طريقه للترول رأى مجد الدين كاميليا وإيفون تصعدان الس لم . لم تكلماه , كانتا تهرولان ، وسمع أصوات رجال أسفل السـ لم ، وأص وات حشد هائل من الناس ، رجال وشباب وأطفال ونساء ، يقفون في الش ارع أمام البيت ، وسمع لوللا تصرخ في غرفتها " حرام عليكم ، حرام عل يكم ".

كانت الست مريم وزهرة تقفان أمام الباب , ما الحكاية ؟ تساءل مجد الدين فلم تردا عليه . أشار إليه إن يدخل الغرفة . ما كاد يدخل حتى أغمض عينيه . كانت لوللا في قميص نوم أبيض شفاف شبه عارية ، شعرها منكوش حقاً ، عيناها متورمتان من البكاء ، لكنها في النهاية امرأة شبه عارية . " ولوللا " ما إن رأته حتى انهارت أمام قدميه وأمسكت بإحدى ساقيه .

–أبوس رجلك يا شيخ مجد الدين – وباستها بالفعل إذ كان حافياً . استرني ، استرني من أولاد الكلب .,

قالت الجملة الأخيرة بحرقة حقيقية . ونظر هو للرجال الواقفين بالحجرة . زوجها وشرطي ورجل هزيل شبه مريض . كانت زهرة قد اقتربت من الباب مع الست ، فطلب منهما إحضار شيء يستران به الست ، لكن الشرطي هتف :

– لا

وتابعه الرجل الهزيل :

– تأتي كما هى .

– ما الحكاية بالضبط ؟

تساءل مجد الدين ، ولا تزال لوللا ملقية على الأرض جوار قدميه ، لكنها تبكى بهدوء ، بألم حقيقي . قال الشرطي :

– هذا الرجل ليس زوجها ؟ هذا هو زوجها .

كانت زهرة قد صعدت وأحضرت شالاً أبيض ، ودخلت ووضعته فوق كتفي لوللا ، ما إن سعمت كلام الشرطي حتى خرجت فزعة لتقف مع الست مريم تحت السلم ترتعش .

– صحيح يا ست .. ؟

تساءل مجد الدين ولم يستطع أن ينطق اسمها . صرخت :

– يا أولاد الكلب .

كان بالباب الخارجي شرطيان ، يمنعان دخول الناس المتجمهرين في غضب ، اندفع الرجل الهزيل إلى " لوللا " الجالسة ، يحاول أن يرفعها لتقف وتمشي معها ، بينما وقف عشيقها فاغراً فاه بلا مبالاة بالأمر كله ، وقامت لوللا وبدأت الحركة معهم ، فهتف مجد الدين للشرطي :

– انتظر.

ونظر مجد الدين إلى عشيق لوللا وسأل الشرطي :

– لماذا لا تجر هذا النطع إلى القسم ؟

– سوف يأتي معنا كشاهد على جريمة الزنى .

قال مجد الدين بسخرية :

– لا حول ولا قوة إلا بالله . وهل الزنى تقوم به المرأة وحدها ؟

– القانون يحتم ذلك .

لم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يتقدم ، وبأقصى قوة يهوى بكفه على صدغ العشيق ، الذي أدهش الجميع ، لم يبد مقاومة ، لم يحتج ، لم يرد الضربة لمجد الدين .

رأت لوللا الزحام الشديد خارج الباب ، فتعلقت بيديها فى درابزين السلم الخشبي .

– سيقتلوني يا شيخ مجد ، استرني الله يسترك

راح الرجل النحيف الذي هو زوجها الحقيقي ، يشدها ويحاول تخليص يديها من الدرابزين ولا يستطيع ، سقط الشال الذي سترت به نفسها على الأرض فتركت الدرابزين واستدرات إلى الرجل النحيف الذي هو زوجها الحقيقي ، وصرخت فيه " كله منك يا ابن الكلب " ، وبأقصى قوتها ضربته بيديها على صدره ، فتراجع ليصطدم بالحائط ، ويسقط على الأرض , ثم استدارت إلى الشرطي تضربه أيضاً ، لكنه بسرعة كان قد أخرج مسدسه من جرابه ، وصوَّب نحوها ، فزعت وتراجعت ، وسقطت فوق الأرض جالسة تبكي .

– أرجوك انتظر نحل المشكلة بهدوء .

قال مجد الدين الذي فكر فى زحام الناس الذين قد يقتلونها بالفعل ، ثم خاطب زوج لوللا الحقيقي :

خذ مراتك يا ابنى وروح طلقها عند مأذون بعيداً عن القسم ، القسم سيطلقها ويسجنها أيضاً.. ماذا تستفيد من سجنها ؟ اتركها لحالها .

لكن الرجل لم يرد . كانت " لوللا " خلال ذلك قد اندفعت داخلة حجرها ، وأغلقت الباب خلفها بسرعة من الداخل . حاول الشرطي تحطيم الباب لكن مجد الدين أمسك بيديه .

– أين ستذهب .. ستفتح بعد قليل ؟

جاء الصوت من الداخل :

– أنا خارجة يا أولاد الكلب .

وفتح الباب ، وظهرت لوللا في فستان جميل تنظر إلى الجميع في تحد ، انحنت على يد مجد الدين تقبلها وتبكي . قالت " لا تصدقهم يا شيخ مجد الدين " ثم نظرت إلى زهرة و الست مريم ، وقالت الكلام نفسه . كانت زهرة تبكى بحق ، كانت الست مريم تغالب دمعها ، وهتفت " لوللا " للشرطي .

– هيا بنا ، ولو حتى إلى جهنم .

بدا واضحاً أنها لم تعد تخشى شيئاً الآن بعد أن سترت نفسها ، وارتدت الفستان ، بدا الأمر عجيباً للغاية لمجد الدين ، كيف حقاً وهى المرأة الزانية تخاف المشي في الشارع بقميص النوم ؟ حتى إذا سترت جسمها لم تخش الموت نفسه ؟ وقال في نفسه من يدرى قد تكون هذه المرأة في طهارة أى ولي أو قديس .

***

" أين الحديد وإن أصبح أحمر اللون،

فليست الحمرة لونه،

وما شعاعه إلا من

نار تصليه ..."

-14-

الوقت من الثانية عشرة إلى الثانية ظهراً ، مخصص للغداء كل يوم . تعوَّد العمال الذهاب إلى بيتهم ، في سكن المصلحة الذي يبعد حوالى الميل ، لتناول الغداء والاسترخاء ، ثم العودة إلى العمل . في أيام كثيرة كان مجد الدين لا يعود للغداء في بيته ، رغم أن بيته أقرب من بيوت زملائه . لقد تعود ، هو الفلاح ، الغداء في الحقل ، وهو الآن يأخذ معه غداءه في معظم الأيام . يظل هو وحده بالبوستة ، التي يجعلها موقعها وجدراها الخشبية ، مكاناً يبعث على الراحة فى الصيف والشتاء ، يعتبر هاتين الساعتين فرصة ، لقراءة القرآن من المصحف الصغير ، الذي لا يفارق جيب صداره فوق قلبه ، وينام أيضاً لبضع دقائق قد تصل إلى نصف ساعة على المقعد الطويل المرتفع فوق الأرض بقليل . لم يكن دميان في الأيام الأولى من العمل يحب البقاء ظهراً . كان مثل بقية العمال ، يحب الغداء والراحة في البيت ، لكنه وجد الطريق دون مجد الدين بلا طعم ، بل يزداد إقفاراً على قفره ، فضل أن يبقى معه ، يتغديان ويسترخيان ، ويقطعان الوقت بالحديث ، الذي كثيرا ما يكون قصيراً ، بسبب قراءة مجد الدين للقرآن .

كان للبوستة رائحة التراب والشاي . التراب الذي هو فوق الأرض ، رطب ، حيث لا نوافذ إلا الباب المفتوح ، ومناف ـذ الن ـور الرفيـ ـع بـ ـين الفلنكات التي تشكل الجدران ، ولأن المساحة تزيد على خمسين متراً مربعاً ، لا يبدو أن الضوء المنسكب من الباب المفتوح ، كاف لطرد الرطوبـ ـة ، ولأشعة الضوء الرفيعة ، الهاربة من بين الفلنكات . أمـ ـا الشـ ـاي فهـ ـم لا يكفون عن صنعه ، حين يأتون في الصباح ، وحين يأتون بعد الظهـ ـر ، وفي أوقات الراحة يصنعونه على نار يوقدونها في " كانون " خـ ـارج البوسـ ـتة ، ويشربونه ثم يلقون ما يتبقى في الكوب من شاي وتفـ ـل ، أمـ ـام أرجلـ ـهم ليشربه تراب الأرض على مهل ، اليوم قال دميان الذي كان يسـ ـترخى فى مواجهة مجد الدين :

– وماذا بعد يا شيخ مجد الدين ؟

– فيم يا دميان ؟

– في الشغلة السوداء التي نشغلها . أنا ظهري انكسر أو أوشك .

– تشتكي الآن يا دميان لقد تعودنا يا رجل .

– لكن الجنيهات الثلاثة التي نحصل عليها كراتب لا تكفي شـ ـيئاً في هذا الغلاء .

– لكنها أفضل من الملطشة ، وقضاء الوقت في قسم البوليس .

قال مجد الدين ذلك بلا مبالاة . كان يتحـ ـدث إلى دميـ ـان بطريقـ ـة أوتوماتيكية . الحقيقة أن هذا الحديث تكرر بينهما كثيراً . لذلك مد مجـ ـد

الدين يده إلى جيب صداره ، وأخرج المصحف الصغير ، واعتدل بعد أن كان مسترخياً على ظهره ، وقام واستند بظهره إلى الجدار ، ومد ساقيه ، وفتح المصحف ، وبدأ يقرأ بلا صوت فقال دميان :

– يارجل أسمعني . أنا كلما كلمتك فتحت المصحف وبدأت تقرأ ، ألا تقرأ ما يكفي في البيت ؟ أنت هكذا ستجعلني أحضر الإنجيل أنا أيضاً ، أقرأ فيه أمامك كلما كلمتني .

انطلق مجد الدين يضحك من غيظ دميان وطريقته في الكلام ، ومن كلام دميان عن قراءة الإنجيل وهو في الأصل لا يعرف القراءة والكتابة وحين تم تعينه ، كان هناك شرط أن يمحو أميته قبل مرور عام ، وقد مضت الآن أربعة شهور ، ولم يلتحق دميان بمدرسة لمحو الأمية إلا منذ أسبوع فقط .

أغلق مجد الدين المصحف بعد أن كف عن الضحك وسأل :

– ماذا تريد مني يا دميان ؟

– أموت وأعرف الحكاية الحقيقية للرجل الجالس عند الغراب ، كلما مررت من أمامه نظر إليَّ شذراً ، هل أنا الذي قال للعصافير أن لا تأتي إلى الشجرة ؟ يبدو لي أنه يريد قتلي .

– إنه ينظر إليَّ أيضاً النظرة نفسها كلما مررت أمامه .

– لابد أنه يريد أن يقتلنا معاً يا شيخ مجد .

فكر مجد الدين قليلاً ثم قال :

– يا دميان سيب الملك للمالك .

وسكتاً طويلاً . قرأ مجد الدين عدة صفحات من القرآن وبدأ صوته يرتفع قليلاً وهم يختم سورة " المؤمنون " (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسال العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاًوأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ، وقال دميان في صوت غير مسموع : " كيرياليسون . كيرياليسون . كيرليسون " ثم سأل مجد الدين :

– لماذا يا شيخ كلما دخلت معك في نقاس تقول لي " سيب الملك للمالك " ؟ أولاً أنا لا أمسك شيئاً – ضحك مجد الدين واستمر دميان – ولا أنت تمسك شيئاً يا شيخ مجد . تعرف فيم أفكر الآن ؟

– لا. لا أعرف .

هذا الباب المفتوح ، لو جاء شخص ما و أغلقه علينا في هذا المكان المقطوع ، هل سيعلم بنا أحد ؟ هل سيصل إلينا أحد ؟ ممكن أن يحدث ذلك وأنت نائم بعد الغداء ، وأنا نائم أيضاً ، يأتي أى شخص ويغلق الباب ويمضي ، ولا يأتي أحد بعد ذلك أو يمر علينا ، فنموت . يا شيخ مجد الدين ، أنت فعلت شيئاً كبيراً في البلد ، وهربت منه ، أنت مطمئن للدنيا جداً ، راض بأي شيء يحصل ، كأنك تريد أن تموت .

علت الدهشة وجه مجد الدين من هذا الحديث العجيب لصديقه وأحس بارتفاع الحزن ، وتمدده في صدره ، وانتقال الشجن إلى عينيه ، فكاد يبكي لولا صفارة قطار عالية جعلت دميان يقفز من مكانه خارجاً ينظر ، بينما يرقبه مجد الدين . عاد دميان يهتف :

– قطار لا نهاية له يا شيخ مجد مشحون أفريكان ، قطار أسود كله .

العفريتة سوداء والجنود ، لا أبيض فيه غير العربات ، وبياضها ، حائل جربان .

نهض مجد الدين ، وخرج مع دميان ، فرأى أمامه بالفعل ، قطاراً طويلاً عديد العربات ، تطل من نوافذه عشرات الوجوه السوداء ، ذوى الأنوف العريضة المفلطحة . وقال دميان بصوت منخفض كأنه يتأمل :

– الدنيا كلها مع لإنجليز ، هتلر لن يكسب الحرب أبداً .

كان القطار قد توقف قليلاً للتزود بالمياه عند الغراب ، ثم تحرك بطيئاً وسط شبكة القضبان المزدحمة أمام البوستة حيث توجد عدة تحويلات وكان من الممكن لأى جندي أن يترل من القطار ثم يركبه من جديد ، ولأى شخص أن يركب القطار ثم يترل بسهولة قافزاً فالسرعة ليست بالخطيرة .

– هؤلاء لهم ذيول يا شيخ مجد ، لو نزل أحد منهم سترى ذيله يطل من الشورت .

ضحك مجد الدين ، ولوح للجنود الذين كانوا يلوحون له من النوافذ ، ويرفعون أكفهم بعلامة النصر، التي اخترعها تشرشل وذاعت في الدنيا ثم

ظهر أحدهم يقف بباب إحدى العربات حاملاً صندوقاً صغيراً من الكرتون ، ويشير إلى مجد الدين ودميان .

– اجر أنت يا شيخ مجد خذ منه الصندوق ، أنا لو رأيت ذيله أموت .

ضحك مجد وهرول حتى لحق بالقطار ، ومد يده يمسك بالصندوق ، الذي تركه الجندي باسماً . الحق أن مجد الدين تردد للحظة خاصة أن الجندي نزل درجة في سلم العربة ، وأمسك بالصندوق في يده ، وبالأخرى أمسك بالعامود المعدني اللامع لباب العربة ، كان من السهل على مجد الدين أن يرى ساقي الجندى العاريتين تحت الشورت ، وأن يرى ما إذا كان هناك ذيل أم لا ، لكنه لم يفعل . ركز بصره على الصندوق وعلى اليد السوداء التي تحمله ، والتي بان سوادها أكثر حين مد هو يده البيضاء ليستلم الصندوق . على أن الذي أفزعه ، هو فكرة غريبة قفزت إلى ذهنه ، وهو يمد يده يتناول الصندوق ، ماذا يمنع الجندى أن يمسك بذراعه ويجذبه إلى العربة ، التي تحمله مع الجنود إلى ميادين القتال ؟ . لقد خطف البهي في الحرب السابقة من الطريق ، ويمكن جداً أن يخطف هو رغم انقضاء زمن السخرة في الجيش الآن . ولم ينقذه من أفكاره وخوفه ، إلا إحساسه بخفة الصندوق . قال لدميان :

– يبدو أنه صندوق بسكويت .

سكت دميان قليلاً ، وفتح مجد الدين الصندوق ، فرآه ممتلئاً بالبسكويت .

قال دميان :

– تعرف يا شيخ مجد أنا نفسي في ايه ؟

– لا .

– في صندوق بلوبيف استرالي

***

ضحك العمال حتى استلقي بعضهم على قفاه ، من خوف دميان من التقدم إلى الجندي الأفريقي . كانوا يتناولون شاي القيلولة بعد ع ودهم إلى العمل الساعة الثانية ، ولم يكن هناك عمل مهم بعد ظهر ذلك اليوم .

كان " الأسطى غبريال " دائماً لا يش اركهم الض حك ، يكتف ي بابتسامة .. هو ملاحظ العمال ، قريب ديمتري الذي أخبره بوجود ف رص عمل بالسكة الحديد ، ضئيل الجسم ، رشيق ودقيق التكوين . دائماً يأخ ذ ركناً بعيداً ويتكوم حول نفسه ، ناظراً في نوتة ص غيرة لا تفارق ه ط وال الوقت ، يكتب فيها بالقلم الكوبيا أشياء غامضة ، وبين الحين يشد البيري ه الذي فوق رأسه ، والذي لا يخلعه حتى في جلوسه ، يشده إلى عينيه قليلاً ، أو يرفعه إلى أعلى أكثر ، ويحرص أن يضع القلم الكوبيا ذا اللبيسة البيضاء ، في الجيب الأعلى لسترته الخضراء ، بحيث تبرز اللبيسة من أعل ى حاف ة الجيب ، كأنما يشير إلى استعداد القلم فى أى وقت للانط لاق للكتاب ة ، ورغم أن العمال يعرفون أنه يكتب فى النوتة ، ملاحظته على سير العم ل اليومي ، تمهيداً لنقلها آخر الأسبوع ، في تقرير رسم ي إلى الإدارة ، رغ م ذلك ، فإنهم لا يكفون عن الدهشة مما يكتب ، ويتخيلون أنه عم ل م ن

أعمال الأسرار أو السحر ، خاصة أنه يبدو يتأنق في الكتابة ، حتى إن حمزة علق على ذلك يوماً فقال : " إن الأسطى غبريال يحب الكتابة بخط منمن ، وبالليل لا يجد شيئاً يفعله فيروح يمسح ما كتبه بالنهار ، يؤكد ذلك أن النوتة لا تتغير أبداً " .

اليوم كان حمزة أكثرهم ضحكاً من خوف دميان ، ولم يستلق على قفاه لأنه كان قصيراً أكثر ما ينبغي .

لحمزة طريقة غريبة في المشي . فهو دائماً متباعد الساقين كمن يمشي على أطراف أصابعه ، ورغم أن عمره لم يتجاوز الأربعين بعد ، يبدو دائماً أكبر من ذلك ، وهو ذو وجه أحمر وعينين زرقاوين ، مثل كثير من أهل رشيد ، ويتسم بالأدب الشديد ، إلى درجة تصيبك بالارتباك فهو دائم السلام على كل من يقابله ، ولو حدث وترك البوستة ، ثم عاد بعد دقائق ، يلقي السلام على زملائه ، كأنه لم يكن موجوداً معهم منذ قليل ، فضلاً عن كونه دائم الاعتذار ، عن أي خطأ مهما كان تافهاً ، حتى لو نهض قبلك من مكانه ! . لقد كان سلوك حمزة في البداية ، مفاجئاً لمجد الدين ودميان ، وشيئاً فشيئاً لم يعد يدهشهما ، إذ رأى فيه مجد الدين إنساناً طيباً بينما رأى فيه دميان شخصاً نصف معتوه .

لكن في حمزة كانت عادة سيئة ، كثيراً ما سببت سخرية زملائه منه ، وهو إنه كلما تحدث أحدهم حديثاً أو روى حكاية ، لا يكاد ينتهي حتى يقول حمزة ، أن ذلك حدث له بالضبط ، بالطريقة نفسها التى حدثت لزميله ، وفي الزمن نفسه ، صار ذلك معروفاً لهم ، حتى إن بعضهم كان يؤلف

الحكايات خصيصاً ، ليعيدها حمزة باعتبارها وقائع جرت له ، فينطلق ون في الضحك ، ويعلنون أنهم ألفوا الحكاية ، فيقول لهـ م حك ايتي حقيقي ة ، ويضحك معهم ، شاعراً بالزهو ، إذ انتصر عليهم . وهكذا ظل بطلاً لكل الحكايات الخرافية والحقيقية طول الوقت ، فإذا هرب القاتل في الصعيد في زمام زراعة الأذرة ، مما اضطر رجال البوليس إلى حرق كل الذرة للق بض عليه ، فقد حدث له مثل ذلك لكن في الدقهلية ، وليس الص عيد ، أم ا الرجل الذي خرج ليلاً يتغوط على شاطئ المحمودية فخرج ت ل ه جني ة سحبته من " صرمه " إلى الماء ولم يخرج ، فقد رأي مثله تسبحه الجنية أمامه ، وهويصرخ مستنجداً به ، لكنه تسمر في الأرض ، غير قادر على الحركة لإنفاذه ، ولم تتركه الأرض إلا بعد أن استقر الرجل إلى قاع الترعة ، أم ا الحمار الأبيض الذي قابله أكثر من واحد منهم في قريته بالليل ، ح تى إذا اقترب منه اختفى ، فقد قابل حمزة عدداً لا يحصى من الحم ير الب يض ، وركبها جميعاً .

كات أغرب الحكايات حقاً حكاية الرجل الذي ذهب عن د الفج ر يتوضأ من مياه المحمودية . لقد انتهى الوضوء ، ووقف يرف ع س روالة إلى وسطه ، ثم مشى ، فشعر بشيء يتحرك بين ساقيه ، وأسفل مؤخرته ، شيء يعبث بأصابعه فيه ، رفع جلبابه ، وشد تكة السروال ليرى م ا بداخل ه ، فوجد عدداً من الأرانب البيضاء الصغيرة . عشرات من الأرانب البيض اء الصغيرة كالفئران الضئيلة تلهو في " لباس " الرجل ، الذي جرى إلى بيت ه لكنه لم يستطع الوقوف مرة أخرى فى مكان ثابت ، بسبب حركة الأرانب العجيبة هذه ، ثم لم يستطع النوم ، أين يذهب بهذه الأرانب ال تي تعلق ت

داخل سرواله ؟ لقد اضطر إلى الترول إلى الشارع مرة أخرى ، ولم يجعله يكف عن الصياح إلا الصمت من حوله ، وظل غير قادر على التماسك ، حتى سقط مغشياً عليه ، فرأى الناس عشرات من الأرانب تخرج من بين ساقيه ، بيضاء تجري إلى كل ناحية ، ومات الرجل من الرعب . ويقسم حمزة بأغلظ الإيمان أن ذلك حدث في قريته أيضاً ، حتى انحنى دميان على مجد الدين يوماً .

– حمزة هذا أكيد رجل هجاص .

– وأنت ماذا يضايقك ؟ دع الملك للديان يا دميان .

لكن دميان لم يستطع السكوت .

– لا يغيظني شيء قدر صبرك وحلمك يا شيخ مجد .

ابتسم مجد الدين ، وقال :

– لن تستطيع أن تغير طباعه ، لقد تعود الرجل وتعود الرجال عليه .

اليوم ، وحمزة يضحك من خوف دميان بدا وجهه شديد الحمرة ، لأنه كان قد قام على الفور من إعداد الشاي فوق النار ، كما كاد يختنق أثناء الضحك ، فتجمعت في وجهه دماء كثيرة ، من الضحك النار والاختناق فكاد يشتعل ، وقال حمزة بعد أن زال عنه الاختناق :

– أنا أيضاً أول مرة رأيت الأفريكي خفت من ذيله ، كان يناولني كرتونة بلوبيف استرالي محترم لكنى خفت . ابتعدت وقلت له : ارميها لي ،

فلم يهتم ، قلت " ثروا إت " فرماها ، فهم الإنجليزي ولم يفهم العربي . عجيب !

تأمله دميان في غيظ مكتوم وقال :

– وشفت ديله يا حمزة .

– شفته لكن خفت أمسكه . أى الله .

انطلق العمال في الضحك ، وقال دميان :

– تلاقيك خفت تمسكه يطلع حاجة ثانية !!

وهنا صار الضحك توحشاً ، وشارك معهم حمزة ، الذي عاد يختنق من جديد مما يزيد غيظ دميان ، ولم يزد الأسطى غبريال على ابتسامته الشاحبة والاستمرار فى الكتابة السحرية . سأل حمزة مجد الدين :

– ما رأيك يا شيخ مجد ، هل صحيح الأفريكان أصلهم قرود ؟

فكر مجد الدين قليلاً ، وانتظر العمال كلامه فقال بهدوء :

– العلم عند الله . ما سمعته أن القرد أصله بني أدم مسح إليته برغيف فسخطه الله قرداً . هذا ما نسعمه من الصغر ، وأنا لا أصدق ذلك ، لأن الإنسان كرمه الله أحسن تكريم فلا يمكن أن يحوله إلى قرد ، كما لا يمكن أن يكون أصله قرداً .

بدا الارتياح على العمال ، بمن فهم الأسطى غبريال الذي قال :

–كلامك حكم يا شيخ مجد ، ما رأيك يا حمزة ، أم أنك شفت واحداً انسخط قرداً ؟

ضحك العمال ضحكاً مضاعفاً ، لأن المتحدث هـ ـذه المـ ـرة ، هـ ـو الأسطى غبريال الصامت .

واستجمع حمزة نفسه ، وقال :

– والله خائف أقول إني شفت لا يصدقني أحد ، الأفضل أسكت يـ ـا أسطى .

وسكت الجميع ، على الطريقة الغريبة التى تحدث للمصريين بعد كل ضحك ، ذلك السكوت المفاجئ الذي يشمل كل شيء حـ ـتى الـ ـدنيا في الخارج ، وقال أحد العمال : " اللهم اجعله خيراً " . وقال مجد الدين .

– أنا عندى حكاية طريفة أحب أحكيها لكم .

نظروا إليه متلهفين ، اهتم حمزة للغاية ، أرهف السمع ، بل سـ ـبقهم وقال :

– أحك يا شيخ مجد ، لعلك تحكى لنا شيئاً جديداً لم أعرفه ، أو أراه .

ابتسم مجد الدين ، وغمز لدميان بعينيه أن يتابع الموقف ، وانـ ـدهش دميان من صديقه الذي قال :

– ذات مرة وأنا صغير في الغيط ، أمسك بي فلاح شاب ، عمـ ـل فيَّ حاجة وحشة .

وسكت الجميع سكوت الصدمة . ما الذي يقوله الشيخ مجد الدين ؟ ولماذا ؟ وماذا يقصد ؟ وهنا قام حمزة ممسكاً بكوز الشاي الفارغ ، متجهاً للخروج كأنما سيعد شاياً جديداً فسأله مجد الدين :

– لماذا سكتّ يا حمزة . لماذا لم تقل : إن ذلك حدث معك أيضاً ؟

سمعوا صوت الأسطى غبريال يضحك عالياً لأول مرة ، وقفز دميان قائلاً : " الله . الله . الله أكبر . الله " أما حمزة ، فقد تحول وجهه الأحمر إلى الأصفر المائل إلى الزرقة ، أما الشيخ مجد الدين فقد قام إلى حمزة ، واحتضنه وقبل رأسه قائلاً :

– لم أكن أعرف أنها مزحة ثقيلة يا رجل .

عندما كفوا عن الضحك عاد الأسطى غبريال إلى النوتة يكتب ، ولاحظوا أن النبرات كانت عالية للغاية فلم تصب بسوء ، لم ينم مجد الدين ولا دميان تلك الليلة لإعداد الشاي لا يريده أحد .

بعد قليل خرج إليه مجد الدين فرآه يجلس بعيداً عن " راكيه النار " ولم يضع الكوز فوقها .جلس فتأمله حمزة باسماً وقال :

" ومن عادة المرء مش ممكن يعادي جميل"
" والحر مهما افتقر ما يضيعش عنده جميل "

أحس مجد الدين براحة كبيرة تتمدد في صدره ، وقال :

– أنا لا أعرف كيف اندفعت فى الهزار هكذا ، وحينما رأيتك خجلان تضايقت من نفسي جداً .

قال حمزة :

- يا شيخ مجد نحن نقول ، ما هو أكثر من ذلك كل يوم ، انظر إلى هذا القطار .

كان قطار بضاعة ، عرباته مسطحة محملة بالمعدات العسكرية ، له صوت ثقيل فوق القضبان حتى إن العمال جميعاً خرجوا يشاهدونه . كان فوق كل عربة ، دبابة أو عربة مصفحة ، ومغطاة بالشبابيك ، وفوقها أو جوارها جندي أو جنديان ، كان القطار قادماً من السويس أو القاهرة ، متجهاً إلى الصحراء حيث توجد تجمعات كبيرة لقوات الحلفاء ، في العلمين وفوكة ومرسى مطروح ، الجنود لم يكونوا " أفريكان " هذه المرة ، إنجليز أو استراليين يرتدون الشورت الأصفر الكاكي رغم أن الجو شتاء . ولكنهم قادمون من الجنود ، ربما من جنوب أفريقيا ، وفوق الشورت القمصان الصفراء بنص الكم ، والسترات المشغولة التي بلا أكمام ، إن حمرة وجوه الجنود ، وبياض بشرة أذرعهم ، وسيقاهم ، تدل على أهم جنود لم يروا الصحراء من قبل ، وحداثة سنهم تدل على أهم حديثو العهد بالجندية .

كان القطار سريعاً أكثر مما ينبغي ، ورفع العمال أيديهم بالتحية للجنود ، وارتفعت أصواتهم : هالو , ويلكم ، إنجلش إذ جود ، جيرمان إذ نو جود ، تشرشل إذ رايت ، هتلر نو رايت .

وهكذا مما يقولون في مثل هذه الحالات ، من كلمات قد لا يعرف أكثرهم معناها ، لكن فوائدها مضمونة ! . وبدأ الجنود يقذفون إليهم ، بعلب السجائر لاكي سترايك ، والبسكويت المغلف ، والشيكولاتة ، علب

البلوبيف الاسترالي والنيوزيلاندي والجبن الشيدر ، وحذرهم الأسطى غبريال من التقدم حتى يمر القطار ، لقد تعود على ذلك وتعودوا ! ، وبعد أن يمر القطار يجرون هم يجمعون ما فوق الأرض ، ثم يدخلون به إلى البوستة ويبدأون في تقسيمه بينه بالعدل ، حسب الرغبة ، عادة يكون المحصول كافياً لهم وزيادة ، فهم لا يزيدون على عشرة عمال . وصار كل واحد يعرف ما يريده الآخر أو يحبه ، فالأسطى غبريال مثلا يحب الشاي السيلاني ، بينما حمزة يحب البسكويت والشيكولاته لأنه يوزعها على الأطفال ، أطفاله الثلاثة ، أطفال جيرانه ، الذين هم أبناء العمال زملائه أنفسهم لأنهم جميعاً يسكنون في سكن المصلحة من عمال البوستة رقم "1" ، "2" ، "3" ، "4" ،"5" ، "6" ، الذين لا يبعدون في العمل عنهم كثيراً ، وغالباً ما يلتقون معهم فى الأعمال الكبيرة ، أو حين تقع حوادث ، وفي هذه الحالة أيضاً لا يختلفون على توزيع ما يلقي لهم به الجنود ، القطارات تمر أكثر من مرة في اليوم ، الجنود يلقون لهم الحلوى والطعام والشاي المعلب بسخاء ، والحرب فيما يبدو ستطول .

***

في الطريق قال دميان لمجد الدين :

– ماذا كل هذه الأسلحة اليوم ؟

– ألا ترى قطارات الأسرى الطلاينة القادمة كل يوم من الصحراء ؟ الحرب شديدة هناك .

– يبدو أن الحرب ستطول يا شيخ مجد .

– الأسلحة تأتي من السويس ، ومن الميناء بالإسكندرية ، والجنود يأتون من كل الدنيا يا دميان . يخيل لى أنها ليست الحرب ولكن القيامة .

– صحيح هل يختلف شكل القمامة عن حال الدنيا الآن يا شيخ مجد ؟

سكتا طويلاً . وانتقل مجد الدين بذهنه إلى حمزة الذي تندر عليه اليوم ، وكيف بدا له شخصاً نبيلاً ، ثم ابتعد عن تذكر حمزة لي لا يدخل في تذكر لوللا وما حدث منذ أيام ، وازداد توتره ، ليس بالأمر السهل ، أن تتعرف زهرة ، بامرأة يتضح بعد ذلك أنها زانية . وليس بالأمر السهل أن يسكن في بيت ديمترى ، الذي بدأ منذ ذلك اليوم ، يشعر بالخجل كلما رآه ، لأنه لم يدقق في اختيار السكان . ماذا يقول الناس عن ديمتري الطيب وأولاده الآن ؟ وهل كان بوسع ديمتري أن يرفض ساكناً للحجرة سيدفع له ستين قرشاً في الشهر ؟ . والبهي ، أخوه ، هل كان يعرف بأمر لوللا ، وإذا كان ذلك فكيف اختار له أن يسكن في البيت نفسه . لكنه ابتسم ساخراً من تساؤله الأخير ، وسمع دميان يقول :

– انظر ، المخبر وحيد ،

كان المخبر "وحيد " يقترب منهما ، في جلبابه الأزرق ذي الخطوط البيضاء الطولية ، فوقه البالطو الكاكي الاصفر ، على رأسه الطاقية البيضاء ، والكوفية الرمادي حول عنقه ، وفي يده خيزرانته الطويلة ، يطوح بها في الهواء بين الحين والآخر ، إنهما يعرفانه جيداً ، يقابلانه كل يوم تقريباً يعطيانه شيئاً مما أعطاهما الجنود . لقد تعود علىذلك ، والحقيقة أنه يفعل ذلك مع

كل من يقابله في الطريق من العمال . رغم مظهره الأنيق ، إذ تبدو دائماً ثيابه نظيفة ، ورغم وجهه المشرق ذي السمات الهادئة ، فإنه حين يتكلم يبدو متوحشاً سمجاً جاهلاً جهل أبي جهل ، كما يقول عنه الشيخ مجد الدين دائماً . ووحيد مشهور في المنطقة كلها ، بأنه " يرمى بلاه " على الناس ، ولا يتورع عن تدبير مصيبة لأى شخص . رآهما كما يراهما كل يوم فهتف كأنه يراهما لأول مرة :

– ماذا تحمل يا رجل أنت وهو ؟

– كما ترى . معلبات إنجليزية ؟

أجاب دميان باسماً فقال وحيد :

– من المخازن الإنجليزي تقصد .

لا يعرف أى منهما أين تقع المخازن الإنجليزية ، وفهما أنه يريد مما معهما اليوم أكثر من كل يوم . قال دميان وهو يزداد ابتساماً :

– ولا مخازن ولا غيره ، خذ لك باكوين شاي وخلاص يا وحيد .

لكن هذا صرخ فيهما :

– قدامي على النقطة .هذه سرقة .

ورفع خيزرانته في الهواء يهددهما ، فنظر إليه مجد الدين نظرة شرسة طويلة ، وكان قبل ذلك قد نظر حوله ، فرأى الخلاء واسعاً ، والشمس تنسحب عن الدنيا في هدوء ، والنسمة الباردة تزداد ، والظلام يتهادى إلى

الأرض ، حتى إنه لا يكاد يميز شكل القضبان فوق العوارض ، إذ أخذ الجميع لون التراب وقال :

– تعرف يا وحيد أنني أستطيع الآن أن أمددك على الأرض ، وأذبحك على القضيب ، ولا أحد يراك ؟

– ماذا تقول يا شيخ مجد ! تذبحني ؟

اعتدلت نبرة وحيد وخفض خيزرانته ، فقال له مجد الدين :

– أجل، ويمر القطار فيعرف الناس في الصباح ، إنه هو الذي فصل رأسك عن جسدك .

كان دميان يرتعد حقيقة من كلام صديقه الذي لم يتوقف .

– إن معنا كرتونتين كما ترى ، في كل واحدة شاي وبسكويت وبلوبيف وجبن ، سنعطيك واحدة كاملة ، وسنقتسم نحن الثانية ، لكن بشرط ألا تعترض طريقنا أبداً بعد ذلك ، وتذكر في كل مرة تنوى فيها ذلك أنني أستطيع أن أذبحك ولا يراك أحد ، خذ هذه الكرتونة وامض بأمان .

أخذ وحيد الكرتونة شبه مخدر ، ومشى ومجد الدين صامتين ، ثم سأله دميان :

– هل كنت حقاً ستذبحه يا شيخ مجد ؟

– أجل ... اليوم يمكن أن أذبح أى أحد .

واستمرا في طريقهما إلى البيت دون كلام .

" لم أكبح جماح نفسى.
تركتها على مطلق سجيتها ،
ومضيت إلى المتع التى تتأرجح
بين الواقع والخيال.
مشيت في الليل المضيء
وشربت النبيذ القوى ،
لمحبي المتع الشجعان .."

-15-

هجمت اليابان على الهند الصينية ، واتسع نطاق حربها م ع س كان قارة آسيا على طول الساحل الغربي وجنوبه ، فالحرب مستعرة بينها وب ين الصين من قبل . لقد تململ المارد الياباني وبدأ يتمطى وينفخ ذ اره ، ورأت أمريكا في قوة اليابان العسكرية ، ونشاطها الحربي ، تهديداً لها فبدأت ترتاب ، لكن الأهم هو أن الناس بدأت تدرك أن الكرة الأرضية تشتعل من ك ل الجوانب ، وأن الحرب ستسرى كالنار في كان مكان .

في مصر أغارت الطائرات البريطانية لمدة أربع ساعات كاملة على مواقع الإيطاليين الجديدة في سيدى براني ، وتجاوزتها إلى بنغازي لإصابة خطوط مواصلاتها ، وقللت وزارة التموين حصة الفحم المنصرفة للكوائين بسبب انقطاع استيراده من انجلترا وبسبب تشغيل عدد كبير من القطارات في النقل العسكري فضج الكواؤون بالشكوى ، وبدأ بعض الشباب العابث يخرج ليلاً بالقناع الواقي على وجه لمفاجأة البنات والنساء في الطرقات المظلمة ، والحقيقة فإن مشهد الشخص والقناع يغطى وجهه بالليل أمر مخيف ، وصارت جماعات من الشباب العابث تُرى معاً وفي وقت واحد وهي تمشي بالقناع وكأنها ثيران تمضي إلى حظائرها أو خارجة منها إلى المراعي البعيدة . وكان الإيطاليون قد بدأوا استخدام نوع جديد من القنابل يشبه " التورموس " لا ينفجر عند سقوطه فوق الأرض ، بل بعد ذلك إذ يتفاعل عند تحريكه ثم ينفجر ، فبدأت حملة تحذير للجمهور السكندري منه ، خاصة أنها قنابل ذات سطح لامع ، إذا سقطت فوقها أشعة الشمس تلمع وتنعكس ، فلا يراها الإنسان العادي إلا بعد تدقيق . وازداد الهم على الناس لدخول رمضان للسنة الثانية بلا أنوار ولا سهر ، لقد ارتفعت أسعار كثير من السلع ، ودخل الجاز البطاقة ، وارتفعت أسعار البطاطس فبلغ سعر الأقة الإنجليزي سبعة وعشرين مليماً بعد أن كان خمسة عشر ، وسعر الأقة من النوع البلدى عشرين مليماً بعد أن كان عشرة ، وتهدم جزء كبير من حائط كورنيش الإسكندرية عند سيدى بشر بسبب تسرب مياه البحر ، والولائم الملكية لم تعد تكفي لإسعاد الفقراء ، ففي الإسكندرية لا توجد إلا وليمة واحدة أمام جامع المرسى أبو العباس ، بينما هى منتشرة في القاهرة كما

يقول الناس . وفي الوليمة يقدمون للشعب القلقاس واللحم والأرز والفول والخضار والحلوى ولقد افتتحها وكيل المحافظة بنفسه وأكل مع الفقراء ، واعتذر لهم عن عدم حضور المحافظ لسفره إلى القاهرة ، ليبارك للملك السعيد بحلول شهر رمضان ، وعقدت وزارة الشئون الاجتماعية لجنة لمناقشة ازدياد تبرج النساء الزائد الآن ، بسبب ازدياد أعداد الأجانب وحاجتهم إلى الترفيه وحاجة كثير من فئات الشعب إلى المال .

ولم يختلف " رمضان " عند مجد الدين عن العام الماضي ، فقط كانت السهرة الآن بين النساء دون لوللا ، ولاحظت زهرة أن كاميليا عادت إلى صمتها القديم ، وذهولها عن الآخرين ، تكلمت مرة وقالت : إنه لم يعد مسموحاً البقاء في السينما أثناء الغارات لا بالليل ولا بالنهار ، وسألت مريم زهرة لماذا حقاً لا تترك الإسكندرية والجميع يرحلون عنها الآن خاصة أنها حامل ومن الأفضل أن تلد في قريتها .؟ وقالت زهرة إنه يتبقى وقت طويل حتى تلد ، وإنها لابد ستفعل ذلك ، كانت تكذب فهي لا تستطيع أبداً أن تترك مجد الدين ، ولكن لم يكن أمامها غير ذلك ، فهي لا تستطيع أن توضح كيف أن زوجها مطرود من القرية ، ومع اقتراب عيد الفطر حبس العالم أنفاسه من التحرش الإيطالي باليونان حتى جاء الثامن والعشرون من أكتوبر ، الذي وافق عيد الفطر فى الإسكندرية، فهاجم الإيطاليون اليونانيين من ناحية ألبانيا ، وتجلت شجاعة الجنرال ميتاكياس رئيس وزراء اليونان الذي رفض كل طلب إيطالي ، بل وشنت اليونان هجوماً مضاداً ، وثار اليونانيون في الإسكندرية وتجمع شبابهم أمام القنصلية اليونانية يطلبون التطوع للدفاع عن بلاد أخيل وأجا ممنون وهرقل ، وزيوس وهيرا

وأفروديت ، وأبوللو والموسيات وفايدروس ، وأوديب وإلكترا وبيجماليون عن اليونان التي لا يكرهها أحد ، ولا يستطيع ، وأعجب المصريون بشجاعة اليونانيين في القتال ، وصاروا يحيون اليونانيين جيرانهم بإعجاب وتقدير ، واليونانيون كانوا لا يكفون عن التفاؤل " خبيبي دوتشي واحد غلبان " يقولون لجيرانهم المصريين ، ويعقدون الأمسيات الشعرية والحماسية ويغنون ويرقصون بابتهاج .

كان هتلر قد اجتمع مع فرانكو منذ أيام على الحدود الفرنسية الإسبانية لكن لم يبد أن إسبانيا ستدخل الحرب ، وصدرت التعليمات الجديدة في فرنسا باستبعاد اليهود من العمل في المصالح الإدارية والمناصب الحكومية ، والصحافة والسينما والإذاعة باستثناء من أدوا خدمات عملية ممتازة من قبل أو كانوا ممن أبلوا بلاء حسناء في الحرب العالمية السابقة وحصلوا على نياشين وأنواط ، وفي الإسكندرية وصل قطار قادماً من السويس يحمل جنوداً قادمين من جنوب أفريقيا قيل أنهم يهود من الشباب الهارب من جحيم النازي ، وأن من سيبقى منهم سيذهب إلى فلسطين بعد الحرب ، وقابلهم في الإسكندرية عند محطة سيدى جابر أعيان الجالية اليهودية ، صيدناوى وشيكوريل ، وسلفاجو وغيرهم ، ونثرت عليهم الفتيات اليهوديات الورود وتعلقن بهم يقبلنهم من النوافذ وحياهم كثير من المصريين الواقفين في المحطة وصفقوا لهم ، وأخذ القطار طريقه إلى الصحراء في المساء فلم يتوقف في المحطات ولم يصادف عمالاً حتى وصل إلى مرسى مطروح بعد يومين حيث أنزل الجنود وعاد بفوج من الجنود الاستراليين للاستجمام وخصصت عربة للأسرى الإيطاليين الذين كان بينهم عدد من

الليبيين العرب أطلق سراحهم في الإسكندرية لأنه ثبت للسلطات أنهم يقاتلون في صفوف الإيطاليين غصباً وبالقوة ، وأنهم يشتاقون ليوم دخول الحلفاء ليبيا لتخلصهم من جوازياني ممثل الدوتشي المجنون ، وذاع في الإسكندرية صيت الراقصة الجديدة لوللا وزوجها عازف الأكورديون الهائم بها الذي يعزف لها الألحان اليونانية وهو معلق البصر بها نشوان والطبال يغني أيضاً لها " بص بص عالطعامة بص ، تعال بص بص أنا واحدة وأنت نص " لقد احتكرها الباشوات فهي لا ترقص إلا في سهراتهم وقصورهم ، وأن الحرب قامت بين الفرق النسائية بسبب لوللا ، فهى من قبل كانت تعمل مع الأسطى نعيمة الصغير ببحري والسيالة ، لكنها اختفت مع عشيقها حتى وجدها زوجها الذي كان قد ترك الفرقة ، والتحق بفرقة باتعة السلاموني التى يشمل نشاطها كرموز وكوم الشقافة والقباري أيضاً . والآن دخلت الأسطى سومة النجيلي من الفراهدة واللبان المعركة ، وكذلك الأسطى فوزية المسيري منافسة نعيمة اللدود في بحري . لكن متعهدي الحفلات الذين صاروا الآن بلا عمل بسبب عدم السهر ، ولم يبق لهم إلا تنظيم سهرات الباشوات ، جمعوا بين الأسطوات وأوقفوا الحرب ، " مش كفاية الحرب اللي في الدنيا " ودفعت باتعة السلاموني عشرين جنيهاً تعويضاً لنعيمة الصغير ، واتفقت بقية الفرق أن تحيي لهم لوللا ليلة واحدة كل شهر في أى مكان يختارونه ، وكذلك الحال مع متعهدى الحفلات الرجال ، حمامة العطار من بحري وسعيد الخضراوي من الحضرة ، وأنور سلامة من كرموز ، والسيد الحلواني من باكوس ، وهكذا صارت لوللا نعمة على فرق الغناء والرقص في الإسكندرية ، لم يعد ينقصها غير الرقص في أتينوس أو الوندسور

أو غيرهما من ملاهى الكورنيش التي تضج بزحام الجنـود وفتيـات الـ . . A.T.S .

وصلت قصة لوللا إلى الست مريم وزهرة ، واندهشتا من كيد النساء ، والرجال أيضاً ، فزوجها الذي بدا غيوراً يوم ضبطها ، هو نفسه الـذي يقود حفلاتها في البيوت ، وسرعان ما نسيتا الأمر من جديد حتى جاء يـوم خرجتا فيه معاً إلى البياصة بكرموز ، ووسط باعـة الأسمـاك الرخيصـة ، والخضر واللحوم ، ورائحة السوق المكتومة شاهدتا تاكسي يقف بعيـداً في فم شارع السلطان حسين وامرأة تشير إليهما من داخل التاكسي . نظرت كل منهما إلى الأخرى وترددتا ، فجاءهما الصوت " ست أم كاميليا . ست أم إيفون " إنه صوت لوللا لا تخطئه الست مريم ولا زهرة . تقدمتا بعد أن تلفتت كل منهما . ماذا في لوللا يشدهما حتى تستجيبا لندائها رغم خوفهما أن يراهما أحد .

– ادخلوا التاكسى . ماتخافوش .

كانت تجلس فى الخلف فجلستا جوراها . وقالت :

– سوق يا اسطى

– على فين ؟

– البيت قدامك أهه ؟

– سوق يا ابن الخايبة لحد الباب دول هوانم عايزاهم يبانوا معايا ؟

سكت التاكسي وسكت الجميع ، واقتربت زهرة من الست مريم ولصقت به ، وأحست الست مريم بالأسف لركوبها التاكسي . لابد أن زهرة ركبت بسببها ، وقال السائق الذي دخل جانبيا ووقف .

– اتفضلوا.

نزلن . نظرت إليه لوللا وضحكت بينما ابتسمت الست مريم في الوقت الذي بان فيه الذعر على وجه زهرة . وجاءهن صوت السائق :

– يا ست لوللا ، هو احنا مش هوانم والا إيه .

– امشى يا ابن العرجا .

زعقت لوللا فمشى سائق التاكس ضاحكاً .

– لا تواخذوني يا جماعة ، أنا عازماكم عندي على فنجان قهوة وتشوفوا شقتي ، علشان خاطري يا ست مريم ، ما تكسفنيش يا ست مريم أنا صحيح مش كويسة لكن مجوزة ، والنبي وكويسة كمان .

ودخلتا معها مسحورتين من باب المترل المواجه المعتم ، وصعدتا على سلم بالكاد ترى درجاته في الظلام في الدور الأول فقط ، ووضعت لوللا المفتاح في الباب الخشبي فانفتحت ضلفتا الباب ، وسبقتهما تفتح النوافذ فدخل قليل من الضوء ، قليل لكنه يكفى للرؤية والحديث على كل حال .

جلست الست مريم وزهرة على أول مقعدين قابلاهما في الصالة وعادت لوللا بعد قليل ومعها " السبرتاية " والكنكة وثلاثة فناجين للقهوة

وإبريق ماء وجلست أمامهما على الأرض . بدت لوللا أجمل مما كانت في بيت ديمتري .

– أنا حاسة أني سرقتكما من الشارع ، أليس كذلك ؟

لم ترد زهرة وقالت الست مريم لنفسها : إن السكوت افضل .

وتساءلت لوللا :

– كيف حال الشيخ مجد الدين ، والخواجة ديمتري ؟ والله أنا كنت أسمع صوت الشيخ مجد وهو يقرأ القرآن بالليل ، كان الصوت يتسلل من الجدران ويصل إليَّ . صوت جميل مريح طيب . أنا قبل أن يكتشفني زوجي بيومين كنت نويت أعود إليه وأتوب بسبب صوت الشيخ مجد الدين رغم إني لا أفهم شيئاً من القرآن ، لكن كان كلما قال " فبأي آلاء ربكما تكذبان " أبكي . أبكي صحيح .

قالت زهرة في نفسها : " أستغفر الله العظيم " . لقد شعرت أنه ليس من الطبيعي أن يأتي كلام الله على لسان هذه المرأة أبدا . طالت الجلسة قليلاً وحكت فيها لوللا عن الصراع بين الفرق النسائية عليها وكيف انتهى على يد المتعهدين الرجال : " يا أختي الرجال في أى مكان ، لا تأخذي من النسوان إلا الكذب والكهن " ، وحديثهما عن ليالي الباشوات التي هي ولا ألف ليلة وليلة ، " مثل مين يا لوللا ، طبعاً عبود باشا منهم " ، " وحياتك كلهم . عبود وفرغلي باشا وسباهي والطويل ، الطويل مرة رقصت عنده في حضور النحاس باشا شخصياً . أيوه كان طالع من عملية خراج في مصر ، وجاء إسكندرية يومين يستريح يا عيني . لكن الحقيقة كانت عينه دائماً في

الأرض . يمكن مرة أو مرتين رفع عينه عليَّ .كنت حاسة إنه خايف ، خايف مني مش من الأحزاب التانية . يا اختي هو فيه كام حزب في مصر ، عل ى أى حال كل الباشوات فنجرية حتى سلفاتور شيكوريل وس لفاجو بت اع التروماي اشترالي التروماى " .وضحكن . ضحكن جمعياً لأول مرة ، لم يعد هناك حذر ولا ندم . استمرت لوللا .

– " لم يبق إلا الملك السعيد . أنا رقصت عند الأمراء . هو الب اقي . لو رقصت عنده اشتغل في السينما مع عبد الوهاب وأروح مصر وأس يب إسكندرية وغاراتها . هناك أمل الصيف القادم أن أرقص في المنتزه . ستكون الحرب انتهت لابد . أنا من الآن مكلفة الست " ديدي " الساكنة هن ا في شارع السلطان ،وهى أحسن واحدة تفصَّل بدل الرقص ، قلت لها تفصَّ ل بدلة مفتوحة من كل ناحية . من ورا ومن قدام ومن الوسط . وتحط لي فيها من الترتر والخرز خرج النجف وألماظ حقيقى . تعرفي يا س ت م ريم أن ا ساعات أشتاق لكم خالص ".

وشربن القهوة ولاحظت زهرة أن الصالة نظيفة ، والمقاعد وث يرة ، ليست جديدة لكنها لامعة ، وأن هناك بعض الآلات الموسيقية ، عود ، طبلة ، ورق ، صاجات ، أكورديون ، مبعثرة في أكثر من ركن ، بعضها لام ع وبعضها قديم مترب ، لكن بشكل عام مريح ويجلو البصر .

قامت لوللا بعد أن شربن القهوة لتحضر بعض بدل الرقص تطلعهما عليها ونظرت زهرة إلى الست مريم في هلع . لكن هذه قالت بهدوء :

– نرى البدل ونمشي لا نلتفت ، ولا نأتي للبياصة أبداً .

وهما تهرعان نازلتين السلم هتفت لوللا :

– السلام أمانة للخواجة ديمتري والشيخ مجـ ـد الـ ـدين ، وكاميليـ ـا وإيفون لابد سأرقص في فرح كل منهما . لابد .

كانت قد حدثتهما أيضاً عن " الأمبريزاريـ ـو " . متعهـ ـد الحفـ ـلات الأجنبي ، الذي وعدها برحلة إلى أوروبا بعد الحرب ، وقالت " إنها هناك " هتأبج كويس " ولما رأتهما مندهشتين قالت ضاحكة : " أه يأبج يعنى يقبض أجرة ، والأبيِّج هو الأجرة " واهتزت وهى تضحك قائلة : " أصل العـ ـوالم لهم لغة . يعنى مثلاً يقولك النهاردة مجممة ، يعنى خالي شغل " وأبريـ ـز " لا مؤاخذة يعنى رايح التواليت ، وأرخي يعنى آكل ، وعايمة يعنى المكسب كبير ،وفيه حاجات أصعب جداً لا يمكن أن يفهمها أحد خارج كـ ـار العـ ـوالم ، لكن لا مؤاخذة كله كلام أصله تحشيش أى والنبي " .

ظل هذا اللقاء العجيب عالقاً في ذهن زهرة لعدة أيام ، تنظر دائماً إلى الست مريم وفي عينيها ارتباك ورعب . لقد ارتكبت جريمة في حـ ـق مجـ ـد الدين ، حتى فأجاتها الست مريم أمام بنتيها قائلة :

– يا زهرة أنت محيرة نفسك ، ممكن تخبري الشيخ مجد بلقائنا بلوللا . لا توجد مشكلة ، أنا حدثت ديمتري عن ذلك وضحك ، لكنه قـ ـال أن لا تذهب إلى البياصة تماماً كما قلت لك . نشتري كل حاجتنا من هنا . ومن سيدي كريم أو من بعيد ، ومن بحري .

الأمر إذن ليس خطيراً للغاية ، ويمكن لها أن تخبر مجد الدين ، لكنها لم تخبره أبداً . لقد بدا لها مجد الدين دائماً فى حالة صمت ، ماذا يشغل بالـ ـه

هذه الأيام . إنه لا يختلف عن البنت كاميليا ، التي عادت لحالتها السابقة من الصمت والهيام . إنها لا تكلم زهرة إلا بكلمة أو اثنتين . إزيك . صباح الخير . مساء الخير . ولا شيء آخر ، وزهرة تلمح في عينيها بدايات بكاء ، والحقيقة أن كاميليا كانت قد أيقنت أنه لا رجعة في طريقها الجديد ، إذ تقدمت في اللغة الفرنسية في مدرسة بيرليتز طوال الصيف ، وعندما بدأت الدراسة الثانوية لم تنقطع عن الفرنسية ، فقط حولت نفسها من الدروس الصباحية إلى دورس بعد الظهر ، حيث كانت دروس المساء قد ألغيت منذ بداية الحرب . كان هناك يومان تخرج فيهما من مدرسة نبوية موسى ، فتذهب إلى مدرسة بيرليتز لتعود إلى المترل في حوالي الرابعة . اكتفت إيفون بما تعلمته في الصيف من فرنسية ، وقررت أن تستكمل دراستها في الصيف القادم . لكن كاميليا التي سألت نفسها كثيراً عن سر دأبها على دراسة الفرنسية ، وتشوقها لقراءة شعراء فرنسا الكبار ، بودلير ، وفيرلين ، ورامبو وإيلوار وأندريه بريتون وأراجون ، لم تجد إجابة ولم تعرف . وجدت نفسها مرة أثناء الدرس تكرر الجملة التي قالتها دون قصد في الدرس الأول Je l'aime واكتشفت أنها دائماً ما تكررها لنفسها ، ثم أضافت بلا قصد et il m aime aussi فتفتحت عيناها كزهرتين وارتعش ثدياها الصغيران المكوران ومشت النار في جسدها الرقيق وأحست بأنفها يحمر ويشتعل . وبعد يومين ، بعد أن خرجت من المدرسة ومشت حتى دخلت شارع فؤاد ، ومشت بين ظل العمارات البارد في اليوم الخريفي السكندري البديع ، أحست أن هناك من يمشي قبالتها على الطريق الآخر لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، أشعة تخرج منه تعبر الشارع تضرب خدها الأيمن ، توقظ الدم

في روحها . والتفتت ورأته ولم يكن الإغماء حلاً كافياً ، لقد أوشكت قدماها أن تخذلاها وتسقط في الطريق لولا أنها استندت إلى جدار إحدى العمارات للحظات ورأته أمامها باسماً سعيداً .

– ماأخبار اللغة الفرنسية ؟

مشت القوة فيها . أجابت بسؤال ؟

– كيف عرفت ؟

– لن تصدقيني إذا قلت لك أني رأيت فى عينيك قبل أن أتركك رغبة في عمل كل ما أحبه أنا .

ومشيا . تركت يدها ليده . لقد عاد معه الكلام الغريب الذي لا تفهمه . يبدو لها كقوس قزح يقطع الفضاء . إنها لا تفهم أي معنى لهذا الإحساس ، ولا تعرف هل سبق وفكرت فيه أم لا ، لكن هكذا بدا لها بحق ، قوس قزح يقطع الفضاء ، عربة نارية تجري في السماء بخيول قزحية . " يا ويلك يا كاميليا يا ويلك " قالت لنفسها بعد أن خيم عليهما الصمت قليلاً :

– ماذا تقولين ؟

– هل ستنتظر حتى انتهي من الدرس ؟

– سأنتظر حتى نهاية العمر .

ضحكت .

– أنت كلامك غريب جداً يا رشدي ، أنا لا أفهمك بالمرة .

- ما رأيك لو غيرنا الدرس هذه المرة ومشينا معاً بعض الوقت ؟

مشيا إلى محطة الرمل . وقفا على الكورنيش ينتعشان بالهواء البارد ورذاذ البحر ، وخاف عليها من عيون الجنود الشرهة ، البيض من الإنجليز والاستراليين والسود من كل مكان في الدنيا فمشى معها بسرعة على الرصيف حيث المقاهي السكندرية العتيقة مليئة باليونانيين والبحارة والجنود أيضاً ، ومن الوندسور يخرج عدد من الجنود السكاري مهرولين ومعهم عدد من الفتيات يرتدين جوبات كاكية قصيرة فوق ركبهن رغم برودة الجو يتأبط كل جندي فتاة ويمشيان يغنيان على الطريقة الأوبرالية.. قال لها ضاحكاً إن الطلاب الآن يتحدثون عن ضرورة جلاء الإنجليز بعد الحرب لكن بدون فتيات الـ A.T.S . ولم تكن هي تعرف إلا أنهن مجندات لكنه قال : إن عملهن الرسمي هو أعمال السكرترية والتليفونات بالمعسكرات والمنشآت الإنجليزية ، وأنهن على رتب عسكرية مختلفة مثل الرجال تماما ، لكن عملهن الحقيقي هو الترفيه عن الجنود ، وأنهن لسن انجليزيات فقط بل فيهن فرنسيات ويونانيات ومن قبرص ونيوزيلانده والهند وجنوب أفريقيا وسائر دول الإمبراطورية البريطانية . لم يكن يدور في ذهن كاميليا شيء أبعد من المعنى الحقيقي للمسمى الإنجليزي لهاته الفتيات الجميلات المجندات Auxillary territorial service وهو المعنى الذي اختصرته الصحافة إلى A.T.S واختصره أولاد البلد إلى " الآتسا " .

وأمام تمثال إسماعيل باشا في المنشية توقفا . وقال :

- نقف هنا قليلاً مثل اثنين من السياح الأوربيين .

– أنت سافرت أوروبا قبل اليوم ؟

كان قد أحاطها بذراعه . أحست بضلوعه تحت قميصه والبلوفر الخفيف الذى فوق القميص ، وأحس هو باكتنازها ودفئها .

– لابد أن أسافر في يوم ما .

– وتأخذني معك ؟

كانت قد دخلت فيه أكثر .قال :

– سنجد أن هذا هو الحل الوحيد أمامنا .

هكذا أعادها إلى ما تحاول أن تنساه . لقد حاولت في الصيف ، ونجحت ، لكن ليتها ما درست اللغة الفرنسية .

ومشيا وظهرت حركة الطرابيش كبيرة فى الميدان ، حيث مقاهي السماسرة والتجار وخبراء البورصة والباحثين عن الشهرة والمال والمجد والسعادة أيضاً ، وأنصاف الباشوات والبكوات القادمين من الريف للتجارة ، والبحارة الذين ملّوا خمارات بحري الرخيصة ونساء شارع الحجارى والأرخص فجاءوا هنا بحثاً عن خمارات أفضل ونساء أجمل ، وعربات الحنطور التي تتسابق بزبائنها ومحمد على باشا يطل على الجميع على أهبة الانطلاق والهواء يمرح في الفضاء ، وفوق الأرض يدحرج الأوراق الصغيرة المهملة الساقطة من الأشجار التىتتوسط الطرقات وسألته :

– أين تسكن ؟

- قريب منكم .. أنت تسكنين في غيط العنب . لقد تبعتك مرة حتى باب البيت من بعيد - باتت الدهشة الشديدة على وجهها واس تمر ه و يتحدث - أنا أسكن في المسافة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري ، هناك سكن لعمال السكة الحديد ، وحيد ، في مكان هادئ ، أمامه ترع ة المحمودية ومساحة كبيرة خالية من الأرض ، أمان كامل .

قالت :

- أنا أعرف هذا المكان جيداً ، إنه مكان جميل بحق ، أجمل ما فيه أنه لا أحد يلتفت إليه أو يدركه بسهولة .

أوقفها ، ونظر إليها يتأملها ممسكاً بكتفيها بلا خوف أو خجل .

- لقد صرت تقولين كلاماً جميلاً .

ضحكت . ومشت بعد أن أبعدت يديه برقة . قالت :

- رحت كثيراً مع ماما هناك نشتري سمك من الملاَّ ، بالإمارة فيه قبو مظلم وطويل تعدى منه فتصل إلى الملاحة مباشرة .

-بالضبط.

ولم تشأ أن تقول له إنها ذهبت إلى السكن نفسه مع أبيه ا وأمه ا وإيفون أكثر من مرة لزيارة قريبهم الأسطى غبريال ،الذي لابد أن يعرف ه رشدى ولابد أن يكون رئيساً لأبيه في العمل ، قالت :

- في يتنا يسكن رجل يعمل بالسكة الحديد .

- لا أعرفه . لا يسكن عندنا!!

رد عليها فانطلقا يضحكان إلا أنها أحست بالأسف لكنها سرعان ما أشرقت ، فهي لم تذكر لا اسمه ، ولا اسم غبريال على أي حال .

لقد دخلت كاميليا البيت ذلك اليوم كعصفور طليق فى فضاء بديع ، لكنها ما إن أحست حتى نزل عليها وجوم لم تخرج منه . لم تفهم الأم شـ ـيئاً ولا أحد غير إيفون التي أدركت أن أختها عادت للمحظور . وصار علـ ـى كاميليا كل يوم أن تقرر ليلاً قطع علاقتها للأبد مع رشدى ، وفي الصـ ـباح تنتظر الظهيرة حيث موعد حضوره . لقد كان مهذباً للغاية إذ طلب منها أن تتركه يمشي خلفها أربعة أيام ، وتخرج معه يومين إلى أى مكان بعيد . وظهر القسيس في المترل بوجهه الأحمر وذقنه السوداء وعباءته . رأته زهرة يدخل المترل لأول مرة ، الحقيقة أنه أتى كثيراً من قبل ، لكنها لم تره إلا هذه المرة ، وصارت تسمع كلاماً متصلاً لا تفهم منه شيئاً ، وأدعية وغناء لا تفهـ ـم منها شيئاً . في كل مرة يأتي القسيس يحط الصمت على المـ ـترل , وتغلـ ـق الست مريم باب الغرفة دون حتى النظر لأى شخص قد يكون أمامها ، ولا يختلف الأمر حين يتواجد الخواجة ديمتري ، وبعد سـ ـاعة أو أكثـ ـر يخـ ـرج القسيس وتسمع أصواتاً عالية تودعه " مع السلامة يا أبونا مع السـ ـلامة ، في حراسة العذراء " وتسمع نحيبا لا تميز ما إذا كان كاميليـ ـا أو إيفـ ـون ، وبدأت لا تُري كاميليا أو إيفون إلا قليلاً ، فهما لم تعودا تجلسان مع أمهما ، بل تظلان بالحجرة الداخلية بعد عودتهما من المدرسة ، حتى دوت صفارة الإنذار بشكل ينذر بخطر جسيم ، صفارة الإنذار تنطلق متقطعة مـ ـع كـ ـل غارة وكل يوم ، وصوتها هو هو في الغارة الصغيرة أو الكـ ـبيرة ، لكـ ـن حدساً تكون عند الناس بتوقع الغارات الصعبة ، والإحساس بها من صوت

صفارة الإنذار . هل يتغير صوت الصفارة فعلاً ؟ أم هي الحرب وحدت من مشاعر الناس ، ورققت منها فصاروا أنبياء أو على الأقل من أهل الطريقة المستبصرين ؟ كان العيد الصغير قد انتهى منذ عشرة أيام بغارة كبيرة استمرت من السادسة مساءً حتى العاشرة ، ولكنها كانت متفرقة على أحياء عدة في المدينة فلم تترك خلفها إصابات مركزة ، أما اليوم فالناس يشعرون في كرموز وغيط العنب ، وراغب ومحطة مصر والعطارين أن الغارة تستهدفهم ، قلب الإسكندرية ونبضها .

كانت في ذلك اليوم قد سألت مجد الدين كثيراً عن القسيس ، عن حضوره المتكرر لأكثر من مرتين في الأسبوع ، وعن الصمت والبكاء والهمهمة وغيرها ، فقال لها " دعى الملك للمالك يا زهرة ، انتبهي للذي فى بطنك " . وحين دوت صفارة الإنذار التصقت به ، وصرخت البنت شوقية التي صارت تعرف خطورة الصفارة المتقطعة من ذعر الآخرين ، وأمان الصفارة المتصلة فكانت تصفق بيديها الصغيرتين . ووضعت زهرة بسرعة شالاً على كتفيها ، فالدور الأرضي بارد رطب ، ونزل خلفها مجد الدين يحمل الطفلة شوقية . رأت أمامها الست مريم والبنتين صامتتين ، وكذلك الخواجة ديمتري ، نزل الجميع إلى أسفل ، الرعب الذي سيطر على زهرة لم يمنعها من رؤية كيف ذبلت كاميليا ، وصارت مثل سنبلة تركت في الشمس كثيراً . دخلوا غرفة البهي المفتوحة دائماً ، والتي لم يسكنها أحد ، كما لم يسكن أحد غرفة لوللا المفتوحة بدورها ، هجرة الناس من المدينة تركت كثيراً من الشقق والغرف الخالية . وما إن دخلوا غرفة البهي حتى قالت الست مريم :

– اطفي النور يا ديمتري .

بدا لزهرة أن المرأة لا تريد لأحد أن يرى ابنتها في حالتها السيئة هذه ، وليس السبب هو الغارة ، رغم أن تعليمات الوقاية ، تؤكد ضرورة إطفاء الأنوار ..كانوا فى نصف الشهر الأخير من شوال ، والقمر يتضاءل ليكون هلالا لكن كان ضوؤه كافياً للناس . فتح مجد الدين شباك الحجرة ليسمع تعليقات الناس في الشارع ويراهم ثم قال لديمتري :

– ما رأيك أن نخرج من البداية إلى الشارع مع الرجال ؟

– فكرة جيدة .؟

وخرجا . رأى مجد الدين أشعة الكشافات المنبعثة من ناحية الميناء وكوم الشقافة تملأ السماء ، ثم بدأ الطنين العريض العال للطائرات التي تقترب ، ثم تدخل في مرامى النيران التي تنطلق من كل المواقع العالية بالإسكندرية خطاً متصلاً من القذائف الحمراء . لقد ترددت أصوات المدافع المضادة بشكل كثيف ، ومن كل الآفاق ، وصفق الصبيية والشباب في الشارع ، وهم يرون النار تشتعل في بعض الطائرات ، ولكن سرعان ما سمعت أصوات الانفجارات ، وارتفعت أعمدة الدخان في أماكن متفرقة من المدينة ، في الغرب والشرق والشمال , تركزت الانفجارات في وسط المدينة ، وارتفعت أصوات بكاء الأطفال في أكثر من بيت ، وأصوات تلاوة القرآن من أكثر من مكان ، ثم شق الليل صوت غفارة من خلف الطربوش عريضاً رناناً وهو يقول :

– جرازياني ابن الهرمة لا يحبنا ، الذي يغيظني ويكاد يفجرني هو كيف تأتي الطائرات من إيطالياً لتضربنا ، ولا تذهب إلى انجلترا الأقرب ..أليست انجلترا أقرب .؟

وجاء صوت من أحد التجمعات الشبابية يقول :

– الطائرات تأتي من ليبيا يا عبيط .

وفجأة ظهر دميان . بدا قادماً من سباق عنيف . قال متهدجاً .

– يا شيخ مجد أنا لم آت للاختباء , النار مولعة في البياصة وكرمـ وز وباب سدرة ، نار لحد السماء أكثر من غارة الست سـ اعات لازم نجـ ري نساعد إخواننا .

سكت مجد الدين قليلاً يفكر أنه تقاعس مرة من قبل ، فهل يتقـ اعس هذه المرة. وجد ذلك لا يليق ، ثم سمع غفارة يقول :

– هذه ليلة سوداء . يا شباب – وخاطب تجمعات الشباب – هيا إلى كرموز ، البيوت وقعت والناس ماتت .

كانت ليلة فوق حدود العقل ، وفي الظلام صارت الأقدام تخب خبب الخيول ، وتتعلق عيونها بالسماء المشتعلة بالقذائف الصـ اعدة والقـ ذائف الهابطة ، حتى اقتربوا من ترعة المحمودية رأوا الظلام شديداً فـ وق الميـ ناء وصنادل الشحن قليلة يقف فوقها بعض النوتية يتابعون المعركة الـ دائرة في السماء ، وفي وقت قياسي كانوا قد قطعوا مسافة كبيرة في شارع كرموز ، ودخلوا البياصة من ناحية " الساعة " ، ورأي مجد الدين حرائق لم يسبق له

رؤيتها . صفحة حمراء في الفضاء أعلى من المباني والبيوت ، فوقف ع اجزاً يتأمل .

– يا أرحم الراحمن .

– كيرياليسون . كيرياليسون

كذلك ردد دميان . هتف غفارة :

– يارب ارحم عبيدك ؟

لقد رأى مجد الدين حرائق من قبل كثيرة في الريف شم فيها رائحة الروث والقش والحطب .

لكن هذه المرة يشم رائحة لحم محترق مختلطة بصرخات من كل ناحية والنساء يجرين بملابس النوم في الطرقات ، والرجال يحملون الأطفال ويتركون بيوتهم ويقفون بعيداً ، والكل ينتحب وأصوات الطائرات لا تنقطع من فوق الميناء والمدافع المضادة تطاردها ، والكشافات تمسح السماء ، وأصوات عربات الإطفاء قادمة من كوم الدكة تقف بعيداً أمام البيوت المحترقة ، ويهرول من عليها من الجنود بخوذاتهم ، ويعرفون أماكن الحنفيات المعدة لإطفاء الحرائق وسط الأرصفة فيسرعون يوصلون إليها الخراطيم الجبارة ، ويبدأون في الإطفاء . لقد انتقل ضرب الطائرات إلى منطقة مينا البصل و الآن مجد الدين يرى دميان واقفاً بلا حول أمامه ، وغفارة كما هو يرتدي القناع المصنوع من الطربوش ، وحميدو والشباب يجرون إلى بيوت تهدمت جدرانها ، يترلون من تعلق أو ظل بها من سكان ، كانت في الأرض آلات موسيقية كثيرة متناثرة , أعواد وطبل ودفوف وأكورديونات

وساكسافونات ونايات كالحيات والثعابين في كل مكان ، وكانت هناك تجمعات النساء أشباه العاريات اللاتي فأجاهن الغارة ، والتدمير والحرائق فبدأت بعض النساء من البيوت غير المصابة تناولهن أرواباً وجلابيب يسترن أنفسهن ، وبدأت اللعنات تنصب على الألمان والطليان والإنجليز الذين تسببوا في هذا كله ، وشاعت في الجو رائحة العرق البشري المختلط بالتراب والغبار ، وبدأ الجميع يرفعون الجثث من تحت الأنقاض . دوت صفارة الأمان وابتعدت الطائرات والحرائق لم تزل تضيء المكان . وسُلِّطت عليه كشافات سيارات الإطفاء . أصوات صراخ تأتي من تحت الأنقاض وأصوات استغاثة وأصوات ألم . أنين خافت مثل النزع الأخير ، وكلما أخرج الرجال شخصاً حياً من تحت الأنقاض ارتفعت الصيحات" الله أكبر الله أكبر ". ولم يكن مجد الدين يتوقع أن يقابل هنا أحداً يعرفه ، فما بالك أن يجده بين الأنقاض .لقد شاهد ثلاثة يحملون امرأة فوق محفة ويجرون بها . اثنان من الأمام وواحد من الخلف ، وسمع الصوت يناديه :

– شيخ مجد الدين .

كانوا يضعون المصابين بعيداً على الرصيف متجاورين حتى تحملهم عربات الإسعاف بنظام .

وكان الذي يحمل المرأة على المحفة من الخلف صديق دميان الذي عاد إليه وقال له :

– أخرجنا امرأة من تحت الأنقاض رأتك فنادتك ألم تسمعها ؟

– سمعتها ولم أصدق . أنا لا أعرف أحداً هنا .

– إنها هناك بين المصابين على أي حال يمكن أن تذهب إليها .

وجري دميان من أمامه يساعد في إنقاذ الآخرين ، بينما أخـ ـذ مجـ ـد الدين طريقه إلى المصابين ، حتى إذا اقترب رآها تنظر إليه ، والفرح الذابل يطل من عينيها " لوللا " هي ولا أحد آخر . يا أرحم الراحمين ، أشارت إليه أن يجلس جوارها فجلس .

– سامحني يا شيخ مجد . لقد حاولت إغراء أخيك البهي لكنه رفض . عشرات المرات أعترض طريقه وأخرج له بالليل ويرفض .

– هو الذي يسامحك يا ست لوللا .

– هو سامحني . لكني أحتاج أن تسامحني أنت أيضاً ، لقد فكرت فيك كثيراً .

– أستغفر الله العظيم .؟

– إذن سامحني .

– الذي يسامحك هو الله . أنا مسامح في كل شيء مـ ـع أني لا أراك فعلت شيئاً يغضبني .

– حتى خيانتي لزوجي .

– مكتوب يا ست لوللا .ما هي إصابتك ؟

– ساقاي مكسورتان .

ولاحظ أن ساقيها تتضخمان جداً تحت قميص نومها ، لابد أن الدم ينسكب داخلها . لابد أن هناك نزيفاً حاداً داخل الساقين , ما إن ظهرت عربة الإسعاف حتى حمل المحفة من ناحية واحدة ، ورآه دميان فأسرع إليه يساعده ، ونقلا لوللا داخل الإسعاف ، ثم نقلا ثلاث مصابات أخريات وهرولت بهن العربة إلى مستشفى المواساة .

قالت لوللا تهذي قبل أن تأتي الإسعاف مباشرة :

– لم أحب أحداً مثل الملك فاروق ، لم أتمن أحدا مثلما تمنيته ،والآن

لن أرقص أمامه ، لا أظن أني سأعود للرقص مرة أخرى .

وانسكبت من عينيها دموع وأمسكت بيده فقبلتها ، وهو بدوره تركها لها .

فى الصباح قابل مجد الدين الخواجة ديمتري فى الردهة . مجد الدين خرج يغتسل وديمتري انتهى من الاغتسال .

– هل ستذهب إلى العمل اليوم ؟

تساءل مجد الدين فأجاب ديمتري .

– لا أظن أحداً سيذهب إلى العمل اليوم . سأذهب إلى المقهى . إلى الناس , أعرف أحوال المدينة بعد هذه الغارة . هل تأتي معى ؟

وذهب معه , منذ عمل بالسكة الحديد لم يجلس بالمقهى في الصباح ، وبالمقهي حدثه ديمتري عن كوموز ، " راقودة " التي وصل الإسكندرية بينها وبين " فاروس " بحري ، وأن راقودة منطقة خطرة مليئة بالمخدرات

والمجرمين ، لكنها في التاريخ منطقة العذاب للمسيحيين ، وأن عمود السواري مبنى على تل باب سدرة الذي كانت فوقة قديماً معابد وملاعب رومانية تقام فيها مباريات المصارعة حتى الموت ، أو إطلاق الأسود على الداخلين في الدين الجديد ، وقال ديمتري : أنها منطقة استشهادية قديمة وبسبب شهدائها بدأ التقويم القبطي في السنة نفسها التي قتل فيها دقلديانوس مئات الآلاف من المسيحيين . إنها منطقة دم منذ قديم الأزل لن يمحوه منها عمود السواري الذي أقامه السكندريون تخليداً لحاكم ظالم .

***

" لا أحد ينام في السماء

لا أحد ينام في العالم

لا أحد ينام .

لا أحـ ـد.

لا أحـ ـد.

-16-

اقترب العام من نهايته ، وانفتحت فوق الإسكندرية أبواب المطـ ـر . لم يبدُ أن الإسكندرية ستحتفل بنهاية العام ، ستسهر الليلة الأخيرة من ديسمبر دون أن تنطفئ الأنوار المضاءة ، فالأنوار مطفأة !

لن يلقي أحد بالزجاجات الفارغة ، وقطع الخزف والفخار القديم من النافذة وداعاً للعام الغائب ، وأملاً في عام قادم أن يكون أجمل . لن يسـ ـهر المونسنيور لا الأكسلسيور ولا اللوفر ، ولا كازينو الشـ ـاطبي أو الميرامـ ـار والوندسور وهوليوود والكيت كات ولا غيرها . وربما يقضي الناس الليلة الأخيرة من العام في المخابئ ، لقد كان الشهر الماضي ، نـ ـوفمبر ، عصـ ـيباً بحق . لقد حدثت فيه غارتان كبيرتان في أسبوع واحد ، في الثامن عشر وفي التاسع عشر ، وفي السادسة مساءً ، وفي الثامنة ، فازدادت حركة الناس إلى محطة السكك الحديد . تدافعت مواكب السيارات والحنطـ ـور والكـ ـارو والتاكسيات القديمة حاملة الناس والمتاع القليل . امتلأت أرصـ ـفة المحطـ ـة بالمنتظرين ، جالسين ونائمين يملؤهم الصبر والخوف وعدم يقـ ـين عميـ ـق . رائحة العرق البشري اختلطت مع رائحة المـ ـازوت ، وأبخـ ـرة القطـ ـارات

فملأت هواء المحطة فثقل وانكتم ، وكاد يظهر له قوام !! حركة القطارات قليلة ، أكثر القطارات تم سحبها لنقل الجنود والعتاد .

لكن دائماً في المحطة ترى المهرولين بسبب وبلا سبب ، والزاعقين الآن يضافون إليهم ، أولئك الصارخين بسبب الزحام ونكد العيش الباكين من المرض والإملاق والفزع ، وقد مازجت أصواتهم أصواتهن وأصوات الأطفال وباعة السميط والجبن والفول السوداني والبرتقال الذي انتشر قشره مع قشر الفول وبقايا الأطعمة فى الأركان وبين البلاط وفوقه وحول الجالسين وتحت أقدام الماشين والمهرولين وفي عيون الصارخين واللاهين والشاردين . إنها أيام " الهِجار " التي لن تنسى في الإسكندرية ، والتي سيؤرخ بها الناس لحياتهم بعد ذلك .

كان مجد الدين يلمح السؤال في عينى زهرة ولا يعطيها الفرصة.. يهرب من ذلك الخوف المطل من العينين العسليتين ، وهى كلما أشاح بوجهه بعيداً أحست بالراحة . قليل من الراحة . ماذا يحدث حقاً لو سألته وأجابها بالإيجاب ؟! لو طلبت السفر سيسافر معها ولو سافر سيقتله العمدة ، سيترك الحرب إلى الموت. الإسكندرية هى دار الأمان رغم الغارات الثقيلة الآن والظلام المقيم ، وهذه الرغبة التي تستيقظ ناعمة للسفر ، يجب عليه أن تقمعها وتظل كما هى المرأة التي لا تترك زوجها أبداً . لكن بالليل وكان البرد قد اشتد آخر العام ، ودخلت هى صدره أكثر من كل وقت ، وأحس بها أصغر من كل وقت رغم ارتفاع بطنها ، طفلة هى لا تزال تحبو على صدره .

قالت وقد نسيت كل شيء :

– أنا خائفة يا مجد الدين .

– لا تخافي . الغارات صارت بعيدة الآن . أكثرها يكون فوق الدخيلة والميناء ومعسكرات الجيش الإنجليزي في الضواحي .

– أنا لا أقصد الغارات . أنا خائفة أن ألد هنا وحدى ، وخائفة أرجع للبلد .

– إذا اضطررنا للسفر سأسافر معك .

......

– ألا تزال الست مريم قليلة الكلام ؟

– جداً . وتبدو مهمومة دائماً ، والقسيس لا يكف عن الحضور ، والبنت كاميليا صارت مثل شعاع نور اللمبة السهاري .

– اشغلى نفسك مع الست مريم . لا تتركيها . اختلقي الفرص لتخرجي معها إلى الأسواق .

ولكن زهرة التي كانت قد عرفت كيف تخرج إلى الأسواق وحدها بعد أن مضي عليها بالإسكندرية اكثر من عام ، وجدت أن الخروج إلى السوق لم تعد له البهجة القديمة نفسها ، البضائع شحيحة والشوارع تخلو يوماً بعد يوم من الناس ، والبائعون والمشترون قليلون ، وأم حميدو فقط هي التي صارت تؤنس وحدتها ، لا تزال تفرش خضارها في مدخل البيت المواجه وتحب زهرة أن تجلس معها بعض الوقت كلما اشترت منها شيئاً ، وأم

حميدو بدورها أعجبت بهذه الفلاحة الصغيرة الشاطرة التي لا تكف عن الأسئلة ، فكانت تستبقيها كثيراً ، تقدم لكرسي حمام خشبياً صغيراً لتجلس عليه ، لكن زهرة في أغلب الأحوال كانت تجلس على الأرض . تسألها أم حميدو عن أحوال زوجها مجد الدين الذي لا يكاد يعرفه أحد في الحي ،وكيف لا يرى إلا برفقة دميان المسيحي ، كيف حقاً يصاحب زوجها دميان المسيحى ؟ . تتساءل أم حميدو ثم تتذكر أن زهرة وزوجها يسكنان في بيت الخواجة ديمتري فتقول في نفس طويل " آه " وتقول زهرة دائماً : " كلنا أولاد تسعة يا أم حميدو " أو تقول " أهو اللي خلق المسلمين هو برضه اللي خلق القبط " فتقول : أم حميدو شبه مقتنعة : " صحيح والنبي " لكنها غالباً ما تعود للتساؤل في يوم آخر ، وتستمر فى أحاديثها عما لا تعرفه زهرة في الإسكندرية . سألت زهرة هل شاهدت تمثال محمد على باشا , وتمثال سعد زغلول بمحطة الرمل ، وهل شاهدت الجندات الإنجليزيات يركبن البسكليتات الملونة على الكورنيش ، أو شاهدت العساكر الإنجليز السكارى يعاكسون البنات على الكورنيش وفي بحري والعطارين ، ويخطفوهن في بعض الأحيان ؟ وكثيراً ما تقص عليها أنباءً عجيبة عن عائلات ضاعت أموالها في بورصة القطن ، وناس معفنة في الأصل ، اغتنت بسرعة مذهلة من التجارة في معسكرات الإنجليز أو كسبت في يانصيب مستشفى المواساة الذي كسبه هذه المرة الوجيه عفت " عشرة الآف جنيه كاملة راحت لواحد مش محتاج ، ودائماً يكون اسمه عفت ، همت ، طلعت ، دولت ، بهجت ولا مرة يكون أسمه بهلول أو شحات أو حتى مصطفى أو على وليس من الضروري أن يكون حميدو " . كذلك حدثتها كثيراً عن

الملك فاروق الذي يحب الصلاة في جامع المرسى أبـ ـو العبـ ـاس بالنـ ـهار ، وبالليل يسمع الناس صوت الرقص والجرى في حديقة قصر المنتـ ـزه طـ ـول الصيف ، وقالت لها : إنها إذا كانت رأت قصر رأس التين في بحري فقصـ ـر المنتزه في الناحية الأخرى من الإسكندرية ، في أقصى الشرق ، آخر حدود الرمل ، قصر حواليه خمسمائة فدان فيها كل شيء من أشجار الدنيا الجميلة بناه إسماعيل باشا جد فاروق الصغير هذا . كل شيء جميـ ـل في إسـ ـكندرية يقولون بناه إسماعيل باشا . يقولون عنه : إنه كان " فنجري " ويحب الـ ـدنيا وعمل قنال السويس علشان تيجي واحدة ملكة من فرنسا اسمها " أوجين " تفتحها . يعنى عمل القنال علشان يشوف الملكـ ـة ، بيحبـ ـها ، وعطاهـ ـا القنال .

تفتح زهرة فاها وعينيها عند سماع هذه الحكايات وتستمر السـ ـت أم حميدو تقول ، بني لها الأوبرا في مصر " مرسح " كبير علشان تسـ ـمع فيـ ـه غناوي سي عبده ، ست ألمظ ، إسماعيل باشا كان ابن عز بصحيح !.

لكن الحديث أيضاً كان ينتقل إلى الجثث الجديدة التي طفت وظهرت بترعة المحمودية . عادة تكون لفتاة صغيرة ، وحديث عن اللقطـ ـاء الـ ـذين يوجدون هذه الأيام بكثرة ملفوفين في خرق قديمة على الشاطئ بين كوبري راغب وكوبري كرموز يبكون بأصوات تصل بالكاد إلى أحد المـ ـارة أو إلى ركاب الفلائك الصغيرة الذين يتترهون بالترعة ، والعادة أن يـ ـتم تسـ ـليم اللقيط للحكومة ، بدورها تدخله ملجأ أيتام . قليل من يستمر حياً منهم . يموتون من الإهمال لكن قادر ربنا أن يحميهم ويمكن يطلـ ـع منـ ـهم واحـ ـد مشهور . مغنى ولا زعيم يحكم البلاد . ماهي بلادنا ياما حكمهـ ـا نـ ـاس

ماهمش أصل زمان كانوا يسموهم " المملوكين " ويمكن ك انوا بيلاق وهم على الترع كده مرمين ، وتسأل أم حميدو زهرة ضاحكة عما إذا كاذ ت رأت عساكر الجيش المرابط الواقفين حول وابور الطحين ، وعلى الكوبري وحول النقطة للحراسة . المساكين العرجان والبرصان والعور أحسن واحد فيهم مثل أبو رجل مسلوخة . يأتي الواحد منهم إليها ويحاورها وي داورها ليشترى بمليم يوسنفدى ! ": " يصعبوا عليّ قوى . فيهم واح د ظري ف بيجي يغنى لي " وتضحك أم حميدو ويهتز لحمها المترهل ، يع ني بص حيح ويهز كتفه زى الغوازي .

" ي . . ا بتـ . . ـاع اليوسـ . . ـفندي
م . ـا تقـ . ـوللى العشـ . ـرة بكـ . ـام "

أبص له وأضحك وأعطيه واحدة مجانا ، يأتي في اليوم الثاني وي رقص ويغنى وهكذا حتى جئت يوما وقلت له وأنا بأهز كتفي :

" العشـ . . . . ـر اليوسـ . . . ـفندي
يـ . ـا حبـ . ـيبي بـ . ـنص ريـ . ـال "

ضحك وضحكني معه ، ولأنه صاحبي يسألني كل يوم ع ن ح الي ، وقال لي إنه لا يريد العودة لبلده بعد الحرب ، ويتمنى يعيش في إسكندرية ، وطلب مني الزواج . أى والله . قلت له تتجوز ست لا تتحرك عن الأرض وليه تدفن نفسك بالحيا ..؟ ولم يقتنع . يأتي كل يوم يغنى لى ويق ول إذ ه صابر وسوف ينال ، وتندهش أم حميدو من الغارات الألمانية الإيطالية عل ى

الإسكندرية التى يحرسها الجيش المرابط الذي لا يستطيع أن يحارب نملة . "
والواجب يصعب عليهم ويبيعتوا له أكل " . ولا يفوت أم حميدو أبدا أن
تتحدث عن مسخرة البوليس فى " كوم بكير " والعطارين ومينا البصل ،
والهماميل ، وشارع مارسيليا . كانت ترى ازورارا من زهرة حين تصل إلى
هذه السيرة خصوصاً بعد أن عرفت فحواها أول مرة ، لكن أم حميدو
كانت تهوى العودة إليها ولو بسرعة . وتقول لها ما أكثر العائلات المحترمة
التي تذهب بناتها إلى هذه الأماكن بالنهار ، ويعدن إلى بيوتهن عفيفات
شريفات أمام الناس وما أكثر الفقيرات اللاتي يرسلهن رجالهن إلى هناك
أيضاً " رجالة وسخة " . وهناك أيضاً نسوان أرامل تبيع نفسها ولا تتجوز
على عيالها ، هذا طبعاً غير المطلقات والهاربات من الأرياف . " يعنى البلد
بتحدف " على إسكندرية الممتلئة هذه الأيام السوداء بالعسكر من كل
الدنيا البيضاء والسوداء أيضاً ، وقالت لها أم حميدو أن ابنها الذي يعمل
بمسح الأحذية في محطة الرمل والمنشية وبحري والعطارين دائماً يأتي إليها
بحكايات تشيِّب عن النسوان والعساكر والأجانب كلهم . حميدو دائماً
" كربان " من المناظر التي يراها ، ويقوم بأعمال مؤذية للإنجليز ، وآخرته
ستكون الموت أو النفي إلى جبل الطور ، وتسأل زهرة أين جبل الطور ؟
تقول أم حميدو : " هناك بعيد في الحتة التي بينفوا فيها المجرمين " تسكت
زهرة التي لم تعرف أين جبل الطور وسألتها أم حميدو مرة هل لاحظت شيئاً
على عائلة الرشيدي في البيت المجاور لبيت الخواجة ديمتري ؟ الرجال قصار
جداً والنساء طويلات جداً تحتاج الواحدة منهن إلى رجلين فوق بعضهما ،
يبوسها واحد والثاني ... " يا أختى مابتضحكيش ليه ؟ " .تسأل زهرة التى

تندهش دائماً من جرأة هذه المرأة البدينة التي تبدو وهـ ي جالسـ ة كأنهـ ا اندلقت على الأرض ولا سبيل لقيامها إذ ينغرز وسطها في عجيزتها المترهلة في محيط واسع ! وتندهس زهرة أكثر من إقبالها هي ذاتها على سماع أحاديث أم حميدو. وقالت لها زهرة حكاية واحدة فقط عن الغارة الـ تي حـ دثت الشهر الماضي . وهى أن زوجها مجد الدين وصديقه دميان عندما جريا مـ ع الناس إلى كرموز للمساعدة في الإنقاذ عثرا على لوللا مصابة تحت الأنقاض إصابة شديدة ، وبدا الأسف حقيقياً على وجه أم حميدو والـ تي قالـ ت إن لوللا مسكينة لم تهرب من زوجها مع عشـ يقها ولكـ ن زوجهـ ا عـ ازف الأكورديون هو القواد ، وإنها سمعت عن شهرتها الشهور الماضية في بيـ وت الباشوات ، وتمنت أن تراها لكن هذا ما أراده الله . وقالت : إنهـ ا كانـ ت تعمل فترة في فرقة نعيمة الصغير ببحري (رقاصـ ة؟!) تسـ اءلت زهـ رة مندهشة ، فأدركت أم حميدو سر دهشتها ، فأين هي الراقصة السمينة التي لا تبرح الأرض طول النهار . أجابت لا .(لبِّيسة) وشرحت لهـ ا كيـ ف كانت هي تقوم بتلبيس الست نعيمة الصغير ملابسها . ملابسها في الغنـ اء وملابسها في الرقص ، البدلة يعني ، وملابسها في حفلات الباشوات . لكن الست نعيمة عصبية ، وكلما قابلت منتج سينما طلبت منه أن يجد لها دوراً في فيلم ، ويعدها ويخلف فتقوم " ببهدلة " العاملين معها ، فتركتها .

وحدثتها عن دنيا العوالم . قالت : إن البياصة حيث ماتت لوللا هى مركـ ز العوالم في إسكندرية ، هناك قهاوي الفنانين ، وبيوت المتعهدين والمعلمـ ات وورش تعليم البنات . كل واحدة هربانة تأتي إلى البياصة فالرقص أهون من عمل الحرام ! والمثل يقول كل فولة ولها كيال ، وعند العوالم " كل رقاصـ ة

ولها طبال " دايماً الرقاصة يجوزها طبال أو رقاق ، قليل التى يتزوجها عازف مثل لوللا ، العازف يحب المغنية ، وكل معلمة لها بناها ولها منطقتها . يعنى نعيمة الصغير لا تستطيع أن تدخل كرموز ، باتعة السلاموني تأكلها ! . وهكذا والآن بعد السينما كل رقاصة تريد أن تصبح حكمت فهمى . وكل رقاصة بعد أن كانت تحلم بالرقص في ملاهي الكورنيش تحلم بالرقص أمام الملك . الملك فاروق شاب صغير وسيم وجهه مثل البدر تحبه كل الراقصات والنسوان تتوحم عليه ! وتقول أم حميدو موشكة على إنها ماء الحديث إسكندريا ماريا وترابها زعفران ، يقولون إن الذي بنى الإسكندرية واحد مجنون اسمه الإسكندر ، وملأها مصانع خمور فكانت الناس ترقص وتغني طول النهار والليل وتتبغدد مع النسوان ، وإنهم حتى الآن يجدون آثار الإسكندر ، والإسكندرية القديمة ، تماماً مثلما يجدون كنوزاً تحت أنقاض البيوت بعد الغارات . عمال الإنقاذ بعد كل غارة يجدون أموالاً ذهبية مختومة بخاتم الملكة ناعسة اليونانية التي حكمت الإسكندرية زمان (أيوه) أمال الحتة اسمها جبل ناعسة ليه . كانت الملكة تسكن فيها " يقولون : إنها كانت جبارة لذلك فسكان جبل ناعسة جبارين .تجار مخدرات ولصوص لا تقدر عليهم الحكومة .قدام جبل ناعسة من ناحية ، البياصة ، ومن ناحية ، عمود السواري . البياصة حي قديم وعمود السواري أقدم . حول عمود السواري كوم الشقافة فيه مغارات تحت الأرض يعيش فيها النوبيون والسودانيون الذين يدورون يبيعون اللب والفول السوداني بالنهار وبالليل ينامون في المغارات كالخفافيش . المغارات كلها آثار " محدش يعرف دروبها

غير البرابرة دول والغجر " . الغجر أيضاً يعيشون هناك ، ولكن منذ قيام الحرب لا أحد يراهم في الشوارع " راحوا فين ؟ .. الله أعلم " .

***

هكذا دخلت زهرة العالم المسحور لمدينة الإسكندرية بعد أن شاهدت منها البحر والميادين الكبيرة مع الست مريم من قبل . حكايات أم حميدو أعطت المدينة التي تخلو من أهلها الآن روحاً دافئة في شتاء يبدو قارساً بحق . لكن المطر بعد ما يترل يشيع الدفء أيضاً في الفضاء . يتسع الفضاء وتبتعد السماء وتصفو وتزرق وتبتهج . الإسكندرية مدينة تبعث على السعادة دائماً رغم ما يبدو عليها من كدر الآن بسبب ارتحال الناس عنها . وحكايات أم حميدو تجعلها تبعث على السعادة مرتين .

وهذا المطر المستمر منذ أيام سيتقطع مع بداية العام الجديد . لابد حيث ستدخل الأعياد فى بعضها لأول مرة منذ سنين طويلة ، أعياد الميلاد الأرثوذكسية مع عيد الأضحى ، أو سيترل على المسلمين والمسيحيين معاً . ستكون البهجة للجميع ، سيكون المطر للجميع أيضاً حتى الغطاس الذي هو كما قالت إيفون العام الماضي عيد مصري قديم .

والذي حدث أنه صدرت الأوامر في البلاد بالاحتفال بنهاية العام الميلادي دون أن تضاء الشوارع وليحذر الجميع من الغارات المفاجئة ، فبرغم أن المحاربين في أوروبا أعلنوا عن توقف الغارات المتبادلة بينهم في الليلة الأخيرة من العام إلا أن أحدا لا يضمن تصرفات هتلر وموسيليني ، خصوصاً " أن بلادنا لا علاقة لها باحتفالات ميلاد المسيح الأوروبية فهي

بدعة أتت مع الاحتلال " . على أى حال كانت الغارات قد توقفت في أوروبا في اليوم الأخير من ديسمبر رداءة الجو فنعمت الشعوب هناك بليلتين ويومين بلا غارات وبصفة خاصة أهالى بريطانيا الذي أعلن هتلر ضرورة إبادة مدنهم ، وبالطبع إبادتهم . لكن الليلة قبل الأخيرة من العام شهدت غارات بريطانية مكثفة على مطاري " الغزالة " و " طبرق " في ليبيا ، كما أغارات الطائرات الإيطالية بدورها على القواعد البريطانية في مالطة ، وكان العالم لا يزال يتابع تقدم اليونانيين المدهش على حساب الإيطاليين في ألبانيا وسط حيرة الألبانيين أنفسهم الذين لم يستقروا على محتل واحد للبلاد حتى الآن ، ووجه الهر هتلر رسالة إلى الجيش الألماني أحصى فيها انتصارات ألمانيا في السنة الماضية ، ووعد بانتصارها النهائي في العام الجديد " إن جيش الإشتراكية الوطنية الألماني قد أحرز انتصارات باهرة عام **1940** ، وهذا الجيش وهو على أعتاب عام جديد قد استعد بتسليح لم تعرفه البشرية " لكن في القاهرة كانت ببا عز الدين قد أعلنت أنها ستبدأ برنامجها الجديد على مسرح الماجستيك برواية " اطلع يا نمس " التي سيكون بينها مونولجات لمحمد عبد المطلب وفتحية محمود وثريا حلمي وسيد فوزي ، كما أعلن كازينو الشاطبي في الإسكندرية عن استعداده لاستقبال المحتفلين بالعام الجديد ، ورقص المحتفلون وأكثرهم من جنود الكومنولث فى المونسنيور على الأضواء الخافتة التي لا يتسرب نورها من الزجاج المعتم والستائر الثقيلة ، وعلى سيرانادات الغرام ، ولم يفهم مجد الدين أو زهرة للمرة الثانية لماذا يلقي الناس بأشيائهم القديمة من النوافذ آخر العام ! هذا رغم ندرة من فعلوا ذلك هذا العام ، فأكثر السكان قد أخذهم الهجار " ! .

في القاهرة حضر الملك فاروق حفلاً بعيد رأس السنة ، بدار الأوبرا للترفيه عن الجنود الإنجليز بالشرق الأوسط ، وتقدم إليه حزب الوفد بعريضة عن موقف مصر الداخلي والخارجي انتقد فيها الوضعين معاً ، كما عاود سلاح الطيران الملكي في الشرق الأوسط غاراته على الغزالة والبردية في ليبيا ، حيث كان شهر ديسمبر قد شهد زحف القوات المدرعة البريطانية ، وحلفائهم الذين لوحت الشمس جلود جنودهم ، على سيدى براني فجأة ، وبقوة هائلة فأسروا " ما يملأ خمسة أفدنة من الضباط وما يملأ مائتي فدان من الجنود الإيطاليين " وعاد الناس يتساءلون وهم يرون قطارات الأسرى القادمة من الصحراء هل يحارب الإيطاليون حقاً أم يحارب الدوتشي وحده وجرازياني ؟ وما كاد ينتصف الشهر حتى كان الإيطاليون خارج الحدود المصرية والحلفاء يتابعونهم حتى " البرية " التي اخترقها الجنود الإستراليون بمعاطفهم الطويلة الثقيلة ، وأسروا من الإيطاليين خمسة آلاف ، عادت الغارات مع العام الجديد في أوروبا ، واستخدم الألمان نوعاً جديداً من القنابل فوق لندن ، قنابل حارقة تشعل النار الجهنمية في كل مكان وتترك وراءها بعد كل غارة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو أكثر من القتلى والجرحى ، وسقطت إحدى قنابل الغارات على مجلس العموم البريطاني نفسه الذى لم يكن هناك أحد من الساسة بقاعاته لكنها أتلفت جانباً منه تلفاً شديداً ، بينما صارت مدينة بريمن الألمانية أثراً بعد عين كما يقال ، من جراء الغارات البريطانية ، وكان الإستراليون ، قد حاصروا طبرق مع الإنجليز في ليبيا فسقطت سقوطاً مدوياً واستسلم فيها ثلاثون ألف أسير ، وبلغ مجموع الأسرى الإيطاليين أكثر من مائة ألف فتهاوى الجيش الضخم ،

وسقط من الحساب كقوة عسكرية وانتشرت قوات الحلفاء عل ى ط ول الساحل من السلوم حتى بقيق ،وعرض يوسف وهبي مس رحية " ص فارة الإنذار " كما عرضت سينما أوليمبيا فيلم " دنانير " لأم كلث وم وس ينما مصر " فتاة متمردة " لماري كويني وسينما الكوزمو " مليون سنة قبل الميلاد " للوجه الجديد فيكتور ماتيور ، وشاهدته كاميليا مع رشدي ورأت الحزن الذي في عيني رشدي ، هو نفسه الحزن الذي في عيني فيكت ور م اتيور ، وصدر قرار من قومندان قلم المرور " محمد ش كرى ب ك " بتوحي د زي سائقي الأجرة بأن يرتدي كل منهم معطفهم من التيل الكاكي فوق ملابسه أسوة بسائقي البلاد الأفرنجية ، وفي الإسكندرية أق ام الاتح اد الرياض ي الإسرائيلي حفلاً لإعانة منكوبي الغارات حضره سلفاتور شيكوريل ووجهاء كثيرون ، وذاع اسم الجنرال ويفل ، وراقب الناس تطور الهجوم البريط اني الكاسح على ليبيا غير مصدقين الهزائم التي تترل بإيطاليا كالمطر ، لكن مجد الدين كان يصدق فهو يرى الأسلحة الذاهبة بالقطارات إلى جوف الصحراء كل يوم ، وهي أسلحة لا يصنعها إلا " الجنون الحم ر" ولا يح ارب ه ا الشياطين والمردة ، وكان حمزة يضرب كفاً بكف وه و ي رى الأس رى الإيطاليين الشباب حليقي الرؤوس حفاة مشحونين في عرب ات قط ارات البضاعة المغلقة والمفتوحة . كانوا يبدون في كل وقت كالأطفال المش ردين مستسلمين نائمين في دعة غير آبهين ، وبعضم كان ينظر إل يهم ويبتس م ويلوح بيديه يحييهم ، وحمزة يعلق على أعدادهم الهائلة قائلاً ص حيح " إن جار عليك الزمن يا بن الكرام طاطي ، وعف نفس ك ولا تمش يش وراء الواطي " ويضحك زملاؤه الذين لا يجدون علاقة بين ما يقول وما يحدث ،

ويعلق دميان قائلاً هم الذين حاربوا فيقول حمزة " والله قلبي يقول لي أنهم طيبين لا عارفين يحاربوا في مصر ولا اليونان وإنه هو موسيليني الشيطان " ، وكان روزفلت قد خطب وأعلن أن أمريكا ستصبح مصنعاً للسلاح للدول الديمقراطية ، واشتكت عاهرات الإسكندرية المرخصات من قلة الزبائن بعد الهجرة الواسعة لأهل المدينة ، وطالبن الدولة بأن تسخدمهن في الترفيه عن الجنود الإنجليز في معسكراتهم نظير دخل ثابت ، لأن جنود الكومنولث الذي يذهبون إلى المواخير ، يكونوا سكاري ولا يدفعون للعاهرات ، كما أن الزبائن المحليين يعرفون أنهم صاروا مثل العملة النادرة لذلك لم يعودوا يذهبون إلى المواخير الفقيرة في الفراهدة وكوم بكير ولكن إلى المواخير الفاخرة في الهماميل ويدفعون في الأولى ، وأعلنت الصحف عن إعدام المتخلفين عقلياً في ألمانيا التي احتلتها إذ " سيقتل هذه الأيام مائة ألف من المخلوقات التعسة ، بُلهاء ومجانين لا يُرجى شفاؤهم في ألمانيا وحدها " . وضحك العمال وحمزة يقول : إنه اليوم فقط لا يحب أن يدخل الإيطاليون مصر لأن ذلك يعنى دخول الألمان وإعدام كل عمال السكك الحديدية أمثالنا ، ولما رأى النظرة الثعلبية لغبريال قال على الفور " ماعدا الأسطوات "فضحكوا أكثر ، وبدأ دميان يشعر بالتقارب الروحي مع حمزة ونسى مجد الدين إهانته السابقة له ، وخطب تشرسل مشيداً بالتعاون الأنجلو أمريكي قائلاً " نحن الآن فوق البرج القائم على حراسة التاريخ " وأحصيت الغارات التي نالت من الإسكندرية منذ دخول إيطاليا الحرب فوصلت إلى المائة أعنفها كانت غارة الست ساعات ، وغارتى نوفمبر الماضي ، ولكن لم يأت الإيطاليون للشرب من ماء النيل ، أتوا أسرى ضائعى الأوراح يمشون على

أقدامهم مئات الأميال من ليبيا حتى مرسى مطروح ، يموت منهم كثيرون في الطريق تحت الشمس والمطر والريح القارية ، ومن مرسى مطروح يتم شحنهم في القطارات أو السفن إلى الإسكندرية ، وأعلنت الصحف المصرية عن استمرار محكمة المتهمين في قضية الخوذ المقلدة للجيش المصري والبريطاني وهي القضية الكبيرة التي شغلت الصحف كثيراً والناس ، خصوصاً في المقاهي والبارات ، وحيث أعلن الجيش الملكي البريطاني والجيش الملكي المصري منذ بداية الحرب عن مناقصة لتوريد خمسين ألف خوذة لجنود الكومنولث وعشرين ألفاً للجنود المصريين ، وفاز بالمناقصة مقاولون مصريون ويونانيون معاً ، وقدموا الخوذ في الموعد المقرر للتسليم ، ولكن ظهر بعد ذلك أن الخوذ مقلدة وليست حقيقية ، حيث صنعت كلها من الصفيح وليس من الصلب كما هي العادة وقال أحد المتهمين في معرض الدفاع عن نفسه : ماذا تفيد الخوذة ، صلباً كانت أم صفيحاً ، أمام قنابل الطائرات والمدافع ، وهل تمنع الخوذة الموت عن الجندي إذا كان الله قد قدره له في الكتاب ؟! . لقد صارت القضية وأخبارها مثل نسيم رقراق يهب على المصريين بين وقت و آخر أثناء الحرب . وتأجلت المحاكمة كما تمنى المتهمون وكما تمنى المصريون أيضاً ، وسقطت كسلا في الحبشة في يد القوات الإنجليزية والحبشية وتقهقر الإيطاليون إلى أريتريا ، واستعد النجاشي ، هيلاسيلاسي لدخول الحبشة على رأس جيشه الوطني ، واحتفل الأزهر بالسنة الهجرية ، ولا يزال غفارة يضع الطربوش الواقي من الغارات على وجهه ، ولم يعد يعمل في نقل النشارة ، فمعظم مصانع الأخشاب توقفت بعد انقطاع الخطوط الملاحية مع أوروبا ، والمستهلكون من أصحاب

المحلات صاروا قليلين بعد الهجار ، فخلع صندوق العربة الخشبي ، وترك جانباً واحداً فقط كتب عليه ، الحمولة عشرة طن ، مستعدون لنقل المهاجرين إلى المحطة " بالعفش " وبدونه ، لكنه راح يحيي الناس الآن على طريقة جوبلز كما يقول ، فيرفع ذراعه أمامه قائلاً " هايل يا هتلر " لأى شخص .

ومع نهاية شهر يناير مات في مصر محمد محمود باشاً رئيس وزراء مصر الأسبق المشهور بصاحب اليد الحديدية ، وافتتحت مطربة العواطف ملك مسرحها برواية " بترفلاى " على مسرح برنتانيا بعماد الدين ، وتوفى فى اليونان زعيمها العظيم الجنرال متاكياس ، فأقيم الحداد بالقنصلية اليونانية فى الإسكندرية وجميع أندية اليونانيين ، وصدر قرار بمنع ركوب الدراجات ببعض شوارع العاصمة ، وتقهقر الإيطاليون إلى بنغازي وخطب تشرشل في مجلس العموم قائلاً إن مصر نجت والسويس ، وعرضت سينما مصر فيلم " سلامة فى خير " وبدأ زحف الإنجليز إلى طرابلس فتفحمت دبابات الإيطاليين وآلياتهم وبلغ قتلاهم وأسراهم مائة وخمسين ألفا منذ بدء الهجوم البريطاني ، وعم الحزن إيطاليا والسخط المكتوم من زعيمها الجبار ، وأقيمت في مصر الزينات بمناسبة عيد البلاد الملكي ، فعزفت الموسيقى فى الميادين ،وأقيمت الحفلات في قصر الزعفرانة ، ونوادي ضباط البوليس ، والدار البطريركية ، وفتحت مطاعم الشعب للفقراء ،وغنى التلاميذ لمليكنا السعيد ، وانتهت أحلام جرازياني أن يكون حاكماً على مصر ، نائباً للملك ، وأعلن التوجيه الملكي السامي مشروع مقاومة الحفاء " إن الحفاء ليس علة ولكن نتيجة ومن الخير للمواطن أن يشتري هو من ماله الحذاء الذي يستر

قدميه " أما إعطاؤه حذاء على سبيل الإحسان فإنه يغض من كرامته ويزيد شعور المهانة في نفسه " وفي نفس الوقت أهدى الملك حديقة حيوان الجيزة " حيوان الوبر " البري الذي اصطاده ، فنشرت جريدة الأهـ ـرام تعريفـ ـاً لحيوان الوبر قالت فيه :

" تلقينا من حضرة القس بولس رومان بأسيوط كلمة قال فيها إن هذا الحيوان يشبه الأرنب ، وهو يجتر ولكن لا يشق له ظلـ ـف ، وهـ ـو مـ ـن الحيوانات التي أمر الله بني إسرائيل ، بألا يأكلوها لأنها نجسة ، وهو معروف في بعض الأماكن بغنم بني اسرائيل ، وسكنه في الصخور لذلك كـ ـان مـ ـن الحيوانات التي اشتهرت بالحكمة .. وقد ذكره سليمان في سـ ـفر الأمثـ ـال قائلاً : " أربعة هي الأصغر فى الأرض لكنها حكيمة جداً : النمل طائفة غير قوية لكنه يعد طعامه في الصيف ، الوبار طائفة ضعفية لكنها تصنع بيوتها في الصخرة ، الجراد ليس له ملك لكنه يخرج كله فرقاً فرقاً ، العنكبوت تمسك بيديها وهي في قصور الملوك ، وعندما عدد النبي داود مراحم الرب وعنايته بالإنسان والحيوان والطير ذكر أنه خلق الصخور وجعلها للوبر ملجأ ، وفي بعض الترجمات ذكر أنه الأرنب ، وإنه كان شبيها له في شكله لأنه ذكر هو و الأرنب كل منهما على حدة في الكتاب المقدس " الوبـ ـار " أولا وبعـ ـده " الأرنب " ومن ذكره في الكتاب المقدس نفهم أنه يوجد بكثرة فى فلسطين . "

***

" جنس البشر ، ومهما كثرت أعداد الناس،
ومن منهم يعرف شيئاً عن نفسه ؟ "

-17-

كان العمل كثيراً فى الأيام الأخيرة للشتاء . والهواء البارد يلفح الوجه في الصباح الباكر .

الريح تشتد خاصة بعد أن يعبر مجد الدين ودميان السور إلى الفض اء الواسع فوق خطوط السكك الحديدية . مك ان تتجل ى في ه الس مات الإمشيرية بأجلى صورها ، حيث تطوف الزوبعة حاملة تراب الأرض فجأة ، تاركة المجال للهواء البارد ، الذي يندفع بعده المطر المجنون م ن س حابة هرولت من مكانها البعيد .

في طريقهما اليومي المعتاد في الصباح ، لم يعد يثيرهما عامل الغ راب الصامت الذي لايكف عن التحديق فيهما ، إلا أن دميان لاحظ أن الرجل أطلق لحيته ، ونادراً ما ظهر جالساً ، بل دائماً يمشي إلى الإمام ، وإلى الخلف ، مما جعله يسأل مجد الدين ما إذا كان الرجل قد أصيب ب الجنون بح ق ،

فكان رد مجد الدين المغيظ له دائماً إذ قال " يا دميان دع الملك للمالك ! " .

كان على العمال تركيب خط حديدي جديد يمتد لحوالي الكيلو مترين ، ذلك أن العربات الواقفة تنتظر دورها في الدخول إلى الميناء كثيرة ،لم تعد تكفيها الخطوط الحالية ، فضلاً عن ضرورة ترك الخطين " الطولي " الذاهبين إلى الصحراء والقادمين منها حاليين دائماً إلا من القطارات المسافرة .

كانت المنطقة الواسعة الممتدة خلف الإسكندرية ، من محرم بك حتى القباري ، مروراً بغيط العنب وكفر عشري ، مزدحمة بمئات العربات ، وعشرات القطارات البخارية السوداء ، وفي حركة لا تنقطع لتحميل السلاح من الميناء ، والانطلاق به إلى الصحراء ، أو نقل السلاح والجنود القادمين من السويس ، أو الذين أنفقوا وقتاً للترويح في الإسكندرية كذلك نقل الأسرى .

جاء أكثر من قطار من مخازن القاهرة يجر عشرات العربات المسطحة تحمل الفلنكات والقضبان وآلاف المسامير والقواعد الحديدية المربعة التي توضع بين الفلنكات والقضبان ، كذلك حملت القطارات تلالاً من الزلط قادمة من الصحراء الغربية ، وامتلات المنطقة فجأة برجال شرطة السكة الحديد بزيهم الأصفر المميز يتوزعون على هذه المعدات التي شغلت حيزاً كبيراً من الفراغ . بعد أن أنزلها العمال والأوناش المتحركة على القضبان . واجتمع العمال من كل بوستة فبلغوا أكثر من مائة يشتركون في هذا العمل الجبار الذي يجب إنجازه في وقت قياسي حتى لو وصلوا الليل بالنهار .

كان البرد يتسلل إلى العمال ، رغم ثيابهم الصوفية ، من الرقبة وم ن تحت الأكمام ونهايات البنطلونات فوق الأقدام . وحرارة العمل ل ن تع د تكفي وحدها للدفء فالريح لا تكف عن حمل البرد ، المكان فضاء واسع ، ولم يعد مسموحاً لأحد بالغداء في بيته ، وصارت الراحة س اعة واح دة ، وكانوا يتحملون ذلك العنت كله برضا لا يضايقهم إلا زخات المطر المتقطع التي تضطرهم للجري إلى أقرب عربات للاحتماء جوارها أو تحت ها ، ولا يكادون يعودون للعمل بعد انقطاع المطر الذي لا يستمر طويلاً حتى يع ود مرة أخرى ،وكثيراً ما استهانوا به وظلوا فى مواقع عملهم فإذا به يف اجئهم بالاستمرار وقتاً أطول مع حدة وكثافة ، أجل . هكذا صارت بينهم وب ين المطر مباراة وعناد .

لقد قسموا أنفسهم ، بواسطة أسطواتهم الذي هم خبراء تقلي ديون بالعمل ، إلى فرق ، فرق لتسوية الأرض عدتها الف ؤوس والكوريك ات ، وفرقة لفرش الزلط فوق الأرض في الأماكن التي ستوضع فوقها الفلنك ات وعدتها المقاطف والفؤوس ، وفرقة لصف العوارض ، وعدتها أكتافهم ال تي يحملون العوارض فوقها وفرقة لحمل القضبان ووضعها ف وق الفلنك ات والقواعد وفرقة لتثبيت القضبان بالفلنكات بواسطة المسامير ال تي تخت رق القواعد الحديدية تحت القضبان وفرق الفلنكات وتض غط عل ى ج انبي القضيب من أسفل ، ثم الفريق الأخير الذي يقوم بدك الزلط تحت العوارض بعد ذلك ، الأسطوات يكون عليهم ضبط المسافة بين وصلات القض يب نفسه أفقياً وضبط المنحنيات والتأكد من المسافة المتروكة بين كل وصلتين من القضيب الواحد . المليمترات المتروكة لتمدد القضيب صيفاً وانكماشه

شتاء بحيث إذا تمدد لا تتصادم كل وصلة بالأخرى ، وإذا انكمش لا تلتوى القضبان أو تترك مكانها . ومثل كل عمال الدنيا ، لم يكن ممكناً تحمل مشاق العمل دون عناء . هيلا هيوب هيلا . هوب هيلا . يا مهون هون يا مهون . خاصة أولئك الذين يحملون القضبان فالقضيب الواحد لا يزيد على ثمانية أمتار يحمله عادة عشرة رجال يغنون وهم ينقلونه ثم ينزلون به برفق حتى أقدامهم . ثم هوب ، يتركونه معاً في وقت واحد فوق القواعد والفلنكات . ويتراجعون إلى الخلف تاركين المكان لفريق " الربُّاط " الذى بسرعة يضع المسامير في فتحات القواعد الأربع . فتحتان على كل جانب من القضيب ، ثم يبدأون في إدارة المسامير التي تخترق الفلنكات ، بمفتاح طويل على شكل ماسورة في أسفلها تجويف مربع بحجم رأس المسمار، مدد .. مدد .. يا أم العواجز يا طاهرة . يا سيدي المرسي . يا أبو العباس . يا شيخ العرب . يا سيد . يا ظهري اللى انكسر . أمتى الفرج أمتى . ونشوف الشام . مدد . وعيالي تكبر . مدد يبقوا باشوات . مدد . كله على الله . مدد . والإنجليز . مدد . خطفوا النسوان . مدد .

وينطلقون ضاحكين ، وحمزة يتأمل ، فهو دائماً من حملة القضبان برغم قصر طوله عن بقية زملائه ، يتأمل عمال الرباط المنتشرين حول القضبان بكثرة فيبدون له كالزنابير الصحراوية لتقاربهم وحركة أذرعهم التي لا تنقطع ، ويتخيل أحياناً أن أجنحة ظهرت لهم ، فطاروا في السماء ممسكين بالقضيب ثم ركبوا البساط السحري ، ويضحك ، ودميان بين الحين والحين يتوقف عن دك الزلط تحت الفلنكات وينظر إلى حمزة الذى يتوسط الطابور حامل القضيب ، ويفكر في دهشة وإعجاب أن هذا القصير

لئيم لا يحمل شيئاً ، فالقضيب فوق أكتاف زملائه الطوال ، ولا يكاد هـ ـو يصل بكتفه إليه ، ولابد أن حمزة كان يدرك مغزى نظرات دميان بين وقت وآخر إليه فكان ينطلق بالغناء .

أنـ . ـا جمـ . ـل صـ . ـلب لكـ . ـني علّـ . ـتي الجَمَّـ . ـال
جَمّـ . ـال مـ . ـآوح ولا هـ ـوش في الحمـ . ـول جمّـ . ـال

أو يزعق قائلاً :

" مـ . ـن كـ . ـان يتـ . ـيم ضـ . ـاعت أهلـ . ـه
في البلـ . . . ـد دي أهـ . . . ـو ضـ . . . ـاع "

ثم يلحق الكلام بصوت أقل ارتفاعاً مليء بالحسرة :

لـ . ـو كـ . ـان أسـ . ـير كـ . ـان علـ . ـى مهلـ . ـه
للـ . . . . ـذوات ينبـ . . . . ـاع ،
لكـ . . . ـن أهـ . . . ـالى بـ . . . ـلاد حـ . . . ـرة
شـ . . . . ـغلوه خـ . . . . ـدم "

" أيوه يا حمزة . الله يفتح عليك " يرتفع صوت العمـ ـال ، الـ ـذي لا يسكته إلا هطول المطر السريع المفاجئ وجريهم للاحتماء بالعربات .

لم يكن عملهم هذا ثابتاً . فهم يتبادلون المواقع كل يومين . كان رأى الأسطى غبريال أن يحدث التبادل كل يوم ، فذلك أكثر راحـ ـة للجسـ ـم

وأكثر اتساقاً مع قدرات العمال لكن " البَّاع " أسطى عمال البوستة رقم (2) ، قال إن التبادل يكون أوفق كل يومين ! . والبياع أسطى قديم ، مشهور بتهوره حتى لقبه العمال " بالمجنون " فلم يكن لأحد أن يناقشه .، قال البياع : "كل يومين أفضل للعمال ، صحتهم عال زي الحمير " ، وكان حين يتحدث " يتفتف " مما يجعل محدثه ينهي الحديث بأسرع ما يكون . والحقيقة طبعاً أن الأعمال كلها في المشقة متساوية رغم ما يبدو من تفاوت ظاهرى . ورأى دميان فيها أنها كلها طين حتى أنه هتف في سره داعياً الشهيد ماري جرجس الذي ألحقه بهذا العمل الصعب أن يملأ السماء بالسحب السوداء . وألا ينقطع المطر عن الأرض حتى تخرج القضبات من أماكنها وتنقلب القطارات ويكف الحلفاء عن الحرب مع المحور ويجد هو وقتاً لتعلم الكتابة التي لم يتقدم فيها كثيراً إذ عليه أن يمر باختبار بعد اسابيع وإلا لن يزيد راتبه العام القادم . ويقول في نفسه " قدوس قدوس بالحقيقة أيها الرب الذي خلقنا ووضعنا في الفردوس لكنا خالفناك بوصاية الحية فسقطنا من الحياة الأبدية ظن لكنك لم تتركنا بل أوكلتنا إلى الأنبياء والقدسيين ، وفي أحد الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة بابنك الوحيد الجنس مخلصنا يسوع المسيح الذي أسلم ذاته فداء عنا إلى الموت . اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من مقدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا ارحمنا يا الله الأب ضابط العمل . كيرياليسون .. كيرياليسون " على أن الرضا قديم عند بقية العمال الذين تعودوا على هذه البقعة الواسعة . فردوس هى أو أشبه باتساعها وانقطاعها عن العالم . العمل مهما كان متعباً فلحظات قليلة من الراحة يتمددون فيها فوق الأرض ، ويتأملون هذا

الاتساع الغامض لا يفكرون فيها أبداً هناك حول هذا المكان عالماً آخر قد يكون أفضل ، إنهم ينسون حتى بيوتهم وأسرهم ،والقطارات المارة بالجنود والسلاح وغيرها تظهر كأنها نزلت من السماء وعادت إليها ، ولحظات الانفعال بها والحديث عن الجنود وتلقي عطاياهم . لا تلبث بعد بعد قليل أن تغيب وتنتمي لزمن آخر غير مُدرك ، زمن برزخي ، أبعد غموضاً من الأثير ، لا يفكرون حتى في العالم ،وأن العالم هو الفضاء الواسع الذي يهبهم هذا الرضا الأبدي المثير .

وأقبلت بحق السحب السوداء منخفضة ثقيلة مثل الطائرات الألمانية حين تهجم على المدينة في الليل . ابتعدت الشمس الواهنة اختفت خلف السحاب الأسود العريش الذي ينذر بأنهار المطر ، وفي لحظة واحدة انفتحت القرب من السماء وهطل السيل فتركوا كل شيء وأسرعوا إلى العربات . لم يكن منجياً لأحد الاختباء بجانب أى عربة ، فالمطر لا يأتي من اتجاه واحد ، لذلك بحثوا جماعات متفرقة عن عربات مغلقة بجانب أى عربة خالية أو سبنسات ، وقال دميان لنفسه إلى هذا صار الود بيني وبين الشهيد مارى جرجس ، ودمعت عيناه وهو يشعر بالسكينة تسرى في روحه . هل أحبه الرب حقاً كل هذا الحب ؟

دخل دميان إلى سبنسة قريبة سبقه إليها البياع وحمزة والأسطى غبريال ومجد الدين وعدد آخر من العمال ، في السبنسة جلس غبريال على المقعد الجانبي ، وعلى الفور وبرشاقة أخرج النوتة من جيبه العلوي والقلم الكوبيا وراح يكتب فيها بخطه المنمنم ولم يخلع البيريه عن رأسه ، وبينما خلع البياع الكوفية من فوق عنقه والطاقية من فوق رأسه الذى بان أصلع

تماماً شديد الاحمرار مثل وجهه بالضبط ، وزادته الهرولة اشتعالاً . في اللحظة نفسها سمع صوت قطار يقترب من بعيد وصوت غناء الجنود الإنجليز ، وموسيقى القرب الأسكتلندية . لم يكن ممكناً لأى من العمال ترك العربة أو السبنسة التي اختبأ فيها ، فالمطر ينهمر شديداً مرعباً يملأ الأرض الترابية بالمياه في ثوان معدودة فنظروا من فتحات العربات ونوافذ السبنسات وأبوابها إلى الجنود الذين كان بعضهم ينظر أيضاً من خلف زجاج القطار .

قال حمزة وهو يضحك ضارباً كفاً على كف .

– يسكرون في القطار والله العظيم .

ولكن لا أحد انتبه لكلامه .لقد نزل على الدنيا ظلام شديد وبرقت السماء ثم توالى الرعد بلا انقطاع وبدا أن السموات السبع ستقع فوق الأرض الجرداء وسرى الخوف قليلا في القلوب ، إذْ نزل بينهم الصمت للحظات حتى قال البياع :

– يبدو أن الإنجليز يدبرون شيئاً يا أسطى غبريال .

رفع هذا رأسه عن النوتة وكف عن الكتابة .

– الإنجليز طول عمرهم أهل تدبير يا أسطى بياع .

وتدخل حمزة قائلاً :

– الإنجليز كسروا جرازياني واطمأنوا . التدبير أنهم لن يخرجوا من مصر . كنت أتمنى أن يكسرهم جرازياني . طلع أهبل . كسفني الله يخرب بيته .

نظر إليه البياع شذرا وقال :

– إذن أنت تفضل إيطالياً على إنجلترا يا بهلوان ؟

ضحك دميان والعمال على بهلوان هذه التي لا يسمعونها إلا من البياع ويجدونها منطبقة تماماً على حمزة لكن مجد الدين الذي كان قد أخرج المصحف الصغير يقرأ فيه في صمت ابتسم ، ورأى في عيني البياع غيظاً وشراً . عينان عجيبتان ، تنظران إليك وإلى بعيد في وقت واحد وزرقتهما تساعد على ذلك ، وقال البياع :

– لماذا لا ترد ؟ أجبني.

انقلب الظلام في الخارج إلى عواصف ترابية ، والمطر لا يزال ينهمر وصوت الحصى والرمال الطائرة وهى تضرب السبنسة صار مسموعاً وأسرع مجد الدين بإغلاق النوافذ لكن التراب كان يدخل إليهم مع الريح من الأبواب المفتوحة والتي هي بلا ضلف . وهتف حمزة وهو يسعل :

– أنا عارف أن هذا اليوم أسود و أغبر من أوله .

فضحك الجميع بمن فيهم البياع ، أما مجد الدين فلم يعد قادراً على النظر إلى المصحف ، فأدخله إلى جيبه وتذكر زهرة كيف يقترب موعد وضعها ، هل يعطيه الله الولد هذه المرة ، وقرر أن تلد في القرية حتى لو لم

يسافر معها ، فقط هو لا يقدر على فراقها الآن لكنه سيقدر حين يقترب أكثر موعد الوضع . وسكت الجميع وقال البياع :

– يا حمزة . أنا أيضاً كنت أتمنى أن ينتصر جرازياني مثلك ، أنا أكره تشرشل ..كانوا نسوا الحديث الذي جرى منذ قليل فأعاده البياع من جديد ، وإذا بحمزة يقول في انبساط واطمئنان لجانب البياع .

– أنا أيضاً أكرهه . تشرشل بالذات . أنا اعرف أنك قابلته يا أسطى حين زار مصر سنة ستة وثلاثين ، أنا أيضاً قابلته ولم يعجبني كلامه , هجاص . ضحك على النحاس باشاً وخلاه مضى على معاهدة فالصو .

وحط الصمت المنذر فوقهم جميعاً ، فما يقوله حمزة لا أساس له من الصحة لكنهم فوجئوا بالبياع يقول :

–كلامك صحيح يا بهلوان .

ولم يستطع دميان أن يكتم ضحكه ، فانطلق بعده العمال يضحكون أما الأسطى غبريال فقد ابتسم لنفسه وكذلك فعل مجد الدين . وقال حمزة للبياع :

– شوف يا أسطى بياع ، بيرم التونسي قال إيه عن تشرشل والنحاس سنة ستة وتلاتين :

" إن كان سير أوستن تشامبرلين راجل طماع
عايز يضيّع لنا ثروت في لعبة ، ضاع
يكون في علم الفخامة إنتا قاعدين

فاض . بين لج . رّ المش . اكل كلن . ا صه . يّاع"

ونظر الجميع إلى بعضهم في ذهول . يري دون أن ينطلق وا في الضحك ولا يستطيعون . لكن دميان انفجر مغتاظاً وقال : وهو يكتم الضحكة :

– شامبرلين إيه وثروت مين يا راجل يا بكاش أنت . الكلام دا ك ان واحنا شباب . وإيش جاب تشرشل لشامبرلين وثروت للنحاس

لكن حمزة لم يرد ، لم يكلف نفسه عناء النظر إليه . نظر إلى البياع وفي عينيه انكسار ، وانتظر الجميع رد البياع الذي قال بهدوء :

– كلامك صحيح كله يا بهلوان ، كانت أيام .

ولم يُسمع بعد ذلك غير صوت الرعد وصوت زخات المط ر ال ذي استمر حتى المساء . لقد كف المطر كأنما ليمنحهم الفرص ة في الع ودة إلى بيوتهم ، وخرجوا من العربات والسبنسات كأفراخ صغيرة ت رتعش م ن البرد .. وقرروا أن يتركوا كل شيء في مكانه حتى الصباح لك ن ظه ر قطاران طويلان محملاً بالجنود البيض والسود والهنود يتحركان على مه ل خلف بعضهما .اصطف العمال على الجانبين ، وارتفعت الأصوات المعتادة . ويلكم جوني . ويلكم إنديان ، جود إنجليش ، نوجود جيرماني . وسمع ت ضحكات الجنود من خلف النوافذ المفتوحة ومن أبواب العربات . لقد ألقى الجنود كثيراً من معلبات التونة والسلمون والبلوبيف والجبن وك ثيراً م ن الشيكولاتة وعلب الشاي وكراتين البسكويت تلك الليلة ، وانفرط نظ ام

العمال فصاروا يجرون جوار القطار بلا نظام . كان مجد الدين قد قنع بما ألقاه الجنود جواره فلم يجر ، وكذلك فعل دميان الذي كانت عيناه على حمزة الذى كان قصره يجعل شكله مضحكا ،وهو يقترب من سلم عربات القطار رافعاً ذراعه إلى الجندي الأفريقي أو الهندي أو الإنجليزي فلا يطول ما يقدمه له من معلبات مما يضطر الجندي للترول درجة بالسلم . يتناول حمزة ما يعطيه له ويضعه على الأرض وبسرعة يتابع عربة أخرى وجندياً آخر . حمزة يعرف أن لا اعتداء لأحد منهم على ما يفوز به الآخر ، وأنهم لولا الظلام الهابط لكانوا اقتسموا غنائمهم بالعدل . لقد كان حمزة نشيطاً للغاية ذلك المساء . ورآه دميان يمد يده لجندي أفريقي يترك فجأة علبة البسكويت التي فى يده ويمسك بيد حمزة . ولم يسمعه أحد . انتهى مرور القطارين وراح العمال يجمعون غنائمهم وبقيت غنائم حمزة ملقاة فوق الأرض . وهتف دميان :

– لقد رأيت الجندي الأفريكي يحمل حمزة إلى العربة .

ضحك العمال وقال البياع :

– حمزة بهلوان سيترل أمام سكن المصلحة بالتأكيد ، اجمعوا حاجاته واحملوها إلى بيته .

لكن دميان الذي اقترب جداً من مجد الدين كان يشعر بشيء آخر فهمه مجد الدين ولا يريد أن يصدقه

***

" قلوب العاشقين لها عيون

ترى مالا يراه الناظرون "

- 18 -

ترعة المحمودية هى التي خلقت الإسكندرية في العصـور الحديثـة ، أصدر محمد على باشا أوامره السنية بحفرها عام ألف وثمانمائة وتسعة عشر ، وأمر حكام الجهات المختلفة بجمع الفلاحين للعمل ، فكان الحكام يربطونهم قطارات بالحبال ويترلون بهم من المراكب فيموت منهم كثيرون من التعـب والجوع ، فيدفن من يموت مكانه ، يهيلون عليه التراب ويمشون .. كثيرون منهم دفنوا وهم أحياء ،أصابهم الإعياء فأمر حكام الجهات بدفنهم ، فوارت الأرض أجساداً تركت أرواحها وأجساداً بها أرواح ، وبلغ الموتى والقتلـى في العام الواحد عشرة آلاف . لقد استمر حفر الترعة واحداً وعشرين سنة ، فمات وقتل أكثر من مائتي ألف ولم يقل العدد المستخدم في حفرها دائماً عن أربعمائة ألف ، وجرت السفن في الترعة فوق مائتي ألف حكاية ، بعدد الموتى ، وربما حكايات أكثر ، وانتقلت هذه الحكايات كلها إلى الإسكندرية

حيث مصب الترعة في الميناء . هل تحتاج أمة من الأمم الى أكثر من مائتي ألف قتيل ليتكون عندها تاريخ من الأساطير والأشباح والجنون والعفاريت . لقد ازدهرت الإسكندرية بحركة النقل بين الميناء والدلتا والصعيد ، وازداد سكان المدينة إلى ستين ألفاً ، واستمرت المدينة في الازدهار والناس في الازدياد والمحمودية مستودع الأسرار .

المحمودية بالنهار طريق السفن والبضائع ومراس للعمل ، في الأصائل نهر للفسحة والمرح فوق الفلائك الشراعية الصغيرة وغير الشراعية ، وبالليل لصوص ومهربون يهاجمون السفن خلسة يسرقون ما يستطيعون حمله ، و حملات بوليسية عليهم فيدوى الرصاص ليلة وأخرى ، والآن ازدادت حوادث السرقة بسبب الظلام الذي شمل البلاد . والمحمودية أيضاً بالليل مثوى للجثث ، والقتلى بحق وبدون حق يأتون في أجولة مغلقة من الريف ولا يصلون إلى الميناء أبدا . دائماً الأجولة تصطدم بالقواعد الأسمنتية تحت الكباري وتتوقف . عادة لا يفطن إليها أحد إلا عند الظهيرة وفي العصر ، في الصباح يكون ذهن المارة مركزاً في العمل ، وفي العصر يبدأ المرح فوق المياه وتزداد حركة الفلائك الصغيرة . وكذا لا يمر شهر إلا ويتم اكتشاف جثة . لكن من النادر اكتشاف ثلاث جثث متتابعة كما حدث هذه الأيام . دائماً هي جثث نساء وفتيات .

لم يكن شيء من ذلك في ذهن رشدى حين قابل كاميليا ، واقترح عليها أن يقطعا معاً نزهة بالمحمودية في الصباح على عكس كل العشاق . تحب منه دائماً هذه المخالفة لكنها انكمشت خوفاً من أن يطلب منها بدء الرحلة من كرموز ، ورأته يبتسم ويقول : سنبدأ من النزهة بعيداً بعيداً عن

كل العمران . عادة تكون النزهة هي آخر إبحار الفلائك ومنها يعود الجميع إلى الغرب ، لكنهما سيستأجران زورقاً صغيراً ، ويستمران في الرحلة إلى الشرق حيث لا يوجد أحد ، لا يوجد غير أراض زراعية وفلاحين في الحقول . لا مباني ولا عمال ، ولا أحد يمكن أن يكون قريباً لأهلها أو لأهله .

كان الجو صحواً كما يريده العشاق ، هطل مطر خفيف وهما يترلان من الترام في محطته الأخيرة ، هناك لم يستمر غير ثوان . مشياً بين أشجار الكافور الضخمة المتعانقة في الفضاء ، والتي يتراقص ظل أوراقها دوائر صغيرة بسرعة فوق الأرض . أخذ بيدها نازلاً الدرجات الثلاث إلى مرسى الفلائك الملونة . شباب كثير وبنات كانوا قد فكروا التفكير نفسه فيما يبدو ذلك اليوم .

– أرأيت ها نحن لسنا وحدنا ، أغلبهم أكثر شجاعة منا ، إذ سيأخذون الطريق إلى راغب وكرموز .

قالت بسمة :

– فلنكن جبناء اليوم . اليوم فقط .

جلست أمامه في الفلوكة الضيقة الإنسانية وجلس أمامها ممسكاً بالمجدافين ، وبدأ يجدف . ومن جديد هطل المطر الذي أربكهما لكنه كان خفيفاً ومنعشاً وسرعان ما انتهى .

– ما رأيك أن نسبق الجميع؟ نريد أن نكون لوحدنا ... جدفي معي .

مدت يدها وأمسكت بالمجدافين معاً . وضع كفيه على كفيها فانتقلت إليه حرارتها وراحا يجدفان بسرعة . تألمت من ضغطه وتململت أصابعها فأبعد يديه قليلاً عن يديها لكنهما ظلا معاً يجدفان ويضحكان .

المحمودية بعد " الترهة " يرتفع الهيش والحشيش على جوانبها من الإهمال . كانت العصافير تطير من الهيش وهما يضربان بالمجدافين .لقد صارا وحدهما الآن حقاً . تترامي على الناحيتين حقول واسعة مزروعة بالخضر وعلى حواف الترعة بدأت تظهر أشجار كافور وكازورينا وخروع وصفصاف منسدلة جدائلها . شعر العروسة . قال لها رشدي : إنه هكذا تسمى هذه الشجرة التي قرأت عنها كاميليا ولم يسبق لها أن رأتها .

بالحقول كان فلاحون قليلون . رجال ونساء وأطفال يتفرقون على مساحات واسعة . وساقية واحدة هى التي صادفتهم حتى الآن وأشجار جميز متفرقة وسنديانة شامخة تقف وسط الحقول .

– لقد ابتعدنا كثيراً يا رشدى

ونظرت في ساعتها وقالت :

– مضى ساعتان الآن ، ونحن نجدف ، لقد استأجرنا الفلوكة ساعة واحدة .

– لا عليك ، معي خمسون قرشا هى مصروفي الشهري سأنفقها كلها اليوم .

كان قد توقفا عن التجديف ووقفت الفلوكة وسط المحمودية وحملها تيار خفيف منحرفاً بها حتي اصطدمت بالشاطئ وركنت عليه .

– يمكن لنا أن نترل ، لا تخافي فلن تتحرك الفلوكة .

قال ذلك ووقف فاهتزت الفلوكة تحته وكاد يقع لولا أن تماسك وضحكت هي ، لقد مضى وقت طويل حقاً حتى أنه فرد ساقيه بصعوبة ، وقفت هى أيضاً وقد ناولته يدها واهتزت الفلوكة من جديد لكنه يقف بالبر الآن فساعدها على ترك الفلوكة ، وجذبها إلى أعلى فوقفا على شفا مساحة هائلة من الحقول الخضراء فوقهما الشمس حانية .

– يا للروعة . ماذا يحتاج الإنسان من الآلهة أكثر من ذلك ؟

هتف وهو يفرد ذراعيه على اتساعهما ثم قال :

– هيا نجرى .

وجرى من أمامها وجرت خلفه ، ولم يتوقف عن الجري إلا بعد أن أحس بأنفاسها متعبة ، فانهار فوق الأرض تحت جميزة كبيرة ومد ساقيه مستنداً بظهره على جذع الشجرة وانهارت هي إلى جواره جالسة على نفس الطريقة .

كانا يتنفسان بسرعة وكانت ساقاها تبدوان لامعتين فوق جوربيها الأبيضين القصيرين ، وظهر بدايات ركبتيها فوضعت حقيبتها الجلدية عليهما . رفع ذراعه اليسرى وأحاطها وجذبها إليه فاختفت في صدره هو النحيل الهش .

– هذا أصلح مكان في العالم للجنون .

جفلت إذ توجست من كلامه وابتعدت بصدرها عنه لكنه قال :

– لا تخافي مني أبداً ، فقط أحسست أنني سأموت بين يديك .

عاد للكلام العجيب ، وسمعت صوت غراب فانزعجت ، فقال لها :
إن هذا الغراب مسكين ، هو الذي أرشد البشرية إلى أعظم سر ، سر الدفن ، وهو أكثر الطيور ، لعنة ، وسألها :

– هل قرأت مسرحية " انتيجون " لسوفوكليس ؟

– قرأتها في الصيف الماضي في برنامج القراءة بالإجازة .

هل فعلت أنتيجون غير أن وارت جسد أخيها التراب ، دفنته ، لا كرامة للإنسانية دون دفن موتاها .

سكتت لحظات وقالت :

– هل جئت بي لتحدثني عن الموت .

ضحك .وقال :

– المشكلة أن قراءاتي كلها في الأدب . لم أصادف القصة المضحكة بعد . إذا صادفتيها أخبريني .

ونهض واقفاً .

– لا تتحركي . سأقرأ لك شعرا مجنوناً عبقرياً اليوم .

وأخرج من حقيبته كراسة صغيرة .

– لقد ترجمته لك هذا الأسبوع .

وراح يقرأ بصوت تمثيلي :

– " أيتها الساعة . يا إلها مشئوماً جباراً

يا من يهددنا ويقول لنا " تذكر

إن راتعاشات قلبك المرعب

بالجوى ،

ستغرز قريباً في هدف "

" ستهرب المتعة نحو الأفق

مثل طرقة ضيقة إلى الكواليس

فكل لحظة تفترس من متعتك

التي أعطيت لك طول عمرك "

(ثلاثة آلاف وستمائة مرة في الساعة تهمس الثانية " تذكر ! –
بصوتها الذي يشبه دبيب الحشرات

تقول اللحظة : أنا الماضي

رطبت حياتك بترياقي الكريه "

" عما قريب تحل الساعة التي فيها

يقول لك كل شيء . متى أيها

الجبان الهرم . فات الأوان " .

كانت معجبة بأدائه ورعونته . بعينيه المسـ ـبلتين الحـ ـزينتين دائمـ ـاً . بهشاشته وسط الفراغ الأبيض الكبير ، والأرض الخضراء العظيمة . هـ ـذا الكائن الرقيق جداً الذي يمكن أن يحمله الهواء مثل ريشة يطيره فلا يعـ ـود ، هو نفسه الذي يخضع له كل هذا الفضاء وكل هذه الخضرة . إنه السـ ـيد الذى صنعته الآلهة ، ولم تدر أنه سيكون عاصياً يفكر دائماً أن يعلب دورها ، وسيكون هذا أيضاً سر عذابه السرمدي .

مد يده آخذاً يدها فتركت حقيبتها جوار حقيبته ووقفت . أسـ ـندها على جزع الشجرة التي كانت ثلاثة طيور من أبي قردان قد طـ ـارت منـ ـها حين ارتفع صوته بالشعر .. اقتربت منه وراح يقبل عنقها وهى تقاوم خفيفاً وهو يقول :

– معذرة ، أنا لا أعرف ما الذى يجعلني أتحدث عن الموت اليوم حقاً؟

– كفي

قالت بهدوء وهى تضع يدها على كتفه . لقد تعود ذا ـلك منـ ـها . وتعودت هى أن يستجيب , قال وقد أخذت يدها في يده يمشـ ـيان عـلـ ـى هامش الحقول :

– أعجبني أن يكتب شاعر عن ساعة الحائط ، القصيدة لبودلير اسمها L'horlge ولم أعرف أنها سوداء إلا بعد أن مضيت فيها . لم أتراجع . في المرة القادمة سأترجم لك قصائد بيضاء ، بل سأترجم لك قصائد مجنونة من رامبو وفيرلين .

لم ترد .. ومشياً صامتين . وظهر فلاح وزوجته وطفلان خارجان من كوخ راحوا ينظرون إليهما بدهشة ، لم يسبق لهم أن رأوا أحداً نظيفاً وصغيراً وجميلاً هكذا .

– لا تخشى شيئاً ، لا تتحدثي إليهم .

قال ذلك وأمسك بيدها بقوة . وما إن وصل إلى الفلاح وأسرته حتى قال " السلام عليكم " فرد الجميع بسرعة "و عليكم السلام .. اتفضلوا " ابتسم وابتسمت هي وعادوا إلى الشجرة بينما ظل الفلاح وأسرته يشبعونهما بنظرات الدهشة . كانت نظافة الجو أيضاً ورقة النسيم تضيف إلى بهائهما بهاءً ، وسمعا صوت الفلاحة تقول : " يا حلاوة على أولاد البندر " ، فارتفعت ضحكاتهما ،وأسرعا إلى الشجرة . لابد أنهما ابتعدا بالفلوكة كثيراً مما جعل المرأة تعتبرهما من البندر . لقد دخلا إذن في الريف العميق . أو هكذا خيل لهما ، ورفع رشدي وجهه إلى السماء فوجد الشمس قد تجاوزت منتصفها .

قال في نفسه " الساعة دائماً " . وأخذ بيدها إلى الفلوكة التي لم يبرح مكانها وجلسا قبالة بعضهما بينهما طرفا المجدافين ، وبدأ هو يجدف .

ما كاد ينتصف الترعة حتى مدت يديها فوق يديه قائلة :

– سأساعدك .

وابتسمت . اشتعلت الدنيا بالضياء أكثر ، اهتز الفضاء . أى سعادة حباه الله بها ، كيف تجرأ ذلك اليوم الذي تسابقت فيه المدرستان، وكيف انتهت الجرأة إلى ما هو أكثر من الحقيقة . إن جسمه يرتعش . يحتاج أن

يدخل فيها دخولاً لا عودة منه . يحتاج أن يمزقها إلى كل ناحية .يفنيها فيه ويفنى فيها . من يصدق أن هذه تجربة الحب الأول له ، بدأت بسرعة لا معقولة مع فتاة لا معقولة . في بساطتها وجمالها وديانتها أيضاً . من يتذكر الديانات الآن؟

إنها تضحك والشمس خلفها تضيء الدنيا حول جسدها الدقيق . في المرة القادمة سيختار مكاناً أبعد ... لن يستمع إلى ندائها الهادي وهي تقول مرتجفة " كفى " سيتوغل أكثر " إنها فتاة جميلة ثرية العنق تترك شعرها يتسكع في حمرة بشرتها . إنها تمشي كالملوك وتجلس كالسلاطين وتدعو بعينيها الجنس البشري للانفجار ، للذوبان بين ذراعيها المفتوحتين ونهديها المكتنزتين ، إن جمال جسمها هبة إلهية ؟

– ماذا تقول ؟

– أتذكر شعراً جميلاً ، لكن للأسف لا يبدو أنني سأرى فرنسا .

– كنت أتقدم في اللغة الفرنسية كثيراً فجئت أنت وعطلت كل شيء .

– هل كنت ستواصلين ؟

– أجل . لقد جعلتني أحب فرنسا .

– لكننا للأسف لن نراها .

– لاتكن متشائماً . الحرب لابد ستنتهي قريباً . ولدينا الوقت الكافي .

سكت قليلاً ثم قال :

– هل تظنين ذلك ؟

ابتسمت ولم ترد . كان هناك مركب شراعي قادم من بعيد محمل بالأجولة وفوقها بعض النوتية من الجنوب بجلابيبهم الزرقاء والرمادية . قال :

– إنهم يقطعون رحلة كبيرة من الجنوب إلى الشمال .

ابتسمت أكثر وقالت ..

– هل تعرف أنني صعيدية ؟

صعيدية بيضاء . لابد إنك صعيدية من الجنة . هل تعرفين الأغنية التي تقول : " في الأصل أنت حورية ، سَهِّيتي رضوان وفتحتي الفردوس " .

– أسمعها كثيراً وأضحك . أستمع أيضاً إلى عبد الوهاب وأحبه وسيد درويش وأحبه ، وأمس بالليل كانت هناك سهرة لسيد درويش بكيت فيها .

نظر إليها مليا وقال :

– لما غنى " والله تستاهل يا قلبي ، ليه تميل للحب ليه "

–كيف عرفت ؟

– استعمت إليها . اسمعى .

وراح يغني لها وهي تضحك من صوته الأجش ، وكان قد حـ ـاذاهم مركب شراعي صغير يقف أحد على سطحه يراقبهما مبتسماً . سمع غنـ ـاء رشدى فإذا به ينشد متوجهاً إليهما :

" يـ ـا ريـ ـس البحـ ـر خـ ـذني معـ ـاك أحسـ ـن لي
أتعلـ ـم الكـ ـار قبـ ـل العـ ـار مـ ـا يحصـ ـل لي
وأترك بـ ـلادى وأعيش في الغربة أحسن لـ ـى
أنـ ـا بامسـ ـي علـ ـيكم صـ ـبح وعصـ ـاري
يـ ـاللى هـ ـواكم صـ ـحن جسـ ـمي وعصـ ـاري
بـ ـابص بعـ ـيني لقيـ ـت الـ ـريح كالعصـ ـاري
سـ ـبت المـ ـداري وقلـ ـت الـ ـبر أحسـ ـن لي

ابتسم رشدي ، وهتفت له يسأله ما إذا كان يجب أن يسمع مـ ـوالاً إسكندرانياً . فقال النوتي الصعيدي " ياريت " سكت قليلاً وكاميليا مبتسمة لا تصدق ما يحدث وتشعر بانتشاء جميل من جنون حبيبها الفائق .

وأنشد رشدي :

عـ ـيني رأت غليـ ـون في وسـ ـط البحـ ـور شـ ـاحط
ريسـ ـه جـ ـدع يـ ـا خسـ ـارة دفتـ ـه راحـ ـت
قبطانه يا عـ ـيني أتعمـ ـى والميـ ـه عليـ ـه سـ ـاحت

حتى الشراع انقطع ، في ـه حـ تى طيبـ ـة راحـ ـت

مدت كاميليا يدها تلكزه في كتفه برفق مندهشة ، ثم صفقت في إعجاب فإذا بالنوتي ينشد :

غـ .ـزالين كـ .ـووبى بنـ .ـارهم والعقـ .ـول ألبـ .ـاب
راكـ . ـبين هجـ . ـين حلـ . ـو والهجـ . ـين البـ . ـاب
الأم شمـ .ـس الضـ .ـحى والبـ .ـدر هـ .ـو البـ .ـاب
والقلـ . .ـب دار المحبـ . .ـة والعيـ . .ـون ألبـ . .ـاب

انطلق رشدي ضاحكاً وبدأ يسرع بالفلوكة وقال للنوتي :

– لكن إحنا راكبين سفينة ؟

قال النوتي على الفور:

– والسفن ألباب !

ففهم رشدي وراح يشرح لكاميليا التي اندهشت جداً من المعاني العميقة للكلام ، وكان آخر ما هتف به النوتي إليهما : " أوعو تلوموا المجروح إذا لا لا " .

ثم فجأة أربدّ وجهها وأشارت إلى الماء وصرخت واقفة فـ ـاهتزت الفلوكة وكادت تقع فوقف رشدي بسرعة وأمسك بـ ـذراعيها وهـ ـي تصرخ في هيستيرية شديدة .

– لا تخافي ... لا تخافي . أغمضي عينيك . أغمضي عينيك .

أغمضت عينيها وخطا إليها خطوة وأخذها في حضنه والفلوكة لا تكف عن الاهتزاز ، ثم جلس بحيث يكون هو من الداخل وهي من ناحية الشاطئ ، وأجلسها جواره ، وأمسك بالمجدافين ، وراح يجدف بسرعة مذهلة .

– لا تنظري للترعة . انظرى إلى الشاطئ .

كان بالماء جوال منتفخ تخرج من فتحة صغيرة فيه يد بشرية زرقاء ضاربة إلى الحمرة ، بها خاتم يلمع تحت الشمس . يد صغيرة رقيقة لفتاة أو امرأة ..لم يستطع هو أيضا النظر إلى الجوال العائم وراح ينظر إلى الأمام مجدفاً بجنون ليبتعد أكثر ما يمكن . حين وصل إلى موقف الفلائك بالترهة كان يتخيل أنها في وعيها ومرتكنة إلى جانبه تنظر ناحية الشاطئ ، وهو فى جنونه في التجديف لم ينظر إليها . عند الموقف ما كاد يقف حتى سقطت على جانبها مكان جلوسه . كانت فاقدة الوعى طوال الطريق وهو لا يدري . لقد احتاجت دقائق كي تفيق إذ وجد عشرات الفتيات يقدمن إليه زجاجات كولونيا وبارفانات رخصية ، لكنها احتاجت لساعة من الراحة قبل أن تستطيع الوقوف والعودة معه إلى البيت . لقد تجاوزت ذلك اليوم كل المواعيد الممكنة لفتاة مثلها ، وكانت في البيت نار تتقد في انتظارها .كانت المدرسة قد أرسلت خطاباً إلى والدها تخبره بغيابها المتكرر ، وكانت إيفون قد وقفت عاجزة عن الكذب أمام والديها وحكت القصة كلها وهي تبكي وتنتفض .

***

" بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح "

-19-

ابتدأ هجوم الربيع في أوروبا . بدأ الجليد يذوب من فـ ـوق الجبـ ـال وانداح الضباب من فوق الأرض ، فاشتعلت النار وحط الـ ـدمار بـ ـبرلين وهامبورج من الغارات البريطانية ، واشتعلت المدن الإنجليزية بدورها مـ ـن الغارات الألمانية التي أخذت تنفذ خطتها الجديدة (التجوال على الموانى) ، فتعرضت موانئ بريطانيا لغارات كثيفة استمر بعضها ثلاث ليال متوالية كما حدث فى بورتسماوث ومانشستر ، وقتل في كل غارة وجرح أكثر من ألفي مواطن ، وفي الوقت نفسه أخذت الغواصات الألمانية تطبق أسلوبها الجديـ ـد (جماعات الذئاب) فصارت كل جماعة من الغواصات تشـ ـترك في هجـ ـوم واحد في وقت واحد على فريسة واحدة فتقضى عليها فى الحال ، لقد كان " برايان " أشهر قائدي الغواصات الألمان وغيره من القادة يطبقـ ـون هـ ـذا الأسلوب المرعب الذي اخترعه الألمان في البداية خلال الحـ ـرب العالميـ ـة السابقة . لكن برايان ورجال الغواصة (يو47) غرقـ ـوا جميعـ ـاً بواسـ ـطة المدمرة البريطانية ، وكذلك تم تـ ـدمير الغواصـ ـة (يـ ـو99) والغواصـ ـة (يو100) الألمانيتين في قتال شديد ، وكان قائداها مـ ـع برايـ ـان السـ ـابق يشكلون أهم قادة البحرية الألمانية فتأثر بذلك هجوم الغواصـ ـات الألمـ ـاني

وإن ظلت الطائرات (فوكاد ولف 200) أو (الكوندور) كما هو اسمها الشائع تقوم بدورها الأكثر فتكاً من الغواصات إذ كانت تدخل إلى مسافات بعيدة بالمحيط بحثاً عن السفن البريطانية وتغرقها . وبدأت أمريكا تصدر معدات حربية بالفعل إلى إنجلترا وفق قانون الإعارة والتأجير ، فقدمت إليها خمساً وسبعين مدمرة وأسطولاً من الزوارق في وقت واحد ، وخطب روزفلت في الشعب الأمريكي معلناً أنه ليس من حق عنصر أن يسود على عنصر آخر ، ولا أن تستبعد أمة أمة أخرى ، وحدثت غارات ثقيلة على القاهرة والجيزة فلم يعد السكندريون ينفردون بالغارات الثقيلة وحدهم ، وحملت القطارات أعداداً كبيرة من الجنود الهنود القادمين من بلادهم بالسفن حتى ميناء السويس . كانوا في معظهم شباباً تحت العشرين فرحين بملابس الحرب وعدة المقاتلين غير مدركين معنى الموت بعيداً عن بلادهم ، وعرضت سينما مترو بالقاهرة فيلم " ثورة على السفينة بونتى " لكلارك جيبيل وتشارلز لوتون ، كما عرضت سينما ستوديو مصر بالقاهرة فيلم " انتصار الشباب " لفريد الأطرش وأخته الحسناء أسمهان ، واستمرت شكوى الناس بالإسكندرية من الدقيق المخلوط واكتشف الشباب في كرموز وغيره من الأحياء الوطنية أن هناك عربات عسكرية صغيرة تجوب الشوارع بالليل أثناء الغارات وتطلق قذائفها على الطائرات المغيرة من مدافع مضادة مثبتة فوقها ، إن هذه العربات التي تجوب الأحياء الوطنية أثناء الغارات هي سبب تركز الغارات على هذه الأحياء ، وأن هدف العربات هكذا هو تشتيت انتباه الطائرات بعيداً عن المعسكرات الإنجليزية بالضواحي ، كذلك بعيداً عن الميناء حيث تقف الزوارق والمدمرات

البريطانية وما كان موجوداً من الأسطول الفرنسي قبل استسلام حكومة فيشي واستولى عليه البريطانيون بعد ذلك بلا قتال ، تكونت جماعات وطنية من الشباب لمطاردة هذه العربات بقنابل المولوتوف في البداية ، ثم بالقنابل اليدوية مما أثر في ظهورها أثناء الغارات ثم اختفائها تماماً ، وبعدها قلت الغارات على قلب الإسكندرية ، وصارت هناك في ضاحية الدخيلة والمكس غرباً ، أو في سيدى بشر وباكوس شرقاً ، وساهم في ندرة الغارات الآن انكسار جرازياني الذي انهار جيشه تماماً والذي كان انهياره أكبرمن إمكانية إخفائه مما جعل الدوتشي يخطب معترفاً بالهزيمة " نحن لا نكذب مثل البريطانيين ، فقد أُكتسح جيش برمته هو الجيش الخامس مع جميع وحداته تقريباً ومُحيت القوة الخامسة الجوية محواً تاماً تقريباً ، ولكنا قاومنا ما استطعنا مقاومة شديدة ، وفي بعض الأحيان مقاومة عنيفة " .وسقطت مقديشيو عاصمة الصومال الإيطالي في يد البريطانيين ، ثم سقطت بربرة عاصمة الصومال البريطاني ، وأقيل جرازياني من جميع مناصبه ، كما أقيل الجنرال كالفيرو من القيادة العامة بألبانيا بعد انتصارات اليونانيين الكاسحة ، وتم تعيين الجنرال جاريبالدي بليبيا ، وهددت بريطانيا بلغاريا إذا ما تخلت عن حيادها ، والألمان يضغطون بالحشود على حدودها ، ونزل بعض المظليين البريطانيين جنوب إيطاليا ، كما تم ضرب جنوا من البحر لكن تم القبض على المظليين الإنجليز ، وزار الملك إدريس السنوسي في جبته الأزهرية وبلحيته التي تستدير حول وجهه معسكر الأورط الليبي المؤلف من اللاجئين الليبيين في مصر ، وأذيع في ليبيا منشور الحاكم العام الإنجليزي الجديد (أنا هنري ميتلاند ولسون القائد العام للقوات البريطانية في ليبيا

أعلن بموجب هذا إنذار جميع السكان في المنطقة التي كانت تحت الحكم الإيطالي سابقاً أن يكفوا عن كل عمل يسبب تعكير الأمن العام) ، ودخل هيلاسيلاسي أثيوبيا وخطب في شعبه مهنئاً إياه على الانتصار ، واستضافت الباخرة النيلية (بيوريتان) الطيارين من سلاح الجو الملكي الإنجليزي العائدين من ميادين القتال لمدة ليلة واحدة بمرساها بالجزيرة في القاهرة ، ورقصت في السهرة راقصة مصر والشرق حكمت فهمي ، وغنى عباس البليدى ، ومحمد أمين وعقيلة راتب ، وأقيمت حفلة خيرية بسينما استوديو مصر لتدعيم الهلال الأحمر والصليب الأحمر المصريين حضرتها سمو الملكة نازلي وسمو الأميرة فايزة في المقصورة الملكية ، وكشف النقاب عن اسم قائد الفرقة المدرعة التى قامت بالهجوم الخاطف على سيدى براني في ديسمبر الماضي فأوقع الاصطراب فى صفوف الإيطاليين وهزمهم ، إنه الميجور جنرال ميشيل أومور كريج ، انضمت يوغسلافيا إلى المحور لكن اندلعت فيها المظاهرات وحدث بها انقلاب أودي بالنظام الملكي ، وأعلن حياد يوغسلافيا من إحصاء عدد الطائرات الإيطالية التي فُقدت تبين أنه في شهر واحد هو فبراير الماضي فقدت إيطاليا ثلاثمائة وأربعا وستين طائرة واحتفل يوسف وهبي بافتتاح مسرح رمسيس بمسرحية (المجنون) بمناسبة مرور تسعة عشر عاماً على قيام مسرح رمسيس ، وشاركته التمثيل السيدة البارعة روز اليوسف وحضر إيدن وزير خارجية بريطانيا إلى مصر وقابل الزعماء المصريين وكذلك قابل الجيش الثامن ، وأعلن الأسطى غبريال في العمل عن حاجة المصلحة إلى عاملين يعملان على مزلقان العلمين . لقد استدعي إلى الإدارة صباح اليوم وتم تكليفه بإنجاز المهمة ، وسيكون ذلك

خلال شهر من الآن " فعلى من يرغب في الذهاب أن يتقدم إليّ لأنقل اسمه إلى الإدارة " ثم قال " أنا أعرف أنكم جميعاً متزوجون ولـ ـديكم أولاد ولا تحبون التغرب لأوقات طويلة لكن أمامكم وقتاً لتفكروا وأرجـ ـو أن أجـ ـد بينكم من يوافق طواعية لأني إذا لم يتحقق ذلك سأختار بنفسي واختيـ ـاري نهائي كما أبلغت " وأحس مجد الدين ودميان أنه قد ينتهي الأمر إليهما ، إذا لم يتقدم أحد فلابد أن غبريال سيختارهما لتخفيف الضرر قدر الإمكـ ـان ، فهما علىالأقل جديدان هنا . وبدأ غفارة يهجر غيط العنب وكرموز بعـ ـد أن خلت معظم البيوت من سكانها ، وراح يعمل بعربته في أحيـ ـاء غربـ ـال وبوالينو ومحرم بك كل يوم منذ الصباح الباكر ، ولكنه يعود منتصف الليل يائساً متعباً فمحصوله ضئيل يكفي بالكاد نفقات عليقـ ـة الحمـ ـار ، كمـ ـا سقطت قطعة زجاج من القطعتين اللتين تغطيان عينه ولم يضع بدلاً منها ، أما زهرة فقد ارتفع بطنها كثيراً ، فهذا هو شهرها السابع يكاد ينتهى ولم يعـ ـد الجلوس مع أم حميدو مشجعاً كيف حقاً تجلس امراة حامل فى مدخل بيـ ـت أمام الرصيف ، لذلك حرمت من حكاياتها في وقت هي أحوج مـ ـا تكـ ـون إليها ، فمن ناحية صار باب حجرة الست مريم لا يفتح إلا لدخول أحد أو خروجه ، وبدا أن الأسرة كلها لا ترغب في الحديث مع أحـ ـد ، وصـ ـار حضور القسيس كثيراً ، كل يوم تقريباً الآن ، وزهرة تسمع دائماً همهمـ ـة وشجارا مكتوماً وأنيناً خافتاً وأحياناً بكاء صامتاً ولا تعرف ماذا تفعل مـ ـع الأسرة الطيبة التي بدا فجأة أنها لا تريد الحديث مع أحد . وأم حميدو أيضاً كانت حاجتها إلى زهرة أكثر هذه الأيام ، فحميدو ، ابنـ ـها الوحيـ ـد ، تم اعتقاله ونقل إلى جبل الطور مع المجرمين الذين يهددون الأم وسلامة البلاد

زمن الحرب ، والسكان القليلون الباقون في الشارع شملهم الحزن ، يأتي الواحد أو الواحدة لشراء ما يريده من خضر أو فاكهة صامتاً ويمضي صامتاً لا يرفع عينيه عن الأرض كأنه يحمل جبلاً من العار ، والحقيقة أن الإحساس بالفراغ المحيط من ناحية ، وتوقع الموت تحت الغارات في أى لحظة يجعلان الإنسان رقيقاً كشعاع من أثير ، ولم يبق لأم حميدو غير مورِّد الخضر الذي يمر عليها عند الفجر كل يوم قادماً من الوكالة بعربته التي يجرها حصان قوى ، أما جندي الجيش المرابط الذي كان يغنى لها ويعرض عليها الزواج فقد نقل إلى دمنهور . وقالت زهرة لمجد الدين :

– عاد القسيس يظهر من جديد كل يوم الآن . لا أرى أياً من البنتين . لا أعرف متى يخرجان في الصباح . إنهما تتسللان بلا صوت فيما يبدو حتى لا أراهما والست مريم لا تفتح بابها طوال النهار .

وفوجئت بمجد الدين يقول لها :

– أنا أيضاً قابلت ديمتري أكثر من مرة على السلم فلم يقف للحديث معى . اكتفى بالتحية ولم يبد إنه يريد الكلام . اليوم سألني بأدب ما إذا كنت أستطيع الانتقال إلى غرفة البهي أسفل ، لكنى أحسست أنه يطلب منبي مغادرة البيت .

– البيوت كثيرة وفاضية وألف من يتمنى أن يؤجر غرفة .

– لا . لن نترك البيت . سنترل أسفل . ديمتري في نكبة حقيقية ، وهو اليوم لا يريدنا أن نعرف شيئاً عنه ، لكن غدا قد يحتاجنا .

واستعان بدميان يساعده على نقل الأثاث القليل إلى غرفة البهي . ما أن دخلتها زهرة وفتحت نافذتها المطلة على الشارع ورأت أم حميدو أمامها في حلق باب البيت المواجه حتى استأنست . لن تجد هنا الصـ ـمت الـ ـذي يعشش فى الدور الثاني ، ستسمع حركـ ـة المـ ـارة في الشـ ـارع وأصـ ـوات الأطفال . وأخذ دميان مجد الدين بعد نقل المتاع ومشيا إلى المقهى البعيـ ـد على المحمودية عند بائعي الترمس ، لقد انقطعا عنها كثيراً الآن . هناك بادره مجد الدين بالسؤال :

– لماذا جئت بي إلى هنا يا دميان . لقد كنا نسينا المكان ؟

– أولاً : أنا تقدمت كثيراً فى الكتابة والقراءة ، . بعد أيـ ـام سـ ـأقرأ الجرنال .

– الحمد لله .

– ثانياً : أحببت أخبرك أن الخواجة ديمتري في أزمة كبيرة .

– أدر ذلك لكنى لا أعرف ما هي الأزمة ولا هو يتحدث إليّ .

سكت دميات قليلاً ثم قال :

– أظن أنها أزمة لا يمكن إفشاؤها . إنها تشغل قساوسة الكنيسة أيضاً لقد سمعت لغطا في الكنيسة حول الموضوع لكن لم يتأكد لي مـ ـا إذا كـ ـان الحديث عن ديمتري أم غيره .

وسكتا طويلاً . مجد الدين لا يحب التطفل أو السعي لمعرفة أخبار الناس . حتى ما يأتي إليه من أسرار الناس لا يحمله ، وبالطبع لا يفشيه ، إنه يكره النميمة بكل أنواعها . وقال دميان :

– هناك كلام يقال عن حب بنت مسيحية لولد مسلم .

اتسعت عينا مجد الدين دهشة.. هذه أول مرة في حياته يسمع شيئاً من ذلك ، واستمر دميان يتحدث .

– هذه مسألة تحدث نادراً يا شيخ مجد ، ودائماً تفشل ، لكنها تكون قد تسببت في أزمات بالكنيسة والبيت ، عندكم في الإسلام لا توجد أي مشكلة في ذلك ، عندنا لا .

......

– أنا طبعاً لا أعرف هل الموضوع يخص أسرة ديمتري أو غيرها ، ولكن على أي حال ديمتري في أزمة ستتضح مع الأيام .

عاد مجد الدين إلى البيت واجماً . سألته زهرة عن سر وجومه فلم يجد إلا حمزة ينقذه . قال إنه لم يعد حتى الآن . وكان ذلك حقيقياً ، قالت له إنه سبق وقال لها ذلك . قال هناك كلام عن كونه صار أسيراً لدى الألمان . ولم تفكر هي كيف عرف ذلك وهو لم يدر أيضاً كيف ولماذا قال ذلك ، لقد شغله اختفاء حمزة الأيام الماضية كما شغل زملاءه في العمل . لقد أبلغ الأسطى غبريال الإدارة التي أبلغت بدورها حكمدارية الإسكندرية التي قالت إنها اتصلت بالقيادة العسكرية للجيش الثامن بمرسى مطروح وإنها تنتظر ما يفيد في الموضوع . ولم ينقطع بكاء زوجة حمزة وبناته الثلاث

الصغيرات في بيته في مسكن المصلحة وجاء أهله من رشيد فظهر أنهم ناس موسرون محترمون للغاية ، وله ابن عم من الوجهاء يشغل مركزاً في حزب الوفد ويتولى هو كل الاتصالات من أجل الوصول إلى خبر عن حمزة المسكين .

في العادة يحط الصمت الحزين على زملاء حمزة في البوستة بعد أن يتحدثوا عما جرى باستنكار ودهشة ، ولكن الأمر أيضاً لم يعد يخلُ من دعابة فيقول أحدهم أن حمزة سيعاني من الصمت أكثر من أي شيء آخر لأنه لن يفهم الإنجليزية أو الهندية ، لن تسعفه الكلمات القليلة التي يعرفها ، ومن ثم لن يجد الفرصة ليقول عما يقوله الجنود من أنه رآه أو حدث له قبلهم ، ولن يفيده شعر بيرم أو غير بيرم ، لكنهم في النهاية يضربون كفا بكف . ومن كان يصدق أن ذلك مكتوب ومقدر لحمزة ؟ وصاروا حريصين فى إقبالهم على قطارات الجنود . لم يعودوا يقتربون منها كثيراً . وفي كثير من الأحيان لم يعودوا يتحدثون إلى الجنود أو يهتمون بالفوز بما كانوا يفوزون به من معلبات وغيره . لقد ظهر لهم أن كل ذلك لا قيمة له أمام اختفاء زميلهم الذي اختطف من بينهم في الظلام . وبالأمس انتحب دميان بشدة ، إنه هو مجد الدين أكثر الناس تأثراً منذ تأكد غياب حمزة صباح اليوم التالي لاختطافه . دميان يشعر بالأسف لأنه كان يعارضه دائماً ويسعد بكشف أكاذيبه اللذيذة ، ومجد الدين لأنه أهانه مرة ولأنه أيضاً فكر فى إمكانية اختطافه هو ، حمله من يده إلى القطار ، والذهاب به إلى الجبهة كما حدث للبهي أخيه في الحرب السابقة ، فهل كان يعرف بمصير حمزة ولا يدري ، أم لعله السبب بتفكيره المجنون ذلك ؟! لقد كان حمزة مسالماً مع

دميان دائماً ورقيقاً مع مجد الدين ، وعطوفاً على الأطفال ومحباً للجميع .
إنه شخص جدير بالشفقة والحب معاً . وهذا ما يبدو على وجوه الجميع الآن وخاصة شاهين ، أطولهم و أقواهم ، مفتول العضلات الذي يحمل الفلنكة الواحدة بيد واحدة ، وعادة في العمل يحمل الفلنكات اثنتين اثنتين بين ذراعيه . لقد كان أكثرهم وجوماً وغما ، لكنه في الحقيقة كان يعاني من هم آخر ، لذلك حين اقترب منه مجد الدين يقول " إن حمزة ذكي ولابد سيعرف كيف يعود " فوجئ به وقد دمعت عيناه يقول بصوت خفيض :

- أنت رجل طيب يا شيخ مجد تحمل كتاب الله ، ليتك تأتي معى تعالج ابنى بالقرآن أو تدله على الهداية .

***

فى ظهيرة اليوم نفسه ، كانت إيفون قد عادت ترتعش من المدرسة . ما إن صعدت إلى الشقة حتى نزلت تجرى على السلم وأمها خلفها . كانت زهرة عائدة من الخارج . اصطدمت بها إيفون آخر السلم ، فتركت نفسها تسقط فى حضنها وتصرخ :

-كاميليا راحت يا تانت زهرة ، كاميليا مش راجعة تاني .

كان قلب البنت الرقيق يرتجف وعيناها تهميان دمعاً ، وجسدها كله ينتفض ، وظهرت الأم خلفها قوية تفتح عينيها في غيظ وأمسكت بابنتها من ذراعها تشدها .

كانت زهرة قد تركت ما اشترته ليسقط من يدها إلى الأرض ، وأحاطت إيفون بذراعيها تربت على ظهرها .

- اتركي البنت يا ست مريم إحنا بيننا عيش وملح .

- زهرة . لا تتدخلي بيننا .

هكذا قالت الست مريم بخشونة حتى إن ذراعي زهرة استرختا وسحبت الأم ابنتها إلى أعلى ودخلت زهرة ذاهلة عما اشترته وسقط منها ، وفي حجرتها جلست تبكي بشدة .

***

مشى دميان إلى اليمين ، ومجد الدين إلى اليسار في صحبة شاهين في اتجاه مسكن المصلحة مع بقية العمال .

كانت هناك غيوم خفيفة في السماء تنذر بمطر قد يتأخر في النزول إلى منتصف الليل . ذلك المطر الذي يفاجئ الإسكندرية بعد أسابيع من انقضاء الشتاء ولا يشغل من الوقت إلا قليلا ، ويتكرر مرة أو مرتين .

شاهين يمشي بهمة فهو قوى واسع الخطوات ، مجد الدين يجاريه في المشي بصعوبة . العمال جميعاً ، باستثناء دميان طبعاً ، كانوا يمشون في اتجاه السكن وبدأو السير معاً ، وبعد قليل انفرط عقدهم . أسرع من أسرع وتأخر من تأخر . كلٌّ وطاقته . قال شاهين لمجد الدين .وهما يتجاوزان البوابة التى تفصل السكن عن السكة الحديد :

- سكن قديم منذ الحرب الأولى مخازن ومأوى للقوات الإنجليزية . حقك تتقدم بطلب لتحصيل على بيت فيه . في الأيام القادمة سيصل أكثر من عامل إلى نهاية الخدمة .

- يحصل إن شاء الله .

قال مجد الدين ذلك بأمل حقيقي . لو فاز ببيت هنا يكون قد أنجز أفضل خطوة له في الإسكندرية . سيخبر دميان ليتقدم بطلب معه . يتفاءل بأن يفعلا كل شيء معاً .

خرجا من الطريق الترابي الضيق فظهرت أمامهما ترعة المحمودية والطريق الموازي لها .

يعرف مجد الدين هذا المكان جيداً منذ أيام البحث عن عمل . كثيراً ما جاء ليعمل في شركة الزيوت والصابون على هذا الجانب بعد السكن بقليل . انحرفا إلى اليسار ، جوارهما على اليسار أيضاً نوافذ البيوت الخشبية الصفراء مغلقة . البيوت منخفضة من دور واحد كلها . بعد خطوات دخلا من بوابة السكن ذاتها ، قديماً كانت ضلفتين من جذوع الأشجار ، بباب يغلق على الجنود في المساء ، الآن ضاعت الضلفتان .

أمام البيوت عشش من الصفيح تضيق مسافة الأزقة ، وتجعلها بالكاد تكفي لشخصين ، ومن العشش ترتفع رائحة ماعز وغنم وأصوات للماعز والغنم والدجاج أيضاً ، دخل به شاهين إلى شارع عريض قصير يتوسط صفين من البيوت على الجانبين لا يظهر غير نوافذها المغلقة ، إذ إن أبوابها من الناحيتين الآخريين . في نهاية الشارع توقف ، بعد أن انحرفا يميناً خطوات أمام إحدى العشش .

- هذا هو البيت يا شيخ مجد .

وطرق شاهين باب العشة الصفيح ، جاء من الداخل ضوء محم ول وصوت يسأل عن الطارق ، فتحت المرأة حاملة اللمبة السه هاري الب اب وانحرفت بحيث صارت خلف الضلفة ودخل شاهين وفي أثره مجد الد دين . تحرك الدجاج الكائن في ركن العشة ، وتحركت عترة صغيرة في ركن آخر . رفست بأقدامها وهي نائمة على جانبها ودخل شاهين إلى صالة واسعة خالية إلا من حصير وبعض حشايا متفرقة بينها عدة كتب مبعثرة ومنضـ ـدة م ن خشب قديم فوقها كتب بلا نظام وخلفها مقعد قش . ثم دلف ش اهين إلى حجرة داخلية كبيرة بها سرير متوسط الارتفاع وكنبة يتمدد فوقها " رشدي " الذي ما إن رأي والده وضيفه حتى اعتدل جالساً يرتدي جلباباً نظيف اً وكانت الجدران مطلية باللون الأزرق السماوي ونظيفة ، وكان السه قف أبيض وتضيء الغرفة لمبة جاز كبيرة (نمرة 10) موضوعة فوق رف عل ى الحائط . وقال شاهين :

– ابني رشدى يا شيخ مجد – ثم خاطب رشدى :عمك الشيخ مج د الدين .

لم تدخل المرأءة زوج شاهين و أم رشدي . ظلت بالصالة الخارجيـ ـة تفكر في هذا الشيخ الذي يشع من وجهه النور والسكينة الذي كثيراً م ا تحدث شاهين عن تقواه ، هل يفلح في علاج ابنها مما دهمه فجأة هكذا.

كان مجد الدين قد جلس جوار رشدي ، وكان شاهين قد جلس أيضاً من الجانب الآخر على الكنبة ، ورأي مجد الدين كثيراً من الكتب الصغيرة

في أركان الحجرة ، ومكتبة خشبية قديمة هزيلة معلقة بالحائط ف أدرك أنه
أمام شاب مختلف عما توقع ، لكنه ابتدا الكلام . قال :

– مالك يا استاذ رشدي . ما هي وجيعتك بالضبط ؟

– هل جئت تعالجني يا سيدنا الشيخ ؟

كان رشدي شاحباً شحوب الموت ، سكن الحزن العميق عينيه وترك ذقنه لكنها لم تطل كثيراً ، فهي لا تزيد على بؤر متفوقة من الشعر لا تلتحم ولا تصل إلى سوالفه ، ووجهه خلفها يكاد يشف فيه الجلد عن العظم :

– الشافي هو الله يا استاذ رشدي .

هز رشدي رأسه بهدوء وقال :

– مهمتك مستحيلة يا سيدنا .

وانفجر في بكاء سرعان ما صار نحيبا فسمع صوت أمه تنتحب في الخارج واحتضنه أبوه وراح يقول :

– لا تقتلني يا ابني ، لا تقتل أمك ، قل لنا ما هي وجيعتك .

استدار رشدى ونظر إلى الشيخ مجد الدين نظرة طويلة ، وقال :

– القرآن لن يشفيني يا سيدنا . لا تؤاخذني . أنا لا أقصد الإهانة . أنا مؤمن شديد الإيمان ومشكلتي هي أن إيماني يتسع لكل الناس ، ولكل الأديان ، لذلك أحببت فتاة مسيحية ؟ هذه محنتي يا مولانا الشيخ .

غمغم رشدي بحشرجة في محاولة لمنع البكاء . وتأكد لمجد الدين أنه أمام شاب شديد الذكاء . ضرب الأب كفا بكف ، أم الأم في الخارج فقد سمع صوتها وهي تقول : " الشر برّة وبعيد .. ليه يا ابني تضيع نفسك . تحب كافرة " ولم يستطع مجد الدين أن يقول لرشدي إنه لا يزال صغيراً على الحب ، فهو حقاً يبدو هشاً نحيلا لكنه أيضاً يبدو واسع المعارف صعب أن يقتنع إلا بما يفهم لذلك ظل مجد الدين صامتاً واستمر رشدي يتكلم .

– أنا أعرف مقدار خوف أبي وأمي عليَّ . أنا لست مجنوناً ولن أترك الجنون ينال مني . أنا فقط لم أعد أراها منذ عشرة أيام . يخيل إليَّ أن أهلها عرفوا القصة وقتلوها . لم تعد تذهب إلى المدرسة ، حتى أختها لا أعرف ما إذا كانت انقطعت هي الأخرى عن الدراسة أم لا ، لكني أيضاً لا أراها . لقد ذهبت إلى بيتهم ووقفت بالنهار وبالليل فلم أعرف شيئاً ولم يفدني أحد بشيء .

كانت شفتا الولد ترتعشان وهو يتحدث في الضوء الأصفر الشاحب وكانت عيناه تدمعان بلا توقف . هؤلاء الأشقياء بالحب يموتون سريعاً . قال مجد الدين لنفسه وتذكر البهي وأيقن من العاقبة . ومن وجه الغلام الشاحب تشع هالة القداسة التي كانت للبهي . الفارق بينهما هو الفارق بين القرية والمدينة . ابن المدينة يقدم على الحب بذاته . لا يترك نفسه للريح .

– ما رأيك يا شيخ مجد ؟

تساءل الأب اليائس بعد أن وجد الشيخ مجد الدين يصمت طويلاً .

تأمل الشيخ مجد الدين الغلام ومد يده إلى كتفه يجذبه إلى صدره فترك الغلام نفسه يرتاح عليه ، بينما راح مجد الدين يتلو ما استطاع من القرآن ، سورة الإخلاص ، وألم نشرح لك صدرك ، والمعوذتين ، وآية الكرسي ، وسورة يس ، وأجزاء من سورة التوبة ، والأم تبكي في الخارج وتنتحب والأب يطلب الشفاء لابنه صامتاً ضارعاً بيديه ومجد الدين الوحيد الذي يدرك أن الفتى منذور للعذاب سريع الذهاب ليس ندا لهذا الزمان . ورفع وجه الولد من على صدره وراح يجفف له دموعه بمنديله يقول :

– لوطلبت من الله شيئاً يا أستاذ رشدي لا يكون إلا غلاماً في عقلك ورجاحتك – ثم خاطب الأب – يا شاهين أسمع . الإسلام رخص للمسلمين الزواج من الذميات من المسيحين واليهود ، والنبي أوصى على قبط مصر ، وهو زوج ماريا المصرية وأن إبراهيم – ثم عاد بالكلام إلى رشدي – لكن المشكلة يا أستاذ رشدي إنك في بداية حياتك وتحتاج إلى وقت . وأنت أيضاً اخترت أضيق السبل . لا أبوك ولا أمك سيمانعان زواجك من المسيحية . وسمعت همهمة لأمه في الخارج – لكن هل تعرف طبيعية أهل الفتاة . هناك

مسيحيون طيبون وهناك مسيحيون غير طيبين ، تماماً مثل الناس في كل الدنيا ، وإذا كانت البنت اختفت كما تقول فواجبك أن تختفي أنت أيضاً حتى تعطيها الفرصة لحياة طبيعية . يا أستاذ رشدي لقد عرفت من والدك أنك فى البكالوريا هذا العام , أنك شاعر تقتطع من قوتك لشراء الكتب وتعلم اللغات ، وإنك تعد نفسك للسفر إلى أوروبا ، التي إن شاء الله سينتهي فيها الحرب هذا العام ، لتكون مثل طه حسين عبقرياً. الحب

والزواج الآن يعطل هذا كله . ثم يا أستاذ رشدي لا تخف علـ ـى الفتـ ـاة ، عندنا فى المثل " اكسر للبنت ضلع يطلع لها اثنين " . والنساء عادة ينسـ ـين أسرع من الرجال فيندفعن فى الحب ويندفعن في النسيان .

– سكت الجميع طويلاً تلك الليلة حتى قال رشدي فجأة :

– سأذهب إلى أهلها أعلن لهم ابتعادي عنها .

دخلت الأم فزعة إلى الحجرة تقول :

– لا .. لا تذهب .. لا يذهب أحد .. كل شئ سينتهي مـ ـن تلقـ ـاء نفسه.

لكن مجد الدين الذي لمح عذاب الغلام على وجهه قال له :

– اجعلني بديلاً عنك . أعطني عنوانها واسمها وأطمئن لك عليها وأنهي المشكلة .

قال رشدي بعد تردد :

– اسمها كاميليا ، تسكن بشارع البان ، بيت نمرة ثمانية وثمانين . لقد قال لي مرة إن في بيتهم رجلاً يعمل بالسكة الحديد ولم تقل لى اسمه .

لم يعلق مجد الدين . نهض واقفاً بعد أن شحب لون وجهه . ارتعشت يده وهو يصافح الغلام يربت على ظهره ، خرج معه شاهين حتى المحمودية ، لكن مجد الدين لم يشعر بوجوده .

***

أسرع مجد الدين بعد ذلك كأن شيئاً يطارده . هل هو عينا الغلام الذابلتان ؟ أم وجهه الشاحب المعذب ؟

صار " يخب " وسط شارع قنال المحمودية المظلم ولا هادي له في الطريق فلا مصابيح ، فقط ضوء واهن يتسرب من فجوات بين السحب لقمر صغير ، وضوء عليل ينعكس على أسطح برك المياه الضحلة فوق الأسفلت غير المستوى فيقفز مجد الدين فوقها أو يدور حولها، ووسط المحمودية أضواء خافتة لمشاعل قليلة بالصنادل والسفن المتباعدة وسط الظلام . الأشرعة البيضاء للسفن ملفوفة حول صواريها ، والسفن تبدو كتلا عملاقة من الظلمة ، والمصانع على الضفة الأخرى معتمة تتسرب من نوافذها الزجاجية العالية أشعة بنفسجية مقتولة ، لكن المداخن العالية تنفث دخاناً أبيض واضحاً في الظلام ، ورغم أنه متقطع وغير كثيف والترام التي تتحرك على الشاطئ الآخر أيضاً مضيئة بأضواء صفراء شاحبة لكنها تكشف له رجلاً يزحف صاعداً سفح الشاطئ خارجاً من الماء . لابد أنه كان يتبول أو يتغوط أو لعله من سكان هذا الخراب ... إنه لا يميزه لكنه يراه كتلة من السواد تتدحرج إلى أعلى ، وعلى يمين مجد الدين كانت بناية مخازن بنك مصر الكبيرة الممتدة لمسافة طويلة رأى أمام إحدى بواباتها المفتوحة ،والتي ميز أنها مفتوحة لاشتداد الظلمة خلفها عما حولها ، رأى سيجارتين تشتعلان للحظات فتظهران وجهين غير واضحي الملامح ، إنهما وجها دركيين من الجيش المرابط بالتأكيد .

– السلام عليكم .

ولم يرد أحد . عادت السيجارتان للاشتعال للحظات . نقطتان ناريتان صغيرتان أمام دائرتين من الجلد الشفاف ! .. أسرع فى الخطو حتى جاوز بناية المخازن فدخل فى خلاء وعماء مطلق . ولا بيوت ولا أضواء ، ولابد أن سحباً كثيفة حجبت كل ضوء القمر ، وبالمحمودية لا توجد الآن سفن وعلى الشاطئ الآخر لا مصانع ولا يتحرك أى ترام . ثم ارتفع عن يمينه جدار مشوه شديد الظلمة له رائحة الشحوم والصابون . إنها آلاف البراميل التى استطاع تمييزها ، وهى قريبة منه جداً ، مصفوفة إلى ارتفاعات عالية ، هل ممكن أن تقع الآن وتجرى أمامه إلى مياه المحمودية ؟ وفي كل فضاء كبير أو صغر بين هذه التلال أكوام من المعادن الخردة ، لها رائحة لحام المعادن ، وتلمع في وسطها شرائط من النحاس الأصفر والألمونيوم والصلب والكروم والتوتياء . إنه لا يميز هذه المعادن ، لكن لابد أنها هي التي تلمع أو بعضها ثم رأى كشكاً خشبياً مدهوناً بالأصفر اللامع تمكن شعاع هارب من بين السحب أن يصل إليه . اقترب منه فسمع همهمة وغمغمة وشيئاً أشبه بالحشرجة ، ثم صوت نسوى عصبي يقول " بالراحة " وصوت رجل يقول " ماهو بالراحة أهو . أكثر من كده راحة " ثم ضحك متقطع فأسرع مبتعداً مستعيذاً من الشيطان ، ويبدو أن صوت قدميه كان مسموعاً فلاحقته ضحكة طويلة اختلط فيها صوت المرأة بالرجل ثم وجد أمامه فجأة شيئاً ضخماً عملاقاً حقيقياً ، يقف مشعلاً سيجارة في فمه قاطعاً عليه الطريق .

من أى جب خرج له هذا العملاق وماذا يريد ، تناول العملاق السيجارة من بين شفتيه ، وقال بصوت خشن " لا تخف ممكن تنضم إليه . السعر بسيط قرش صاغ واحد " واتت مجد الدين الشجاعة والقوة أن يمد

ذراعه فينحني العملاق جانباً ، بل تعثر العملاق وكاد يسقط ، وسمعه يقول له " على مهلك يخرب بيتك . عنتر بن شداد "، وابتسم مجد الدين الذي كان مرعوباً منذ لحظات لكنه أسرع يخب من جديد وإحساس مفاجئ بأنه يتعثر في خيوط كثيرة ملونة متشابكة من المطاط وبالونات عديدة تدخل بين ساقيه تربك خطواته ، وتذكر حكاية الرجل الذي نزل يتوضأ بالمحمودية ، فعلقت في سرواله الأرانب وكاد قلبه ينخلع من مكانه ولولا سور أبيض قصير مهمل يمتد لمسافة طويلة لا يخفي شيئاً وراءه أضاء له الطريق ببياض حجارته ، وذكره بأنه يمشي في شارع معروف له نهاية ، لولا هذا السور لاستبد به الخوف وربما جرى صارخاً ، وأسرع جوار السور وظهر كوبري كرموز قريباً ، يقترب أكثر كلما أسرع ، كان على طرفي الكوبري أربعة أعمدة معدنية ، عمود في كل ناحية ، أعلى كل منها لمبة وسط غطاء من الزجاج الأزرق القاتم لكنها تظهر له جيداً فجعل عينيه عليها لا تحيد حتى وصل إلى الكوبري فأخذ أول نفس حقيقي هادئ . لاحظ جوار الكوبري كثيراً من عربات اليد عليها بضائع مما تبقى من النهار مغطاة بالمشمع أو الكرتون ينام تحتها أطفال يتدثرون بقطع من البطاطين فأدرك أنه تأخر كثيراً لدى شاهين ، وأخذ طريقه عبر المنْزَل الموجود على اليمين الذي سيفضي به إلى شارع البان الذي سيأخذه بدوره إلى بيته . أين كان بالضبط ؟ يتمدد فيه إحساس بأنه قادم من الجحيم ، أو العدم ! هل كان الوالد صادقاً حقاً فيما قال أم راح يجاريه لينتهي من اللقاء . على أى حال ، لا ينسى مجد الدين الزوال الرابض في عيني الغلام ، إنه ابن لزمن غير زماننا ولن يطول في الدنيا مقامه . يا لأبيه المسكين . ومشى في شارع البان يفكر في هذا

الشخص السعيد الذي أطلق هذا الاسم على الشارع ، وأطلق أسماء الزهور على كثير من الشوارع الموازية والمتقاطعة مع شارع البان . شارع النرجس والفل والريحان والرند والكروم والقرنفل وكلها شوارع رثة سقيمة متخمة بناس متعبين مشردين لا يدرك أحد أنهم ينتمون إلى المدينة الك بيرة ال تي يتحرك فيها كل شيء إلا هذا المكان ، إنهم لا ينتمون إلى الإسكندرية أب داً هؤلاء الذين يعيشون في هذا المكان الإسكندرية البيضاء المرح ة المس تفزة لاهية عنهم لا تفطن إليهم . إنهم نفايات ألقتها المدن والقرى البعيدة .

متى كان هناك من يتوقف قليلاً من أجل النفايات ؟ ومن يصدق أن ه من بين هذه النفايات يخرج أحباء وشعراء ومجانين وأولياء لله صالحين ، فقط القتلة والمجرمون هم الجديرون بالبقاء في هذا الجنوب العفن .

– إذا تأخرت هكذا يا مجد الدين .

– غطيني يا زهرة . شدي الجزمة من قدمي وغطيني , لاتتركي جزءاً في جسمي إلا وتغطيه .

***

" الآن فإن الآلهة على دراية بما يحدث من
أمور ، والبشر على دراية بالأحداث التي
جرت ،أما الحكماء منهم فعلى دراية
بما هو وشيك الوقع "

-20-

– لقد اخترت مجد الدين ودميان للعلمين .

قال الأسطى غبريال فسكت الجميع ونظروا إلى الأرض . لم يتفق وا على ذلك حقاً ، لكن أحدا منهم لم يتقدم للانتقال إلى العلم ين ، فك ان العدل هو أن يختار الأسطى غبريال هذين العاملين الجديدين اللذين لم يمضياً عاما كاملاً بعد . كان مجد الدين ودميان يجلسان متجاورين ذلك الوق ت . في الحقيقة كانا يتوقعان اختيارهما . قال مجد الدين في نفسه ، الآن وج ب سفر زهرة إلى البلد ، لا مناص ، أما دميان فقد ابتسم ، لك ن الش حوب الذي اعترى وجهه ظل قائماً ، وقال متظ اهراً بالرض ا : – العلم ين : السلوم . كلها بلاد مصرية .

كانت هناك أنباء عن وصول قوات ألمانية كبيرة إلى ليبيا ، وأن جيش المحور يعيد ترتيب قواته ، بل وقد بدأ بالفعل يهاجم بنغازي ، وهكذا بدا أن حرب الصحراء لن تنتهي كما توقع الجميع بعد هزيمة جرازياني ..

بعد حديث الأسطى غبريال بدأ الجميع العمل بعد فت رة الراح ة . اقترب مجد الدين من شاهين وسأله عن ابنه فقال الرج ل وق د تحج رت الدموع في عينيه :

- اختفي ثلاثة أيام وعاد يوماً ثم اختفي أمس ، لا أعرف أين يذهب ولا ماذا يفعل في نفسه .

- هل أبلغته بما قلته لك؟

- أبلغته فلم يعد يتكلم مع أحد .

كان مجد الدين قد غامر وصعد إلى الخواجة ديمترى الذي فتح له الباب مضطرباً . طلب منه مجد الدين أن يخرجا إلى المقهي قليلاً ، رحب الرجل بسرعة لكنه لم يستطع أن يخفي القلق الذي ظهر على وجهه .. بالمقهى قال له مجد الدين :

- لا أحد يا خواجة ديمتري يختار دينه .. أليس كذلك ؟

- بلى يا شيخ مجد .

- لاتؤاخذني إذا قلت لك أني أعرف حكاية كاميليا مع الشاب المسلم رشدى... سكت الخواجة ديمتري طويلاً ثم قال :

- وعرفت اسم الشاب أيضاً يا شيخ مجد ؟!

- أبوه يزاملني في العمل .

وسكت لحظات ثم قال ديمتري باندفاع لكن بصوت هادئ :

- اسمع يا شيخ مجد . لقد عاش أخوك المرحوم بيننا سنوات فلم يشعر مرة أننا نختلف عنه في شيء . وعشت أنت الآن عامين تقريباً فهل شعرت أننا نتعصب ضد المسلمين في شيء ؟

- لا.

- بل وكثيراً ما ندفع ثمن أخطاء المسلمين من السـ كان . " لـ ـوللا " مثلاً كانت مسلمة وكذبت علينا وألحقت بنا العار .

- معك حق يا خواجة ديمتري.

- أنا عارف إنه لا أحد يختار دينه . وأنا لا اندهش أن تحـ ـب ابـ ـنتي شاباً مسلماً في سنها . هى طائشة وهو طائش مثلها ، وبقليل من الحكمـ ـة يعود كل شيء إلى مكانه .

- هذا هو ما أريد أن أتحدث معك فيه .

- لقد حاولنا أن نعيد البنت إلى صوابها وفشلنا ، أنا و زوجتي " أبونا " ولم نجد مانعاً من نقلها إلى البلد . أى قطع الطريق بينهما فترة من الوقت ، سوف تخسر البنت سنة دراسية ولكن هذا أفضل أن تخسر عمرها . إنهـ ـا ابنتي يا شيخ مجد .

- هل توافق أنت أن تتزوج ابنتك من مسيحي ؟

سكت الشيخ مجد الدين قليلاً مُبَاغتاً ثم قال بهدوء .

- إذا أسلم لا أمانع .

- وإذا استنصر الشاب لا أمانع أنا وغيرى . هل يمكن أن يستنصر ؟

- يُقتل يا خواجة . هذه ردة في الدين .

- هل أخطأنا لأنا لا نقتل من يترك ديننا ؟

وعادا الصمت ثم قال ديمتري :

-كيف أنجب ابنتى وأربيها ثم بعد ذلك يأخذها شاب يقطع كل طريق بيننا وبينها . زواج البنت يحرمها من عطف أهلها ويحرم أهلها من حنانها .

فما بالك بزواجها من شخص له دين آخر ، لماذا يكون على أن أحرم من ابنتي إلى الأبد يا شيخ مجد ؟

طامن مجد الدين رأسه يفكر فى صدق إحساس ديمتري الذي اس تمر في الحديث ..

- أظنك فهمتنى الآن .. أنا لا يهمنى أن يكون مسلماً أو مس يحياً . لكن ما هي الطريقة التى تجعل ابنتي بعد زواجها ابنتي أيضاً ؟ إما أن يستنصر وإما أن ندخل كلنا في الإسلام ، وهذا مستحيل وذاك . إذن هو الع ذاب لبعض الوقت يا شيخ مجد ، فقط لبعض الوقت وتحل المشكلة ، أم لاب د أن نتعذب جميعاً وإلى الأبد ؟

وظل مجد الدين صامتاً .

- أرجوك ساعدني . هل تسطيع ؟

- أستطيع .. سأساعدك يا أخي ديمتري .

- ولا يكون في نفسك منا شيء . لقد طلبت منكم الترول إلى أسفل لنتحدث في مصيبتنا بحرية ، حتى إذا ارتفع صوتنا بشيء في الدين لا تس ئ فهمنا . ليدخل " أبونا " ويخرج دون خجل لقد كان خجلان من دخول ه إلينا وخروجه وأمامنا جار مسلم لابد يعرف سبب مجيئه وقال لى ب الحرف

الواحد قد يظن الجار أني أكره المسلمين بينما أنا أحاول شفاء البنت من طيشها .

– أنا أيضا لم أترك البيت استعداداً ليوم تحتاجني فيه ، لقد أمضينا بينكم أياماً جميلة في زمن صعب يا أخي ديمتري .

وقفا وعادا إلى البيت معاً ، وصعد الخواجة ديمتري وهو يقول لمجد الدين بصوت عال :

– يمكن لزهرة أن تصعد أى وقت تجلس مع مريم وإيفون كما تعودت ..

كان ما فعله ديمتري هو نفسه الذي اقترحه مجد الدين على رشدي . أن يبتعدا لبعض الوقت .

ها هي قد ابتعدت قبله ، أو أبعدت ، فلا فرق ، المهم أن لا يلتقيا فيندمل الجرح الطائش .

في اليوم التالي لهذا اللقاء مع ديمتري نقل مجد الدين الخبر إلى شاهين الذي نقله بدوره إلى ابنه ، ووجد مجد الدين أن هذه النهاية مريحة وطبيعية ، وان المشكلة على هذا النحو ستنتهي تلقائياً دون أن يكلف رشدي نفسه عناء الذهاب إلى أهل كاميليا . لم يعد هناك جدوى لأن يعلن لهم ابتعاده عن البيت ، وزهرة صعدت مرة واحدة إلى أعلى فوجدت إيفون تبكي وأمها تعمل على الماكينة في صمت . حاولت الأم وابنتها الظهور بمظهر أفضل ، وسألت الأم زهرة عن أحوال حملها ، وأحوال الشيخ مجد في العمل ، وعن موعد ولادتها ، وفي كل الوقت كانت إيفون كلما توقفت عن البكاء عادت

إليه حتى اضطرت لدخول الغرفة الأخرى ، الغرفة التي كانت بها زهرة ومجد الدين من قبل ، وهناك أيضاً لم ينقطع نحيبها . قالت زهرة للست مريم .

– إلى هذا الحد تحب إيفون أختها ولا تصبر على فراقها ؟

قالت الأم :

– إنها تخشى أن لا تعود .. لا أعرف من أين تأتيها هذه الأفكار ؟

لكن زهرة رأت الأم أيضاً تغالب دموعها .

***

عاد الزحام إلى المحطة من جديد بعد الأخبار بترول الجيوش الألمانية إلى ليبيا .لقد بدا في وقت أنه لم يعد في الإسكندرية سكان . لذلك بدا الزحام مفاجئاً لمجد الدين وزهرة معاً . لقد جلس مجد الدين على الأرض جوارها بين رائحة العرق المكتومة التي تملأ فضاء المحطة الكبيرة ، حولهما وفي كل مكان المئات من الجالسين متشحي السواد من النساء وبالجلابيب والملابس الأفرنجية من الرجال والأطفال في كل مكان يجرون بين الجالسين والقفف والحقائب والصناديق أو يبكون أو ينامون على أفخاذ أمهاتهم .. حالة من الكدر تستولى على وجوه الجميع . لكن كانت هناك بين الحين والحين ضحكة طويلة لامرأة أو رجل ترتفع من مكان ما . وكذا هذا السكون كان يهتز حين يدخل المحطة قطار ، فالمحطة الكبيرة خالية والقطار الذي يدخل يهرع إليه الجميع ، ويقف الجميع أيضاً في حيرة يسألون عمال المحطة عن وجهة هذا القطار ، والجميع يدخلون إلى عرباته ، والجميع يعودون ويترلون فليس هو القطار المناسب لهم .

وهكذا يبدو دائماً ان " الجميع " هم الذين يفعلون كل هذه الأفعـال المتضادة في وقت واحد من شركة الحركة والزحام .

كانت زهرة قد صعدت تودع الست مريم التي بـدت متماسكة : قَبَّلت زهرة قبلتين على خديها وتمنت لها السلامة في السفر والسلامة في الوضع ، لكن إيفون لم تتمالك نفسها فبكت كثيراً على صدر زهرة وهي تقول " حتوحشيني موت " ولأول مرة تدرك زهرة أنه لا فرق بين إيفون وكاميليا ، فالبنتان مثل النسيم ومثل الملائكة الـتى لا يراهما أحـد . ولم تستطع زهرة أن تمنع دموعها من الإنحدار على وجنتيها ممتزجـة بالكحـل الأسود .

وقالت وهى لا تقصد : " السلام أمانة لكاميليا لو شفتوها قريـب . ولو حتى شفتوها بعيد . والنبي يا ست مريم ما تجرحوا البنـت . علشـان خاطر سيدنا عيسى وستنا مريم كمان" ، وبينما قالت الست مريم " حاضر يا زهرة ماتقلقيش " جرت إيفون إلى الحجرة باكية . ونزلت زهرة مخلوعـة القلب . لم تكن تدرى أنها أحبت جيرانها إلى هذا الحـد . إنهـا لا تشـعر بالفرحة لعودتها إلى البلد ، فهى تترك خلفها مجد الدين الطيب الأمير ابـن الأصول عارف كتاب الله .

وبعد أن جففت دموعها عبرت الشارع تودع أم حميدو التي ابت ألا أن تنهض من على الأرض . قالت ضاحكة " ما أهو أنا كل يوم أقوم مـرة واحدة بالليل ، مش قضية لما أقوم مرة كمان النهارده علشان يـا زهـرة " وأخذتها في حضنها وقبلها طويلاً على الطريقة البلدية الجميلة حيث وضعت

شفتيها مكورتين على خدها وراحت تصدر صوتاً طويلاً لقبلات متقطعة متتالية ، وكررت ذلك على كل خد ثم قالت لزهرة ، إذا عادت لا تعود إلى هذا البيت ، ففي أقل من عامين قتل البهي ، وضبطت لوللا واختفت كاميليا .. قالت إنه بيت مشئوم العتبة . أجل فالبيوت أعتاب يا زهرة .

وقالت لها إنه تعرف حكاية كاميليا مع الولد المسلم وكل الناس تعرفها. وإن الرجل ديمترى مسكين . لا عاجب المسيحيين علشان ما عرفش يربي بنته ، ولا عاجب المسلمين علشان كسر قلب الولد المسكين . وقالت إن المسكين حقيقة هو ديمترى ومريم مراته طول عمرهم ناس محترمين وفي حالهم لكن نعمل ايه في حكمة ربنا ، وتحركت زهرة وهي تمسح دمعها ولم تجلس أم حميدو إلا بعد أن ابتعدت زهرة كثيراً في الشارع مع مجد الدين .

استطاع مجد الدين أن يقفز إلى القطار ويجلس جوار النافذة وتناوله زهرة بعد ذلك السلالي الوحيد الذي معها والذي به ثيابها لا غير وعلبة حلويات من حلواني " جزر " . بعد أن دخلت العربة جلست مكان مجد الدين ونزل هو ووقف جوار النافذة لا يريد أن يتركها قبل أن يتحرك القطار ،كانت شوقية أمام قدميها واقفة وقالت له زهرة وعيناها احمرتا من البكاء :

– خد بالك من نفسك يا شيخ مجد .

ولم يرد ، ظل ناظرا إليها طويلاً ، كان يود حقاً لو يسافر معها . مكتوب له أن يبتعد أكثر . إلى العلمين سيذهب بعد أيام . لم يسمع قبل وصوله إلى الإسكندرية بهذا الاسم ، ولا حتى قبل أن يعمل بالسكة

الحديد . ها هو يسمع أسماً غريباً لبلدة صحراوية . لم يسبق له العيش في الصحراء ، لكنها بلاد الله في النهاية ، ولابد أن الله يوليها عنايته . اشترى أربع بيضات وقطعتي سميط ناولها لزهرة التي وضعتها مع السلالي على الرف .

- ربما يتأخر القطار وتجوعين في الطريق .

وتذكر كيف لم تسافر زهرة إلا بعد أن أعدت له " قراقيش " تكفيه على الأقل شهراً ، وملأت له " بطرمانات " صغيرة بالملوخية الجافة والشاي والسكر والسمن ومسحت له وابور البريموس ونظفته ووضعت كل شيء في قفتين ، القراقيش وسائر الاطعمة في قفة ، وغير ذلك في أخرى ، ولم تنس أن ترتب ثيابه وتضع بينها بكرة خيط وعدداً من الإبر ، حتى الكبريت وضعته له وأصابع الشمع لزوم الطوارئ . لم يعد على مجد الدين غير أن يحمل هذا إلى العربة التي ستنقله لمحطة قطار الصحراء " بالقباري " بعد ثلاثة أيام . تحرك القطار وهو يقول :

- لا تنسى أن تخبريني بسلامتك بعد الولادة .

- لكنها قالت متأثرة :

- لاتبك يا مجد الدين ، لا تبك يا شيخ مجد .

لم يكن يشعر بدموعه التي ظهرت تترجرج في عينيه . أمسك بيدها وهرول جوار القطار الذي لم يسرع بعد ، وقبلها قبل أن تخذله سرعته أمام سرعة القطار مما أثار دهشة الواقفين بالرصيف والجالسين جوار زهرة وأمامها . وقالت هي بصوت خفيض مع السلامة يا حبيبي . وتركت الطريق

مفتوحاً لدموعها ، أما هو فقد أحس بقلبه ينخلع من بين ضلوعه ويمضي بعيداً . إلى هذا الحد صارت الدنيا كبيرة ، بيضاء حقاً ، لكنها واسعة سماواتها بعيدة وأرضها تميد ، وهو ، هوطفل صغير يبكي ويرتفع صوت بكائه من شدة القهر واليتم .

لقد صارت المسافة من الرصيف إلى خارج المحطة أطول مسافة يمكن أن يمشيها لولا أن ظهر دميان واقفاً وسط الحشود الجالسة ينظر في كل اتجاه . رآه مجد الدين فأحس بشيء من الراحة وتقدم ناحيته . صديقه هذا هو الوحيد القادر على التسرية عنه . ترى ما الذي جاء به إلى المحطة الآن .

***

كان دميان قادماً مباشراة من الكنيسة بعد أن مر على مجد الدين وعرف من الست مريم أنه توجه إلى المحطة لوداع زوجته . لم يستطع الانتظار وأسرع يركب الترام ليصل ويلتقي بصديقه قبل عودته . الحقيقة أنه كان يمكنه الانتظار حتى عودة مجد الدين . لقد أدرك الآن فقط أنه لم يكن هناك ما يستوجب حضوره ولا هذه العجلة . إنه الحلم الذي رآه . الكابوس الذي رآه في المولد الذي حضره لأول مرة منذ سنوات بعيدة . لقد امتلأ حوش الكنيسة منذ أول أمس بالقائمين والممدين والجالسين على الأرض . عائلات متفاوتة أحضرت فرشها وأكلها وفرشت الأرض وجلست . حصر هنا . ملاءات هناك ، أحرمة من الصوف هنا . أكلمة من القطن هناك رجال بجلابيب قطنية ورجال بجلابيب من حرير ورجال بجلابيب من الصوف ورجال ببنطلونات قديمة أو جديدة ونظارات . نساء

عاريات الأكتاف يجلسن بقمصان البيت ونساء مغطيات بالطرح الحريرية وأطفال من كل سن وشكل وعراة وبجلابيب ، وحفاة وبصنادل خفيفة ، ولا أضواء غير الشموع بالشمعدانات التي علقت حول الأعمدة أو ثبتت في الحوائط تحت القبة المظلمة . والجميع تحت القبة وأمامها .في صحن الكنيسة ، في صلاة وخشوع . وأصوات القداس تتهادى إلى قلب دميان وفي قلب القبة أمامه صورة مار جرجس الشهيرة الكبيرة الكريمة وهو يطعن الحية ، وهذا هو مار جرجس الذي يرعاه في الدنيا الآن فياها من رعاية وياها من غبطة تجعله ينسى زحام الحوش وآلام الناس وهذا الزحام الشديد حول الكنيسة . مسلمون ومسيحيون جاءوا يشاهدون ويشاركون في الألعاب الشعبية ويتسامرون حول عربات اللب والفول السوداني والمكرونة أو يجلسون على الدكك الخشبية التي وضعها بعض القهوجية لتقديم الشاي الذي يعدونه جوار الجدران على بوابير البريموس ، وهم عادة لا يظهرون إلا بين العام والآخر أي كل مولد ، الوشامون بالإبر الدقيقة الملتهبة يدقون الوشم الأزرق والأخضر . علامات صليب للنساء والفتيان والرجال أيضاً وصور الشهيد للرجال ، على أكتافهم وأذرعهم وفي صدورهم ، وللمسلمين يدقون صورة أبو زيد الهلالي رافعاً سيفه مهاجماً الأسد أو راكباً الأسد نفسه في كثير من الأحيان ، فضلاً عن كتابة الأسماء على زنود الرجال وأماكن ولادتهم . وجل هؤلاء الفنانين والباعة هم الذين تراهم في مولد المرسى أبو العباس ، وسيدى بشر ، وسيدي جابر ، وأبو الدرداء، وسيدى العدوي ، وغيرهم من أصحاب المقامات بالإسكندرية ، وهم أيضاً الذين يسافرون إلى القرى القريبة لإحياء موالد المشاهير من الأولياء ، إنها

حرفة جميلة ومناسبة للشعب أن يفرح ويخرج عن القانون في الحب ، ومغازلة النساء والفتيات . وليس للاحتفاء بمار جرجس خارج الكنيسة طقوس تختلف عنها خارج المرسي أبو العباس !!

كانت رائحة البصل تملأ المكان خارج وداخل الكنيسة الصغيرة والشوارع ممتلئة بالجالسين حتى المحمودية من ناحية وحتى شارع البان من الناحية الأخرى وكذلك حتى سيدي كريم . في كل عام قبل الحرب كانت الأضواء تمتد حتى راغب ومحطة السكة الحديد ، محطة كوم الدكة التي أسماها السكندريون محطة مصر لأنهم لا يتصورون أنه توجد بلاد أخرى خارج الإسكندرية غير القاهرة التي هى مصر .

لقد نام دميان في حوش الكنيسة ولم يفعل ذلك من قبل أبدا وكان يسمع في شبابه حكايات المراهقين حول النساء ، وكان يعرف إنها حكايات مراهقين دائماً. الليلة فكر أن يستيقن لكنه بسرعة طلب الغفران من سيده وراعيه مار جرجس ذاته وخرج ليجلس على دكة في زحام الشارع . في منتصف الليل دخل الكنيسة فوجد أكثر الرجال والنساء يقظين . أخذ مكانه جوار أمه وزوجته .كانت أمه نائمة ،وتمدد هو ناظراً إلى السماء..غفلت عيناه قليلاً فوجد الدنيا تشتعل بالنار حول جورجيوس ، ماري جرجس ، صاحبه وحاميه ، وعبثا يحاول ماري جرجس الخروج بالحصان من وسط النار . استيقظ دميان فزعاً مرعوباً تاركاً المكان كله . وكان الوقت بعد الفجر . عبر الشوارع الملاصقة ، والناس جميعاً نيام على الأرصفة وخرج إلى المحمودية يستنشق هواء صافيا ، لم يعد إلا بعد أن بكى

كثيراً وحده على الشاطئ ، أخذ زوجته وأمه وبنتيه إلى البيت ثم قصد بيت مجد الدين . فلم يجده فأتى خلفه .

لقد ابتعدا الآن عن أبواب المحطة وعن زحام المهاجرين ورائحة العرق وروث الخيل والحمير أمام الأبواب وجلسا في أول مقعد قابلهما في الحديقة ، الشمس طالعة والجو منعش ، لا هو بالبارد ولا هو بالـ ـدافئ . واتضـ ـح لدميان أن الفضاء هنا بعيد والبياض فوق الميدان شاهق يبعث على الراحة وسأله مجد الدين :

– هل جئت لتراني يا دميان ؟

لكن دميان لم يرد على السؤال . قال :

– أنا خائف من العلمين يا شيخ مجد . خايف خالص ... ورفع ذيـ ـل جلبابه يمسح دمعاً تسرب من عينيه فجأة . ومجد الدين في دهشة من صديقه الذي لا يصدق أحد أن داخله روح الطفل الوحيد هذه ..

قص دميان رؤياه على مجد الدين الذي بدوره شمله الخوف ، ولكـ ـن على دميان ذاته ، قال :

– أين تذهب يا دميان ؟ ليس أمامنا غير المكتوب لا يعرفه أحد ؛ ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت .

وأحس دميان بالأسف لأنه لمح آثار البكاء في عيني صديقه . ما كان له حقاً أن يشغله به الآن .. الأولى أن يجد طريقة يسرى بها عنه .

قال إنه أصبح يتقن القراءة والكتابة وغداً سيشتري الجرنال لأول مرة ويقرؤه . ولم يعلق مجد الدين الذي بدا لم يفارقه الحزن بعد على فراق أسرته .

***

كانت الليلة الأخيرة لمجد الدين ودميان هي ليلة " قداس عيد القيامة " . خرج فيها دميان وأسرته إلى الدير ، وكذلك خرج الخواجة ديمتري والست مريم وإيفون ، وظل مجد الدين لا يبارح حجرته أسفل البيت .

هل حدث كل ذلك حقاً منذ خرج من القرية قبل أكثر من عام ونصف العام ؟ هل تغيرت الدنيا إلى هذا الحد . هل حقاً وقعت كل هذه النوائب والأحداث ؟ هل قابل كل هؤلاء الناس ؟ يخيل إليه أن الزمن بين يوم خروجه وليلته هذه ، لا يزيد على يوم واحد وليلة واحدة . نهار واحد أو ليل واحد . ساعة واحدة . طرفة عين لا أكثر . لكن ذلك اليوم صار بعيدا جداً في الذكرة الآن . إذن هو وقت أطول بكثير مما هو عليه وليس كما يظن أقصر من يوم .. الرجل القصير قال إن الغارات قد تصل إلى الإسكندرية إذا دخلت إيطاليا الحرب وقال إنهما ، هو وصديقه ، يسافران الإسكندرية يوم وقوع الحرب نفسه . ترى أين يجد الرجل القصير وزميله الآن ؟ لابد أنهما عادا . سمعهما يقولان إنهما لن يمضيا في الإسكندرية أكثر من عام . لكن الغارات بدأت قبل أن ينتهي العام . هل هما حيان أم قتلا في الغارات الثقيلة التي نزلت بالمدينة ، ها هو مجد الدين قد رأى الغارات كلها ، وها هو يذهب إلى العلمين ، إلى الصحراء حيث يدور القتال . العلمين

اسم غريب لكنه يعلق بالذاكرة . اسم يفرض نفسه علـى السـامع فـلا ينساه . هل يصل العلمين فتسـتمر الحـرب ولا تنتـهي . لقـد وصـل الإسكندرية فاتسعت رقعة الحرب وشملت الدنيا . يقولون إن الجيش الألماني الذي نزل بليبيا يختلف عن الإيطاليين .. والحقيقة أنه كان قد جرت وقـائع كثيرة في الدنيا حول مجد الدين في الأسابيع الأخيرة ، تحالفت بلغاريا مـع ألمانيا ودخلتها القوات الألمانية لتنطلق منها بعد ذلك إلى يوغسلافيا واليونان ، وخسرت إيطاليا سبع سفن حربية في معركة بحرية واحدة مـع البـوارج البريطانية شرق البحر المتوسط وتم إنقاذ تسعمائة بحار إيطـالي كأسـرى ، وتبرعت الآنسة دنيز موصيرى بسندات قيمتها ثلاثون ألف جنيه مصـري يتولى ديوان أوقاف الخاصة الملكية صرف ريعهما على أغراض التعليم ممـا حدا بالملك فاروق الذي شفي من وعكة طويلة ألمت به أن يصدر أمراً كريماً بقبول الهدية وتنفيذ شروط الآنسة دنيز والإنعام عليها بنيشـان الكمـال تشجيعاً لها ولأمثالها على هذه التبرعات للمشروعات العلمية والإنسـانية ، وقالت الآنسة دنيز إنها لا تنسى عطف المغفور له الملك فؤاد الأول علـى والدها إيلي مصيرى والذي كان له الفضل فيما وصـل إليـه في ميـدان الصناعة والزراعة بمصر ، في نفس الوقت أعلن قلم قضايا الحكومـة عـن ثلاث وظائف شاغرة لمندوبين فيه فتقدم للوظائف حوالي أربعمائة شخص ، وتبرع الملك فاروق بألف جنيه ليوم الفقير الذي تقرر أن يكون في ذكـرى وفاة والده نهاية شهر أبريل وعرض فيلم " علامة زوزو " في مصر لأول مرة ، وتم الاحتفال بالمولد النبوي فى جمعية الشبان المسلمين بتلاوة القـرآن ولم يسمح بالإضاءة في الشوارع هذا العام أيضاً ، وزحف الجيشان البريطـاني

والهندي إلى أسمرة ، وسجل الهنود انتصارات باهرة ، واستولت امريكا على ستين سفينة للمحور بموانيها وبمواني أمريكا الجنوبية تحت دعوى حمايتها من تخريب البحارة واعتقلت البحارة أنفسهم ووصل الجنرال ديجول إلى القاهرة لأول مرة قادماً من الخرطوم بعد زيارة القوات الفرنسية الحرة التي ساهمت في تحرير " كرن " بأريتريا مع القوات الهندية التي كان لها الفضل الأكبر لتحرير هذه المدينة بالذات بعد الاستيلاء على أسمرة العاصمة واستقبله في مطار القاهرة الجنرال ويفل القائد العام للقوات في الشرق الأدني وممثل عن السير مايلز لامبسون والبارون دي بنوا رئيس اللجنة الوطنية الفرنسية في القطر المصري ومعه أعضاء مكتب اللجنة ، وزار ديجول بعد ذلك قصر عابدين حيث سجل اسمه في التشريفات ، ثم عقد اجتماعات مع رئيس الوزراء والمندوب السامي البريطاني وقادة فرنسا الحرة العسكريين في مصر ، وسافر إلى الإسكندرية وخطب في نادى الفرنسيين الأحرار بشارع النبي دانيال وزار معسكر البولونية وأثنى على ما يبديه الأحرار في مصر من تعاون ، وعزفت الموسيقى النشيد الفرنسي والسلام الملكى البريطاني والسلام الملكي المصري . ثم غادر الإسكندرية إلى القاهرة ومنها إلى لندن وقل السكر في الإسكندرية وضج الناس بالشكوى فأسرعت المحافظة بنقل شحنات كبيرة من الصعيد وانتهت الأزمة في بضعة أيام ، وفشلت في إيطاليا محاولة لقلب نظام الحكم قام بها المارشال بادوليو الذي لجأ إلى قصر الملك الذي فرض عليه أن يظل تحت حراسة حرسه هو الملكي الخاص فصار كأنه في سجن لكن أكثر أماماً من أن يقع في يد موسيلني وقبض موسيليني على أعوان بادوليو وأرسلهم إل الجهة الألبانية وعرض على الكسار فيلم " ألف

ليلة وليلة " في مصر ، وانفجرت في الإسكندرية أزمة أخرى هي تأخر شحن الغلال من الأرياف إلى المطاحن تصرفت فيها الحكومة بسرعة كما تصرفت فى أزمة السكر ، وتم تخصيص قطارات لشحن الغلال ، وخطف أربعة شبان عربة بحمار من حوذي مسكين تأخر بالليل ، وطعن شاب صديقه الحلاق بسكين فكاد يقتله ، واعترف أمام النيابة أنه متعطل من زمان وأن الحلاق صديقه من زمان أيضاً ويعرف حالته ، لذلك لم يكن يتقاضى أى أجر على الحلاقة له ، وتعود المعتدي على ذلك حتى جاء يوم اصطحب صديقاً له لا يعرفه الحلاق وطلب منه أن يحلق له بالمجان أيضاً إكراماً لخاطره لكن الحلاق خذله أمام صديقه مما جعله يخرج عن شعوره ويوجه له طعنة بالسكين ، ولما سأله وكيل النيابة عن السبب الذي جعله يصطحب شخصاً ليحلق له بالمجان قال إنه متعطل مثله ولا يجد عملا ، ثم قال إنه في الحقيقة كان ينوى أن يأخذ منه قرش تعريفة في السر بعد الحلاقة بدلا من أن يدفع للحلاق قرش صاغ . وانتحر رئيس وزراء المجر الذي لم يوافق على الترول على رغبة الألمان ، ولم يستطع المقاومة ، وحشدت ألمانيا اثنتين وعشرين فرقة على حدود يوغسلافيا ، ثم قامت الطائرات بالإغارة على بلجراد وأعلنت ألمانيا الحرب على يوغسلافيا واليونان معاً . لقد ظهرت الطائرات الألمانية في سماء بلجراد في صباح السادس من إبريل وظلت ثلاثة أيام تلقي بقنابلها على العاصمة بصورة منتظمة ونموذجية فى التكتيك حتى إنها كانت تحلق قرب أسطح العمارات دون خوف فحل الدمار بالمدينة حتى إذا انتهت الغارات في اليوم الثالث كانت بلجراد قد امتلأت بجثث عشرين ألف قتيل من أبنائها في الطرقات أو تحت الأنقاض ، وأطلقت الوحوش الضارية التى فتك

حصارها بعد ضرب حديقة الحيوان فراحت تفتك بالجثث وبالأحياء في المدينة التي أصابها الرعب والهلع في أجلِّ صورهما ، في الوقت نفسه كانت القوات الألمانية تجتاح يوغسلافيا من كل جانب لتستسلم بعد سبعة أيام . لقد أطلق هتلر على هذه العملية اسم " عملية العقوبة " وبعدها مباشرة انتقل هتلر إلى العدوان على اليونان . راح يطبق بنجاح سياسته " عدو واحد في كل مرة " ولم تفلح القوات البريطانية في حماية اليونان . لقد بلغ عدد القوات البريطانية التى ذهبت من الشرق لمساعدة اليونان خمسين ألف جندي استشهد أو أسر وجرح منهم أحد عشر ألفاً ، فضلا عن القوات اليونانية أيضاً لكن الإنجليز نجحوا تحت ضغط الهجوم الألماني في الانسحاب بالباقي من قوتهم بالإضافة لعشرة آلاف من جنسيات أخرى ، يونانيين ويوغسلاف وقبارصة ، في الوقت نفسه تقهقر الجيش البريطاني أمام القوات الإلمانية الجديدة في ليبيا ووصلت المعارك إلى القرب من السلوم بعد أن خسر البريطانيون مواقعهم السابقة ، وبدأت قوات المحور مهاجمة قاعدة طبرق وسجل مكتب الآداب في مصر عموماً القبض على ثمانمائة وخمسين متسولاً وجامعي أعقاب السجائر وستة وأربعين بلطجياً وقواداً وخمسين فتاة يحرضن على الرذيلة في الطرقات بينهن عشرون قاصرات وثلاث عشرة قضية قمار ومراهنات وثمانية منازل مشبوهة وثلاثة وخمسين مكتب تخديم تعمل في تسهيل الدعارة وخمسين بنسيوناً أيضاً ، وصمدت القوات البريطانية في طبرق وأسرت ثلاثين ضابطاً ألمانيا وألف جندي وصف ضابط شحنتهم في القطار إلى الإسكندرية ، ورآهم العمال لأول مرة . لقد سبق لهم كثيراً من قبل أن رأروا الإيطاليين .. هذه أول مرة يشاهدون الألمان

الذين ظلوا لغزا منذ اندلاع الحرب ، رأوهم شديدى البياض والشقرة زرق العيون دائماً ، طوالا أصحاء ، ينظرون من عربات البضاعة إلى كل شـ يء بلا مبالاة غير مصدقين ونقل ملك اليونان وولي عده ووزراؤه العاصمة إلى كريت وأرسل الملك إلى شعبه رسالة يطالبه فيها أن يظل متماسـ ـكاً غـ ـير منقسم على نفسه حراً طليقاً ودخلت القوات الألمانية إلى أثينا وانتحر شاب في الإسكندرية من فوق فندق إيكاروس ، كما ألقت فتاتان بنفسيهما أمـ ـام ترام الرمل في شارع الإسكندر ، وخيم الحزن على الإسكندرية وتعـ ـاطف شعبها مع جيرانه من اليونانيين والقبارصة واكتشفت آثار ذهبيـ ـة بمقـ ـابر يونانية بكوم الشقافة وعرض فيلم (إلى الأبد) لفاطمة رشدي وسـ ـليمان الجندى بسينما كونكورديا فيلم (سي عمر) للريحاني بسينما الماجستيك ، وقررت أمريكا بناء أربعمائة بارجة وتسعمائة سفينة وعـ ـدد هائـ ـل مـ ـن الطائرات تمول به الحلفاء هذا العام ، واشترى دميـ ـان جريـ ـدة الأخبـ ـار الأسبوعية وذهب إلى مجد الدين في البيت في اليوم التالي لسفر زهرة وطلب منه أن يسعمه وهو يقرأ الأخبار المكتوبة بخط صغير بعيداً عـ ـن العنـ ـاوين الكبيرة السهلة .. وقرأ: " وف ا ة م هرا جامي سور أل حال في لندن " ثم توقف قليلاًوعاد يقرأ :

- – جاءنا من مراسلنا في لندن أنَّ هو قد توفي أمس مه راجا مـ ـي سور الحال في لندن " .

وتوقف ناظرا إلى مجد الدين الذي سأله أن يكمل الخبر فقال دميان :

- – خلاص كده ، فيه خط وخبر جديد .

قال مجد الدين :

– مبروك ، لقد استطعت القراءة يا دميان .

لكن دميان سكت قليلاً ثم قال :

– ما رأيك في الخبر الذي قرأته يا شيخ مجد ؟

– من أي ناحية ؟

– أقصد يعني إيه لزمته .. يفيد بإيه ؟

ابتسم مجد الدين وقال :

– والله يا دميان أنا احترت مثلك عندما سمعته .

وسكتا قليلاً مرة أخرى وتساءل دميان :

– هل هذه هى الجرائد التي تعلمت القراءة من أجلها ؟

ضحك مجد الدين بلا صوت . وقال دميان كأنه يحدث نفسه :

– جرايد هبلة صحيح ، مالي أنا والمهراجا الميسور ولا المفلس حتى .

وألقى دميان بالجريدة من نافذة حجرة مجد الدين ، وخرج . ولم ينحن لالتقاطها . وخطب تشرشل معلنا أن على بريطانيا أن تنتصر أو تموت ولم يعرف عن حمزة أي شيء جديد ، ولم يعد يتكلم عن ابنه لمجد الدين ، وأعلن الحكم في قضية الخوذ المقلدة ، اعتبرت الجريمة غشاً تجارياً وليست خيانة عظمى فكانت الأحكام خفيفة فعم السرور الناس وتم تقييد بيع الخمور في الإسكندرية إلا بتصريح عسكرى بعد العشرين من إبريل بسبب كثرة

الحوادث الناجمة عن السكر في الفترة الأخيرة وبسبب استخدام الخمور في المفرقعات ، وألقت الطائرات الألمانية في غاراتها الجديدة على الإسكندرية بقنابل صغيرة حارقة تم إرشاد الناس إلى كيفية التعامل معها إذا لم تنفجر ، ونظرت المحاكم العسكرية بالإسكندرية أيضاً سبعين قضية للإيطاليين الذين يعيشون بالمدينة ، ولم يستجيبوا للأمر العسكري السابق بضرورة تسليم أجهزة الراديو التي يملكونها إلى البوليس وتمت مصادرة الأجهزة ولم يكتشف من بينهم أى جاسوس ، وأعلن أنه سيعرض في الاثنين الأخير من الشهر فيلم شارلي شابلن " الدكتاتورالعظيم " في أكثر من سينما بالعاصمة وفي سينما رويال بالإسكندرية وسجل يوم عرضه أكبر زحام ممكن من أمام السينمات أيام الحرب ولم يبد على دميان أنه تحدث يوماً عن شوقه لمشاهدة فيلم لشارلي شابلن . عرف وسكت ولم يسمح لنفسه حتى بالتفكير فيه ، وقابل غفارة مجد الدين في الطريق فعتب عليه أن يصحب زوجته إلى المحطة دون أن يطلب منه توصيلهما بعربته ، ابتسم مجد الدين وشكره وقال إن ذلك تم الضحى ولم يكن غفارة بالشارع ثم أخبره بسفره إلى العلمين في الغد وسأله إذا أمكن الحضور في الخامسة صباحاً لنقله وصديقه دميان وما معهما من متاع فأبدى غفارة استعداداً كبيراً ثم سأله أين تقع هذه العلمين فأخبره مجد الدين .

والليلة طالت به الآن ، وطافت بذهنه حياته الماضية ، وأحس كأن دهراً مضى على سفر زهرة ، ولولا أن نزل ديمتري وجلس معه وقتاً طويلاً ما كانت تمر به الليلة . سأله ديمتري هل سيأتي إلى الإسكندرية في الإجازات فقال مجد الدين إنه لن يأتي ، وإذا أخذ إجازة سيذهب إلى القرية – أجل

هكذا قال بعزم لم يفهم ديمتري سببه – ثم أخبره مجد الدين أنه سيعطيه إيجار ثلاثة أشهر وبعد ذلك سيرسل له الإيجار كل شهر مع دميان الذي لابد سيأتي ليرى أسرته . وسأله ديمتري من يكون دميان ، فاندهش مجد الدين وسكت قليلاً ، ثم راح يذكر ديمترى به ، لكن الرجل الذي بدا عاجزاً عن التذكر قال " آه ، تذكرته " والحقيقة لم تكن كذلك ، مما سبب إرباكاً حقيقياً لمجد الدين ، الذي بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون قد أصاب عقل الرجل. لكنهما تحدثا طويلاً في أحوال الناس والبلاد والحرب وسأله ديمترى فجأة ما إذا كان يعرف شيئاً جديداً عن رشدي فأجاب مجد الدين بالحقيقة وهى أن أباه لم يعد يتحدث عنه أمامه ، قال ديمتري آسفاً إنه يتمنى لو أدرك الفتى خطورة المسألة وتركها تمر بسلام ، وإنه شخصياً لم يكن يحب أبداً أن يعطل رغبة لابنته ، لكن هذه رغبة صعبة ، وهو واثق بأن الأيام ستشفي كل جريح . وشكره مجد الدين على الوقت الذي أمضاه في بيته ، وقال له أنه تقدم ومعه دميان إلى الإدارة بطلبين للسكن بمساكن المصلحة إذا حدث وخلا مكان ، وإنه يأمل خيراً ، وطمأنه ديمتري بدوره على متاعه بالحجرة " كأنك موجود تماماً يا شيخ مجد " وصافحه بحرارة وصعد إلى أعلى تاركاً مجد الدين الذي تمنى لو يأخذ قسطاً قليلاً من النوم الليلة .. فأخذ يقرأ في سره شيئاً من قصار السور بالقرآن علها تريح أعصابه .

كانت صحف اليوم قد أعلنت عن استعداد البلاد لاستقبال تحفة هوليوود الجديدة التي أنتجها دافيد سلزنك ، وقام ببطولتها أشهر النجوم كلارك جيبل وفيفيان لي و أوليفيا دي هافيلاند ولسلي هوارد . كما شارك فيها بالتمثيل لأول مرة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ممثل وممثلة ، أما هذه

التحفة فهى القصة الشهيرة لمارجريت ميشيل " ذهب مع الريح " كـ ـذلك أعلنت في صفحاتها الأولى اسم القائد الألماني الذي يتولى قوات المحور في ليبيا الآن . إنه " إيروين روميل " القادم من الجبهة الفرنسية والذي بدأ يظهـ ـر براعة في حرب الصحراء . وكان مكتب الصحة في المحافظة قـ ـد أعلـ ـن أن مواليد الإسكندرية هذا الأسبوع قد بلغوا أربعمائة من أبناء المدينة وعشرين أجنبياً ، أما الوفيات فكانت مائة وعشرين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعها ، الملاريا والسل والدوسنتاريا والسعال الديكى والتيتانوس والغارات ، أما وفيات الأجانب فكانت عشرة بسبب السـ ـكر والجنـ ـون والانتحار .

***

" ستدوم رحلتي كثيراً . وأن الطريق
التي أمامي لطويلة.
لقد خرجت فوق عربتي،
عند تباشير الفجر .
وتابعت رحلتي
عبر صحارى العالم .. "

-21-

ساحل مريوط ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديماً ، الممتد من الإسكندرية حتى السلوم ، قبل أن يدخل في الأراضي الليبية ، هو الساحل المنسى في مصر ، وهو الذي يسافر إليه مجد الدين ودميان هذا الصباح .

يرتمي أمام الساحل ، البحر المتوسط ، و أزرق مما هو في الإسكندرية ، شفاف المياه ، ظاهر الصخور والرمال رقراق ، يغريك أن تفتح كفيك وتقرهما معاً ، وتحفن منه وتشرب ، ناسياً أنه ماء أجاج ، لكن الساحل دائماً ، عند كل من يسمع به أو يراه ، هو الصحراء ذاتها . إنه ساحل مهجور تمتد خلفه الصحراء إلى مالا نهاية ولها من كل ناحية أفق ، ولكل أفق سراب .

على هذا الساحل المهجور مشت من قبل جيوش كثيرة وكبيرة ، " شيشنق " الليبي أول من جاء عليه بغزو مصر عام945ق.م . في ذلك الوقت وصلت الأمجاد الفرعونية إلى السماء ، تربع ملوك الفراعنة على عرش الآلهة ، وتتالت الأسر الحاكمة حتى بلغت إحدى وعشرين أسرة ،

وكان لا بد من الضعف . ثم جاء دور المصريين في المشي على الساحل إلى ليبيا هذه المرة . كان ذلك في عهد " إيزيس الأول " رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين . لقد خرج قاصداً " قورينا " لتخليصها من حكم الإغريق ولم يفلح . لكن بطليموس الأول نجح فيما بعد ، وصل إلى قورينا وضم ليبيا إلى مصر التي منها انتقلت عبادة إيزيس فأقام الليبيون لها معبداً في قورينا لم يزل ، كما لا يزال باقياً حمام كليوباترا الثامنة ابنة كليوباترا السابعة التى حكمت مصر ، وتماماً مثل حمام أمها بمرسى مطروح كليهما في البحر فراغ بين صخور منحوتة ومسقوفة . هل كانت الأم وأبنتها ابنتين لبوسايدون إله البحر أم كانت إلهتين بحريتين ؟

لم يكن الطريق خرابا إذن .

مشى عليه الإسكندر حتى مرسى مطروح قبل أن ينحرف داخلاً في جوف الصحراء قاصداً معبد الإله آمون في واحة سيوة . مشت فوقه بعد ذلك بألف سنة ، القبائل العربية من بنى سليم وبني هلال مهاجرة من نجد إلى الحجاز ، ثم عادت تحمل اسم " الفاطميين " .

الفاطيمون هم آخر من مشوا فوق هذا الطريق قبل أن يمشى فوقه جنود إنجلترا والكومنولث ، الهنود والإستراليون والاسكتلنديون والإيرلنديون والنيوزيلانديون وأبناء الكاب . كذلك جنوب إيطاليا وألمانيا في الاتجاه المضاد ، الساحل الشمالي طريق حرب وموت في معظم الأوقات . في السلم هرب فوقه المسيحيون من الاضطهاد الروماني وبنوا الأديرة الصغيرة في الأغوار السحيقة للصحراء . لقد وصلوا إلى الوادي الجديد ،

وبنوا الكنائس والأديرة في " البجوات " . وفعلو الشيء نفسه قريباً من الإسكندرية في " بهيج " و " كنج مريوط " و " برج العرب " وفي السلم ظلت القبائل العربية تروح فوق الطريق ، وتجيء قبائل " على الأبيض " و " على الأحمر " من أولاد " على " من عرب " السعادى " وقبائل المرابطين من " الجمعيات " و " القوابيص " و " السمالوش " هؤلاء الذين توكل إليهم أعمال الحراسة فيرابطون وسط النجوع والقبائل لحمايتها حين تنشغل عرب " السعادي " في القتال .

" العامرية " هى أول مدن هذا الطريق قرباً من الإسكندرية .. ثلاثون كيومتراً إلى الغرب ، وجنوب غرب بحيرة مريوط التي تحصر الإسكندرية وتضغطها إلى البحر وهى التي عرفت أيام محمد على الكبير باسم " كنجي عثمان " ولم يكن عثمان غير أمين الضيافة عند الوالي . صارت في عهد عباس باشا " برنجي مريوط " أى أول مريوط ، فجاءت " كنجي مريوط " الثانية من المدن . العامرية هذه سوق بزرميط يلتقي فيه عرب محافظة البحيرة بعرب مريوط ببعض تجار الإسكندرية مرة كل أسبوع ، وغير ذلك لا شيء . مجرد عدد قليل من البيوت الصغيرة المتناثرة ، ومحطة سكة حديد قديمة ، وقطار يحمل المياه إلى الصحراء مرة في الأسبوع فيخرج إليه السكان القليلون يملأون " الجراكن " المحمولة على أجناب الحمير .

" كنجي مريوط " هي الأكثر شهرة ، منطقة طوال العام مشتى ومصيف معاً ، ومنتجع دائم ، تبدو كأنما خصها الله بهواء ساحر عجيب فتدور الطواحين الجميلة رافعة الماء النقي المحبوس في جوف الأرض منذ ملايين السنين ليروى أشجار التين واللوز والرومان والعنب وذكريات

الزائرين .." كنجي مريوط " تدخلها فتنسيك البلاد الأخرى وتلخص حياتك في إحساس بالراحة والصفاء.

تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان في المكان ولا زمان في الزمن .

العامرية تختلف ، تبدو في كل وقت بلدة بلا هوية يتكاثر فوقها التراب من كل جانب لخلوها من الحدائق ولوقوف الشمس فوقها باستمرار ، بالنهار وبالليل أيضاً !! وهذه من عجائب العامرية فعلى قربها من الإسكندرية والبحيرات قائظة طوال الوقت ، ويقال أنها حملت اسمها من قرية " ماريا " اليونانية القديمة والمدفونة قرب البحر والتي كانت مصنعاً للخمور والرقص والحب . إسكندرية ماريا وترابها زعفران ! ويقال إن قبائل ربيعة وهلال بن عامر استقرت هنا بعض الوقت قبل أن تأخذ طريقها إلى الغرب فحملت العامرية لقب القبائل العربية .

وهذا أقرب الصواب فرائحة الوبر الشعر لخيام القبائل العربية لا تزال في الفضاء . إن البيوت القليلة المترتبة المتناثرة بالعامرية تبدو من بعيد كأوتاد الخيام ، وأحيانا تصرخ بالرغبة بالحركة فوق الأرض بحثاً عن الماء والعشب .

على بعد خطوات من العامرية توجد بلدة (برج العرب) كانت نقطة حراسة حدودية قديمة لا أكثر . لكن الميجور " براملي " مفتش البوليس في محافظة الصحراء الغربية عام **1918** ، اختار ربوة عالية أقام فوقها قصراً ضخماً جمع فيه ألواناً من التحف وأحاطه بحديقة جميلة ودق فوق الأرض طواحين الهواء تأتي بالماء العذب ، قامت على السفح بعيداً بيوت قليلة

لخدمة القصر المرمرى الذي نقل براملي أعمدته الرومانية واليونانية مبعث رة منطقة " أبو مينا " القريبة . في " أبو مينا " بقايا آثار رومانية ويونانية مبعثرة وكنيسة " بومنا " التي أقامها الأمبراطور أركاديوس عام **405**م على ق بر القديس " سانت ميناس " الذي فر من اضطهاد دقلديانوس ، لك ن ه ذا أرسل خلفه قواته حتى عثروا عليه وقتلوه هنا . لم يكن يعرف أن لا أح د يموت من أبناء الرب وحوارييه . دائماً لا أحد يموت . م ات دقل ديانوس وعاش سانت ميناس .

مات براملي ، وآل قصره إلى الخاصة الملكية ، ويترل الجنود ، حرّاسه ، إلى السكان القليلين بحكايات عن الجدران المرمرية التي تض يء ، وع ن أصوات الغناء الجميلة التي تسرى في القصر بالليل مع ريح البحر ، وع ن حالة النشوة التي تتلبس الجنود كل ليلة فيضحكون بلا سبب مشبعين بخمرة لم يشربوها . إنهم يتحولون بالليل دائماً إلى أطفال سعداء ، ويمضون النهار في دهشة مما جرى بالليل !! .

للتين في حديقة القصر مذاق عسل النحل وللوز رائح ة التف اح ، وللرمان برودة الثلج ! بعد " برج العرب " الصغيرة وحتى " العلم ين " ، لابد من المرور ببلدة " الحمام " التي قامت على أنقاض مدين ة ك امينوس اليونانية التي كانت تشتهر بحماماتها الطبيعية ، لقد بنيت حول سوق ق ديم يفد إليه أبناء الغرب ليلتقوا مع أبناء الدلتا من التجار ، فيها مسجد " زياد بن الأغلب " بناه وهو ف طريقه إلى فتح أفريقيا ، واستوطنها بعض المغاربة منذ زمن بعيد . مدينة صحراوية تشم فيها رائحة الجمال والماعز والغ نم . حركة الناس منها وفيها وإليها سريعة كأنما كل ش يء يتح ول فج أة إلى

سراب . من الصعب الاحتفاظ بوجه تلقاه فيها في الذاكرة ، مدينة لا تقف فيها إلا متحفزاً للمسير ، خلقت للتجارة السريعة ، الخروج منها غرباً يعني الدخول إلى العلمين ، والعلمين أرض منسية ، محطة سكة حديد صغيرة ذات رصيف منخفض لا يرتفع عن الأرض بأكثر من نصف متر ، فوقه حجرتان خشبيتان لناظر المحطة وعامل التلغراف ، وعند نهاية الرصيف مزلقان بدائي ، مجرد عمود خشبي ينتهي بحبل من ناحية ، وثقل من الحجارة من الناحية الأخرى ، يشد عامل المزلقان الحبل فيترل العمود يسد الطريق . يترك الحبل بعد مرور القطار فيرتفع العمود إلى أعلى بفعل الثقل المربوط فيه من الخلف فتمر السيارات الحربية والجنود . هذا الطريق المار بالمزلقان هو الوحيد بالعلمين ، يأتي من البحر ويدخل إلى البلدة التي هى صفَّان من البيوت القليلة المبنية بالحجر الأبيض المقطوع من جبال الحمام .

والبيوت هنا خالية الآن . لقد بناها وسكنها بعض البدو الذين تركوا نجوعهم ، إلا أنهم مع بداية الحرب ابتعدوا مرة أخرى تاركين البيوت الحجرية عائدين إلى خيامهم والنجوع على حافة المنخفض . بين العلمين والإسكندرية مائة كيلو متر ، وبين البحر ومنخفض القطارة خمسة وعشرون كيلو مترا . إنها إذن عنق زجاجة لا تصلح للمناورات الحربية ، وتصلح منطقة دفاع أخير للجيوش إذا حدث وتراجعت أمام المحور ، والمنطقة الآن مستودع للأسلحة والذخيرة والتموين وتدريب الجنود . العلمين هضبة ترتفع عن البحر بستمائة قدم ، وتنحدر جنوباً إلى منخفض القطارة عبر منطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية المخيفة . على تخوم هذه الرمال والمستنقعات يعيش القليل من البدو من أولاد الأحمر والأبيض ، من

السعادي ومن المرابطين ، في سلام قديم ، بحيث لم تعد لغتهم تحمل لفظاً للحرب او القتال .

بعد العلمين لا توجد مدن أخرى مأهولة تستحق الوقوف غير " سيدى عبد الرحمن " و " مرسى مطروح " ..كثبان العلمين مميزة بلونها المائل إلى الأبيض الجيري ، وهو اللون الذي يظل يرافقك حتى سيدى عبد الرحمن ، المصيف الذي لم يفطن إليه أحد بعد ، البلدة الصغيرة التي لا تزيد على الجامع الذي بناه البدو تقديراً " لعبد الرحمن أبو بطيخة " الذي صار ولياً .

كان عبد الرحمن شاباً وسيماً يمشي مع صديقه الحلاق القبيح الذى أظهر الشر ، ابتعد كثيرا وسط الصحراء فأخرج الحلاق الموسى من صداره وقطع رقبة عبد الرحمن ثم تركه في الخلاء بعد أن دفنه تحت الرمال . بعد عام مشى الحلاق في الطريق ذاتها ، كان قد نسيها . في الصحراء تتشابه الأرض والكثبان . رأى شجرة بطيخ تحمل ثمرة كبيرة ناضجة على الأرض . لم يستطع المقاومة ، من يستطع مقاومة بطيخة في الصحراء !! حمل البطيخة وفي عودته فكر أن يهديها إلى شيخ القبيلة ففي ذلك فائدة أكثر من أكلها .

فرح شيخ القبيلة بالهدية لكنه ما كاد يغرس بها السكين حتى انسكب عنها الدم . غرس السكين مرة أخرى فخرج الدم . رفع الشيخ المجرب عينيه إلى الحلاق الذي شمله الرعب وسط الحاضرين ., كان قد تذكر كل شيء .. طلب من شيخ القبيلة الأمان قبل أن يحكى حكايته .. أمنَّه الشيخ فراح يحكى كيف قتل صديقه عبد الرحمن في المكان نفسه . بني البدو ضريحاً

لعبد الرحمن فوق شجرة البطيخ ، ودفنوا البطيخة التي أدركوا أن بهـ ـا رأس عبد الرحمن . صار القبر مقاماً قامت حوله البلدة الصغيرة .

لا قصص بعد ذلك حتى مرسى مطروح .." الضبعة " قريـ ـة منسـ ـية هجرها البدوالآن ونزلوا إلى سيدى عبد الـ ـرحمن والعلمـ ـين . " فوكـ ـة " منخفض استراتيجي تتجمع فيه القوات والمركبات التى تنطلق بعد ذلك إلى الحدود الليبية ، مرسى مطروح التاريخية لكليوباترا وأنطونيو صارت مركز قيادة الجيش الثامن ترمح فيها السيارات العسكرية طوال النهار . مرسـ ـى مطروح بلد الحب والموت فيها تعبد أنطونيو في محراب جسد كليوباتر وفيها غدرت به كليوباترا وعادت هاربة من أكتيوم ، وفيهـ ـا انتحـ ـرا . كانـ ـت محافظة الصحراء والآن صارت مقر قيادة الجنـ ـرال ويفـ ـل الـ ـذي كسـ ـر جرازياني منذ أسابع ليأتي روميل الألماني قائداً للفيلق الأفريقي الذي صـ ـار أغلبيته الآن من الجنود الألمان ، ترى ماذا سيفعل هذا القائد الجديد القـ ـادم من الجبهة الفرنسية منتصراً ؟ إنه يحمل اسما سهلا يبـ ـدو وكأنـ ـه مكـ ـرس للشهرة ، هكذا دائماً أسماء المشاهير من الأخيار و الأشرار علـ ـى السـ ـواء لنابليون سهولة اسم روبن هود وليهوذا سهولة يسوع وليزيـ ـد سـ ـهولة الحسين ولأم كلثوم وأسمهان سهولة ريا وسيكنة !!

الشهرة تسوى بين الجميع ومع تقدم الأزمان قد يصبح للأشرار مكانة الأولياء والقديسين .

***

– صباح الخير . جاهز يا شيخ مجد .

- صباح النور . جاهز إن شاء الله .

ولم يكن مجد الدين قد نام غير ساعة بعد الفجر ، وقبل أن يناديه غفارة كان قد سمع صوت عجلات العربة وتخلّعها ، وصوت غفارة وهو يتوقف قائلاً للحمار " هس " خرج الشيخ مجد حاملاً قفة من الاثنتين اللتين أعدهما . تناولها منه غفارة فوق العربة التي لاحظ مجد الدين أن بها حمارين الآن.

قال غفارة ..

- مشوار بعيد وحمل كبير ، كان لازم حمار تاني .. أجَّرته .

ابتسم مجد الدين ودخل إلى حجرته ليعود حاملاً القفة الثانية . لاحظ أيضاً أن غفارة لا يضع القناع على وجهه . وقال غفارة :

- الوقت بدري والهواء نظيف بعد ...

الساعة تتجاوز الخامسة بقليل ، لا يزال النهار يقاوم للانعتاق من الليل ، نسمة طرية مرهفة تشيع في الغبش ، ورائحة طيبة للنور القادم بعد قليل . إن العيون تتفتح مع صعود النهار كما تتفتح الزهور للنور ..

حانت من مجد الدين التفاتة للبيت الصغير بعد أن قفز يجلس جوار غفارة فوق العربة ، كم تمنى لو صعد وصالح الخواجة ديمتري وأسرته رغم أن الرجل نزل إليه بالليل . هل يُقدّر له أن يراهم مرة أخرى . وكان غفارة قد أخذ طريقه إلي بيت دميان ..

***

كانت هذه أول مرة يرى فيها مجد الدين محطة سكة حديد " القباري " . المسافة طويلة حقاً من البيت إلى هنا . قطعت العربة بهم طريق قنال المحمودية كله حتى " كفر عشرى " ثم تجاوزته لتمشي في طريق المكس حتى شارع القبارى الذي دخلت إلى نهايته عند المحطة . لأكثر من ساعة مشت بهم العربة ولم يكن فى الطريق غيرهم ، وخاصة إزاء ترعة المحمودية ، فجأة غمر النور كأنه ماء منسكب . لم تكن هناك حركة على اليمين فالسفن ساكنة على صفحة المحمودية ونوتيوها نائمون ، على اليسار لم يكن غير مخازن سلفاجو ومخازن بنك مصر التى رآها مجد الدين بالليل بعد أن قابل رشدي المجنون بحب كاميليا . هل كان هو ذلك الذي لمحه مجد الدين جالساً أمام المحمودية ، يعطى ظهره لمساكن السكة الحديد .

لقد بدا له الجالس شاباً نحيلاً ضائعاً . وفكر أنه لم يصادف أحداً من زملائه خارجاً للعمل بعد ابتعدوا عن المساكن قليلاً سأله دميان :

– أليس غريباً أننا لم نلتق أحداً فى الطريق ؟

– الوقت مبكر يا دميان .

– فكرت أن الله قد خلقنا الآن فقط ، أجل خيل لى أننا نزلنا للتو من السماء أنا وأنت وغفارة والحماران .

ضحك غفارة وقال :

– والحماران أيضاً ؟!

– والحماران يا غفارة !

– خيالك بعيد جداً يا مقدس دميان .

وحط صمت فكر دميان خلاله أن أحداً من قبل لم يناده " بالمقدس " هيه .. لماذا حقاً لم يحدث أن عامله أحد باحترام ؟

وظلت العربة تمشي تكاد تتخلع على الأرض المفروشة بالمربعات البازلتية ، وما هي إلا أن عبرت بهم شارع التجارة الذي يقسم كفر عشري إلى نصفين ، ومدرسة الشيخ عبد الله النديم وبيته المهجور ، ثم دخلوا في شارع المكس حتى شاهدوا حركة قليلة للسيارات ، وتراماً ، يمشي وئيداً شبه خال من الركاب . لقد غمر النور الشوارع ، ونزل غفارة من فوق العربة ، وأوقفها لحظات تناول خلالها قناع الغارات ، الذي يضعه في مخلاة معلقة أسفل العربة ، ووضعه فوق وجهه ، ثم صعد العربة من جديد ،وأخذ يضرب الحمارين برفق يحثهما على الإسراع . ابتسم كل من مجد الدين ، ودميان من قناع غفارة ، أو طربوشه العجيب ، ولم يتكلما .

بالمحطة لم ينتظرا كثيراً ، سرعان ما وصل القطار . لم يكن فوق رصيف المحطة غير ثلاثة رجال من البدو يقفون متباعدين . وصل القطار فركب كل منهم فى عربة قطار قديم عرباته حال لونها وسقط قشر دهانها وعلق بها غبار ورمال كثيرة . ودخلا إلى العربة المقابلة لهما مباشرة وضعاً متاعهما فوق الرف وجلسا متقابلين ، على يسارهما النافذة مهشمة الزجاج مغلق شيشها فلم يفكرا في فتحه فلا تزال في الجو برودة ستزداد مع حركة القطار وتدخل إليهما من فتحات الشيش. كما يحدث عادة لأى راكب أدارا رأسيهما يستطلعان العربة فلم يجدا بها أحداً غير رجل متوسط العمر ، في

عمر كليهما تقريباً ، يرتدي جلبابا سمنى اللون نظيف اللون وعمـ ـة بيضـ ـاء حريرية وتحت الجلباب يبرز الصديري الصوف التقليدي .

كان الرجل قد عقد ذراعيه أمام صدره وارتاح فوقهما برأسه ونـ ـام وراح يصدر شخيراً مزعجاً ، لكنه كان ينهض فجأة من نومه فزعاً يمسـ ـح لعابه الذي سال على جانبي فمه ثم ينام مرة أخرى لحظات كي ينهض فزعاً من جديد يمسح لعابه ، وهكذا .

القطار يمشي مترنحاً ، لا مواعيـ ـد خلفـ ـه أو أمامـ ـه . يخـ ـرج مـ ـن الإسكندرية في الصباح ليصل مرسى مطروح في اليوم التالي ليبدأ العودة في اليوم الثالث . ليس هناك قطار آخر غير قطار الثالثة بعد الظهر الذي ينتهي سيره عند الحمام في السابعة مساءً ليعود في الليل . لقد اختصرت حركـ ـة القطارات على هذا الطريق الحربي الآن ولم تعد ترى فوقه غـ ـير قطـ ـارات العتاد العسكري أو الأسري أو الجنود . ورأى مجد الدين ودميـ ـان علـ ـى يسارهما لأول مرة بحيرة مريوط تمتد منبسطة إلى مسـ ـافات بعيـ ـدة فوقهـ ـا فلائك صغيرة وصيادون بكروا في العمل فراحوا يلقون بشباكهم الصغيرة ثم يجذوبونها لتظهر فيها لآلىء الأسماك المتحركة تبرق من بعيـ ـد تحـ ـت ضـ ـوء الشمس الذي ملأ الدنيا الآن . على اليمين كانت بحيرات مريـ ـوط أيضـ ـاً لكنها المنطقة الجافة التي تميل إلى اللون الأحمر . إنها أحـ ـواض الملـ ـح الـ ـتي ستأخذ اللون الأبيض مع اشتداد الصيف ، فيبدأ الأوناش والعمال في جمـ ـع الملح الخشن ونقله إلى الشركة القريبة لتنعيمه وتعبئته . هنا يتجمع المـ ـاء في الشتاء ليبدأ في الجفاف مع بداية الربيع ويصير في الصيف ملحاً . مساحات كبيرة من الأراضي الملحية ذات اللون الوردي تبهر الأبصار وتمتعها في آن .

لقد ترك دميان مكانه أمام مجد الدين على يسار العربة وانتقل إلى اليمين يطل من النافذة مخلوب الرشد .

جاء صوت الرجل النائم .

– هذا ملح وهذه أحواض ملح . بعد شهر يصير أبيض .

لقد تكلم الرجل النائم ومسح بكمه اللعاب السائل على شفتيه ودعك عينيه وسعل عدة مرات فتغيرت نبرة صوته وصارت أكثر صفاء وقال

– من هنا يخرج الملح لكل بر مصر .

– يا سلام !

قال دميان الذي مازال مأخوذاً فصار الرجل يقول :

– مصر كلها خير يا أخ . كلها نعم . شوف قدرة ربك . على الناحية هذه ، الماء يتبخر ويطلع ملح ، وعلى الناحية هذه الماء مهما يتبخر لا ينتهي وتظل البحيرة مليئة بالسمك .

كان مجد الدين قد بدأ يهتم بالحديث الدائر . ولم يمنع نفسه أن تشرئب عنقه ليرى من مكانه أحواض الملح الوردية الباهرة ممتدة بعيداً .

– أين نحن الآن ؟

تساءل دميان فرد الرجل :

– في المكس .

- إذن بعدنا عن الإسكندرية .

ابتسم الرجل وتساءل :

- إنتم رايحين فين ؟

- العلمين .

ضحك الرجل بلطف وقال :

- مشواركما طويل .. الله معكما .

قال ذلك ووقف فبدأ يميل إلى القصر . كان مربع الجسم أو يكـ ـاد . ووضع يديه في جيبي الجلباب وتقدم ناحية مجد الدين ثم جلس جواره ؛ عاد دميان وجلس أمامهما . أخرج الرجل علبة سجائر معدنية مذهبة من جيبـ ـه وقدم لكمل منهما سيجارة ثم تساءل :

- هذه أول مرة تدخلان فيها إلى الصحراء ؟

- نعم .

أجابه دميان فسكت الرجل قليلاً ثم قال :

- أنا دخلت الصحراء ومشيت فيها بعدد ايام عمرى ، لا أعرف في الدنيا غير الصحراء .

تساءل مجد الدين .

- شغلك فيها أم سكنك ؟

-الاثنان ؟

كان القطار قد بدأ يتوقف فسكتوا قليلاً . قال الرجل :

– محطة " مرغم " أول محطة .

صعد إلى العربة أعرابي شاب يرتدى لباس البدو الواسع وفوقه الحرملة ، وعلى الجميع الحرام الصوف وفوق رأسه الفلنسوة ذات الزر الصغير . تطلع إلى العربة الخالية وإليهم ثم أسرع إلى عربة أخرى بعد أن ألقى السلام بلهجة سريعة جداً .

–كل البدو هنا يتحدوثون بسرعة ويمشون بسرعة . قضيت عمرى كله أسأل نفسى عن سبب ذلك ولم أصل إلى إجابة ، الصحراء تجلب السكينة والهدوء ، لكن البدو هنا يتحدثون ويمشون كأنهم يركبون الخيل . أى والله .

ضحك دميان وابتسم مجد الدين من حديث الرجل الغريب هذا . واستمر الرجل يتحدث فقال :

– أنا اسمى رضوان الفلاح . الحقيقة اسمى رضوان أحمد لكن البدو ، أعطوني لقب الفلاح لتمييزي ، وفي الغالب يسمونني رضوان إكسبريس!

– وأنا مجد الدين .

– وأنا دميان!

اتسعت عينا الرجل وعاد يتساءل :

– دميان !

– أجل . نصراني يعنى .

قال دميان ذلك ليقطع على الرجل أى دهشة أو ارتباك . تأمله الرجل لحظات ثم قال :

– غريبة !

ما هو الغريب يا أخ رضوان ؟

تساءل دميان فتأمله الرجل ملياً ثم قال :

– يا أخ دميان : فقط أنت ذكرتني بصاحب لي كان اسمه دميان . كان يبيع البيبسي هنا بالقطارات . كان ولد حلو . شكله حلو وكلامه حلو وروحه حلوة . لا أعلم بأي أرض هو الآن . الله يخرب بيت الحرب والإنجليز والألمان سوا .

وطال الصمت بينهم هذه المرة حتى تساءل مجد الدين :

– لكنك لم تقل لنا ماذا تعمل في الصحراء ، وأين تسكن ؟

– قلت لكما إن شهرتي رضوان إكسبريس . الحقيقة أنا شغلتي " أبونيه " هل تعرفانه ؟

ارتبك دميان ولكن مجد الدين قال بعد تردد قليل :

– أظن الأبونيه هو مثل البوسطجى لكن في القطر .

– عليك نور يا أخ مجد الدين : هو مثل البوسطجي لكن لا يعمل بمصلحة البريد ولا بأي مصلحة . يعمل لنفسه . يحصل على تصريح من السكة الحديد بركوب القطار . وأبونبه يعفيه من قطع التذاكر . يقوم بنقل بريد ومتاع الناس بين المحطات . أنا كنت أبونيه قطار الصحراء حتى دخل

موسيليني الحرب . كان لى ركن عند باب العربة هنا ، ركن الأبونيه .في كل محطة كانت الناس تأتي تعطيني خطابات وحقائب وقفف وسلال وصناديق وكل ما يمكن إرساله كبر أو صغر واسم المطلوب توصيل الحاجيات إليه واسم المحطة . في كل محطة يأتي من يريد الاستلام . وإذا لم أجد أحداً أترك الرسائل وغيرها مع ناظر المحطة . لكن الناس كانت تأتي إلىّ كثيراً تسألني عن الرسائل وغيرها بشكل عفوي . وكثيراً ما كانوا يجدون رسائل من ذويهم أو أحبائهم . في كل محطة كنت أرى وجوه الناس فرحانة وهي تتسلم رسائلها ، وكنت أرى اللهفة على الرسالة . وفي كل محطة أرى الوداعة والطيبة في عيون الذين يرسلون لأبنائهم أو أقاربهم أو أحبائهم , كثيرً ما كان الواحد يبكي بمجرد تسلم الرسالة . طبعاً . الرسالة في الصحراء شيء آخر . كنت أعرف مضمون الرسائل من عيون الراسلين والمستلمين . الآن . الآن كما تريان . القطار خال . لم يبق غير الجيوش والبدو . الجيوش لا ترسل رسائلها مع " الأبونيه " والبدو لا يرسلون شيئاً . عاد أبناء الريف والدلتا إلى قراهم ولم يبق غيري وهذا القطار الذي لا أحب أن أفارقه في الحقيقة لا أعرف أين أذهب إذا فارقته ...

وسكتوا.. وتبادل مجد الدين ودميان النظرات ، وكان القطار قد توقف بإحدى المحطات فسكت الأبونيه ثم وقف يطل من النافذة على الرصيف ويقول :

– لا أحد ركب ولا أحد نزل . حتى ناظر المحطة لم يخرج من غرفته . وتحرك القطار .

***

" ماذا تكون جيوش الأرض ؟
انظر إلى القمر في السماء "

-22-

لم ير مجد الدين مثل هذا الاتساع الأجرد من قبل . في الريف اتساع حقاً من الحقول الخضراء الطرية فوقها طيور سابحة وعلى أرضها يمرح الناس أو يعملون هادئي البال ، وجوار الترع والسواقي يلهو الأطفال وتنام البهائم وتتحدث النساء ويلعب المسنون " السيجة " والبط يعبث في الماء ، والصفصاف يلقي بظلاله عليه ، وعلى الأرض ظل الكافور والكازورين والجميز والسنديان .

الآن لا يرى مجد الدين غير خلاء بلا طيور أو أشجار وهو يقف فوق رصيف محطة العلمين القصير الواطئ وجواره يقف دميان يدور بعينيه في الاتساع المهيب مأخوذاً غير مصدق ، لقد تحرك القطار وئيداً ثم ابتعد فبدا لهما مثل دودة خضراء مزركشة بالأصفر تتلوى ذاهبة إلى اللانهاية ، آلات عسكرية بعيدة متناثرة وغيرها متجمع في مناطق متباعدة , وبينها أكشاك خشبية وجنود يتحركون عراة تلمع أجسادهم من بعيد فوق الشورتات الكاكي التي يرتدونها وجنود لا تلمع أجسادهم السوداء . إن القطار الذي أسرع كدودة صفراء مبرقشة مدهشة والسماء العالية البعيدة وتجمعات الجنود الغامضة والخلاء الذي لف كل شيء أعطى كلاً من مجد الدين

ودميان الإحساس بالضياع . لقد نزل معهما عدد قليل من البدو من العربات الأخرى ، خمسة أو ستة ، لكنهم لم يتوقفوا للحظة . كان في انتظارهم عدد آخر فارتفعت أصوات الجميع كأنهما قعقعة سلاح . لم يميز مجد الدين ولا دميان كلمة أو حرفاً ورأيا الجميع يسرعون في الطريق الضيق المجاور للمحطة الذي تحف به البيوت المنخفضة من حجر أبيض هجره سكانها . كان البدو يثيرون التراب كما لو كانوا قطيعاً من الماعز تجري تتقافز بالعرض . وكان ناظر المحطة قد خرج يستقبل القطار وتحدث قليلاً مع السائق وما كاد القطار يتحرك ويلتفت الناظر ليعود إلى حجرته حتى رآهما ، مجد الدين ودميان ، عرفهما وتقدم منهما على مهل ، لم يكن ينزل بالمحطة أحد يرتدى البنطلون الأخضر والسترة الخضراء غير عمال السكة الحديد .

فوق الرصيف غرفتان من خشب مسقوفتان بالخشب أيضاً على شكل " جملون " مدهونتان باللون الرمادي الكابي وتبدو طبقات الدهان متعددة في إسراف الجاهل بالصنعة كونت ما يشبه التجلط بين ألواح الخشب .

– أهلاً وسهلاً

قال ناظر المحطة الذي كان قد اقترب منهما للغاية وهما مذهولان من الاتساع ، ولم يردا عليه ، أو هو الذي لم ينتظر الرد فسألهما :

– أنتما العاملان الجديدان ؟

– نعم .

– تفضلا.

مشى أمامهما فتبعاه إلى غرفته . في اللحظة نفسها ظهر بباب الغرفـ ـة الأخرى رجل آخر وقف يتأملهما . حدثه ناظر المحطة قائلاً إنهم ـا ع ـاملا المزلقان الجديد فرحب بهما الرجل بدوره ، وقبل أن يدخلا غرفة ناظر المحطة هتف دميان :

– متاعنا على الرصيف .

ابتسم ناظر المحطة وقال بهدوء :لا تخف . لا شيء يضيع هنا .

في حجرة الناظر جلس الجميع . دميان ومجد الدين على دكة خشبية صغيرة والناظر وزميله على دكة أخرى مقابلة . وقال الناظر :

– اسمى هلال و زميلي اسمه عامر . هو عامل التلغراف . إن عمل ـه شديد الأهمية . التأخر في إرسال أو استقبال برقية يؤدي إلى نتائج سيئة .

وسكت قليلاً ونظر إلى عامر كمن يحتاج دليلاً على صدق كلامـ ـه ، ثم تابع الحديث – قد يأتي يوم لا تكون فيه حاجـ ـة لوجـ ـوده أو حاجـ ـة لوجودي . ربما لن يبقى غيركما لتنظيم حركة سـ ـيارات الجـ ـيش علـ ـى المزلقان . القطارات الحربية لن تنقطع . عملكما إذن مهم جداً . ونحن هنا نتبع القيادة البريطانية مباشرة. المسئول عن احتياجاتنا ضابط إنجليزي صغير يعرف قليلاً من العربية. متغطرس لكنه خفيف الدم . وهنا مسـ ـكن قـ ـديم للمصلحة خال الآن . وأنا وعامر نحتل بيتا فيه . يمكن احتلال البيت المجاور لنا . قطار المياه يأتينا كل أسبوع وإذا انقطع نستعيرها من الجنود . لا أحد في البلدة غير قليل من البدو هناك من الجنوب في النجع . قد يظهـ ـربعض رجالهم عند حضور قطار المياه يمـ ـلأون جراكنـ ـهم لكنـ ـهم لايختلطـ ـون

بأحد .يمشون بسرعة ولهم هيئة الجمال . الواحد منهم طويل يكاد يقع على بعضه ! ، أي والله– ضحك وحده ثم استمر يتحدث – إنهم لا يشعرون بالجوع أبداً . يعيشون على دهن أجسادهم . تماماً كالجمال . يحتفظون بكرامتهم بإصرار ، تأتي من بينهم راعية مع غنمها وأخيها الصغير ، وحذر أن يعابثها أحد . لكن لم أتشرف باسميكما :

– مجد الدين .

تردد دميان قليلا في النطق باسمه . كان قد ضاق ذرعا من كلام الرجل وثرثرته ، أجبره الأدب خصوصاً أن هذا اللقاء الأول ، على الإنصات والاحتمال ، ثم قال :

– دميان .

بدا الامتعاض على وجه عامر التلغرافجي . وسكت هلال لحظات ثم قال كأنما يرد على عامر الذي بان امتعاضه .

– على أي حال عيسى نبي ومحمد نبي أيضاً .

لكن دميان لا يزال يفكر في حديث الرجل الطويل . الرجل يحمل اسم هلال ويبدو وجهه كالبدر حقاً .

كان الوقت ظهرا . وكانت بحجرة الناظر ساعة حائط دئراية كبيرة فحمد مجد الدين الله على ذلك وإلا كيف كان سيعرف مواقيت الصلاة ، ولا جامع يرتفع هنا صوت أذانه ولا ساعة يحملها هو أو دميان . لم يكن

يدري أنه سيلتقي بجنود مسلمين من جنود الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس! .

نهض ناظر المحطة ليصحبهما ليرتاحا قليلاً في البيت الذي خصص لهما .

ما كادوا يخرجون إلى الرصيف حتى رأوا أمامهم الضابط الإنجليزي الشاب يرتدي الشورت الكاكي والقميص نصف الكم . كانت ركبتاه سوداوان مما يعني أنه جندي في الصحراء على عكس الجنود الجدد في العادة تبدو ركبهم بيضاء وحمراء باستثناء الأفارقة طبعاً ، وكان على رأس الضابط كاب أخضر .

– هاللو مستر سبايك .

هتف ناظر المحطة بسرعة ، تظاهر الضابط بعد الاستماع إليه فخاطب مجد الدين ودميان :

- Do you speak English ?

فهما السؤال لكنهما توقفا عن الإجابة . ارتبك مجد الدين للغاية . على الفور طار ذهنه إلى حمزة الذي كان بيعرف قليلاً من الإنجليزية ، كثيراً في الحقيقة بالنسبة إليهما ، لقد ضاع حمزة .

وأحس مجد الدين بأنَّ وجهه يربّد وأن الغم يصعد إليه وإلا ما هذه الحرارة ودبيب النمل في وجنتيه . طامن رأسه وأطرق ينظر إلى الأرض وكاد يسأل الضابط الشاب ما إذا كان يعرف شيئاً عن حمزة ! وسمع الضابط يتساءل بضيق موجها بصره إلى ناظر المحطة .

- What happened helal ?

لكن دميان قال فجأة :

- ييس سير أفندم ؟!

حملق فيه الضابط مضطرب الوجه حقاً . وعلى وجوه الجميع ظهر الاضطراب . لقد أدرك مجد الدين الفوضى الكبيرة التي سببها كلام دميان غير المفهوم . وقال الضابط لنفسه بصوت مسموع :

- " Two FooLish Egyptians"?

ثم قال للناظر :

- كله . Donkies

لكن دميان ابتسم وقال وقد احمر وجهه للضابط .

- أنت تعرف عربي ووندر فول جنرال .

وتأمله الضابط الذي لم يملك في النهاية غير أن يبتسم فزال الرعب من على وجهي هلال وعامر والاضطراب من على وجه مجد الدين . وقال الضابط لهلال :

- Give them some blankets , Tins of food , and anything else they may need .

صحبهما هلال حتى سكن المصلحة ثم تركهما بعد أن فتح لهما باب البيت الذي سيقيمان فيه .

لقد سبق لمجد الدين أن دخل سكن المصلحة بالإسكندرية ليلة أن دعاه شاهين ليري ابنه رشدي ، وتقدم مجد الدين ودميان بطلـ ـب إلى المصـ ـلحة للحصول على بيت في ذلك السكن في أقرب فرصة . هاهما يتسلمان بيتا في سكن لايختلف كثيراً عن سكن الإسكندرية . لكن هنا الجدران بلا بـ ـلاط ولا دهان . الأحجار البيضاء الكبيرة حال بياضها واتسخت . بين شقوقها تظهر العناكب وحشرات صغيرة و السقف الخشبي هنا أيضاً قـ ـديم وبـ ـلا دهان . يعرف مجد الدين أن ابن آدم إذا حل بمكـ ـان صـ ـار فيـ ـه سـ ـيد الكائنات . سيقوم إذن بتنظيف الجدران وطرد كل الحشرات حتى لو اضطر لتسليط لهب وابور الجاز عليها .سيجد لدى الجنود مادة تقضـ ـي عـلـ ـى الحشرات تماماً . ولعل دميان يشعر بالإحساس نفسه . إن أيـ ـا منـ ـهما لا يستطيع أن يمضي بقية حياته هنا . هذه أرض حرب . أرض مـ ـوت .هـ ـذا الخلاء الرهيب سيبتلع كل شيء .

وفتح مجد الدين الغرفة الداخلية الصغيرة فـ ـرأى أمامـ ـه الصـ ـحراء القاسية . كان دميان بالصالة الخارجية الملحقة بالغرفة يتأمل الجدران شديدة القذارة ويندهش من الرائحة التي تصعد من دورة المياه الجافة والخالية مـ ـن المواسير والحنفيات ، ودخل الغرفة فوجد مجد الدين جامداً أمام نافذة يطـ ـل على الفراغ السحيق . قال:

– وحّد الله يا شيخ مجد ! هل اشتقت لأم شوقية ؟

اخذ مجد الدين نفساً عميقاً وطويلاً وقال :

– أنا فلاح يا دميان لم أر صحراء من قبل .؟

– وأنا والله لم أر الصحراء من قبل وحالي من حالك رغم كوني ابن مدينة .

وسكت لحظات فكر فيها مجد الدين في نظام العمل . سيكون عليهما اقتسام اليوم على المزلقان ، إذا عمل نهاراً عمل دميان ليلاً والعكس .

وتساءل مجد الدين :

– تفتكر أن الوقت هنا ممكن أن يمر يا دميان ؟ يخيل لى أن الدنيا لا تتحرك .

تأمله دميان في دهشة ، بينما انتاب الخجل مجد الدين الذي ظهر لأول مرة مرتبكاً لا يتجمل بالصبر . وقال دميان بوداعة :

– دع الملك للمالك يا شيخ مجد . قادر ربنا يخلي العمر يجري مثل طرفة العين .

ثم ضحك وقهقه وقال :

– هل تعرف يا شيخ مجد فيما فكرت الآن ؟ في الأبونيه ، رضوان إكسبريس ، يخيل لي أنه غير طبيعي .

– لأنه لا يترك القطار ؟

ولم يرد دميان . سكت وسكت مجد الدين بدوره . ظهر أن دميان يكاد يشرع في البكاء . بل دخل فيه بالفعل وقال فجأة :

– أنا حاسس إني سأموت هنا يا شيخ مجد .

بسرعة أخذ الشيخ مجد الدين سمت الواثق القديم ، وربت على كتف صديقه وقال :

– مثلك لا يموت سريعاً يا دميان . أجل لابد أن يكون في الدنيا ناس أخيار .

***

الوقت لا يتوقف من أجل أحد . وقعت غارة خفيفة على الإسكندرية التي وفد عيلها مهاجرون ليبيون من برقة أودعوا الحجر الصحي ثم سكنوا منطقة المكس والورديان . رآهم دميان ومجد الدين في القطار القادم من مرسى مطروح والذي توقف كثيراً بالعلمين . لقد صعد مجد الدين يجوس بين العربات ولم يقابل وجها يعرفه غير رضوان إكسبريس الذي كان يجلس بين جماعة من المهاجرين يتحدث إليهم بحماس . ويستعمون إليه مسحورين بكلامه . لِمَ صعد إلى القطار ذلك اليوم ؟

حقاً إنه لايعرف لماذا صعد إلى القطار ذلك اليوم . الآن يدرك أنه كان يود لو قابل حمزة . لا يزال يخيل إليه أن إهانته لحمزة كانت وراء ضياعه . لا تكفي أبدا سماحة حمزة لينسي . وكانت خمس سنوات قد مرت على جلوس الملك فاروق على العرش ، فاحتفلت البلاد لمدة أسبوع بعيد الجلوس الملكي بدءاً من السادس من مايو . وأقيمت حفلة عظيمة بدار سينما مترو القاهرة بأسعار خاصة لفيلم ذهب مع الريح يخصص دخلها لضحايا الحرب وامتلأت الصحف بصور فيفان لي وتحتها إعلانات عن كافة المنتجات المصرية والعالمية . العطور والأثاث والثياب والأحذية والغذاء

والسيارات والسجائر والكبريت والأسبرين والرياضة والصحة . وافتتح مطار جديد في الإسكندرية بالنزهة لاستقبال الطائرات المدنية في وقت توقفت فيه جميع الرحلات المدنية من أوروبا وأمريكا إلى مصر .

واحتفل اليونانيون بزجاجة ملأها مقاتل يوناني من تراب أثينا ، وكان الاحتفال بكنيسة " مارسابا " اليونانية الأرثوذكسية القريبة من بيت " كفافيس " المهجور وكتب اليونانيون على الزجاجة من الخارج " التراب الحر للشعب الحر " وفي يانصيب المواساة فاز بالجائزة وقدرها " عمارة " ثمنها خمسة وعشرون ألف جنيه مدرس إلزامي لكن ظهر له زميل يدعي محمد إسماعيل قال إنه اشترك مع المدرس في شراء ورقة اليانصيب التي ثمنها خمسون قرشا ، إذ دفع كل منهما نصف الثمن ، ومن ثم فهو يستحق نصف الجائزة ، وأن المدرس الذي كانت الورقة في حوزته رفض إعطاءه نصيبه مما حدا به لرفع قضية أمام المحاكم لوقف فوز المدرس حتى يقر له بأحقيته في نصف الجائزة . وانتشرت القصة بالإسكندرية وعموم القطر . فمطت أم حميدو شفتيها ثم مصمصتهما وقالت : " لما فاز بها واحد مش عفت ولا بهجت طلع له فيها عفريت " . وفر الهر هيس بطائرته إلى اسكتلندا حيث هبط بها وعثر عليه أحد الفلاحين الإسكتلانديين . فعرفه إذ سبق له أن رأى صورته في الصحف .

انشغل العالم بهروب هيس ، قيل أنه مختل عقلياً وقيل أيضاً إنه الرجل الثالث في الحزب النازي بعد هتلر وجورنج ، وظهر أن هيس قد أمضى طفولته في مصر . وتعلم في إحدى مدارسها الإنجليزية ، وكان والده يقيم بالإسكندرية قبل الحرب العالمية الأولى وفتح مكتباً كبيراً في الشارع الذي

حمل اسم سعد زغلول فيما بعد ، وكان وكيلاً للشركات الملاحية الألماني ـة وشركات الأدوية والأقلام الحبر والرصاص والأجهزة الكيمائية ، كما أقام بعض الوقت في " زفتى " قبل الاستقرار في الإسكندرية ومن زفتى أرس ـل " روفائيل مسيحة " الحاصل على ليسانس الآداب رسالة إلى الإهرام يقول إن زفتى من أكثر بلاد مصر علاقة بهيس فقد أمضى فيها طفولته م ـع وال ـده صاحب الورشة الميكانيكية ومطاحن الغلال ولا تزال عزبته تعرف باس ـم " عزبة هيس " وبين سكان زفتى من لا يزال يذكر الف ـتى ه ـيس وه ـو في الخامسة عشرة يمشي في شوارع البلدة قبل الحرب الأولى . تساءل صاحب الرسالة في النهاية ترى هل كانت هذه البلدة المتواضعة على شاطئ الني ـل تدرى أنها ستكون يوماً موطن شخصية يتحدث عنها العالم بأسره وهو يجتاز أعظم حرب عرفتها البشرية ؟

وتبارت الصحف في إثبات أن ميلاد هيس كان بالإس ـكندرية ع ـام **1896** ثم التقى مع هتلر عام **1914** في الجبهة الغربية وكان ـا ص ـغيرين متبرمين من الحياة والحرب فاجتمعا على الإحساس بالظلم الفادح الذي لحق بألمانيا وتراملا في الكفاح ، لكن المشكلة أن الألمان الآن يقولون عن ـه إن ـه مجنون . والسكارى فى حانات الإسكندرية يعترفون بجنون ـه ل ـيس لأنه ـم يصدقون الدعاية النازية لكن لأنه عاش طفولته في " زفتى !؟ " ويضحكون ، وكتب أحد الشعراء في المسألة فقال :

أفَ . . ـرارٌ أم خدع . . ـة أم . . ـن جن . . ـون ؟

أم ت ـرى ه ـيس اخطأت ـه المن ـون ؟

إن يك . . . ن ف . . . رّ ف . . . الفرار قب . . . يح
أو يك . ن ج . ن ف . الجنون فن . ون

وفرّ عزيز المصري ومعه الطياران عبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبري بطائرة قصدوا بها روميل في الصحراء لكن الطائرة سقطت بهم قرب قليوب فاختفوا في الريف وصدرت الحكومة ألف جنيه لم ن يرش د عنهم .

وحدث إنزال جوى بالغ الضخامة على جزيرة كريت ، هجوم فريد لم يسبق أن رأى العالم مثله سبقه ضرب جوى عنيف لم دة س اعات وق ال جورنج إن الهجوم المظلى على كريت هو أعظم ما يمكن أن يقوم به س لاح مظلات في العالم .

كان على الإنجليز أمام هذا الهجوم الجبار إخلاء الجزيرة ، وإنقاذ م ا يمكن إنقاذه من جنودهم في السفن إلى الإسكندرية . وترك الملك اليون اني ووزراؤه الجزيرة إلى إنجلترا ، وفي النهاية كان هناك ثلاثة عشر ألف قتي ل وجريح وأسير ، فضلاً عن ألفين من جنود البحرية البريطاني ة ، ووص ل الإسكندرية ستة عشر ألف جندي . كانت كريت أعجوب ة أخ رى م ن أعاجيب الانتصارات الألمانية التي لم يبد حتى الآن أنها يمكن أن تنتهي .

سافر دميان إلى الإسكندرية آخر الشهر وعاد في اليوم التالي مباش رة حيث صرف راتبه وراتب مجد الدين وأمضى ليلة مع أسرته . قال لمجد الدين إنه لم يستطع الابتعاد عنه ، وضحك . وقال . وربما هى أيضاً بريكة تشدني

بعنف . وبريكة هي الأعرابية الصغيرة التي حذرهما نظار المحطة من الاهتمام بها . ورآها دميان تأتي كل يوم في الضحى بأغنامها مع أخيها الصغير فلم يستطع أن يمنع نفسه عن التقدم للحديث معها ، وجدها تحدثه بعفوية وعذوبة فأعطاها شيئاً مما يعطيه له الجنود الهنود الذين تعرف عليهم ، وبصفة خاصة البسكويت والشيكولاتة ،وصارت بريكة تعود تاركة خلفها في الفضاء رائحة الوبر والغنم لا تفارق أنف دميان حتى المساء ، يحمل الرائحة معه إلى البيت ويندهش ويدرك أن قصة ما ستحدث بينه وبين الفتاة الصغيرة ويشعر بالخوف ممزوجاً بفرح غريب . وكانت فتاة في الصعيد قد ماتت ودفنت ثم بعد ستة أيام عادت إلى الحياة فكانت معجزة شغلت الناس لكن أحد الشعراء دعاها للعودة إلى القبر حيث الهدوء ، بدلا من الحياة في هذا العالم القاتل . وفي القاهرة تم تقسيم المدينة إلى مناطق محددة يتبع كل منطقة عدد من الحانوتية لا يحق لهم العمل في منطقة أخرى مما دعا إلى احتجاج عام للحانوتية على هذا التقسيم وتقدموا بعريضة الاحتجاج إلى قلم القضايا الداخلية قائلين إن عددهم كبير بحيث لا يمكن تقسيم القاهرة بينهم ، كما أن موتى مصر الجديدة ليسوا مثل موتى السيدة زينب ، وهذا التقسيم سيجعل موتى كل منطقة تحت رحمة حانوتييها الذين سيحتكرون الدفن والتكفين وسيبالغون في طلب الأجرة لانعدام المنافسة الحرة ، وأطلق سراح عدد من المعتقلين من محجر الطور بينهم عشرون شخصاً من الإسكندرية ، بينهم حميدو الذي أقامت له أمه الزينات على مدخل البيت في الشارع شبه الخالي من السكان الآن حتى إن عدداً قليلاً للغاية هم الذين جاءوا يهنئونه بالعودة إذ عرفوا أن اعتقاله إنما كان بسبب أعماله ضد

الإنجليز وليس لخطورته على الأمن كما قالت الحكومة ، وسمع مجد الـ ـدين ودميان صوت الطائرات الألمانية وهي تمر في الفضاء فوقهم بالليل ، ورأيـ ـا أضواءها الحمراء وانطلقت المدفعية المضادة من أكثر من مكان بالصحراء ، لكن الطائرات كانت عالية للغاية فلم تصب بسوء ، لم ينم مجد الـ ـدين ولا دميان تلك الليلة . جلسا أمام البيت قليلاً ، كـ ـان القمـ ـر يقتـ ـرب مـ ـن الاكتمال .

تساءل دميان :

– ما اسم القائد الألماني الجديد هنا ؟

– روميل .

– اسم مخيف .

كانا يستمعان حينا لضجة ، أو حركة لبعض الجنود بعيداً ، أو عـ ـدة أعيرة نارية تنطلق في الفضاء ، أو دبيب حشرات ليلية لا ترى ، بعد وقت ليس بالقليل رأوا الطائرات تعود والمدفعيية المضادة تطاردها في الفضاء بلا نتيجة ، لقد جاءت الطائرات وعادت أكثر من مرة تلك الليلة .

كانت تأتي مرتفعة فوق الصحراء ، وما تكاد تدخل فضاء المدينة حتى تقترب من الأرض بلا حذر ، بل بتصميم من يعرف أهدافه بدقة ، وكـ ـان أهم أهداف تلك الليلة المدفع الجبار بباب سدرة الذي لم تفلـ ـح الغـ ـارات السابقة في إسكاته . مدفع مضادة للطائرات تدور معه ثلاثة كشافات قوية تمسح له السماء ولا تنقطع قذائف الطائرة طوال الغارة ، استطاعت غارات الليلة إسكاته ودمرت عشرات البيوت في باب سدرة وكرموز ، ما كاد يمر

يومان حتى وقعت غارة أعنف طوال الليل أيضاً شملت الأحياء الوطنية والأجنبية ، واستهدفت السفن والبوارج البحرية اليونانية والإنجليزية الراسية في الميناء ، وكانت القذائف تسقط في الماء فترتفع أعمدة هائلة من المياه تشق سواد الليل ، لكن الغارة لم تصب السفن بسوء بقدر ما أصابت الأحياء الشعبية . خرج الناس فى ذعر بثيابهم إلى السكة الحديد تاركين خلفهم كل شيء ، ووصلوا إلى القاهرة بجلابيبهم وبيجاماتهم وملابسهم الداخلية أيضاً . بينما وصلت نساء كثيرات بقمصان نومهن . تحولت الإسكندرية إلى محرقة لأهلها ومات كثير من العائلات ولم يتبق من بعضها غير طفل واحد أو أمراة واحدة أو فتاة وظهرت لأول مرة مشكلة النساء والفتيات الوحيدات والأطفال المشردين ، وأقيمت على عجل خيام الإيواء بأبي حمص وكفر الدوار ودمنهور وقرى الغربية والمنوفية لكل من ليس له أهل بالريف ، أما الذين لهم أهل فقد وقف أهلهم في انتظارهم بالمحطات حتى أسوان واستقبلوهم بلا زاد ولا مال ولا ثياب ، وجوه شاحبة للرجال وذعر على وجوه الأطفال وحسرة في عيون النساء وحزن مقيم . لقد بدا أن ألمانيا قد قررت تدمير المدينة .

اتسع عمل رجال الإنقاذ في الأماكن المنكوبة ، وانقطعت الخضر والفاكهة عن الوصول وتوقفت السلخانة عن الذبح بعد غارة قصيرة سقطت معظم قذائفها على السلخانة نفسها لقربها من مستودعات الذخيرة العسكرية . ولقد اختلط لحم الباعة مع المشترين بلحم الذبائح ذلك اليوم وسال دم كثير .وقيل أن ألمانيا تعمل على إخلاء المدينة من سكانها تمهيداً لدخولها بلا مقاومة وشن الإنجليز هجومهم على روميل غير أنه بعد يومين ،

في السابع عشر من يونيو ، انقلب كل شيء على عقبـ ـه وبـ ـدأ الحلفـ ـاء يتقهقرون تحت حماية الطيران ويتعقبهم روميل مما جعل تشرشـ ـل ينحـ ـى الجنرال ويفل وينقله ليكون القائد العام في الهند وفي الوقت نفسـ ـه يـ ـأتي بأوكنلك القائد العام السابق في الهند ليكون القائد العام للشرق الأوسط .

كذلك وقعت أربع حوادث كبرى في ليلة واحدة هى ليلة الثاني والعشرين من يونيو. قبض فى أولها على سيدة تسمى بدرية بتهمة تعدد الأزواج ، وفى منتصف الليل وقعت غارتان عنيفتان على الإسكندرية تسـ ـببتا في هـ ـروب جماعي عند الفجر ، وعند الفجر كان ريبنتروب وزير خارجية ألمانيا يقـ ـدم إعلاناً رسمياً بالحرب على الاتحاد السوفيتي إلى سفيره في برلين ،وفى نهايـ ـة الليلة ، كان مجد الدين قد قام وصلى الفجر وجلس متنشياً يقرأ القرآن . لاحظ أن عيني دميان تلمعان في الظلام ، فقال له :

– الليلة وضعت زوجتى يا دميان .

. ...

– لقد رأيتها ، زهرة توقظنى من نومى ، تقدم إلى كوبا مـ ـن اللـ ـبن الدافئ .. هل تعرف ماذا وضعت ؟

. ...

– غلاماً لقد قلت لها إذا حدث تسميه شوقي ، ولابد أنهـ ـا فعلـ ـت ذلك .

****

" كان النهار ..

ولم أكن قد هيأت نفسي لاستقبالك.

ولكنك دخلت قلبي.

بلا دعوة ولا سابق معرفة "

-23-

قبل الهجوم على روسيا كان الفوهرر قد طلب من قادة جيوشه أن لا يعامل الجنود الروس كأسرى حرب . بل يقتلوا ويبادوا . وبعد الهجوم على

روسيا استمع العالم إلى خطبة تشرشل في الإذاعة البريطانية وانتشرت كلماته عن هتلر : " سنقاتله في البر وسنقاتله في البحر وسنقاتله في السماء حتى ننقذ الأرض من شروره ونحرر الشعوب من قبضته وكل من يقاتل هتلر سنمد له يد العون ، وكل من ينحاز إلى جانبه فهو عدونا اللدود "

كانت الجيوش الألمانية الجرارة تكتسح الجبهة الروسية الواسعة الممتدة من القطب الشمالي حتى البحر الأسود ، والطائرات الألمانية تحطم سلاح الجو الروسي على الأرض ، وخمسة ملايين هندي ألماني يغزون المدن والقرى فسقطت " ريجا " عاصمة " لاتفيا " بعد أسبوع من القتال وحدثت معركة فاصلة في " مينسك " فبدأ الروس ينسحبون أمام الألمان انسحاباً كبيراً ، لم تفلح الغارات البريطانية الشديدة على ألمانيا في التخفيف عن الروس ، كذلك لم تفلح الغارات البريطانية هنا في الصحراء على ميناء طرابلس وتدمير سفن ألمانية وإيطالية ، فلقد ردت الطائرات الألمانية والإيطالية بغارة على الإسكندرية التي لم تعد يرى فيها شخص إلا مهاجراً ، وجه ستالين رسالة عبر الإذاعة إلى هتلر ينذره فيها بالخسران الذي لحق بنابليون بونابرت في القرن الماضي ، لكن الروس تراجعوا أكثر إلى خط ستالين الدفاعي وبدأت حرب مدفعية على الحدود المصرية بين الجيشين الثامن والفيلق الأفريقي ، وحضر الملك جورج من إنجلترا إلى الإسكندرية ، واستعرض الفيلق اليوناني ووزع النياشين على جنوده وزارت أم المصريين الإسكندرية ، وبدأت الدعوة للزواج من السكندريات المهاجرات الوحيدات قبل أن تتلقفهن سوق الرذيلة وأنشئت مراكز إطفاء وإنقاذ جديدة وتغير طعم الماء بالمدينة فقيل من أثر القنابل التي سقطت بالمحمودية

وقيل بسبب الطحالب التي نمت في النيل بكثرة واحتفلت البلاد بعيد ميلاد الملكة نازلي في الوقت الذي وضعت فيه فلاحة طفلاً أقرب إلى القرد م ـات فور ودلاته ، كما توفي الرئيس بادفسكي أول رئيس لجمهورية بولندا بعـ ـد الحرب الأولى والذي صار من أكبر عازفي البيانو بأمريكا بعد أن ترك الحكم ، وعرضت الست بديعة استعراض " لازم نضحك " ، ووصل الألمـ ـان إلى أبواب كييف وعبروا نهر " دنييستر " ، وبلغ عدد الغارات على الإسكندرية خلال شهر يونيو أربع عشرة غارة قتلت سـ ـبعمائة وخمسـ ـة وعشـ ـرين ، وجرحت ثمانمائة وخمسين ، وتسببت في هجرة اكثر من أربعين ألف إنسـ ـان وتشريدهم ، وبلغ عدد الجنود المتقاتلين من الناحيتين على الجبهة الروسـ ـية تسعة ملايين جندى في حرب لم تعرفها البشرية ضراوة ، ونجح الألمـ ـان في احتلال سمولنسك وبسارابيا وأخذوا طريقهم ناحية لينجراد ، فاشتد القتال هناك وبُنى بالإسكندرية مائتا مخبأ جديد رغم كثرة المهاجرين ، وظهر نشاط ياباني كبير في الهند الصينية ، حيث احتلت اليابان قواعد جديدة لها ونزلت بجيوشها في المستعمرات الفرنسية ، والغريب أن الشواطئ في الإسـ ـكندرية شهدت زحاماً هذا العام ، وبدأت الدعوة لعودة المهاجرين مـ ـن المـ ـوظفين لإنسياب الأعمال الحكومية وبلغ ما خسره الألمان خلال شـ ـهر في روسـ ـيا مليونا ونصف المليون من الجنود وثلاثة آلاف دبابة وألفين وثلاثمائة طائرة ، وبدأت حرب العصابات الروسية الموجهة ووقعت في مصر أول غارة علـ ـى بورسعيد قتل فيها سبعة عشر وجرح ستون شخصاً ، وبلغ طـ ـول سـ ـعيد غازي ، مائين وخمسة وستين سنتيمترا ، ويئس الأطباء من علاج نمو عظامه بهذا الاطراد السريع لكن سعيد غازى ، صار حديث المرضى في المستشفى

الأميرى ،صار كل زائر لمريض يحرص على المرور بقسم العظام ليرى سعيد غازي ولو من بعيد .. لقد صرفت المستشفى لسعيد كرسيا متحركاً حيث لم يعد قادراً على الوقوف فضلا عن السير والاصطدام بأفاريز الأبواب ، وازدادت قطارات الجنود القادمة إلى الإسكندرية ، وإنجليز وإيرلنديون وسكوتلنديون ومن جنوب أفريقيا وهنود واستراليون ومتطوعون من اليونانيين والفرنسيين واليهود . والقطارات ، تفرغ كل هؤلاء في العلمين التي منها يعاد إرسالهم إلى مرسى مطروح والسلوم ، حيث يجرى القتال المتقطع على الحدود ، وعندما وصلت فرقة من الجنود الإسكتلنديين بزيهم الموسيقى المميز حاملين القرب على صدرهم ، وقفوا مصطفين فوق الرصيف وراحوا يعزفون موسيقى مرحة صاخبة ملأت الفضاء ، ووصل صوتها إلى دميان في البيت ، فجاء مسرعاً إلى المحطة ليروعه المشهد الجميل للجنود السعداء العازفين . تحرك القطار مغادراً المحطة وتحركوا هم على الطريق الأسفلتي الضيق شمالاً ، حيث تقع بعد نصف كيلو متر ثكنات الجنود والقيادة .

- ماذا يفعل هؤلاء الآلاتية هنا ؟

تساءل دميان الذي صار يقف بين ناظر المحطة وعامل التلغرف ومجد الدين .

أجاب هلال ناظر المحطة :

- إنهم جنود اسكتلنديون مهمتهم العزف في القتال .

نظر إليه مجد الدين ودميان بدهشة واستمر هو يتحدث :

– آخر فرقة اسكتلندية جاءت هنا كانت في العام الماضي ، مشت مع الجنود ودخلت معهم ليبيا أيام جرازياني . لم يعد منهم أحد .

– إذن هم يحاربون مع الجنود ؟

هكذا تساءل مجد الدين فقال ناظر المحكمة :

– إنهم يعزفون وسط القتال ، تشجيع يعنى !

وصمت الجميع ثم تفرقوا إلى أعمالهم ، بينما ظل دميان واقفاً وحده قليلاً وسط ضوء النهار الباهر القوي . (يا إلهي . أى ظلم) ، وكانت الفرقة الاسكتلندية قد ابتعدت وسط الثكنات واختفت ، فلم يعد يراها وذاب صوت آلاتهم في الضوء والصمت الكبير . ولأمرة يرى دميان جيداً العتاد العسكري المتفرق على أرض الصحراء حتى انقطاع النظر . مئات من الدبابات الصفراء المغطاة بالشبك الأصفر أيضاً المائل للاخضرار وفوقها أشجار صبار صناعية وشوك للتمويه ، ومئات من العربات التي لا تتوقف عن الحركة ، ويأتي هدير صوتها من بعيد خافتاً ، وصفوف من المدافع الجبارة التي لم تستخدم بعد والمغطاة بالشبك والأغصان وأكشاك صغيرة متفرقة ، وحركة لا تنقطع للجنود داخلين أو خارجين من الأكشاك والخنادق ، وفجأة أحس دميان بحاسة الشم تستيقظ عنده ، لم يطل تفكيره وأدرك أنها بريكة قادمة في الطريق بأغنامها وأخيها وعرقها الصحراوي وظهرت فجأة ثلاث عربات جيب يقودها جنود عراة الصدر قادمة من الشمال مسرعة تتقافز على الأرض غير المستوية ، وشوهد أخو بريكة الصغير يتدحرج وسط الغنم قائلاً " هر .. هر " . منظما حركتها في الشارع

الأسفلتي متوقعاً الخطأ من العربات الجيب . كان هو يـ أتي مـ ـن الجنـ ـوب والجنود من الشمال ، لكنه استطاع أن يتفاداهم ببراعة ، ووقفت بريكـ ـة تتابع حركة العربات المسرعة وتقذفها بكلمات غير مفهومة .

كان دميان يعرف إنها ترعى الغنم خلف المحكة فسـ ـبقها إلى هنـ ـاك . وأقبلت هي رقيقية صغيرة لامعة ثيابها تحت الشمس . كانت هذه أول مرة يري زيا بدوياً ، عرف منها فيما بعد أن هذا الذي فوق هو " حولي " مـ ـن الحرير المشغول على نول يدوي وبه قصب مذهب ، وهو يشـ ـف عـ ـن " مريول " من القطن ، يغطي كل البدن ، أما الذي فوق الحولي فهو حرملـ ـة من الجلد تغطي الصدر حتى الوسط ستخلعها قريباً حين يشتد الحر ، وعلى رأسها " برنوس " من الحرير أيضاً يغطي الرأس كله وينتهي بزهور مصنوعة من الخيوط الملونة والترتر الأصفر والأبيض يبرق في الضوء ولا يترك مـ ـن رأسها إلا خصلة شعر ناعمة تستدير فوق الجبهة فتلفت النظر إلى لمعانهـ ـا ، وإلى الحاجبين الرقيقين تحتهما العينان الواسعتان السـ ـوداوان والأهـ ـداب الطويلة الجارحة ، وكان يلمح عند القدمين ، وفوق الحذاء الصغير المشغول أيضاً بالأسلاك المذهبة والفضية نهاية سروال ذات كرانيش دقيقة .

وتمنى لوحدث له اليوم ما حدث أول مرة التقاها حين توقفت شـ ـاة صغيرة لأمر غير مفهوم جوار قدمه والتصقت بساقه حتى إذا اقتربت منـ ـها بريكة وراحت بعصا رفيعة طويلة تخذها راحت الشاة تلتف حـ ـول سـ ـاق دميان ولا تبتعد أبدا حتى ضحك دميان في النهاية ، وضحكت بريكة الـ ـتي شم رائحة المسك تتضوع من تحت رائحة الوبر العالقة بثيابها . لم يفكـ ـر أن هذه الفتاة الصغيرة قد تتعطر بالمسك أو غيره ، فكر على الفـ ـور أن هـ ـذه

رائحة عرقها . لم يفكر أنه قد مضت عشرة أيام على وصوله هنا – ذلك اليوم الذي التقاها أول مرة – وأن شوقه للأنثى قد بدأ يستيقظ ، لقد وجد نفسه يبحلق في عينيها السوداوين الواسعتين وسمرة وجهها الشاحب قليلاً والنونتين الجميلتين في خديها ، ورأى شفتيها ترتعشان دون كلام ، كذلك وهى تتحدث ، وفوق الشفة العليا زغب ناعم مثير حقاً ورأى كفيها تحت كمي جلبابها صغيرتين رقيقتين يكاد يظهر عظمها تحت الجلد .

– هرّ ... هرّ .

قالت تبعد الشاة التي التصقت بساق دميان وأبت الابتعاد حتى إن دميان اضطر لإبعاد ساقيه عن بعضهما لتدور بينهما الشاة المتلذذة بالوضع ، ولما صار الموقف مربكاً قال دميان :

– اتركيها لى ، لا تكسرى قلبها .

لكن بريكة انحنت وحملت الشاة ورفعتها إلى صدرها ، فاستكانت بين ذراعيها وادعة ذلولا ، وولت خطمها نحو دميان وثغت بصوت رفيع فضحك دميان وبريكة التي قالت :

– تعرفك .

استمرت تضحك وهى تسرع إلى الغنم وأخيها وتركت الشاة بينهما وزعقت " هر "وكذلك أخوها الصغير وابتعد الجميع عن دميان الذى وجد نفسه في اليوم التالي ينتظر بريكة ومعه قطع البسكويت والشيكولاتة .

وتكرر اللقاء كل يوم لوقت قصير حتى وجد نفسه اليوم يقول لها :

– بريكة .. أنا أعرف اسمك من هلال ناظر المحطة . لكنك لم تسـ ـألى عن اسمى :

ابتسمت وقالت :

– إيش اسمك ؟

– دميان .

سكتت قليلاً ثم رددت الاسم "دميان . دميان . دميان " .

وقالت :

– مليح .

تركها قليلاً إلى البيت ، وعاد حاملاً كمية أكبر من الشيكولاتة.

اليوم كانت تنتظره خلف المحطة ، وأمامها غير بعيد ، يـ ـدور أخوه ـا حول الغنم حتى لا تشرد إحداها . أكلت بريكة قطعة شيكولاتة باستمتاع وقدمت لأخيها قطعتين وقال دميان .

– تحبين الشيكولاتة ؟

– نعم . بوي يشتريها لى حين يسافر العامرية ، هذه أفضل .

ووجد دميان نفسه يتحدث بطريقتها :

– إش يدير بوكي في العامرية؟

– يبيع ويشرى .

- يتاجر ؟

- لا . يبيع ويشرى .

سكت دميان مرتبكاً لكنها أضافت :

- يبيع الغنم ويشرى ما نريد . لا يزيد ، لا يربح كثيراً .

فهم دميان وبدا له الأمر معقولاً لكنه وجد نفسه يقول دون إرادة :

- وهذا الصغير ؟

- ماله ؟

- يخبر بوكي إنك جلست معى ؟

ضحكت وقالت :

- أنا أخبر بوي .

أدهشته شجاعتها .. تساءل :

- لا تخافين ؟

- ليش أخاف . نحنا عرب ، بدو ، لا نخاف .

ثم سكتت وقالت :

- اسمك دميان ؟

- أجل.

- اسمك ينفع لبينة !

أدرك أنها تثنى على الاسم ، هكذا فهم ،و أدهشه أنها لم تنتبه لكونه مسيحياً. ربما انتبهت ولم تتوقف عند ذلك . وربما كانت هي أيضاً مسيحية . أجل . إلى هنا هرب مسيحيون قديماً أيضاً كما هربوا إلى الصعيد . لكن ماذا يفيده من كل هذه الأوهام ، أو حتى الحقائق .

وتعددت اللقاءات ، ووجد دميان نفسه مرة يمسك بكفيها يقلبهما أمامه وهي تتركهما له ضاحكة مبتهجة ، لم تكن يديها دافئتين . كانتا باردتين وشيئاً فشيئاً ارتفع الدفء إليهما وسرى منهما إليه . لكن ألا يمكن أن تكون هذه البدوية الصغيرة تعامله كوالدها ولا شيء آخر ؟ يمكن أن لا يفكر في ذلك . النظرة السعيدة العميقة في عينيها تشي بغير ما يفكر ولن يسمح لشيء أن يجرده من هذه السعادة التي منحتها له الصحراء الطيبة على غير موعد .

***

بالليل . أمام البيت وهما ممددان على الأرض يدخنان وعيونهما تلمع في الظلام ، سأل دميان مجد الدين ؟

– قل لي يا شيخ مجد ، هل يمكن لمثلي أن يحب ؟

كانت النسمة الطرية تمشي ثقيلة في الصحراء ، لكنها على كل حال كانت تمشي فترطب من غلّة قيظ النهار . لم تكن هناك قطارات كثيرة بالليل . مجرد قطار واحد يأتي عادة عند الفجر ، فكانت هناك فرصة دائماً لأن يمضياً الليل معاً أو معظمه ، والحقيقة أنهما لم يستطيعاً اقتسام اليوم بينهما في العمل إلا بضعة أيام في البداية . بعد ذلك كان كل منهما يلحق

بالآخر عند المزلقان ، يجد نفسه وحيداً في البيت ويأخذه الضيق فيذهب إلى زميله يجلس معه . وهكذا صارا لا يفترقان في العمل أو في البيت .

كان عامر قد مر بهما منذ قليل تاركاً مكتب التلغراف لينام مبكراً كالعادة فلا أحد يرسل برقية بالليل . لا أحد يرسل برقية بالنهار أيضاً الآن . ليس من عادات البدو إلا البرقيات ، الجنود القادمون من خلف المحيطات والبحار لديهم طرقهم العسكرية الخاصة لإرسال البرقيات . لقد توقف عامر أمامهما بعد أن ألقى السلام وردا عليه ونظر حوله ثم سألهما :

– هل تعرف من أرسل آخر تلغراف اليوم من المكتب ؟

تأملاه قليلاً فى ارتباك ، لكن دميان ضحك قال :

– محمد عبد الوهاب .

– لا.

– إذن هو الملك فاروق .

ابتسم مجد الدين لكن عامر لم يبتسم . ظهرت السخرية في عينيه من كلام دميان وقال بهدوء :

– أنا الذي أرسلته .

نظر دميان إلى مجد الدين الذي بانت الشفقة في عينيه وقال لعامر :

– اجلس معنا قليلا يا عامر ، لابد إنك زعلان من شيء ، اجلس وتكلم وفوجئا بعامر يجلس أمامهما . قدم له مجد الدين سيجارة تناولها

الرجل بأصابع مرتعشة . أشعلها له دميان ، وراح هو ينفث دخانها بهدوء ويتكلم كأنه يحدث نفسه .

– أى والله كان مني أنا ، أرسلته لمراتي ، طلبت منها أن تحدثني عن الأولاد .

وسكتوا لحظات ثم تساءل مجد الدين :

– عندك أولاد يا عامر.

وعادوا إلى السكوت حتى قال عامر :

– ليس عندى أولاد يا شيخ مجد . أنا لم أنجب .

وحط صمت أعمق من كل مرة . كان مجد الدين قد تلقى برقية حقيقية تعلنه بولادة زهرة لغلام حمل الاسم الذي أراده ، شوقي ، قال لدميان في فخر " تماماً كما رأيت في المنام " وبقدر ما أحس بالأسف لعدم قدرته على السفر أحس بالرضا لأن الله استجاب له وأعطاه الولد ... لقد فكر فر ذلك كله الآن ، بينما قام عامر وأنصرف وسط الظلام فراحا يتأملاه معاً ، وفجأة قال دميان :

لم تجبنى عن سؤالي يا شيخ مجد ؟

– أى سؤال يا دميان ؟

– سؤالى عمن أحب .

– ماذا تقول يا رجل . اعقل . نحن فقيراً يا دميان . ثم إنك متزوج ولديك أولاد .

وسكتا وبدا دميان غير مقتنع بكلام صديقه . فكر كيف يمنع الفقر الحب ، ولماذا يكون على المتزوج أن لا يحب غير زوجته وبيته ، لقد تحرك قلبه ناحية بريكة ولا قدرة له على إيقافه . تساءل :

– ماذا حدث لو أحب مسيحي مسلمة ؟

ولم يرد مجد الدين . تذكر على الفور قصة رشدي وكاميليا . القصة التي يعرفها دميان تعود معكوسة هذه المرة لكنها القصة نفسها لا جدال ، فكيف إذن يسعى دميان بقدميه إلى الجحيم ؟ وسمع دميان يقول " دنيا لبؤة وزمن خئون " وهنا قال مجد الدين :

– لا الدنيا لبؤة ولا الزمن خئون يا دميان . نحن الذين نجلب المتاعب لأنفسنا ، ليس من المعقول أن تضعف في السيطرة على قلبك إلى هذا الحد .

– قلبي غلبني يا شيخ مجد . قلبي تعلق بالعذاب لا أستطيع منعه . لم أكن أقصد . أنا لم أقصد أن أفعل أي شيء في حياتي . هل قصدت أنا أو أنت أن ننتقل للعمل هنا في العلمين وسط الصحراء ؟ بل هل قصدنا أن نلتقي أصلاً .

لم يجد مجد الدين جواباً وفكر في شيء يقوله يخفف من حدة دميان وانفعاله . بعد قليل قال :

– الرجل منا بعد الأربعين تهفو نفسه إلى الفتيات الصغيرات ، لو تجمَّل قليلاً بالصبر مرت الأزمة بخير .

لكن دميان كان يفكر في سبب آخر لحب بريكة . ربما لأنها تأتي من وسع . من أين تأتي ؟ لا يعلم . يسألها فتقول " من غادى " وتشير إلى الجنوب .. إلى أين تذهب هى والغنم وأخوها ؟ لا يبدو أبداً أنها ذهبت إلى مكان معروف خيمة أو بيت أو نجع . يبدو له دائماً أنها صعدت إلى السماء أو نزلت إلى سابع أرض . تأتي من عند الله وتعود إليه ، هى دائماً تأتي من وسع . تظهر فيتسع صدره بالهواء الذي لا يعرف مصدره في هذا القيظ . وقال كأنه يحدث نفسه :

– حياتك في غيط العنب زنقة يا شيخ مجد . بالكاد نشم قليلاً من الهواء على المحمودية ... هواء ثقيل غالباً يفسده عليك قتيل يمر فوق الماء ، هذه البنت لغز يا شيخ مجد ، كما تأتي تروح . ربنا هو الذي أرسلها لى كي تشغلني . أنا لا أرفض ما يرسله الرب . هل أستطيع ؟

وسكتا ... ورأى مجد الدين دميان وهو يمسح دمعة بأنامله .

***

" وجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا

أن نقبل بعضنا بعضا

بقبلة طاهرة "

-24-

أعلن دميان أنه من الغد لن يأكل البولوبيف واللحوم والبيض والجبن وكل ما أصله روح ماعدا السمك . من الغد سيبدأ صوم العذراء الذي يستمر أسبوعين .

كان الغد هو السابع من أغسطس ، وأول مسرى ، ورأي دميان مجد الدين قد شرد عنه قليلاً فقال :

- تذكُر أني حدثتك عن الصوم الكبير أقدس أصوامنا الذي ينتهي بعيد القيامة ، وها هو صوم العذراء ، وهناك صوم الميلاد ومدته ثلاثة

وأربعون يوماً ، وينتهي بعيد الميلاد في السابع من يناير ، وهناك صوم يونان لثلاثة أيام . هل تعرف يونان ؟ إنه مذكور في القرآن . لقد ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام . وخرج ليعظ أهل نينوي ويهديهم للإيمان .

كان مجد الدين يفكر كيف نسى الشهور القبطية التى لم يكن لينساها أبداً . لا يوجد فلاح لا يعرف الشهور القبطية ولا يتابعها ، وها هو يسمع من دميان أن الغد أول مسرى ، لكنه انتبه إلى الكلام فقال :

– إنه سيدنا يونس عليه السلام .

وسأله دميان :

– طيب . هل تعرف نينوى ؟ اسم حلو لكن أهلها كان أشراراً .

– أظن نينوى هذه بالعراق . و أظنها بلد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

– أنت تعرف أشياء كثيرة يا شيخ مجد الدين . أشياء كثيرة جداً . في صيام يونان نمتنع عن الأكل نهائياً ثلاثة أيام ، ومنا من يصومها يوماً يوماً حسب القدرة . كذلك نصوم الأربعاء والجمعة من كل أسبوع طول العمر ماعدا الخمسين يوماً التالية لعيد القيامة . أيام الخماسين في مصر ، وهي الفترة التى ظل فيها السيد المسيح على الأرض بعد القيامة . نصوم الأربعاء لأنه اليوم الذي اتفق فيه اليهود على صلب المسيح ، ونصوم الجمعة لأنه يوم الصلب نفسه ، وهما يومان للصوم المقدس لا نأكل فيهما السمك مثل الصوم الكبير تماماً .

عاد مجد الدين إلى شروده . كيف حقاً لصديقه بهذه المعارف الدينية وهو الذي أمضى حياته شارداً متشرداً لم يتردد على الكنيسة إلا منذ عام ؟

وتساءل مجد الدين باسما :

– لكنك لا تصوم الأربعاء ولا الجمعة .

صعب عليّ يا شيخ . أنا أيضاً لا أصوم يونان . لا .أقصد : لم أتعود . وسبق وقلت : إن أيامنا لا تختلف كثيراً عن الصيام . أنا أصوم أكثر مما هو مفروض – سكت دميان قليلاً ثم تساءل فجأة – هل كل قصص الأنبياء موجودة فى القرآن .

– نعم .

– وهي أيضاً موجودة في العهد القديم . سبحان الله . على أي حال أحببت أن أعلمك بصيامي حتى لا تتقيد بطعامي .

– سأصوم معك يا دميان. سآكل مما تأكل وأمتنع عما تمتنع ؟

وكالعادة مشى الوقت . كتب مجد الدين خطاباً أرسله إلى زهرة مع الأبونيه رضوان أكسبريس . طلب منه أن يضعه في أقرب صندوق بريد بالإسكندرية . كذلك طلب منه دميان أن يمر على عائلته بغيط العنب . ليطمئن عليهم بعد الغارات الثقيلة في الأيام الماضية . وضحك دميان وهو يقول لرضوان " أخيراً وجدت لك عملاً وزبائن . حمَّله بكرتونة مليئة بالشاي والبسكويت والجبن الشيدر والبلوبيف والشيكولاتة ليوصلها إلى عائلته ، كما قدم هو ومجد الدين له عدداً من علب الشاي والبلوبيف

والجبن فبدا مسروراً غاية السرور . صحيح أنهما لن يستطيعا إرسال أشياء معه كل يوم ، ولا حتى كل أسبوع ، لكن هناك شيئاً يفعله بدلا من هـ ـذا الفراغ المعتم .إنه لم يقابل في القطار أحداً من المسافرين بعد لقائه بمجد الدين ودميان ، فقط قليلاً من البدو ، يدخل الواحد منهم إلى العربة فيجده جالساً ينظر إليه بحذر ثم يترك العربة كلها إلى أخرى ، وإذا حدث ودخل العربـ ـة جماعة منهم جلسوا معا يتحدثون بسرعة فلا يستطيع متابعة حـ ـديثهم ولا فهمه ، رغم أنه قبل الحرب ، أيام الزحام ، كـ ـان يفهـ ـم كـ ـلام البـ ـدو ويتحدثه .ما الذى حقا جرى له ؟ منذ بدأت الحرب يستسـ ـلم للفـ ـراغ ، ويغط في النوم فوق الكرسي وحيداً في العربة الواسعة .

كان دميان قد تغير شكله كثيراً . ضربت السمرة وجهه من أثر الحر والصهد ، وخلع لباس عمال السكة الحديد المميز ولبس لباس الجند الصيفي ، شورت كاكي وقميص بنصف كم ، وبانت ساقاه رفيعتين للغاية فـ ـوق حذائه الأسود العسكري الضخم . وسأل دميان ناظر المحطة أن يفعل مثله ، في اليوم الثاني ظهر الناظر (هلال) فى الملابس العسكرية كذلك عـ ـامر ، لكن مجد الدين ظل على حاله ، الذي يدهش دميان أن مجد الدين ، وهـ ـو الأبيض البشرة مثله ، لا تضرب فيه السمرة ، بل يزداد وجهه احمـ ـراراً ، ولولا أنه يعيش معه في بيت واحد لقال عنه إنه يدهن وجهه بزيت سحري ، او يشرب الخمر بكميات كبيرة . أجل . لشاربي الخمر وجوه حمراء دائماً . هكذا معظم اليونانيين والإيطاليين بالإسكندرية ، صحيح أحياناً ينطفئ لون وجوههم كما يحدث مع كثير من القبارصة لكن هؤلاء في الحقيقة يشربون الخمر كثيراً ولا يأكلون . هم أفقر الأجانب بالإسكندرية لا يتفوق علـ ـيهم

في الفقر غير اليهود ، لكن البنات اليهوديات جميلات دائماً . هكذا قال دميان لنفسه وهو يشعر بالزهو لهذه المعارف التي تتدفق في رأسه .

أحس بشوق شديد إلى زوجته . سأل فجأة :

– يا شيخ مجد . هل سنظل دون نساء ؟

بوغت مجد الدين حقاً بالسؤال ، لكنه قال بهدوء :

– حكمة الله يا دميان ، ثم إنك تستطيع أن تسافر إلى زوجتك .

– وأتركك !؟

– أستطيع أن أقوم بعملك حتى تعود . كما ترى نحن تقريباً نعمل معاً .

يمكن لك أن تمضى بالإسكندرية الوقت الذي تشاء . لا أحد يأتي للتفتيش علينا .

– والضابط سبايك ؟

– إنه في النهاية إنجليزي ، لن يخاطب الحكومة المصرية من أجل عاملين . ثم إنني سأقوم بعملك كما قلت .

– لكنى فكرت في شيء آخر .أنهم يقيمون للجنود حفلات ترفيهية . تأتي فتيات الأتسا للترفيه عنهم مرة كل شهر ، مارأيك أن تطلب من سبايك الترفيه عنا بفتاتين يهوديتين .

ضحك مجد الدين بشدة ، وقال إنه لو طلب ذلك من سبايك يمكن أن يقتله . وضحكا معاً ، وفكر دميان في سهولة سفره إلى الإسكندرية . وإنه بهذه الطريقة لن يعاني أزمة من الجنس . مجد الدين هذا شيخ عجيب . يقدم أصعب الحلول بسهولة شديدة . كيف حقاً لم يصل دميان إلى هذا الحل وبدا له دائماً مستعصياً مع قربه ؟

– هذا هو الفارق بينه وبين مجد الدين . لو لم يكن مجد الدين فلاحاً أو عاملاً بالسكة الحديد لكان سياسياً وربما قائداً عسكرياً . لكن دميان سرعان ما ادرك أنه لن يستطيع السفر . إذ ليس من السهل عليه أن يترك مجد الدين وحيداً في هذا الفراغ . يا له من شعور جميل هذا الذي يحس به ناحية صديقه . يدرك ذلك حين يسافر لصرف المرتب نهاية كل شهر . لا يستطيع البقاء في الإسكندرية أكثر من ليلة على كثرة شوقه لزوجته ، لكنه أيضاً لا يستطيع الانقطاع عن رؤية بريكة . ربما هي السبب الحقيقي لبقائه ، لكن حبه لمجد الدين سبب قوى بلا جدال .

***

بالليل ، في ليلة عيد العذراء ، بعد آخر يوم صيام ، قام دميان من نومه على صوت خافت يتردد في الغرفة . كان مجد الدين قد أطفأ لمبة الغاز والظلام شديد للغاية ، لكن عيني مجد الدين تلمعان في الظلام وصوت أنفاسه يرتفع . جاءه صوت دميان من الجانب الآخر :

– مالك يا شيخ مجد ؟

– لا شيء يا دميان .

– لكنك تبكي . هل تذكرت زهرة والأولاد ؟

ولم يرد مجد الدين . لقد أحس الليلة بمدى الظلم الفادح الذي وقع عليه ، كيف حقاً يتحمل أن لا يرى زهرة بعد الولادة ولا يرى ابنه المولود . لماذا حقاً لا يستطيع أن يسافر ؟

كيف ترك نفسه فريسة لكل هذا الظلم ولم يقاوم ؟ ما الذي في صدره يجذبه بعيداً عن القرية ويجعله يرضى كما لو كان الخروج عنه ؟ الحقيقة أنه ظلم نفسه بقدر ظلم العمدة له .

– أجل يا دميان ، تذكرت زهرة والأولاد لكني حمدت الله . بكيت لحظات ثم حمدت الله وشكرت فضله .

وسكت ، وبدوره دميان سكت لبعض الوقت ثم قال :

– تعرف يا شيخ مجداً أحياناً يخيل لى أننا سنجن هنا . أنا أحب بنتا صغيرة لا أعرف من أين تأتي أو تذهب ، وأنسى أهلى . وأنت تتذكر أهلك ولا تفكر في الذهاب إليهم . هل كان مجنون ليلى يعيش في صحراء كهذه ؟ إذا كان كذلك فلقد كان على حق في جنونه .

ضحك مجد الدين في النهاية واستمر دميان في الحديث لكن كما لو كان لنفسه :

– أجل . إذا حدث وأصيب أحد بالجنون فلابد أن يكون على حق – ثم قال لمجد الدين – وقريباً سيلتمس لنا الناس العذر . أقصد أنا وأنت .

ابتسم مجد الدين من هذا الحديث العجيب الذي يتدفق مـ ـن دميـ ـان الذي نهض للتو من نومه .

– تقصد أن الصحراء ستصيبنا بالجنون ؟

– لا .. هذا الظلام الذي حولنا . لا أحد يتحـ ـدث في الظـ ـلام الآن غيرنا في كل الدنيا . نم يا شيخ مجد . أنا سأنام . غداً عيد العذراء . لابد أن أجد عدداً من الجنود الأجانب يحتفلون بالعيـ ـد . سأمشـ ـي لأول مـ ـرة في الصباح . ناحية ثكنات الجنود لعلى أجد قداساً أشاركهم فيه . اسمع يا شيخ مجد .. اقرأ بعض آيات القرآن لتساعدك على النوم هادئ البال .

وسكتا قليلاً ، لكن مجد الدين تساءل :

– ماذا تقولون في القداس يا دميان عن ستنا مريم ؟

– نقول كلاماً كثيراً لا أحفظ منه إلا القليل .

وراح يرتل بصوت عميق :

مجـ . . . . ـد مـ . . . . ـريم يتـ ـعظـ . . . . . . ـم
في المشـ . . . . ـارق والمغـ . . . . ـارب
كرمّوهـ . . . . ـا عظّموهـ . . . . ـا
ملّكوهـ . . . . ـا في القلـ . . . . ـوب
قـ . . . . . ـد تلالـ . . . . ـت وتعالـ . . . . . ـت

***

– الصافي .. النعيم ... هذا اسم جميل يذكرنا بالجنة .

هكذا دار الحوار بين الجندي السوداني ومجد الدين ، ودمي ان يق ف مندهشاً حتى أنه قال :

– ظننتك تقول إن شخصاً مات وانتقل إلى جنة النعيم .

ضحك الجندي السوداني الطويل الضخم ولمعت أسنانه البيض اء في الفضاء المنير .

لقد نمت صحبة بين مجد الدين ودميان وعدد من الجنود الهنود من ذ الأيام الأولى ، حينما شاهد مجد الدين ساعة الحائط في حجرة ناظر المحط ة اطمأن على تحديد مواقيت الصلاة ، لكنه ما لبث أن سمع في الي وم نفس ه أذان العصر يتردد وسط الصحراء رفيعاً شجياً نبيلاً وإن لم يحدد مص دره وعرف أن بين الجنود من الهند مسلمين كثيراً ما تأتي جماعات منهم إلى المحطة لإفراغ قطارات المعدات الحربية .

ووجد مجد الدين نفسه يقف عند المغرب على رصيف المحطة وي ؤذن ،كان يعرف أن الهواء سيحمل الأذان وراءه ناحية الجنوب لذلك أذن بقوة كبيرة وبعدها وقف يصلي المغرب وخلفه هلال وعامر ، في اليوم التالي أقبل أحد الجنود الهنود . شاب صغير أسود البشرة ، يميل سواده إلى الاصفرار ، مربع الوجه ضيق العينين لامعهما ، بل وتشع عيناه ذكاء وفوق رأسه العمة

الهندية الشهيرة . جاء يسأل عن الذي أذن المغرب أمس . قال إن صـوته جميل . ووعد بأن يأتي عند الظهر يصلي خلف مجد الدين . عند الظهر جاء ومعه عدد من زملائه لا يكفون عن المرح . هؤلاء هم الذين راحوا يقدمون كميات كبيرة من البسكويت والشيكولاتة والشاي والجبن والبولوبيف العدس أيضاً والأرز لمجد الدين ودميان وهلال وعامر معاً ، وسمع مجد الدين أسماء لم يسمعها من قبل عن بلد لم يكن يصدق أنها موجودة . كل النـاس تعرف أن هناك دولة اسمها الهند ، لكن أن ترى منها أحدا فهـي معجـزة حقيقية . محمد زمانا ومحمد صديقي وويلايات خان وكرم سنج وتشوهرى رام وراج بهادور وغلام سَروْر وأرشاد وجنّة وإقبال مسلمون وهنـدوس لا تزيد أعمارهم على الثامنة عشرة بل وأكثرهم في السادسة عشرة . أطفـال لا أكثر حملتهم الإمبراطورية البريطانية إلى بلاد غير بلادهم . من بيشـاور ولاهور وكراتشي وبومباي وكشمير لم يفكر أحد أبداً يوم ميلادهم أنهـم سيحاربون في الصحراء المصرية جيوشاً من أوروباً وفي الأغلب سيموتون .

كان عامر قد دخل في اكتئاب عميق فصار يمضـي اليوم في مكتـب التلغراف ينقر بأصابعه على المنضدة ولا أحد يأتيه ببرقيات ولا يستقبل برقية من أحد ، أما هلال فكان ينام معظم الوقت في انتظار الركـاب الـذين لا يسافر منهم غير واحد أو اثنين من البدو في اليوم ، لكن كان يضـاف إلى عمله تنظيم الحركة ، ضبط التحويلات الأرضية ، فهناك خط حديدي قديم ينتهي أمام المحطة وهو الخط الذي تبيت فوقه القطارات التي تـأتي حاملـة العتاد العسكري حتى تتحرك عائدة فارغة في اليوم التالي ، كذلك كان عليه تشغيل السيمافور ، وإرخاء ذراعه المقسمة الألوان بين الأبـيض والأسـود

حال تحرك القطار ، ويفعل ذلك من تحويلة مجاورة للرصيف ، وكذلك تغيير زيت القنديل المثبت في مؤخرة السيمافور مرة كل أسبوع وإشعاله بالليل كل مساء . كان هناك إذن مبرر لبقائه .

اليوم انضم الصافي النعيم إلى الجنود الهنود ، جاء وحده دون دعوة من أحد . قال إنه كان يسمع الأذان يأتي من ناحية المحطة ويندهش ، ثم رأي الهنود يتسربون وقت الصلاة ناحية المحطة فقرر أن يتبعهم . لقد تأخر لكنه أخيرا فعلها . وقال دميان ضاحكاً :

– شكلك يقول إنك من السودان !

بانت الدهشة والابتسامة على وجه مجد الدين ، وقال الصافي النعيم بأدب :

– من أم درمان .

– أطيب ناس .

قال دميان ولا يزال مجد الدين في دهشة . كان يعد الشاي على نار جوار الكشك الذي تركوه وجلسوا خلفه عند المزلقان ، قدم كوباً من الشاي للصافي الذي رشف منه وقال :

– شاي تقيل حلو .

قال دميان :

– شاي إنجليزي .

قال الصافي النعيم :

– لا .. شاي سيلاني يعبئه الإنجليز ، لكن الأهم أن الصنعة عربي .

– الله ... الله ... الله . يفتح عليك يا صافي يا نعيم يا حتة من الجنة !

هتف دميان مثل طفل وضحك مجد الدين بسعادة وسكتوا ليسأل الصافي دميان عن اسمه :

– دميان .

عادوا للسكوت .. سكوت سرت فيه نسمة طرية . كانت الشمس قد أوشكت على الاختفاء تاركة الفضاء للظلام ، الحمرة تعم الأفق وتشعل فيه النار . وكان الوقت العاشر من أغسطس الموافق منتصف رجب ، فبدأ البدر في الصعود مبكراً وليس أجمل من الصحراء وفوقها البدر وقال الصافي :

– دميان اسم جميل ، اسم قديس !

كان دميان قد سكت معتقداً أن اسمه قد صدم الصافي ، أو بالأحرى ديانته ، لكن جاء الأمر مخالفا لاعتقاده فقال :

– أشكرك يا أخي .

وبعد لحظة سأله مجد الدين :

– هل توجد هنا فرقة سودانية ؟

– فرقة كبيرة جداً ، هل تخمن عددها ؟

هكذا أجاب الصافي فقال دميان :

– ألف ؟

– لا .

– خمسمائة ؟

– لا . لن تعرف . أنا أريحك . اثنان فقط . أنا وسراج خليفة . سراج في مرسى مطروح يعمل بخدمة مكتب القائد العام ، المستر كانينجهام الآن . أنا هنا . كنت أتعجب من حاجة الإمبراطورية البريطانية لنا نحن الاثنين من السودان ، لكنها الآن فرّقت بيننا ، وتحتاج إلى كل منا في موضع بعيد عن الآخر . لم تعد تفيدني الدهشة . لابد أنني أساوي الفرقة اليوزيلاندية أو الهندية ، وإلا لما احتفظوا بكل منا على حدة ، أنتما أيضاً هنا وحدكما . ماذل تفعلان . لا شيء، يمكن للجيش أن يقوم بعملكما لكنكما هنا مثلنا .

بعد صمت طويل انتهوا فيه من شرب الشاي قال مجد الدين :

– ربما نحن هنا لنلتقي بك ونعرفك ، وهذا وحده يسعدنا وزيادة .

***

جاء برد الصحراء من السحب السوداء تتدافع كالثيران الهمجية إلى الشرق فوق البحر وفوق البر . يقول دميان لنفسه " من هنا إذن يذهب المطر إلى الإسكندرية كما تذهب الغارات " وفجأة هتف يسأل مجد الدين" من الذي وضع الإسكندرية في مكانها ؟ " ولم يجبه مجد الدين ، وإن تأمله باندهاش شديد .

لقد تغيرت ملابس الجنود . لبسو السراويل الطويلة والسترات الصوف فوق القمصان التي صارت بأكمام والجوارب السميكة حتى أسفل الركبة والأحذية الشمواه مرتفعة الرقبة ووضعوا في فوهات بنادقهم قطعاً من الخرق حتى لا تتسلل إليها الندى بالليل إذا كانوا بالخلاء .. ارتفعت في الأرض الواسعة المظلمة التي حجبت السحب نجومها وقمرها ألسنة النيران العشوائية يصنعها الجنود ، الهنود بصفة خاصة ، من مخلفات الصناديق والكراتين للتدفئة . وبدا أن هناك استرخاء عسكرياً ، فالقطارات لم تعد تأتي بعتاد ولا جنود من الشرق ولا أسرى من الغرب . لم ير مجد الدين أو دميان جديداً غير الهندي الضخم الذي يتجاوز الأربعين من العمر ، والذي يمشي في خيلاء الفيل ، صاحب العمة الضخمة الذي جاء أكثر من مرة مع الهنود الشباب ولم يشاركهم الصلاة . جلس بعيداً مع القليلين من الهنود السيخ ، إنه العريف بهادور شاند من كشمير التي تمتلئ بالمسلمين والسيخ معاً ، ويثير الإنجليز بينهم الفتنة دائماً . حين رأي مجد الدين العريف بهادور تعجب من قدرة الله على خلق كل هذه الأمم والشعوب ، وتذكر الآية (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وتمنى لو استطاع أن يلم بالكثير من الإنجليزية والهندية ليفهم شيئاً مما حدث في هذا العالم الواسع.. ما أعظم الخالق الذي يسيطر على هذا كله . والذي ألقى في طريقه بدميان فجعل أيامه سهله رغم أنه فى مكان لو ترك فيه القرد لضج وهرب . دميان يعود كل يوم بعد انصراف بريكة في حالة من السعادة الطفولية ، بدميان فقط تمر الأيام ، وبدونه صمت مقيم . ها هو شهر قدج مضي بعد عيد العذراء ، وغداً يبدأ شهر رمضان ، فوجئ مجد الدين بدميان يقول له :

- جاء دوري لأصوم معك يا شيخ محمد .

....

- ألا تصدقني ؟ وسأصوم معك الشهر كله .

- صيامنا صعب يادميان . انقطاع عن الطعام والشراب طول النهار .

- هذا أفضل من أن يأكل كل منا وحيداً في الصحراء .

هكذا أجابه دميان بسرعة . لقد حدد هدفه من قبل بوضوح وكان لديه المبرر القوى مما جعل التأثر يظهر على مجد الدين ، وسكت الصديقان طويلاً ثم تكلما :

- متى تعود إلى الإسكندرية يا دميان ؟

تقصد إلى البلدة . أنا أعرف أن رمضان شهر يحب اللمة ، ولو انضم إلينا بعض الهنود نصبح أسرة عالمية .

وقال مجد الدين على غير إرادة :

- طال شوقي يا دميان .

باغته دميان مندهشاً :

- كيف حقاً لا تسافر ؟

ولم يجد مجد الدين مناصاً من أن يحكى الحكاية من أولها . أحس أنه في حاجة إلى أن يحكى لأحد .. هى لحظة غريبة تلك التي تداهم الإنسان فيجد نفسه في حاجة إلى أن يكشف ما اجتهد في اخفائه وقتاً طويلاً ولا يستطيع

الإنسان أبدا أن يهرب من هذه اللحظة حين تداهمه . يمتلئ صدره بشجن ثقيل يصعد إلى عينيه حزناً نبيلاً ، ويبدأ في الحكاية وإفشاء السر الثقيل .

شغلت حكايته معظم الليل . كان دميان يسمع مسحوراً . وقال وهو يتناول طعام السحور مع مجد الدين :

–كل ذلك تحملته وحدك يا رجل ؟

– إرادة الله يا دميان .

– لكن الله لا يمكن أن يرضي بكل هذا الظلم .

– استغفر الله يا دميان.

– ياشيخ مجد أفضل ما تفعله هو أن تأخذ بندقية من أحد الهنود وتسافر إلى القرية وتقتل العمدة وتعود . لا أحد سيفكر فيك ولا أحد سيعرف مصدر الرصاص الهندي !!

وسكتا بعض الوقت .

– لوكنت أريد كنت قتلته من زمان . أنا خرجت لأمنع إهراق الدم ، وأيضاً لأني كنت أريد . أجل كنت أريد الخروج لا أدري لماذاً .

– لا بد أن تعود ياشيخ مجد ..

– سأعود يا دميان ... سأعود لابد .

***

انقطعت بريكة في رمضان كثيراً عن الحضور ، حتى العيد لم تظهر غير خمس مرات سريعة . قالت لدميان إنها تستعد " للجلاسة " فلم يفهم ولم يهتم .

في العيد صلي الهنود المسلمون و الصافي النعيم صلاة العيد خلف مجد الدين ، هنأوه وهنأهم . لم يكن هناك شيء يمكن لمجد الدين أن يفعله غير إرسال برقية لزهرة وأخواته يهنئهم . فرح عامر كثيراً بالبرقية وما كاد مجد الدين يترك الغرفة حتى سمع صوت عامر يبكي خلفه . هذا آخر يوم لعامر في العمل . لقد سافر مع القطار العائد في المساء . سافرهكذا دون أن يخبر أحدا وترك غرفته مفتوحة للريح . " ماذا يفعل .. كاد يجن " قال دميان ضاحكاً لمجد الدين وهلال الذي كانا صامتا ، ثم عاد دميان يقول " يحق لنا أن نفعل مثله . نهرب . ماذا يضير الحلفاء من اختفاء ثلاثة مصريين تعساء ؟ " ومضي العيد في صمت . لا قطارات من أى نوع . بعد العيد ظهرت بريكة . كان يوماً مشمساً على غير العادة .

– لماذا لم تعودي تأتين كثيراً ؟

سألها دميان في ألم . قالت ضاحكة :

– بسبب المطر .

– لكنك تأتيت في بعض الأيام ؟

أجابته بلهجتها البدوية .

–أيام ما يكنش فيها مطر .

– تعرفينها ؟

– نحن البدو نعرف الريح من مطرحها

سكتنا . تأملته باسمة . ثم سألته :

– إيش تشتغل هنا يا دميان ؟

باغته السؤال . كيف حقاً لا تعرف عمله ؟ أدرك أنه لم يخبرها بنوع العمل .. أجاب :

– أشتغل في المزلقان .

– أعرف إيش تدير ؟

– لا شيء .. يأتي القطار فأمنع مرور السيارات والناس . يمشي فأترك السيارات والناس .

– عجيب !

– العمل ؟

– إني ما شايفاش سيارات ولا ناس . شايفاش قطارات .

ارتبك دميان بحق . ماذا تفعل به هذه الفتاة اليوم . هذه الفتاة التي يخفق قلبه كلما رآها كطفل يتيم ظهر له فجأة أبوان . هذه الفتاة التي يحبها ولا يعرف كيف يعلنها بالحب .. ووجد نفسه يسألها بدوره :

– من أين تأتين يا بركة ؟

– من جبلي .

– قالت ذلك وأشارت إلى الجنوب .

– وإلى أين تذهبين بعد الرعي ؟

– إلى جبلي . ماريتنيش ؟

– ريتك .

أجاب على طريقتها مدركاً سخافة سؤاله . فلقد سبق لـ ـه . وسـ ـألها الأسئلة نفسها من قبل . لكنه قال :

– إيش الجلاسة التي كلمتيني عنها من قبل ؟

ضحكت طويلاً وقالت :

– تريد تشارك فيها ؟

– أنا لا أعرفها .

استمرت تضحك وقالت :

– اسمع إلعب معي . أسألك وتجيبني ، وأنت اسألني وأنا أجيبك .

سكت يأساً . وبدأت بالإسئلة . قالت :

– إيش حلى م العسل وايش مرّ م الحنظل ؟

لم يعرف أي إجابة فقالت :

– ما أحلى من العسل إلا لعب العييل على الـ ـدبش .وأشـ ـارت إلى أخيها الصغير – وما مرّ من الحنظل إلا شيل الرجيل على النعش .

وأشارت إلى أحد الجنود الهنود الذي كان يمر أمامها بالصدفة مبتسماً لها .

وفكر دميان أنه من اللائق أن يخرج عن سكوته . أن يلعب معها . ألا يحبها ؟

وبدأ جسمه يرتعش وهو يقدح ذهنه ليسألها قال :

– طيب . أسألك أنا . إيش يغلب النار ؟

ضحكت وقالت وهي تلكزه في صدره :

– تغلبها المية .

–كسبتيني .

– لا . لسة ماكسبتكش . دورى أسألك .إيش يغلب المية ؟

فكر قليلاً وكاد يقول الحائط لكنه أدرك أن الماء يسـ تطيع الـ دوران حول الحائط أو اختراقه مع الزمن . طال سكوته وتفكيره . قالت ضاحكة :

– تغلبها الصعودة !

وأدرك دميان أن ذكاءها خارق ، وأحب أن يهزمها بحـ ق . لكزهـ ا برفق في كتفها وسألها :

– وإيش يغلب الصعودة ؟

قالت بسرعة ضاحكة :

– تغلبها الخيل ، والخيل يغلبها الفرسين ، والفرسين تغلبها النساء .

- تعرف إيش يغلب النساء ؟

- الرجال .

ضحكت طويلاً وقالت :

- لا . النساء يغلبهن الموت يا دميان .

ووقفت تنادي أخاها ليسوق الغنم . أشارت إلى السماء التي بدأت تمتلئ بالسحب ، فهم دميان أنها تريد أن تسبق المطر . سألها :

- لم تشرحي لى ما الجلاسة .

قالت ضاحكة :

- اليوم عملنا جلاسة . مادريت . وما غلبتني ، الجلاسة نعملها بالنجع . الشباب اللى يغلبني يتزوجني هر . هر . هر .

وزعقت تساعد أخاها في السيطرة على الغنم ثم مشت ضاحكة ، بينما ظل دميان في مكانه لا يريم ، يتطلع إلى السحب السود التي تتكاثف على الدنيا ويدرك أنه لا سبيل له إليها ، بريكة أبدا أبدا أبدا .

***

في جو غزير المطر على ساحل مريوط ، وداخل ليبيا ، قفزت قوات الحلفاء على قوات المحور في " سيدى رزق " لكن الألمان انتصروا بعد معركة قاسية في منطقة المطار واستردوا سيدى رزق ، وفقد الحلفاء كثيراً من مدرعاتهم ، وفي اليوم التالي لانتصار الألمان ، في شهر نوفمبر ، أصدر كانينجهام أوامره إلى الفيلق الحادي عشر بالزحف على سيدى رزق من

جديد ، وأوشك هذا الفيلق أن يستردها لكن روميل الذي أدرك سر حرب
الصحراء ترك المعارك واتجه بمدرعاته إلى الشرق ، إلى الحدود المصرية ودخل
عشرين ميلاً فيها فأخذت الفوضي في مؤخرة القوات الإنجليزية وحلفائها
وأسر الكثير من رجالهم حتى تدخل السلاح الجوي البريطاني بغارات ضارية
فاضطر روميل إلى العودة إلى سيدى رزق تطارده الفرقة الهندية الرابعة ، وما
كاد ينتهي شهر نوفمبر حتى كان الجنرال أوكلينلك قد أقال كانينجهام
وعين الجنرال ريتشي مكانه ، وحاصر روميل طبرق وهى حصن منيع ، بل
أمنع الحصون في شمال أفريقيا ، بها حامية بريطانية عنيدة وشجاعة تصل إلى
الثلاثين ألفاً يحدها من الشرق والغرب أرض صخرية وعرة تصبح في
الجنوب سهلاً منبسطاً ، وكانت قبل عام **1940** حصناً إيطاليا ، لكن
الإنجليز استولوا عليه واستفادوا من الخطوط الدفاعية التي أقامها الطليان
حول الحصن ، خطوط عميقة في الأرض بها مدافع ومرابض رشاشات
تستطيع صب نيرانها على المهاجمين في اللحظات الأخيرة ، لاقترابهم فتدمرهم
تماماً ، فضلاً عن الموانع العديدة من الأسلاك الشائكة التي تعرقل زحف
المشاة وخندق عميق يحيط المنطقة كلها يمنع تقدم الدبابات وخلف كل من
هذه الخطوط الدفاعية توجد الحشود الضخمة من المدفعية البريطانية وحقول
الألغام الكثيفة . لقد انتهى القتال مع نهاية نوفمبر ولم ينجح روميل في
الاستيلاء على طبرق لكنه أوقع بالحلفاء خسائر كبيرة للغاية زادت على
الثمانمائة مركبة مدرعة ومائة طائرة وأعداد لا تحصى من الأسلحة الخفيفة
والذخائر وأسرى يزيدون على التسعة آلاف . وخسر هو عدداً كبيراً من
الأسرى ، أيضاً بدأت قوات الحلفاء في نقلهم إلى الإسكندرية حليقي

الرؤوس بلا خوذ ولا أغطية رأس من أى نوع في هذا البرد القارس لكن يريدون بلاطي طويلة ثقيلة . ولما قررت القيادة البريطانية الدخول في معركة فاصلة مع روميل وضعت لها اسم " الكروسيدر " ، واندفع مائة ألف جندي من الجيش الثامن لكن روميل ترك الطريق مفتوحاً أمامهم ولم يهاجمهم ، بل انسحب ، في هدوء ، غرباً حتى أوقعهم في الشرك وانصبت عليهم قذائف المدفعية من كل الجهات فدمر كل دبابات البريطانيين تقريباً وصار الوادي جنوب سيدي رزق بحراً من الغبار والنار والدخان .

كان الروس قد تقهقروا إلى ما وراء نهر الدنيبر ، واشتد القتال أمام لينينجراد ، وبالطبع توقفت الغارات على لندن وانتهت معركة بريطانيا لانشغال الألمان بالميدان الشرقي وأعلنت البحرية الأمريكية عزمها على تطهير الأطلنطي من السفن النازية بعد أن اجتمع تشرشل مع روزفلت على ظهر بارجة أمريكية في عرض المحيط الأطلنطي ،وأعلن روزفلت عزم أمريكا على الدفاع عن حرية البحار ، وأنذر سفن المحور بالتدمير إذا دخلت المياه الإقليمية الأمريكية ، وأصابت غواصة ألمانية حاملة الطائرات البريطانية (آرك رويال) بطوربيد فأغرقتها وبعدها أغرقت الغواصات الألمانية البارجة البريطانية (بارهام) ، وكان على متنها خمسمائة بحار ماتوا جميعاً ، كذلك اقتربت غواصة إيطالية من الإسكندرية وأطلقت طوربيدات على البارجتين الإنجليزيتين (إليزابيث وفاليانت) فعطلتهما عن العمل ، ولما حاولت القيادة البريطانية الانتقام باصطياد قافلة بحرية للمحور تتجه من إيطاليا إلى طربلس خصصت العملية قافلة بريطانية تتكون من ثلاثة طرادات وأربع مدمرات ، والذي حدث أن القافلة البريطانية هي التي وقعت في كمين بحري كبير

فأصيب طرادان وغرق الثالث ببحارته السبعمائة ولم ينج غير بحار واحـد وقع في الأسر ، كانت نهاية مؤلمة حقاً للأسطول الإنجليزي شرق المتوسط .

في فرنسا تم إعدام اثنين وسبعين رهينة فرنسية بيد الألمان في بلـدة " نانت " رمياً بالرصاص جزاء أعمال المقاومة السرية مما دعا ديجول لإعلان الحداد ومطالبة الشعب التظاهر وعمَّ الغضب فرنسا كلـها ، وفي الهنـد تم الاحتفال بعيد ميلاد المهاتما غاندي الثالث والسبعين في قريته الهادئة (سـينا جرام) حيث قضي معظم الوقت مع المغزل والخيط وتدفقت عليه الهدايا من البلاد وكانت كلها عبارة عن مغازل وأقطان . وفي المحيط الباسيفيكي قامت الطائرات والبوارج اليابانية فجأة بالإغارة على هونولولو وبيرل هـاربر ، فدمرت ثلاثمائة طائرة أمريكية وثلاثين بارجة وقتلت سـبعة آلاف وصـار اليوم بالنسبة لأمريكا هو يوم العار ، وكان بداية الدخول الرسمي لأمريكا في الحرب وانتشرت القوات اليابانية في شرق آسيا ، فامتد القتـال في كـل الجناح الشرقي من الملايو وسنغافورة حتى هونج كونج وبدأ أثـر الشـتاء الروسي يظهر على الجنود الألمان فتعطلت مركباتهم وعجزوا عن دخـول موسكو وهم في ضواحيها ، وبدأ الألما في التقهقر . لقد انتفضـت الأمـة السلافية ووجه الجنرال فورشيلوف القائد الأعلى للجيوش نداءً مـؤثراً إلى أهالى لينينجراد قال فيه أن العدو يحاول دخول المدينة وهدم بيوتها ومصانعها وتحطيم حرية الوطن ، وإن لينينجراد هي المركز الصناعي والثقافي لروسـيا ولن تسقط ولن يضع الأعداء أقدامهم في حدائقنا الجميلة .

ومنذ ديسمبر والهزائم تترل بالألمان ففقدوا على أبواب موسكو ستين ألف قتيل في عشرين يوماً ، مما اضطر القيادة الألمانية لعزل قائـد الجبهـة

الروسية الجنرال فون بوك ، وانتشرت بين الناس في مصر شائعة أن المارشال : تيموشنكو " أحد أكبر القواد الروس مسلم يدين الإسلام لذلك لم يخسر أى معركة .

في مصر كانت الأديبة ميّ زيادة قد ماتت منذ أسابيع وكذلك طلعت حرب باشا أبو الاقتصاد الوطني ، كما قام جلالة الملك فاروق والأسرة الحاكمة بزيارة لواحة الفرافرة وبذلك يكون قد زار كل واحات مصر واطمأن على رعاياه بها ، ووقعت غارة كبيرة على الإسكندرية تركت خلفها دماراً شديداً وقتلى وجرحى بالعشرات كما يحدث دائماً منذ ظهر روميل في أفريقيا ، كذلك تم توزيع الملابس على المهاجرين فى الريف وعرض فيلم " بنت مدارس " المصري ، و " لص بغداد " الأمريكى ، وتمت تنحية شاه إيران عن العرش فتنازل لابنه محمد رضا بهلوي فصارت الأميرة فوزية أخت الملك فاروق أميرة مصرية على عرش إيران ، واحتفل مكتب الآداب في مصر بنجاح دعوته لتزويج الفتيات الوحيدات المهاجرات فتم الاحتفال بتزويج عشرين فتاة معاً في ليلة واحدة ، وتم القبض على مخدرات بمائتي ألف جنيه على السواحل ، وحدث إقبال شديد على التكية المصرية في الحجاز ، من أهل الحجاز فطالبت الصحف بزيادة الاعتمادات المصرية لنفقات التكية ، والتقى عيد الأضحى مع عيد الميلاد لكن دميان سافر إلى الإسكندرية ليومين وعاد بسرعة ليؤنس وحدة مجد الدين ، واتخذت الإجراءات لحماية التماثيل البرونزية في قصر رأس التين من الغارات وسافر رشدي عكس اتجاه ترعة المحمودية .

لقد قرر أن يصل إلى النيل ويمشى عكس سريانه حتى يصل إلى أسيوط وفي طريقه يقلب كل الجثث التي يمكن أن يراها فهو على قناعة بقتل كاميليا وإلقاء جثتها في النيل . إما أن يجد جثتها أو يلقاها ، وكانت شائعة قد سرت في البلاد عن راهبة صغيرة يطل النور من وجهها وحول رأسها ، صارت تشفى المرضى في أسيوط وبدأ الناس يتوافدون عليها من القرى المجاورة ، وتم القبض على جزار ومحاكمته أمام المحكمة العسكرية لأنه امتنع عن بيع اللحم ، كان هناك لحم معلق بالدكان جاء أحد الزبائن يشترى أقة منه فرفض الجزار ، وقال إن اللحم ليس مخصصاً للبيع ، إنما هو للعرض فقط ، والفرجة ، وأحس الزبون أنه يسخر منه فأخذ طريقه إلى قسم البوليس وقدم شكواه وارتفعت أسعار الطيور فبلغ سعر البلبل اثنى عشر قرشاً والكناريا خمسة وثلاثين قرشاً والببغاء كذلك . وتعهدت الدول المتحاربة أن تتوقف عن القتال في الليلة الأخيرة من هذا العام أيضاً ليتم الاحتفال بالعام الجديد ، لكن كانت معظم بيوت الإسكندرية مغلقة أو مهدمة أو مهجورة .

***

" أيها العابر
هل حان وقت رحيلك ؟
أيها العابر،
لا يمكننا أن نتشبث بك،
فليس لنا سوى دموعنا "

- 25 -

استُقبل العام الجديد بحركة شديدة في العلمين . الطائرات الألمانية والإيطالية تقوم بغارات تمسح بها الصحراء إلى الإسكندرية ، والمدافع المضادة لا تكف عن الانطلاق من أكثر من مكان في الصحراء لكن لا طائرة تقع .

قلَّ عدد الأسرى الألمان والطليان ، فروميل هو الذي يحمل أعداداً أكثر من الأسرى إلى ألمانيا عبر إيطاليا والبحر المتوسط ، صار اسم روميل مفزعاً لجنود الخلفاء . في منتصف يناير وفي الساعات الأولى من الصباح ، أطفأ مصباح القراءة الصغير ، واستلقى على فراشه في مقر قيادته وطلب من سكرتيره الخاص الرقيب بوتشر أن يوقظه بعد ساعة واحدة . استيقظ فعقد الإجتماع الصباحي مع الضباط وقال : " سنقوم بالهجوم فوراً " ، ثم شرح

لهم كيف أن البريطانيين سيغتنمون أى فرصة للاسترخاء للاستفادة من الامدادات الضخمة التي بدأت تأتيهم ، وسيكون تفوقهم كبيراً على قوات المحور ، ومن ثم يجب اختراق خطوطهم وخططهم وتفكيرهم للوصول إلى الدلتا !!

بدأت على الفور عملية خداع كبرى للاستخبارات البريطانية امتدت من روما حتى ليبيا ، فسرت الشائعات القوية عن انسحاب الألمان ، وبدأ روميل في نسف سفن هيكلية ، ومعسكرات هيلكية أيضاً ، وكانت الشائعات من القوة في الإسكندرية حتى إن الجنود الحلفاء شربوا نخب انسحاب روميل الذي صار يحرق سفنه ، لكن الراقصة حكمت فهمي وحدها كانت في القاهرة تعرف أن هذا خداع ، وتستدرج الضباط الإنجليز الكبار ، وتلتقط منهم الأخبار والأسرار تنقلها إلى الألمان من عوامتها عبر جهاز إرسال سري بمساعدة الجاسوسين الألمانيين هانز أبلر وساندي .

بدأ روميل هجومه الجريء المفاجئ بعد تظاهره الانسحاب ، وقسم مدرعاته إلى قسمين ، أحدهما ساحلي والآخر داخل الصحراء ، فاستولى على " إجدابية " ثم " عنتليت " ثم " سوانو " فتقهقرت أمامه القوات المدرعة البريطانية في فوضي عارمة نحو الحدود المصرية ، أصبح الطريق مفتوحاً أماما إلى " بني غازي " من ناحية و " المخيلي " من ناحية أخرى . في أواخر يناير تظاهر بأنه سيثب على ال" المخيلي " فحرك أوكنلك مشاته ومدرعاته إلى هناك ، لكنه في وثبة النمر غير اتجاهه إلى الساحل قاطعا طريق الفرقة الرابعة الهندية لتسقط " بني غازي " ، ورقاه الفوهور إلى رتبة كولونيل جنرال . لقد فر البريطانيون أمامه كما لو كان قد لدغهم ثعبان بعد أن

فقدوا روحهم المعنوية ، لقد سلط روميل على مدرعاتهم مدفعيته الجبارة عيار 88ملم المضادة للدبابات ، ثم اكتسحها بدباباته البانزو الثقيلة .

في ذلك الوقت كانت القوات الروسية قد حطمت ست فرق ألمانية ، وبدأ هجوم روسي كبير يمتد من سيبا ستوبول جنوباً إلى فنلندا شمالاً ، واعترف هتلر بتقدم الروس لأول مرة واستعدت ألمانيا لهجوم بخمسة ملايين جندى ، بينما استعدت روسيا بعشرة ملايين ، ووضعت أمريكا أكبر ميزانية للحرب ، خمسين مليار دلاور للصناعات الحربية والعمليات العسكرية ، واشتعلت النار في الباخرة الفرنسية نورماندي وهى راسية في ميناء نهر هيوستون بالولايات المتحدة فمات أربعون شخصاً وأصيب مائة وخمسة وستون ، ونزل اليابانيون في جزيرة جاوة وأعلنت مملكة سيام الحرب على بريطانيا بعد أن دخلتها اليابان . ورفض ثوار الهند ، نهرو وغاندي ، أى استقلال غيرتام عن انجلترا ، وأقامت بلدية الإسكندرية خمسة عشر مخبأ جديداً ،واحتفلت الكنيسة المرقسية في الأسبوع الأول من يناير بعيد الميلاد وسط حزن عام بسبب الغارات ، وماتت سيدة في كرموز تاركة وراءها ثلاثة أطفال ، فكان الناس كلما مشوا بنعشها يعودون إلى حيث يقف الأطفال امام بيتهم يبكون ، حدث ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة يستدير النعش بهم ويعود ، فارتفع تكبير الرجال والشباب وانهمرت دموع النسوة والفتيات وغمر الفضاء نور باهر إذا انقشعت السحب الثقيلة عن المدينة ، وتجلت الشمس فائقة الجمال فانحنى الناس يقبلون الأرض يصلون ويبكون ، ولم يتم دفن الأم إلا بعد أن حمل الأطفال بعيداً ، ونامت الإسكندرية في حالة من الذهول العجيب ، وأحيط تمثالا محمد على باشا وإسماعيل باشا

بالمنشية بالأحجار لحمايتهما من الغارات الثقيلة، وبدأ الوزراء يهيئون لأنفسهم مقرات في أسوان والأقصر ، بعيداً عن القاهرة بسبب الشتاء ، هكذا قيل ، والحقيقة انهم كانوا يريدون الابتعاد عن روميل بقدر الإمكان ،وقام الملك السعيد برحلة إلى الصحراء الشرقية زار فيها المناجم وسكان حلايب من البشارية ، وتصادف أن جاء عيد الغطاس مع أول السنة الهجرية ولاحظ أحد قراء الصحف أنه كثيراً ما تأتي الأعياد الإسلامية مع الأعياد المسيحية هذه الأيام ، أو تقترب منها فرد عليه قارئ آخر بأن ذلك لا يحدث إلا كل عدة أجيال ، وأن هذا الجيل أسعد حظاً من غيره بسبب هذه البركة الإلهية ، وتولى النحاس باشا رئاسة الوزراء بضغط إنجليزي كبير على الملك ، فاستقال حسين سري باشا أو أقاله الملك ، فخرجت المظاهرات ضد الإنجليز تهتف (إلى الأمام يا روميل) . لقد أظهر الشعب حبه لملكه الشاب ، وكتب أحد الشعراء يهزأ من الإنجليز :

دخلـ . . ـوا علـ . . ـى الأسـ . . ـد العـ . . ـرين
مسـ . . . . . ـلحين مدجـ ـجـ . . . . ـين
ضـ . . . . ـلوا الطريـ . . . . ـق إلى بـ . . . . ـني
غـ . . . . ـازي فجـ . . . . ـاءوا عابـ . . . . ـدين

وعرض بالقاهرة فيلم " دماء ورمال " لتايرون باور وريتا هيوارث ، كما أصدر طه حسين روايته الجميلة (دعاء الكروان) ودخلت لحوم الكاشير التسعيرة الجبرية بالإسكندرية فاشتكى القصابون اليهود ، وطلبت أخوات عبد الفتاح عنايت قاتل السردار لي ستاك في العشرينات من

النحاس باشا العفو عن أخيهم الوطني الذي أمضى بالسجن ثلاثة أرباع المدة ، وبدأت الدورة البرلمانية بخطاب العرش يلقيه النحاس باشا أمام الملك . وبدأ ذوبان الثلوج في موسكو وحددت الزيادة السكانية في مصر كلها العام الماضي بأربعين ألف نسمة وبدأ دميان ومجد الدين في مشاهدة الجنود العائدين من الجبهة متعبين ذاهلين في حالة لا تصدق من الإعياء ، ليتم استبدالهم بجنود نشطين ناقهين من الإسكندرية . لقد بدأ الجنود الذين التهبت حواجبهم ورموشهم من أثر الشمس والبرد معاً لا يختلفون في شيء عن الأسرى حتى لقد ظنهم دميان أسرى حقيقيين ، وفي كل مرة يراهم يقول لمجد الدين " هذه دفعة جديدة من الأسرى " فينبهه مجد الدين إلى أنهم من جنود الحلفاء فالأسرى لا يحملون بنادق ويضحك دميان ولا يكف عن الخطأ .

***

كثرت الشائعات عن تقدم روميل إلى الحدود المصرية . روميل هو بطل حروب الصحراء بلا منازع الآن ، ثعلب الصحراء الذي لا يعرف أحد من أين ستأتي ضربته ، ورأى الجنود الأنجليز لأول مرة زملاءهم يعودون من ميادين القتال بعيون يائسة . لكن في الليل كانت الموسيقي تصدح من الراديوهات التي تعمل بالبطارات في الخنادق والغرف ، موسيقى البولير وساحر أوز وقدر بيتهوفن وفالسات شتراوس، كذلك يرتفع الضحك . وقال دميان لمجد الدين :

– ليت لدينا راديو هنا ؟

رأى مجد الدين فكرة صائبة فسكت وقال دميان :

– زهقت من الجلوس مع الهنود والصافي النعيم .

والحقيقة أن انقطاع بريكة هو الذي الذي يقلقه ، والفكرة المجنونة التي تراوده ، أن يذهب إلى النجع ليسأل عنها ويعرف .

كان الصافي النعيم على دراية لا بأس بها باللغة الإنجليزية ، فكان ينقل لدميان ومجد الدين مناقشات الهنود العنيفة حول الاستقلال ، وكان المسلمون من بيشاور ولاهور يؤيدون محمد على جناح الذى يدعو لانفصال باكستان عن الهند ، بينما كان السيخ يرون فىمحمد على جناح ، خائناً للوطن ، وإنه لا يجب انفصال المسلمين عن الهند . وكثيراً ما كان يحتدم النقاش لكنه في النهاية يلين ، وينتهى ويقول دميان " طيب يستقلون الأول وبعدين يختلفون " ولا يعقب مجد الدين . وذات مرة قال الصافي النعيم ، الذي كان يجلس معهما وحده :

– الهند سوف تحصل على استقلالها قبل مصر والسودان .

نظر إليه دميان عميقاً وتساءل :

– لماذا ؟

قال الصافي النعيم بلغة العالم الهادئ الواثق :

– الهند دولة كبيرة بها حوالى ثلاثمائة مليون . صحيح فيها ديانات كثيرة ، لكن فيها غاندى .

هتف دميان :

– صاحب المعزة والمغزل .

– بالضبط . هو الذي يحارب الإنجليز . يحاربهم بلا سلاح ، يقول للهنود أن يصوموا فيصوموا كلهم ، أن يمتنعوا عن التعامل مع الإنجليز فيمتنعوا كلهم ، ألا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم، فيمتثلوا ، أن يقفوا على رجل واحدة لمدة شهر فيقفوا . إنهم الرجل الواحد القوى ، غاندي ليس لديه جيش لكن لديه شعب كامل .

وسكت الجميع قليلاً ثم قال مجد الدين :

– في مصر أيضاً سيرحل الإنجليز بعد الحرب . الشعب مع النحاس باشا .

قال الصافي النعيم :

– لكن النحاس باشا جاء إلى الحكم بيد الإنجليز .

قال مجد الدين بسرعة :

– الإنجليز جاءوا به حقاً لكن الشعب ضد الإنجليز ، وسيكون هو مع الشعب كالعادة .

وانضم إليهم بعد قليل العريف بهادور شاند ، صار على الصافي النعيم أن يترجم لهم ، وللعريف ترجمة ركيكة لكنها تحمل المعاني على الإجمال ، كان الوقت بعد الظهر ، وفي الجو لمسة تكدرها أحياناً عاصفة خماسينية قصيرة وسريعة ، كأنما هى نذر للخماسين الحقيقية القادمة بعد أيام ، وفجأة قال دميان للصافي النعيم ألا يترجم كلامه إذ سيتحدث بالإنجليزية مباشرة . تأمله مجد الدين في دهشة وفكر أن دميان مقدم على كارثة ، وانضم إليهم

ثلاثة من الهنود الشباب جاءوا يصلون العصر خلف مجد الدين . وبدأ دميان الحديث بالإنجليزية فتساءل بالعربية " هل حقاً هناك من يعبد البقر في الهند . وإذا حدث وعبرت بقرة في الشارع تتوقف لها المواصلات والناس ؟ " قال دميان ذلك ، وكان يضغط على الكلمات بحيث تبتعد الكلمة عن الأخرى وتتوضح تماماً ، وكان أيضاً يميل في النطق بعض الإمالة ، انتهى من الكـ ـلام وسكت الجميع .

لكن مجد الدين ضحك والصافي النعيم انفجر في الضحك وبهادر شاند اصفر وجهه لأن دميان ، وهو يتكلم كان يشير إليه فتصور أنه يسخر منه ، بينما ابتسم الهنود الثلاثة الشباب ، ولمعت عيونهم ، وهم يتبادلون النظر في أدب وحيرة قال مجد الدين لدميان :

– هل عندما تضغط على الكلمات ، وتميل بالحروف تكـ ـون قـ ـد تحدثت بالإنجليزية ؟ إنك تتكلم باللغة العربية يادميان .

انتبه دميان واتسعت عيناه وانفجر ضاحكاً ثم قال للصافي :

– ترجم للهنود أنني كنت أسال هل حقاً سينالون اسـ ـتقلالهم بعـ ـد الحرب ؟

– لا تتحدث عن البقر .

ترجم الصافي النعيم الحديث فهز بهادور شاند رأسه في ثقـ ـة وإعـ ـزاز وقال الهنود الشباب الثلاثة " Of Course " فقال الصافي :

– لابد أيضاً أن يأخذ السودان استقلاله عن مصر بعد الحرب .

تأمله دميان ومجد الدين مندهشين . تساءل مجد الدين :

– استقلاله عن انجلترا تقصد ؟

– الاثنان ياشيخ محمد .

قال دميان :

– طول عمرى أعرف أن انجلترا تحتل مصر والسودان ، أول مرة أعرف أن مصر تحتل السودان ، ربما بسبب ذلك تكثر القرود في مصر الآن !

زام الصافي النعيم . الحقيقة أنه أصدر صوتاً كالزئير وإن كان خفيفاً .

وقال مجد الدين :

– طول عمر مصر والسودان أخوة .

فقال الصافي النعيم :

– مضبوط شيخ مجد. كلامك أناناس .

وضحك الجميع باستثناء بهادور ، حتى الجنود الهنود الثلاثة الشباب ضحكوا إثر ضحك مجد الدين والصافي النعيم ، ربما لذلك أحس بهادور بالارتباك لذلك قال للصافي النعيم :

-Translate .

فكر الصافي قليلاً ثم قال بسرعة :

- Sudan looks like India an Egypt , is under Britin .

وهز بهادور رأسه موافقاً فقال الصافي :

- They will be independent as quickly as possible .

عاد بهادور يهز رأسه في فخر ، بينما تهللت أسارير الهن ود الثلاث ة وفجأة اقترح مجد الدين ألا يتحدثوا في السياسة مرة أخرى .

نظروا إليه في دهشة وتساءلوا لماذا ؟ فتردد في الإجابة ، الحقيقة أنه لا يعرف لماذا طلب ذلك ، ولا يعرف بما يجيب . قال :

– لأننا في الصحراء .

ولم يفهم هو أبداً ، حتى بعد ذلك ، ما علاقة الصحراء بعدم الك لام في السياسة لكن هذا ما صار ، وسكت الجميع غير مقتنعين ، بل ومرتبكين بعض الشيء ، ثم أمعنوا النظر في الاتساع العريض للصحراء .

أضواء خفيفة تنبعث من الغرف المحفورة بالأرض ، والغرف المتباع دة فوق الأرض ، في الصباح يخرج الضابط والجنود من جحورهم إلى البح ر العظيم ، لقد بدأ الربيع ولم يتبق من الشتاء إلا ص قيع اللي ل الق ارس ، ظهرت الملابس الصيفية من جديد ، وخرجت العقارب والحش رات م ن جحورها ومع كل صباح يترل الجنود إلى البحر عراة إلا م ن الس راويل الداخلية القذرة ، أجساد الجنود لم تعد بيضاء صارت برونزي ة . الجن ود الجدد يعرضون أجسادهم للشمس أكبر وقت ممكن ليبدو الواح د من هم

مهاباً صاحب خبرة في القتال . والحقيقة أن الجميع كما يقول عنهم مجد الدين مساكين ، أطفال ، أبناء الله الصغار الذين نزلوا من السماء لهذا الامتحان العسير . تماماً كما أخرج هو من قريته وربما بالسهولة نفسها . وسأل دميان بهادور :

– هل مازلت تحمل الثعبان في جيبك ؟

– إنه معي طول أيام الحرب .

وأخرج الثعبان من جيب سترته الأسفل ، ثعبان صغير رفيع أصفر مزركش بالسمرة التف على أصابعه ، أعاد كفه إلى جيبه وأخرجها بسهولة بلا ثعبان .

قال الصافي مترجماً ما قاله بهادور : إنهم في الهند يستأنسون الثعابين الكبيرة والصغيرة ، حتى الكوبرا يستأنسونها ، وهناك فئات من الهنود تعبد الثعابين ، والكوبرا بالذات ، والهنود جميعاً وبلا استثناء مهرة في استئناس الثعابين والتعامل معها ، والثعبان الذي في جيبه لم يأت من الهند ، إنما هو مصري اصطاده من الصحراء في الصيف الماضي ، بالليل يضع الثعبان في علبة صفيح ، ويضع له فيها طعاما ، بيض مفري وبلوبيف ، الثعبان لم يهرب ولم يفكر في الهرب حتى الآن .

على أن هذا لم يكن أغرب ما قاله بهادور : ترجم الصافي النعيم كلامه ، ولم يصدق أحد أن الدنيا يمكن أن تكون صغيرة إلى هذا الحد . قال بهادور: إن أباه أيضاً كان يخدم في الجيش البريطاني في فرقة الخيالة أثناء الحرب العالمية الماضية . كان يخدم هنا في مصر ضمن قوات الإمبراطورية .

انتهت الحرب وقامت في مصر ثورة كبيرة . قاطعه دميان وقال : كان ذلك أيام سعد باشا ، ولم يترجم الصافي كلام دميان واستمر بهادور يتحـ ـدث ، وحدث تمرد كبير في بلدا أسمه " دروط " . وسكت بهادور يتأمـ ـل وجـ ـوه مستمعيه وقال دميان له :

– إنك لابد تقصد ديروط

واستمر بهادور

قال : إن اسمها " دي روط " – ولم يهتم أحد – وفي قرية قريبة من " دي روط " كان هناك تمرد كبير يهاجم القوات البريطانية فأرسل الإنجليـ ـز الخيالة الهنود من الجنود السيخ إلى القرية. كان أبي بينهم وكـ ـان قائـ ـدهم إنجليزى ، لقد أمرهم باغتصاب نساء القرية أمام رجالها الـ ـذين قيـ ـدوهم بالحبال .

أغمض مجد الدين عينيه متألماً ، وبانت الدهشة علـ ـى وجـ ـه دميـ ـان وارتعشت شفتاه ولم يتحدث . ابتسم بهادور ، واستمر في الحديث ، قال إن أباه روى كيف كانت النساء تجرى لتلقى بأنفسهن في النيل ، تفضل الموت غرقاً على الاغتصاب و لقد عاش أبي متألماً لأنه فعل ذلك خاصة أنـ ـه رأى الإنجليز يغتصبون الهنديات أيضاً . وسكت بهادور . وسكت الجميع حـ ـتى قال مجد الدين بهدوء :

– لكن هذه حكاية غريبة لم نسمع بها أيام الثورة ، لقد اشـ ـتركنا في الثورة ، هاجمنا الإنجليز وخلعنا السكك الحديدية ولم نسمع أن فرقة من أي جيش اغتصبت نساء أي قرية ، لا جيش انجليزي ولا جيش هندى .

كان الهنود الشباب يبتسمون في البداية لكنهم الآن أطرقوا إلى الأرض . وقال الصافي النعيم :

– أنا رأيت الهنود في السودان يمشون منتفخين كالطواويس وكأن الواحد منهم يملك الأرض ومن عليها . لكن لم أرهم يضربون أحداً أو يغتصبون امرأة .

لم يفهم بهادور ما قاله الصافي بالطبع ولم يترجمه الصافي ، ودخل دميان في الحوار فقال :

– أنا من ديروط وأعرف القصة . سمعت بها . هي قصة حقيقية.

قال بهادور بصوت عال :

– لقد قتلوا الرجال أيضاً .

وعقب دميان :

– لقد أبيدت القرية عن آخرها . لم يبق لها أثر . أذكر أن اسمها كان " كوم جهنم " لقد اختفى من تبقى من رجال القرية بعد ذلك وتفرقوا في البلاد . أكثرهم مات من القهر.

وسكت الجميع . تفاوتت المشاعر . من الأسف عند الصافي النعيم إلى الحزن عند مجد الدين إلى اليأس عند دميان إلى الرهبة عند الهنود الشباب . وقال مجد الدين :

– بلاد كثيرة اغتصبت الأجانب نساءها .

وقال دميان بلا اكتراث :

– وفي مصر قرى كثيرة تدل على ذلك . رشيد من الإنجليز ، في الصعيد الجواني بنات شقراوات من أصل مملوكي .

قال الصافي النعيم :

– الحمد لله . في السودان لا يوجد رجل أبيض واحد . لا تزال النساء سوداء يلدن أولاداً سوداً . سواد اللون حمى نساءنا من الاغتصاب

كان يريد أن يخفف من الحديث السابق لبهادور . كان يدرك أن أحداً سينفجر . مجد الدين أو دميان . لكن دميان هو الذي تحدث فقال :

– لكن يا مستر بهادور لو بحثت في مصر كلها عن أى أثر لواحد هندي لا تجد .

وسكت . وانتظر بهادور أن يترجم له الصافي النعيم الكلام . تردد الصافي فقال له دميان أن يترجم :

فتساءل بهادور :

– هل تعنى أني كاذب ؟

أجاب دميان :

– لا. أنت صادق لكن أبوك والخيالة السيخ هم الكاذبون ، إنهم لم يفعلوا شيئاً . على العكس . المصريون هم الذين " نطوا " عليهم .

ولم يستطع مجد الدين أن يضحك . ولا الصافي النعيم الذي أربد وجهه هلعاً . تغاضى عن القيام بدور المترجم فأمره بهادور أن يترجم صارخاً فيه :

- ترانسليت . ترانسليت كويكلي .

والحقيقة أن الكلام كان قد راق للصافي . لقد أحـ ـس بنـ ـوع مـ ـن الرضا .

إنه في النهاية عربي مثل دميان ومجد الدين وهم جميعاً أبناء وادي النيل ، لذلك ترجم بدقة وعلى مهل كلام دميان . كان غبش الغسـ ـق يغشـ ـى الصحراء ، والنسمة الغازية بدأت تستيقظ ، وفي اللحظة التي انتهى فيها الصافي من الترجمة كانت يد بهادور على مسدسه ، ووقف يصرخ في الفضاء بالهندية لاعنا دميان الذي كان قفز هارباً في اللحظة التي وقف فيها بهادور . لقد دوت طلقات المسدس في الفضاء تتبع دميان لكنها لم تصبه . سـ ـاعده الظلام الزاحف على النجاة . وقف بهادور لحظات مستشاطاً غضـ ـباً ثم زأر بالهندية في الجنود الشباب فانصرفوا بسرعة ، ونظر شذراً إلى الصافي ومجـ ـد الدين اللذين بدورهما قاما على مهل وابتعدا عنه . ما كادا يبتعدان بما يكفي للأمان حتى انطلقا معا في ضحك بهيج .

***

كان يمكن لفعلة دميان هذه أن تقتله ، ما أهون رصاصة تخـ ـرج مـ ـن مسدس بهادور فتصيبه . الرصاص لا ينقطع طول النهار من تجارب السلاح وقتل العقارب والثعابين والفئران الصحراوية ، ومطـ ـاردة الثعالـ ـب ، وفي بعض الأحيان تنطلق البنادق تتابع طيوراً ظهرت فجأة في السماء ، وأضف إلى ذلك أصوات الطائرات التي تمرق بين الحين والآخر مسرعة للإغارة على الإسكندرية أو عائدة إلى مواقعها في طرابلس وبنغازي ، ولا تكف طلقات

المدافع المضادة عن ملاحقتها في الذهاب والإياب . إن طلقة تخرج من مسدس هندي غاضب تقتل دميان لن يتوقف عندها أحد . من يتوقف عند مقتل عامل يقف على مزلقان صغير شبه مهجور في بلدة صحراوية نكرة ، لم يسمع عنها أحد من قبل ؟ كان هذا هو حديث مجد الدين ودميان حتى انتصف الليل . لكن الذي حدث أن دميان طلب من ماري جرجس أن ينقذه من الهندي السيخ البائس . ونذر لو حدث ذلك أن يقوم بتبخير كنيسة الشهيد في غيط العنب بنفسه . ويوقد له سبع شمعات ويظل أسبوعاً في خدمة الكنيسة ، ونام بعد أن راوده يقين عجيب أن ماري جرجس سيستجيب .

في الصباح طلب منه مجد الدين ألا يبرح البيت حتى يرى بهادور ويحاول تهدئته . في الظهيرة جاء الصافي النعيم إلى مجد الدين في الكشك الخشبي المجاور للمزلقان . كان مبتسماً وما إن اقترب من مجد الدين حتى انطلق في الضحك . قال :

– إن بهادور انتقل في الصباح الباكر مع كتيبة ليلحق بالفرقة الهندية على الحدود حيث يدور قتال شديد . ابتسم مجد الدين في ارتياح . أحس أن جسده يشاركه الفرح فلم يستطع البقاء في مكانه . ترك الصافي النعيم ، أسرع إلى دميان يزف له الخبر . كادت الفرحة ترفع دميان من فوق الأرض . لكنه ظل واقفاً ينظر إلى مجد الدين بإمعان . إلى هذه الدرجة صار الحب بينه وبين الشهيد . إنه لا يخذله أبدا . وترك الطريق لدمعتين ثم خرج منتشياً مع مجد الدين ليرى الصحراء واسعة جميلة بيضاء زاهية ، السماء فوقها صافية الزرقة كالبحر البعيد تماماً والدنيا واسعة إلى أقصى مدى .

***

بالليل ، وبعد عدة أيام ، وكلاهما مستلق على المرتبة الم يري فوق الأرض في ناحية من الحجرة قال دميان :

– نفسي تهفو إلى الإسكندرية يا شيخ مجد .

كان دميان قد رأى في الصباح الغنم تظهر قادمة من بعيد يتدحرج بينها الولد الصغير ، وتمشي خلفها " بريكة "..بدت له من بعيد صغيرة ، لكن كالعادة فكرة أنها ستزداد حجماً كلما اقترتب ! وراح قلبه يدق . ها هي تظهر بعد طول غياب ، كان قد فكر جدياً أمس وأمس الأول أن يذهب بنفسه إلى النجع ، بل لقد مشى إلى الجنوب مسافة طويلة ، ولما وجد نفسه فجأة يقف وسط رمال مترامية من كل جهة ولم يعد يعرف الشمال من الجنوب ، ولا يظهر أى شيء أمامه خشى على نفسه من التيه ، وبسرعة عاد مقتفياً أثر قدميه حتى إذا بانت له محطة السكة الحديد من بعيد أخذ نفساً عميقاً وشكر يسوع المسيح و العذراء و مارى جرجس وكل من تذكره من الشهداء والقديسين . لقد كاد ينسى أن عليه نذرا لابد أن يوفيه . آن له أن ينسى بريكة ويسافر ليوف النذر . لكن ها هى بريكة لا تتركه . تظهر له في الوقت الذي يقرر فيه أن يروض نفسه على النسيان ، إلا أنها لا تزداد حجماً كلما اقتربت . وراحت دقات قلبه تزداد . حتى إذا اقتربت أكثر أدرك أنها ليست بريكة فانطفأ ألق عينيه وفرحة روحه . كان قد فكر أن يسرع إلى البيت يحضر أكبر كمية ممكنة من الهدايا التي اعتاد عليها لبريكة . نسى ذلك ، ورأى هلال من باب غرفته ففكر أنه غريه

الذي لا يعرفه ، خرج ليراه ويسخر منه ويشمت فيه ، وكان مجد الدين في البيت فاشتاق له . وتمنى لو ألقى بنفسه على صدره كطفل .

ما كادت الفتاة تستقر بالغنم وأخوها خلف المحطة حتى تقدم منها وسألها عن بريكة . قالت ضاحكة :

– أنت دميان! .

– من قال لك ذلك ؟

– بريكة .. أنها تحبك . حملتني لك سلام .

هذه الفتاة لا يزيد عمرها على عشر سنوات تتحدث هكذا ببساطة الأنثى المدربة وأى ناس هم هؤلاء البدو وما سر هذه الصراحة والوضوح ؟

– وأين بريكة ؟

– أقامت جلاسة وتزوجت . أخذها ابن عمى . فارس يجرا ويكتب وراسه زين .

تركها وأخذ طريقه إلى المترل وحمل لها أكبر كمية ممكنة من الهدايا قالت :

– لي ؟

قال:

– لك ولبريكة .

وعاد إلى البيت طالباً من مجد الدين أن يخرج إلى العمل بدلاً منه . نام وأعطى وجهه للحائط . وجد الغرفة خالية من كل شيء .الإنسان حقاً بعد أن يجاوز الأربعين ، يهفو أن يعود شاباً . كان عليه أن يدرك ذلك ويتجاوزه بسلام . ثم هل كان يعول على نجاح هذا الحب الشقي ، وبريكة مسـ ـلمة ، وهو مسيحي ، بريكة مسيحية لكن لا يستطيع تطليق زوجته . على كـ ـل جانب يلازمه الفشل . كان عليه ألا يترك الطريق مفتوحاً لقلبه ، هذا مـ ـا صار عليه على أى حال . ليس أمامه إلا أن يوفي بنـ ـذره لراعيـ ـه ورفيقـ ـه الشهيد جورجيوس .

في المساء سأل مجد الدين :

– ماذا يحدث لو ذهبت إلى الإسكندرية ولم أعد . هل سيسأل عـ ـني أحد ؟ لا أظن وأنت أيضاً يمكن أن تأتي معي . لا معنى لوجودنا هنا . مستر سبايك لم يعد يسأل عنا . المفتش الذي يزورنا كل شهر مر عليه شهران ولم يأت للآن . القطارات قلت . يستطيع هلال أو أي جندي هندي أو أفريكى أو استرالي أو نيوزلاندى أو مصري أو إنجليزي أن يدير المزلقان . وجودنـ ـا هنا عبث لا معنى له وسط كل هذه الجنود من كل العالم .

ولم يستطع مجد الدين الدخول معه في الحديث . لم يتعود من دميـ ـان على هذه النبرة اليائسة . خلل ما حدث في عقل دميان ولا أقل . لكن مجد الدين فكر في وضعهما الشاذ هنا حقاً . وضعه هو بالذات ، حيث تـ ـأخر كثيراً عن رؤية ابنه ، شوقي ، البعيد في القرية ، وهذا فوق طاقة البشر على الاحتمال ، لكنه قال بهدوء .

سافر أنت مطمئن البال يا دميان ، سأنتظرك حتى تعود .

****

" لن تجد بلدانا ولا بحوراً أخرى

ستلاحقك المدينة ،

وستهيم في الشوارع ذاتها،

وما من سفين من أجلك ،

وما من سبيل "

-26-

وصل دميان إلى الإسكندرية في اليوم الثاني من شهر إبريل ، مع نداء من الوكالة اليهودية والمجلس العام ليهود فلسطين يحث اليهود رجالاً ونساء

على التطوع في الوحدات اليهودية التي تعمل بالجيش البريطاني في الشـ ـرق الأوسط ، فالحاجة ماسة إلى عدد كبير من المتطوعين والمتطوعات للخدمة في القوة الإقليمية المساعدة . وأعلن النداء أن الخطوة الأولى هي تجنيـ ـد غـ ـير المتزوجين ومن لا أولاد لهم ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، " ولتكن تلبية النداء من جانب فلسطين جديرة بمهمتنا الكبرى ، وخطـ ـورة الساعة " في الوقت نفسه كان الدكتور على إبراهيم رئيس جماعـ ـة إنقـ ـاذ الطفولة المشردة في مصر يوجه نداء لأبناء الوطن لإنقـ ـاذ أطفالـ ـه ، كمـ ـا انشغلت الصحف بحكاية هتلر مع شهر ابريل ، ففي العشرين منـ ـه ولـ ـد ، وكان ذلك عام 1889 ، وفي السابع منه عام 1939 سمح لموسـ ـيليني أن يترل بجيوشه لاحتلال ألبانيا ، وفي الثامن والعشرين من العام نفسـ ـه ألقـ ـى هتلر خطابه الشهير الذي أعلن فيه نقضه للاتفاق البحـ ـري بـ ـين ألمانيـ ـا وبريطانيا ، وفي التاسع من أبريل 1940 ، قام هتلر بغزو الدانمارك ، وفي السادس عشر عام 1941 هاجم يوغسلافيا واليونان وتساءلت الصـ ـحف عما يخبئه هتلر هذا العام في شهر أبريل ، هل يجتـ ـاز القوقـ ـاز إلى إيـ ـران والعراق أم يخترق تركيا إلى العراق والشام ؟!

في الخامس من أبريل احتفلت الكاتدرائية المرقسية بعيد الميلاد فـ ـأقيم قداس حافل افتتح بالتضرع إلى الله أن يشمل العالم برحمتـ ـه ، وفي العلمـ ـين أقيمت الصلوات ، وظهر بين الجنود بعض القساوسة بالنهار ، لكن بالليـ ـل أقيمت السهرات وظهرت فتيات الترفيه الجميلات يغنين ويرقصـ ـن مـ ـع الجنود ، وكانت غارة شديدة قد وقعت على الإسكندرية قبل ذلك بيومين ، ولم تنته بعد عمليات الإنقاذ وامتلأ المستشفى الأميرى بالمصابين وانتقلـ ـت

أسرة دميان للإقامة الدائمة بفناء المنشية ، وهناك قابل دميان الخواجة ديمترى في حالة من البؤس فصافحه صامتاً وبدا الرجل ذاهلاً عنه ، وزار الإسكندرية كالعادة كثير من الباشوات لتفقد المنكوبين بصحبة محافظ المدينة ، ووصل عدد القتلى اثنين وخمسين ، والجرحى ثمانين ، وتقرر صرف جنيهين لكل مصاب مؤقتاً ، وفي السابع من أبريل حدثت غارة أكبر من السابقة فجاء رفعة النحاس باشاً رئيس الوزراء بعد أن ألقى كلمة من الإذاعة المصرية :

- " أبناء الإسكندرية الأعزاء ".

أتوجه إليكم بالخطاب وفي القلب أثر عميق مما حل بكم ، أيها السكندريون ، إننى واثق بأنكم ستظلون في هذه المحنة صابرين كما عهدت فيكم ، طالما ضربتم لمصر في شجاعتكم أروع الأمثال ، وأقمتم على تحملكم للكوارث خير برهان فلا ريب أن تكون مدينتكم بعد ذلك مثار الإعجاب وموضع التقدير والإجلال " .

في الوقت نفسه وقع مرسوماً بإلغاء البغاء بدءاً من مايو فيما عدا عواصم المحافظات والمديريات ، ولا يجوز من الآن فتح بيوت دعارة جديدة ، كما استضاف النحاس حوالى ثلاثمائة جندي ناقه من بريطانيا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا واستمتعوا بالترهة النيلية والحدائق ، واستمرت الغارات بشكل كثيف فوزعت إدارة الوقاية المدنية بيانات بها نصائح للجمهور بأن يحتفظ بهدوئه وقت الغارة ويذهب إلى أقرب ملجأ ، وأن لا ينظر إلى السماء أو يراقب المدافع المضادة للطائرات ، وأن يتجنب التجمهر وأن يتوقف عن

الجري في الطريق لأن سرعة الإنسان مهما كانت لن تفوق سرعة الطائرة ، والأفضل أن ينبطح أرضا إذا لم يجد مكاناً مسقوفاً قريباً ، وأن يبتعد عن الواجهات الزجاجية ، وأن يترك السيارة إذا كان فيها ويطفئ أنوارها ويوقفها إلى جانب الطريق ، واحتفظ ، دميان بهذه الإشارات وحفظها واعتبرها موجهة للسخرية منه ، ومن أمثاله وأخذ يجري أثناء الغارات ليرى ما إذا كانت سرعته أكبر من الطائرات أو القنابل أم لا ، ووصل إلى نتيجة مخالفة للتعليمات فهو ينتقل من جانب إلى جانب في الشارع قبل أن تصل القنبلة إلى الأرض ، والحقيقة أنها لا تصل أبداً فهي عادة تسقط بعيداً في منطقة أخرى ويسمع فقط صوتها بعد وصوله إلى الرصيف ، صار كلما حدثت غارة ترك أسرته في الكنيسة التي بات خادما لها أكثر من المدة التي نذرها ، وخرج ليرى الناس وهل حقاً يبتعدون عن الشوارع إلى الملاجئ ، ومداخل البيوت كما كانوا يفعلون قبل انتقاله إلى العلمين ، أم لم يعودوا يأبهون بشيء ،ورأهم لا يأبهون بشيء .. هؤلاء الذين تبقوا بالمدينة لم يعودوا يخشون على أعمارهم .

وترك نفسه يمشي بلا هدف من غيط العنب إلى كرموز إلى شارع الخديو إلى محطة الإسكندرية وأحياناً يدخل في شارع محرم بك ، وأحياناً يتجه إلى محطة الرمل قاطعاً شارع النبي دانيال ، ومن هناك على الشاطئ حتى قصر رأس التين ويعود ولا هواء الإسكندرية يثيره ، ولا ضوء النهار الرائق ولا زرقة البحر والسماء البعيدة ، الفراغ حوله أكثر من كل وقت ولم يتأخر بالليل فلم يصطدم بالسكاري ، ولابد إنه رأى جنوداً من الأجانب لكنه لم يشعر بوجودهم ، ومقاهي المنشية لا تزال غاصة بالتجار

والسماسرة والغرباء لمن لا يرى شيئاً ولا يعرف لماذا يقطع هذه الرحلات النهارية الغامضة ، وأدرك أنه لا يفعل ذلك بإصرار إلا بعد كل غارة ، والغارات كثيرة ، وهو صار كالمجنون يرى البيوت المهدمة في الشوارع ، ولا يرى البيوت السليمة ، ويرى الحفر مكان القذائف ولا يرى الارض المستوية ويشم رائحة دخان اللحم المحترق والأخشاب ولا يشم رائحة اليود القادمة من البحر ويفكر أنه ليست هذه هي المدينة التى عرفها ، هى شيء أقرب إلى الشريط السينمائى ، ومن زمان لم يدخل أي سينما ولم ير أي عرض لشارلي شابلن واكتشف أنه عاد حافياً كما كان فهو لا يلبس الحذاء بالكنيسة ، ويظل طول النهار يدور بين سكان الحي اللائذين بها يخدمهم ، يسقيهم ، ويطعمهم وينظف الجدران والأعمدة المرمرية والأيقونات ويوقد الشموع ويجلي المرايا ويزيح الغبار من أيقونة مارى جرجس الضخمة ، ويتأمله ويتذكر رؤيته له وسط النار ولا يصدق ويتذكر مجد الدين الذي لم يصدق أيضاً وكذب رؤياه ان تعود إليه ويريد أن يبقى بالمدينة التي صارت واسعة جداً بهجرة أهلها ، وقديمة جداً بدمار مبانيها ولا يزال الزحام حول وأمام محطة السكة الحديد والخوف يزحف إلى قلبه . هل حقاً يمكن أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه في المدينة غيره ، هذه المدينة كيف حقاً لم يعد يعرفها ؟

إنه حتى لا يجد رغبة في زوجته التي كلما نظر إليها فكر كيف حقاً يمكن أن تعيش بعده ، ويدرك أن ذلك يعنى أنه سيموت ويرتعش ويفكر في بؤس العالم من غيره ! هل حقاً يمكن أن يستمر الناس في حياتهم بعد موته ، كيرياليسون ما أحوجه لمجد الدين يبث فيه الثقة بطول العمر .

وسقطت بالمدينة بعض الطائرات اليونيكير الألمانية ، وخرج حميدو من المعتقل مع دفعة جديدة من المفرج عنهم فكتب على جدار المترل " يا ما تأخذوني إلى الأبد يا تسيبوني على طول " وكان السائرون على قلتهم يعرفون ما يقصد فيضحكون وانهالت التبرعات على المدينة من سلفاتور شيكوريل وصاحبات السمو الملكي و الملكة نازلي . وظل حي كرموز مركز الغارات الألمانية ، وحي الشهداء يصر على أن يكون في مكانه التاريخي ، حتى الطائرات اليونيكر ، والهنيكل الألمانية صارت تسقط فوقه ، وكذلك طائرات السوفوي الإيطالية ، لكن يوم شم النسيم كان يوماً عادياً بالمدينة ، خرج الناس إلى الترهة وحدائق الشلالات وامتلأت ترعة المحمودية بالفلائك الملونة بالأعلام يرقص ويغنى فوقها البنات والشباب ، كذلك خرج السكندريون إلى الشواطئ غير مبالين بالغارات ، وكان الجو معتدلاً ومياه البحر مسطحة هادئة بيضاء لازوردية وامتلأ شاطئ الأنفوشي بأبناء كرموز فخرجت النساء بالأواني الممتلئة بالأسماك ونزلن الماء بثيابهن وتعابث الفتية والفتيات كالعادة ، وفي المنشية لم يستطع الصبية المشاغبون الترول حيث صارت الميناء الشرقية ممتلئة بالبوارج البريطانية لكن في محطة الرمل أحاط الناس بتمثال سعد زغلول وجلسوا حوله على نجيل الحديقة الصغيرة ، وراحوا يأكلون فسيخهم وسردينهم المملح بهدوء وخلو بال ، ودخلت الإسكندرية ذلك اليوم خمسون سيارة من القاهرة لقضاء شم النسيم في شواطئ ستانلي وجليمو نوبلو وميامي ، ونزلت الفتيات الإنجليزيات من " الأتسا " وزملاؤهم بالمايوهات في شاطئ مصطفى كامل ، وامتلأت حديقة الحيوان بالزوار الذين أسرفوا في إكرام الحيوانات ، وفي المساء عاد الجميع

متعبين إلى بيوتهم فامتلات بهم عربات الترام وعربات الكارو والحنطور وشملهم الصمت ، بحت أصواتهم من الكلام والغناء طول النهار وحين صفرت صافرة الإنذار لم يهتم أحد أن يترك مكانه ، توقفت المركبات حقاً لكن أكثر الناس كان يغط في النوم ، لم يطل وقت الغارة وسقطت طائرة واحدة فوق المدينة .

**

بعد شم النسيم بأيام صدر مرسوم ملكي بتعيين عبد الخالق حسونة بك محافظاً للإسكندرية بدلا من سعادة محمد حسين باشا الذي أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه ، وصدر أمر ملكى أيضاً أن يكون قصر رأس التين الأبيض الجميل تحت تصرف السفارة البريطانية لاتخاذه مستشفى عسكرياً طول مدة الحرب ، وكان من أهم ما قام به المحافظ الجديد إنهاء ظاهرة الدقيق المغشوش في الخبز ، ومن طوالع سعده اكتشاف أثر جديد هو معبد الإله أبيس بكوم الشقافة ، وكان دميان يمشي أمام عامود السواري فوجد زحاماً من بعض الوجهاء وعرف قصة الأثر فراح يركز عينه على الأرض مندهشاً من سر هذه المنطقة ، وانتهى شهر أبريل بغارة قوية قتلت ستين شخصاً وجرحت أكثر من مائة وسقطت فيها أربع طائرات للمحور ودارت العجلة كعادتها ، مصابون في المستشفيات وإيواء للمنكوبين في دمنهور وكفر الدوار ، حيث لم يعد هناك مكان للإيواء بالإسكندرية الآن ، لكن في هذه الغارات تهدم المعبد اليهودي بشارع النبي دانيال . لقد بنى المعبد عام 1870 وجدد منذ عشر سنوات ليتسع لخمسمائة شخص ، وقيل أن الذي بنى المعبد في ذلك الوقت كلفه عشرة آلاف جنيه في وقت كان الجنيه

يشترى فدانين من الأرض ، وسرت شائعة أن الطائرات الألمانية كانت تبحث عن المعبد اليهودي طوال الأيام السابقة ولما وجدته هدمته وذلك سر انقطاع الغارات أسبوعاً بعد ذلك ، لكنها حين عادت بعد الأسبوع توغلت في محافظات الوجه البحرى مما تسبب في انقطاع الغذاء عن الإسكندرية والقمح بصفة خاصة لكن سرعان ما عالج المحافظ الجديد المشكلة ، وقيل إن الناس صارت تأكل كثيراً بسبب القلق والخوف ، وصدر أمر قتال يومي عن القائد العام للجيوش البريطانية بالقاهرة الفيلد مارشال سيركلود أوكنلك إلى جميع الضباط العظام والقادة في القيادة العامة للشرق الأوسط ، بأن هناك خطراً حقيقياً من أن يصبح اسم روميل شبحاً ترتعب منه القوات ، كما أصبح اسمه موضوع مناقشات طويلة لا تنتهي ، وأن روميل مهما كان قديراً أو كفئاً فإنه ليس إنساناً خارقاً للطبيعة وحتى ولو كان ذلك فإنه من غير المرغوب فيه أن تصفه قواتنا بتلك الصفات ... ولذا أرجو – يقول القائد العام – أن تبذلوا قصارى جهدكم لمحو هذه الفكرة عن روميل ، لأنه لا يزيد في الواقع على أن يكون قائداً ألمانياً عادياً ، لذا يجب ملاحظة عدم ذكر اسمه عندما نشير إلى العدو في الصحراء الغربية فنقول الألمان أو قوات المحور أو العدو ولا نقول (روميل) وإننى أطلب منكم التأكد من تنفيذ هذا الأمر ومن صدور التعليمات اللازمة إلى القادة الأصاغر بذلك ، علماً بأن لهذا الأمر أهمية سيكلوجية عظمى .

وعادت حملة التبرعات من أجل الإسكندرية وانضم إليها هذه المرة الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمال والأميرة سميحة حسن وصيدناوي وسليم وسمعان وعادت الشكوى من الدقيق المخلوط فأعلن أن

الأمر يحتاج إلى وقت هذه المرة ، وقامت إدارة الرقابة بتوزيع الخوذ على المتطوعين ففاز غفارة بواحدة ، حيث انضم للمتطوعين وخصص عربته لنقل المصابين لكنه تأخر بعدد من الجرحى الذين كانوا يترفون فماتوا فأعفى من نقل الجرحى وخصصت عربته لنقل الموتى فكتب على أحد جدرانها (عربة الرحمة الإلهية) وعلى بقية الجدران الخشبية التى أعادها إليها آيات من القرآن وأحاديث عن الموت وأبرز من الأمثال " الحي أبقى من الميت " بخط واضح للغاية ، وكذلك " يمهل ولا يهمل" .

وفي الخامس من مايو احتفل بعيد الجلوس الملكي كما يحدث كل عام في كل أنحاء القطر فأقيمت القداسات بالبطريركيات والصلوات بالمساجد وأقيمت المهرجانات الأدبية وعزفت الموسيقى في الشوارع وفتحت مطاعم الشعب للشعب ، وعرضت سينما أولمبيا فيلم " أحب الغلط " لتحية كاريوكا وحسين صدقي ، وبدأت لجان محلية فى مكافحة الحفاء فقامت بتوزيع خمسة وعشرين ألف زوج من الأحذية كما قامت وزارة الشئون الاجتماعية بتوزيع ثمانية آلاف زوج من الأحذية على الفلاحين بالقرى باعوها في المراكز " الجوز بربع جنيه " ومنع الحاكم العسكرى البريطاني أى أضواء ليلية حتى لو بمناسبة عيد الجلوس ودارت فرق الجيش والبوليس الموسيقية بالشوارع تعزف موسيقاها وفي الحدائق ، وروعت الإسكندرية بحادثة قتل بشعة بعد غارة عنيفة راح ضحيتها ثلاثون فرداً ، فنسى الناس الغارة التي تعودوا عليها وتحدثوا عن الحادثة البشعة حيث عثر في صندوق قمامة على جثة لسيدة جوار سور حديقة النزهة ، تم التعريف على القتيلة واسمها فتحية جاب الله وهى في حوالى العشرين ، فانقطع الناس عن زيارة

الترهة خاصة وقت العصاري والمغيب ، لا العشاق الرومانسيون عادوا يذهبون بالنهار ولا طالبو المتعة الذين كانوا يذهبون بالليل ويستغلون الظلام الدامس في الطريق المجاور للحديقة المحاط بالأشجار من الجانبين ، الجميع يعرفون أن رجال البوليس السري ينتشرون في المكان الآن ، ولا يعرف أحد ما الذي جعل دميان يستيقظ في الصباح الباكر ويأخذ طريقه إلى شارع البان ويعبره ويقطع الشارعين الجنوبيين ليصل إلى سور السكة الحديد ، ومن المكان الذي تهدم يوم ذهب إلى العمل أول مرة عبر كما كان يفعل دائماً ومشى إلى البوستة . لم يجد الرجل الجالس على الغراب ذلك الصباح فانقبض قلبه لكنه مشى في طريقه وما كاد يدخل بالبوستة على زملائه وهم يشربون الشاي حتى قفزوا غير مصدقين يأخذونه فى أحضانهم واحداً بعد الآخر ، وصافحه الأسطى غبريال بابتسامة واسعة هذه المرة ، وأجلسوه بينهم ، لم يجد حمزة فعرف أنه لم يعد ، ولم يجد شاهين فسأل عنه ، قيل له : إن ابنه رشدي ترك الإسكندرية إلى الصعيد مشياً على قدميه بحثاً عن حبيبته كاميليا ، وإن الرجل مريض بالبيت ينتظر عودة ابنه ، ووجد دميان نفسه يذهب بعد ذلك إلى شاهين ، كانت عينا الرجل شديدتي الاحمرار من فرط البكاء . جلس معه دميان كثيراً ، قال له إنه عرف من الكنيسة أن كاميليا دخلت الدير ، وأنها في الدير ستكون بخير وتنسى وأنه لو حدث وقابلها رشدي سيشفى من أثر حبها لأنه سيجدها شفيت من أثر حبه .

في الثامن والعشرين من مايو قبض على إبراهيم عطا قاتل فتاة صندوق الترهة التي اتضح أنها راقصة وعاد العشاق الرومانسيون والعمليون "يذهبون إلى الترهة ليلاً ونهاراً" ، وتم توزيع بطاقات تموين على

الناس لمواجهة جشع التجار وبدأ هجوم كبير لقوات المحور بعد أن وصلت روميل إمدادات كبيرة ، بدا واضحاً أن المعركة الكبرى قد أزفت وأرسل الجنرال ريتشي رسالة عظيمة إلى الجيش الثامن لتشجيعه مذكرا الجنود بأنهم يزودون عن الحرية والديمقراطية ، وكما فعل ريتشي فعل أوكنلك ، وبدأت معركة كبرى في بير حكيم أبلى فيها الفرنسيون أعظم بلاء وبدأت تصل الإسكندرية طلائع الأسرى الألمان ، ولكن الألمان استطاعوا احتلال بير حكيم ، فانسحب منها الحلفاء والفرنسيون الأحرار الشجعان الذين حاربوا بشجاعة منقطعة النظير ، و ازدادت صيحات الشيوعيين في أوروبا بضرورة فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا للتخفيف عن الاتحاد السوفيتي ، وتم الاتفاق بين روسيا وإنجلترا وأمريكا على ذلك ، لكن ليس في أوروبا بل هنا في الصحراء ، كانت هذه رؤية تشرشل أن يتم طرد جيوش المحور من أفريقيا ثم يتم غزو إيطاليا من الجنوب لطرد موسيليني فيبقى هتلر وحيداً وساعتها يمكن فتح الجبهة الفرنسية وعبور المانش ، لكن الألمان كانوا يتقدمون في الصحراء ويحشدون الملايين في روسيا .

ترك الفرنسيون بير حكيم بعد ستة وعشرين يوماً من القتال وظلوا مرتفعي الروح المعنوية ، وانسحبت قوات الجيش الثامن من حاميتي العضم وسيدي رزق وانتقل القتال إلى جنوب وغرب طبرق فترك روميل طبرق خلفه واندفع إلى الحدود المصرية .

مع بداية يونيو كانت الدبابات البريطانية جرانت وكروسيد وستيورات تقف هنا وهناك مثبتة فوق الرمال الساخنة والجنرال ريتشي يقف عاجزاً لا يعرف أين سيضرب روميل ضربته ، وكانت الورقة الرابحة

عند روميل هى المدفع 88 ملم المضاد للدبابات حيث يستدرج الـ ـدبابات البريطانية إلى أرض قتل ثم تنطلق عليهم هذه المدافع الجبارة مجنونة من كـ ـل ناحية لتدميرها ، وتتولى دبابات البانزر تدمير ما تبقى .

في فجر العشرين من يونيو ألقت الطائرات الألمانية المنقضـ ـة القاذفـ ـة قنابلها فوق طبرق بكثافة مرعبة ، فتطايرت الأسلاك الشـ ـائكة وتفجـ ـرت مواقع الفرقة الهندية ، وتوالت موجات الطيران تدك المواقع الدفاعية . بـ ـدأ الهجوم الألماني المدرع بالفرقة 21 البانزر تسبقها المدفعية ، كما قامت فرقة أخرى ياجتياح الميناء وفرقة ثالثة بسحق رجال الأسطول البريطاني .

ظل في الحامية أربعون ألف يقاتلون فأقام المهندسـ ـون الألمـ ـان فـ ـوق الخنادق العميقة المضادة للدبابات وبدأت أرتال البانزر تأخـ ـذ طريقهـ ـا إلى الحامية تعاونها وحدات المشاة الميكانيكية وتمهد لها الطائرات بالضرب .

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً وروميل يتابع المعركة مبتـ ـهجاً برجاله ، وفتح المهندسون الألمان ثغرات عديدة من حقول الألغام ، وجاءت موجة جديدة من الطائرات الألمانية للضرب فتحطمت المقاومة البريطانية في المواقع الأمامية وبدأ الاستسلام الكبير فاهتز العالم واهتـ ـزت الإسـ ـكندرية أكثر ، وأدرك الجميع أن روميل قادم إلى الدلتا، وفي نهاية المعركة قاد روميل بنفسه مجموعة القتال خفيفة الحركة ، وكان بنفسه يترع " بيض الشيطان " – الألغام– من الخنادق المضادة للدبابات ،وأبرق قائد الحامية البريطاني إلى القاهرة بأنه لا فائدة ثم استسلم ومعه ثلاثة وثلاثون ألف جندي حى شحنوا إلى إيطاليا ، وألف عربة مدرعة وأربعمائة مدفع وغيرها من المعدات أضيفت

إلى قوة روميل وخطب روميل يشكر جنوده ويطلب منهم التقدم إلى الهدف الثاني ، مصر ، ورقصت حكمت فهمي رقصة طبرق في ملهي الكيت كيت ، كان الحاضرون يغنون أغنية جديدة انتشرت في أوروبا : " الشمس على موعد مع القمر لكن القمر غائب " وذاع خبر سقوط طبرق فشاعت البهجة في وجه هانز أبلر وزميله ساندى وطلب المصريون من حكمت فهمي أن ترقص رقصة طبرق دون أن يعرفوا أنها جاسوسة للألمان .

وصل روميل هكذا إلى قمة المجد . كتب إلى زوجته " عزيزتي لو . كانت معركة رائعة . طبرق . يجب أن أنام بعد كل هذا الجهد . إنني أفكر فيك كثيراً . سقوط طبرق هو زهوة انتصاراتنا في الصحراء ، في الوقت نفسه كانت سمعة الجيش البريطاني قد اهتزت تماماً إذ سقطت أيضاً سنغافورة في يد اليابانيين واستسلمت فيها قوات تبلغ ثمانين ألفا . كان تشرشل في أمريكا يزور روزفلت ، الذي أظهر كياسته ، وسأل تشرشل عما يمكن لأمريكا أن تفعل فطلب دبابات التشيرمان الجديدة بأعداد كبيرة ، وعلى الفور تم شحن سفن حاملة ثلاثمائة دبابة إلى قناة السويس .

***

تأخر دميان كثيراً في الإسكندرية .. راقت له خدمة الكنيسة وخدمة اللائذين بها من الغارات وصعوبة الحياة . ترددت حكاية القديسة الصغيرة ، التي تحدث المعجزات على يديها في أسيوط . فتاة لم تدخل الدير إلا منذ شهور صارت الآن تشفى الناس من كل مرض شيطاني بلمسة من الصليب على الرأس أو من يدها ، وكثيراً ما تشاهد في الدير تحدث فيها أو كائنات

لا يراها أحد ولا تنقطع عن العبادة ، وتصوم الوقت كله ، لكن النور لا يفارق وجهها ، لقد بدأ الناس يأتون إليها من القرى المجاورة بأطفالهم المجدورين المعودين والمصدورين ويذهبون بأنفسهم لتشفيهم من الربو والحمى وضعف القلب والصرع ، وكذلك النساء الريفيات العاقرات ، صارت الطوابير تحاصر الدير ، والقديسة الشابة تخرج ساعتين في الضحى وساعتين بعد الظهر والناس تتقاتل في الاندفاع إليها .

كان رشدي لا يزال يمشي ضد اتجاه النهر يأكل ما تطوله يده من غيطان الخضر ، باذنجان ، أو طماطم ، أو خيار ، أو غيرها ، أو ما يجود به الناس الذين يرقون لحاله ، صار معروفاً أن هناك شاباً مجنوناً يمشي عكس اتجاه النيل ، وكلما رأى جثة في النهر نادى أهل القرية وصرخ ولم يسكت حتى استخروجها ، وفي كل مرة كان تتسع عيناه ولا يكف عن الحركة حتى يعرف القتيل وشكله وعمره ، ولم يصادف كاميليا أبداً فظل يمشي نحو الجنوب . لقد مضت أربعة أشهر حتى الآن أو أكثر على رحلته ، ولقد اقترب للغاية من أسيوط وها هو يسمع عن الشابة التي دخلت الدير منذ عام واحد ، وصارت قديسة ذات كرامات تفوق كرامات القديسة تريزا ، اتسعت عيناه وهو يسمع اسمها " كاميليا " وانسالت دموعه . حدث ذلك لدميان أيضاً حين وصل خبر القديسة إلى الإسكندرية . وصار يبحث عن الخواجة ديمتري فلم يجده في الكنيسة في أى يوم ، وعرف إنه هاجر مع أهله من الإسكندرية إلى أسيوط أيضاً ، فكر دميان في نفسه . هل كان يمكن أن يكون قديساً . لقد فشلت قصة حبه مع بريكة . ونجاه ماري جرجس أكثر من مرة من موت محقق ، وها هو يحب الكنيسة والعمل بها وخدمة أهلها

وزوارها واختيار أحقر الأعمال وإنجازها بفرح ، لكن قصة حبه مع بريكة لم تكن إلا كما قال مجد الدين نزوة رجل تجاوز الأربعين . لماذ ا لم تحدث هذه النزوة مع فتاة مسيحية ؟ لماذا كانت الفتاة مسلمة ؟ لابد أن ماري جرجس لا يريد له أن يقع في الخطيئة من أى نوع . فتاة مسلمة يعنى إنه لا فائدة من الحب ترجى !

ذلك يعصمه من الإثم حقاً ، لكنها تعنى أيضاً أن يقهر قلبه وعقله وكل حواسه . أى ظلم .

ومشى رشدى بسرعة في البلاد ، كان يدرى أنها تراه في صحوها ومنامها .

كانت تحب أن تنظف الحجرة التي عاشت بها السيدة العذراء وطفلها في الدير في بطن الجبل . لقد نحت الفراعنة المغارة الكبيرة ليصعدوا إليها عند الفيضان . مغارة ترتفع عن السهل الزراعي بمائة متر أو أكثر قليلاً . انتهت السيدة العذراء وابنها ويوسف النجار إليها في رحلتهم التي فروا فيها إلى مصر. وصارت المغارة كنيسة للعذراء وديراً يزوره الناس ، وتقوم حوله بيوت الرهبان . كاميليا تحت أن تنظف حجرة العذراء ، وذات ليلة رأت النور ، النو الذى لا يدور بخلد أحد ، الذي لا يتخيله أحد ، النور الذي له لون عسل النحل ، والذي له مسرة النسيم في يوم قائظ ، والذي له طعم الماء الزلال ، رأته ينبعث في الغرفة صغيراً كشمعة ثم يكبر ويزيد بريقه وتزداد إضاءة الغرفة ثم يخرج النور يضيء المغارة التي تضيئها الشموع الهزيلة فكأنها شمس دخلت المغارة وصار فيها ركن يبرق . إنها العذراء

تتجلى نوراً في كل مكان . ورأتها كاميليا تمضى أمامها وتبتسهم ابتسـامتها التي لا تختفي وأحست بها تمسح شعرها برائحة طيبة ، وقالت للأب ميخائيل إن العذراء تجلت لها ، وصارت العذراء تتجلى لها في كل وقت ، وحلـت فيها البركة والقداسة السرمدية ، ورأت رشدي يمشى في البلاد . تماماً كما كان السحرة يرون ما يحدث في البللورة السحرية . لم تخف أبـداً عليـه ، كانت على يقين بنجاته ووصوله إليها ، كانت فقط تنتظـره وتـدعو لـه العذراء أن تحفظه من أى مكروه . هو الذي أنشأ فيها الرقة ، هـو الـذي أيقظ فيها هذه الروح الشفافة ، هو الذي أثار فيهـا الطبيعـة الملائكيـة ، يستحق إذن أن تدعو له العذراء أن تحفظه . كانت تعرف أنه سيصل إليها . وظل هو يمشي في البلاد . القديسة الشابة هي حبيبته . قلبه يـدق ويخـبره بذلك . لم تُقتل ولم تمت . وشاعت القوة في روحه هو أيضـاً ، وأضـاءت عيناه الذابلتان وحملته قدماه ونزل يستحم في ماء النهار أكثر من مـرة . لم يرض أبداً أن يقابل كاميليا على هيئته الجديدة ، حافياً ، ممزق الثياب ، أغبر الوجه والشعر ، وأدرك أنه رأى في الريف دنيا أكثر بهاءً ونضـرة . الأرض خضراء والشمس حانية والناس في دعة تمشي على مهل والأطفال يلهون في الغدران . حقاً يبدو الفلاحون فقراء مهملين ، شاحبي الوجـوه ضـامري الأجسام ، لكن سمات الرضا على وجوههم ، والبِشْر والبهجة على وجـوه الناس في الحقول جوار السواقي تحت أشجار السَنط والسـنديان والجميـز العجوز ، والطيور سابحة في الفضاء حرة تنزل هادئة تلتقط الحب والحشرات وتعود ترتفع إلى أعماق السماء لا يعطلها شيء ، وجرب العمل في الحقول ، وصار معروفاً أنه لا يمكث في القرية الواحدة أكثر من يـوم أو يـومين .

ويختفي دون إنذار . يندهش الناس لأمره . يقولون إنه شاب مبروك . عمل في صمت وأكل وشرب في صمت والحقيقة أنه كان شارداً شرود الأنبي ـاء ساعة الوحي ، لقد تفجر فيه نبع الشعر ووجد نفسه يقوله مختلطاً بأشعار من أحبهم من الفرنسيين وغير الفرنسيين وباذ ـت في عيني ـه فرح ـة الخل ـق وزهوه ... ياللألم الجميل الذي أيقظ الشاعر من مرقده الدفين . أيقن أذ ـه كان مخبئاً لرسالة . سيحمال عن الناس آلام المعرفة ويمتعهم بما يشدو به منها ، هذه الآلام المسكرة . لكنه رأى أيضاً الفلاحين مهانين مذلين ورأى أسياد الأرض يضربون ورآهم ينامون مع البهائم ، وي ـأكلون أحق ـر الأطعم ـة ويشربون ، كالبهائم ، من ماء الترع ، ويحمدون الله على كل حال ، أدرك القوة الخفية في المصريين . يتركون الحاكم الظالم للحاكم العادل ال ـذي لا يخذلهم مهما طال الوقت . كيف حقاً انحدر المصريون من الأزمات السحيقة إلى هذا الزمن ؟ أى معجزة يقدمها هذا الشعب . البقاء مع الظلم أكثر من الثورة عليه . وكلما طالت المسافة أمامه اقترب من أسيوط وازداد فرح ـه وأحس بجسده يهتز من طرب خفي . طرب الشعر ، أم طرب اللقي ـا ؟ لا فرق . في الشعر واللقيا ميلاد جديد للروح ، سيراها فقط ويعود ، تل ـك التي شفَّت ورقت مثلما رق ولم تمت مثلما عاش وصار هو شاعراً وصارت هي قديسة . الاثنان في زمرة الأنبياء .

دبَّر من العمل ثمن ثياب نظيفة وحذاء ، وكان أول ما فعله في أسيوط أن دخل أحد الفنادق الرخيصة ، يستحم وينام طويلاً بعد أن حلق ذقذ ـه . نام أكثر مما ينبغي وقام لينظر فى المرآة ، أى وجه جميل يحمله رش ـدي . أى عذاب فوق هذا الوجه . واندفع يبكي متحسراً على الذي فعل ـه بنفس ـه

وفعله به الحب ، وفكر حقاً في الرجوع . إلى هذا الحد اطمأنت روحه بعد أن أدرك بقاء حبيبته حية . لكنه في الحقيقة في حاجة أن يراها . مشى في شوارع أسيوط الحارة يتسكع قليلاً ، وعاد لينام ، لقد قرر في الصباح الذهاب إلى الدير الذي عرف الطريق إليه .

في الطريق فكر أن يعود ويكتفي بالتحولات التي حدثت لكليهما ، لكنه كان من القوة ليذهب ويراها دون أن ينتكس أو ينهار . قال لنفسه : إنها لابد بلغت القوة أيضاً .. كلاهما صار في منطقة بين اللاهوت والناسوت

ورأى الزحام الشديد من المرضي والثكالي والمقهورين في الحب والحياة ، في الروح والجسد ، على ذلك السفح الممتد من الجبل حتى الوادي ، وعلى طول الطريق حتى قرية درنكة رجالاً ونساء .. وقف بعيداً حتى أقترب موعد انصرافها . لقد تشبَّع بهالة النور التي تكلل رأسها وتشيع حول وجهها . تشبع بحركة شفتيها الصغيرتين بالكلمات المبهمة التي لا يمسها أحد . تشبع من زيها الأبيض السماوى ، من جسدها الهش كجسد عصفور ، وتقدم . لقد جاءت اللحظة التي كانت بعيدة كيوم الدينونة ورفعت وجهها إليه . ارتعش الصليب الفضي الصغير في يدها الدقيقة . ارتشعت شفتاها بلا كلام . لقد أحست برائحته . ولم تعد قادرة على الوقوف حتى إذا صار أمامها كادت تنهار . لكنها تماسكت وتركت دموعها تترل على خديها أمامه وبين دهشة المرضى الثكالي والمعذبين .. "رشدي " كانت الكلمة التي طال انتظاره لسماعها . وقال " لقد شفيت " قالت " كنت أعرف ، كنت أراك وأنت تأتي ماشياً في الحقول . أنا أيضاً شفيت " قال وسأذهب إلى فرنسا بعد الحرب ، وأعطاني الله القدرة على الشعر " وأنا

لن أترك الدير . أعطاني الله القدرة على المساعدة ، الحب طريق الرب يا رشدي " وسكتا . كانت دموعه هو أيضاً قد انحدرت " هل تباركيني ؟ " أومأت برأسها فركع على ركبتيه ومشت بيديها على رأسه وقرأت رقية ثم أخذت بيده تنهضه وأمام الناس جميعاً وقفت على أطراف أصابع قدميها وقبلته على جبينه وقالت "مع السلامة ياحبيبى" وشق صفوف المرضى عائداً ودخلت هى إلى الدير ولم تكمل بركتها ذلك اليوم ولم تخرج لأيام ثلاثة بعد ذلك ظل فيها الناس ينامون حول الدير حتى خرجت إليهم يسبقها نور وجهها .

***

كان السيد الجليل المثلث الرحمات الأنبا يؤانس بطريرك الأقباط الأرثوذكس وبابا الكرازة المرقسية قد مات في الإسكندرية ، وتم انتخاب نيافة الأنبا يوساب مطران جرجا من المجلس الملي العام وفتحت الكنيسة المرقسية أبوابها للتبرك بزيارة جثمان الفقيد قبل أن يوارى ، وزارها دميان الذي خرج ذاهلاً . لماذا حقاً يموت الناس ؟ لأول مرة يسأل نفسه ذلك ، وخشى أن يكون الإيمان الغامر الذي تمكن من قلبه في الشهور السابقة قد تسرب في الصحراء ولم يعد كافياً . لكنه لم يكف عن السؤال . وبالليل ، وهو نائم في صحن الكنيسة على حصير فوق الأرض بين أسرته ، وغيرها من الفقراء عاودته رؤية ماري جرجس على فرسه تحيط به النار من كل جانب ولا يعرف كيف يخلص نفسه منها .

كانت الدبابات الأمريكية الجديدة الشهيرة من ماركة جرانت وشيرمان تصل ميناء السويس وتتدفق على الإسكندرية ثم إلى الصحراء، بينما القوات البريطانية تنسحب أمام روميل إلى الحدود المصرية ثم السلوم وسيدى براني وتوقف الجيش الثامن في مرسى مطروح ودخلها روميل وتقهقر الحلفاء أمامه وفي الضبعة حدثت معارك بالسلاح الأبيض أبلى فيها النيوزيلانديون وظهرت شجاعتهم لكن من يستطيع الآن أن يوقف روميل ذا الاسم الساطع ، إن اسمه وحده يلقي الرعب في خصومه ويكفي لكسب الحرب . كانت العلمين هي نقطة التوقف للمنسحبين والمهاجمين . هى عنق الزجاجة الذي لا يزيد عرضه على خمسة وعشرين ميلاً من البحر حتى منخفض القطارة . وهى منطقة بعيدة عن قواعد قوات المحور بليبيا .

يحتاج روميل إلى الراحة عندها بعض الوقت . وهى بالنسبة للحلفاء خير منطقة للدفاع لقربها من قواعد امدادهم ، ولضيق أرضها على المناورة العسكرية التي برع فيها روميل . هنا سيكون مضطراً أن يهاجم مباشرة فلا مساحة للالتفاف .

***

روميل ... روميل ... روميل .. الاسم تحمله الرياح وتردده الناس ملحقا بالقوة والدهاء والعبقرية والخوارق . روميل لا يمكن هزيمته . لا يمكن قتله . انفجرت العربة المدرعة التي كان يركبها جنوده منذ قليل . فرقة من الكوماندوز الإنجليز تترل إلى الشاطيء الليبي من غواصتها ، وتصل إلى مقر قيادته لكنه كان خارجه يحضر حفل زواج أحد الأصدقاء ويقع

الكوماندوز فى الأسر بعد معركة يموت فيها بعضهم . تعطلت سيارته في الصحراء فدخل خطأ مع هيئة أركان حربه معسكراً بريطانياً به مستشفى ميدان فأمر مدير المستشفى والأطباء بالوقوف أمامه ، وتصرف كما لو كان قد احتل المكان ، فسألهم ما إذا كان ينقصهم شيء يقدمه لهم بعد تنظيم أوضاع الأرض التي احتلها ! ووعدهم بتلبية مطالبهم . وبعد أن غادرهم اكتشفوا الخدعة طار الصيد الثمين .

ازداد الهلع في البلاد فازداد خروج اليهود منها وبيعت ممتلكاتهم بأبخس الأثمان ، وسمع السكندريون دوى المدافع في العلمين فارتبكت أحوال المدينة وبدأت القنصليات الأجنبيه في حرق أوراقها كما فعلت كذلك السفارات بالقاهرة ، وفكرت السفارة البريطانية في تهريب خمسمائة فتاة من فتيات الأتسا إلى الأقصر فليس من المرغوب فيه أن يتم ترك هذه النعمة البهيجة للألمان و انتشرت شائعة قوية أن الإنجليز طلبوا من الحكومة المصرية إغراق الدلتا في حالة احتلال الألمان الإسكندرية لكى تتحول الأرض إلى بحر من الطين تغوص فيها المركبات الألمانية فازداد سخط الناس على الإنجليز .

ومن جانبهم ، الإنجليز ، ألحوا على ضرورة إخراج أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب كرها أو طواعية من القاهرة حتى لا تستغل الدعاية الألمانية أغانيهما . وهجمت الناس على البنوك لسحب أموالها . ودب الخوف في نفوسهم ولزموا بيوتهم أياماً لا يخرجون إلا للضرورة وجماعات بسبب الأخبار التي شاعت عن وصول حيوانات شاردة من الصحراء وتحت وطأة الحرب . أسود ونمور وذئاب وثعالب وقرود . وبالفعل وجد الناس أكثر من قرد قد تسلق الأشجار فطاردوه بالحجارة حتى قتلوه . كما تحولت الكلاب

بالليل إلى ثعالب وذئاب يفر كل من يراها ، أما الأسود والنمور فلم يره ا
أحد ، غير أن الأخبار حملت نبأ أسد عجوز ظهر في منطقة مينا البصل ن ام
على شريط الترام بالليل فدهسه أول ترام صباحي ومزقه وك اد ينقل ب
وهكذا صار الناس يتوقعون ظهور الأسود والنمور في أى وقت وارتبك قائد
منطقة الإسكندرية العسكري وهو ضابط مصري إذ ليس لدي ه تعليم ات
محددة في حالة دخول الألمان إلى المدينة فأرسل خطاب اً إلى وزارة الحربي ة
يسألها عما يجب عمله في هذه الحالة ، هل يق اوم أم يستس لم ؟ ع رض
الخطاب على وزير الحربية فأمر بعدم الرد عليه لكن قائد المنطقة المرتبك عاد
وأرسل خطابا بالمعنى نفسه فصرخ وزير الحربي ة " انقل وا اب ن ...م ن
الإسكندرية " كان الوزير يخشى إذا طلب المقاومة أن يحاكمه الألمان في حالة
النصر وإذا طلب الاستسلام أن يحاكمه الإنجليز بتهمة الخيانة ! ووقعت على
المدينة غارة هدمت شارع منشه كله في ليلة واحدة وخرج سكان كرم وز
وراغب وغيط العنب هلعاً إلى شاطئ المحمودية لكن الطائرات الألمانية ألقت
على المحمودية كثيراً من قنابلها هذه الليلة ، فغاص كثير من السفن مشتعلة
مدمرة في الماء وقتل العشرات مما كانوا على الشاطئين وبدأ خروج كبير إلى
الريف عن طريق القطارات والسيارات . سيارات أجرة وملاكي وك ارو
بحمار وكارو بخيل وحنطور ودراجات . ومشاه كانوا يش غلون الطري ق
الزراعي والنساء خرجن من المدينة هلعاً بملابس البيت أو قمصان الن وم ،
طاف دميان بالشوارع القريبة من الكنيسة ليرى الأثر السيئ للغارة كم ا
يفعل بعد كمل غارة ، فوجد بيوتاً كثيرة مهدمة ، ومنها بي ت الخواج ة
ديمتري حيث سقط الدور الثاني فوق الدور الأول ولم ين هر غ ير ج دار

الواجهة الذي سقط إلى الخارج فسد الرصيف أمام الباب المغلق الذي ظ ـل واقفاً . لم يكن أحد بالبيت أثناء الغارة ، لا سكان ، وديمة ـري رح ـل إلى الصعيد .. فكر دميان أن يصحب أسرته إلى الصعيد لكنه تذكر أن الص ـلة انقطعت مع أخواته البنات من زمن فليهاجر إذن إلى مساكن الإيواء الـ ـتي أقامتها الحكومة بكفر الدوار .

في الطريق كان دميان يجري جوار العربة التى يقودها غفارة وطربوشه على وجهه ، وفوقها أم دميان وزوجته وبنتاه . لقد عاد غفارة ورفع جدران العربة الخشبية ليجلس الناس فوقها بسهولة في طريق الهجرة الطويل . لق ـد انقطع عن نقل الموتى ، لم يحتمل ، وصار ينقل الأحياء إلى كفر الدوار تسبقه سيارات الأجرة والحنطور التي تجرها الخيل والعربات الكاور الطويلة الـ ـتى تجرها البغال العفية ، لكن لا بأس فالحماران الضعيفان يوفي ـان بـ ـالغرض والناس فقراء خرجوا من بيوتهم عراة فهو يكتفي بالقليل ويطلب دميان أن يقفز جواره لكن دميان الذي يدرك بطء العربة وضعف الحمارين يكتف ـي بالسير جوار العربة ، وبالهرولة . لماذا حقاً لا يرى المشهد من حوله جيداً ؟ هذا الطابور المشوه من الهاربين ، أزياء مختلطة وعُرى وأصوات عالية وبكاء ومتاع كثير وقليل نظيف وقذر والشمس فوق الجميع تفضحهم والقطارات تمرق جوارهم ، قريبة منهم ، أكثر زحاماً ، والجميع ينظرون إلى الجمي ـع ، واللحظات لا معنى لها ، فكر دميان في بريكة ، لق ـد وص ـل روميـ ـل إلى العلمين ولابد أنها والبدو جميعاً قد رحلوا ، قد فروا أمام الجيوش الغبية ، يا الله . هل تظهر بريكة في معسكرات الإيواء .لا يظن . لو ح ـدث ذا ـك سيتزوجها .. هى متزوجة . وهو متزوج . سيخطفها . لا يمكن أن يراه ـا

مرة ثانية و ويتركها . ذكراها فقط تكاد تخلع ـه ع ـن الأرض ، لا تكف ـي خدمته في الكنيسة وقيامه بأحقر الأعمال لينسى . حتى الم ـراحيض ك ـان ينظفها ويطيل الوقت في تنظيفها لكن الفضاء الذي هو واسع جداً يج ـري خلاله الناس والمركبات جميعاً يقول لا سبيل لعودة بريكة . كانت تأتي من " وسَع " وتعود إلى " وسَع " . الرب أرسلها . الرب أخذها البدو لا ينامون في دور الحكومة . بريكة ذرة رمل حملتها الريح ، ولابد من العودة إلى مجد الدين .

في كفر الدوار كانت هناك خيام الملكة نازلى تستوعب القادمين تمهيداً لإقامة مساكن من حجر . إذن ليس أجمل من الترول في بيوت أقامها الملوك حتى ، ولو كانت خياماً من قماش . كذلك كانت عربة غفارة التي حمل ـها بجزء من متاع الأسرة وركب فوقها الجميع ومشت بهم ببطء على الطري ـق الزراعي المزدحم بالمهاجرين الذين يمتدون فوقه بلا انقطاع من الخلف ومن الأمام حتى بدا لدميان إنه هدف للجميع ! كانت الحكاي ـة الغريب ـة ال ـتى أدهشت الناس وأبكتهم في الإسكندرية هى حكاية السيدة اليهودية سمحون التي كانت تسكن في فيللا صغيرة بشارع منشة مع عشرات من القط ـط . إنها تنتمي لعائلة سمحون الشهيرة التي كانت من أوائل ق ـاطنى الش ـارع في عهد إسماعيل باشا . لا يعرف أحد اسمها فأعطوها اسم العائلة ، و لا يعرف أحد متى كان مولدها ولا اليوم الذي ظهرت فيه سمحون بالشارع ، لكن ـها صارت معروفة منذ الحرب العالمية السابقة . كانت تحب شاباً يهودياً ذهب إلى الميدان الشرقي مع اللورد اللنبي ، ودخل معه فلسطين ، ولم يعد ، كان قد وعدها أن يراسلها لتلحق به بعد الانتهاء من الحرب ، والانتصار لكنه لم

يفعل . قتل في القتال الدائر مع الأتراك وأنصارهم وهى بدورها لم تشأ الذهاب إلى الأرض التي قتل فيها حبيبها . اكتشفت أنها لا تستطيع أن تترك مصر أبداً . ظلت بالبيت وحيدة بعد موت أمها وأبيها وزواج إخوتها وأخواتها وانتقالهم إلى سابا باشا . لا أحد يتذكرها إلا يوم السبت حين تخرج قاصدة المعبد في شارع النبي دانيال ....

منذ تهدم المعبد لم تعد تخرج أيام السبت أيضاً . لا يعرف أحد كيف تعيش . يقال إن لها خادمة تأتي من الحدَرةَ " وتعود كل يوم . لكن حتى الخادمة كانت لا ترى إلا قليلاً ، وعلى غير عادة الخادمات لم تكن تتحدث مع أحد . كانت تشترى كل شيء من الوكالة في الحدرة ، وتأتي في الصباح .نادراً ما اشترت شيئاً من شارع منشَّة وبوالينو أو محرم بك . سقطت قذيفة مباشرة على فيللا سمحون فتكومت مع البيوت المجاورة جاءت فرق الإنقاذ وتجمع الناس أكثر ما تجمعوا حول بقايا الفيللا . أين ذهبت السيدة سمحون أشهر عاشقة في الشارع ؟

كانت فرق الإنقاذ تعمل وتتقدم في العمل فتخرج من تحت الأنقاض قططاً صغيرة وكبيرة حية تجرى تموء في الطريق غير مصدقة ما جرى لها ، ووجدت السيدة سمحون مكومة في ركن محاطة بجوانب قوية من الجدران ، ومغطاة بجزء من خشب السقف . لكنها معفرة بالتراب مغمضة العينين لا تتحرك . لا حول ولا قوة إلا بالله . يا لها من نهاية لعاشقة حقيقية . كانت أجمل الجميلات لكن الوحدة أصابتها بشيخوخة باكرة . لابد أن معها أموالاً كثيرة ! تناثرت الأحاديث وانتظر الناس ظهور المال فاستمر رفع الأنقاض ثلاثة أيام ، وشارك في ذلك ناس من كل الإسكندرية ، عاطلون وفقراء

جاءوا يبحثون عن الكتر المدفون لعائلة سمحون , لا أحد يسأل نفسه لماذا لم يظهر أحد من أبناء العائلة إلا للحظات لاستلام جثة أختهم ثم اختفـوا ، في النهاية وجدوا بعض أوان قديمة ، وأثاث متهالك وأعواد بخور . حزم كثيرة ملونة من أعواد البخور . كانت تحتفظ بها السيدة الجميلة سمحون .

***

" لك الحمد إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم .

لك الحمد مهما استطال البلاء،

ومهما استبد الألم "

-27-

دق قلب مجد الدين بسرعة مع مجيء القطار .. إلى متى تكذب علىّ أيها القلب الضعيف ؟ قال لنفسه . يحدث ذلك كل يوم ، ولا يأتي دميان لا شيء يملأ الخلاء حوله . حتى الحركة الكبيرة في الجيوش لم تملأ الخلاء .التراجع والذعر أمام روميل ، طوابير الجرحى الذين حملتهم القطارات ، الأسى من عيون الجنود مختلفة الألوان ! البكاء أحياناً . صمت عازفي القرب .. الغبار الذي ملأ الفضاء ، الطائرات التي أتت وراحت ، ذهبت ولم تعد وعادت !! القذائف الشيطانية . ملازمته البيت أياماً كاملة . تضوره جوعاً . إذ انقطع الهنود والصافي النعيم عن المجيء ، وهرب هلال ناظر المحطة ليلحق بعامر الذي ترك من قبل حجرة التلغراف مفتوحة تعوى فيها الرياح . كل ذلك لم ينسه دميان . هل كان دميان سبب بقائه ؟ لن يجد مرة أخرى أحداثاً في قوة ما مضى لدفعه لترك المكان . لابد أنه دميان . إنه ينتظر عودته ، ولسوف يعود . وها هو يراه يترل من السبنسة آخر عربات القطار الذي جاء يحمل عتاداً عسكرياً .

إنه يراه واقفاً وسط الرصيف ينظر حوله ، تماماً كما حدث عندما جاءا أول مروة معاً . دميان يبدو غير مصدق أنه عاد إلى صديقه ، تماماً كما لا يصدق مجد الدين ، أسرع كل منهما ليكون في حضن الآخر .

في غرفة الناظر تحدثا كثيراً ، وصف مجد الدين بؤس انسحاب الجنود أمام روميل ، وحكى دميان عن بؤس الإسكندرية . لا أحد يبقى . لا أحد ينام . ومجد الدين غير قادر على الابتعاد بعينيه عن إكليل النور الذي يحيط بوجه دميان . هذا شيء لم يكن في دميان من قبل .

– مالك ياشيخ مجد تحملق فيَّ كثيراً ؟

– لا شيء يا دميان .. فقط أوحشتني . لم أصد أننا سنلتقي ثانية .

لكن دميان شرد بذهنه عنه . لقد سبق وتأمله القسيس ، الأب إبشوي ، كثيراً ، وسحبه من ذراعه إلى حجرة الاعتراف وأجلسه وراح يعيد النظر إليه . " ما الحكاية يا أبانا " " لا تترك الكنيسة يا دميان ، لا تبتعد عنها " الشمامسة والقساوسة كثيراً ما ينظرون إليه ويجتمعون ويتحدثون . شيء ما يحدث في وجهه لا يدركه . لكن لماذا لا ينظر إليه أحد من أهله . ولا من أولئك الذين لاذوا بالكنيسة ؟ ما الذي يجعل مجد الدين مثل الأب إبشوي والقساوسة والشامسة ؟

– كان عليك أن تترك هذا المكان وتلحق بي .

قال دميان ذلك وهو يكذب . لقد أحس في الأيام الأخيرة أنه لم يعد يعرف الإسكندرية ، وأنها لم تعد تعرفه ، إنه لا حياة له بعيداً عن مجد الدين ، وهو الآن يشعر أنه لن يستطيع البقاء هنا ... وقال مجد الدين :

– نعم كان عليَّ أن ألحق بك .

– لماذا إذن لم تفعلها يا شيخ مجد ؟

لم يجد مجد الدين أن لديه رداً . اكتشف أنه كاد يفقد الإحساس بالزمان . بأن الدنيا أوسع من العلمين . وظل يحملق في وجه دميان ، الذي استمر يتحدث عن الإسكندرية ، ولما عرف مجد الدين أن بيت ديمتري انقبض صدره ، وشم رائحة البيت ، الرائحة الوادعة الأليفة التي تبعث على الراحة والنوم . بيت لا تسمع فيه صوتاً خارج الجدران ، كان بيت الخواجة ديمتري . تذكر البهي فتذكر على الفور هالة النور التي ظلت أزماناً طويلة حول وجهه . ترى هل يجد دميان مصير البهي ؟ لقد أمسك مجد الدين بصورة البيت الصغير فأمسك بكل الصور التي ضاعت منه , لُوللا وكاميليا وإيفون والست مريم وغفارة والبهي وزهرة ، أجل ، زهرة حبيبة روحه التي لابد تزوى في القرية حزناً على فراقه الآن . ياللفرح المباغت الذي يكاد يرفعه عن الأرض وهو يتذكر شوقية وشوقي ، لقد اقترب موعد عودته إذن . هاتف سري ، سحري ، يتردد في صدره ، وقال دميان :

– لم أكن أعرف أنهم ألغوا القطارات إلى المدينة .

– لم تعد تأتي منذ الانسحاب ، إنها تنتهي عند الحمام الآن .

– ركبت إحداها ، ومن الحمام تعلقت بالسبنسة ، لم يكن بالسبنسة جنود . كانوا فوق العربات والمعدات العسكرية .

– أنت دائماً لا يعطلك شيء يا دميان . هيا إلى البيت .

الحقيقة أن مجد الدين كان يريد أن يستوثق من هالة النور حوله وجه دميان ، وهل تظهر في الظل داخل البيت ، وهل يدرك دميان هـ ـذه الهال ـة ويعرف معناها ؟ دميان يدخل مدارج القديسين والأولياء ولا يـ ـدرى ، وفي الطريق سأله دميان :

– هل لديك معلومات عن بريكة ؟

– البدو جمعياً غادروا المنطقة إلى الحمام أو العامرية .

****

في الليل كان دميان قد ضاق بحملقة مجد الدين فيه . لكنه اعتبر ذلك عرضاً جديداً ألم بصديقه . وتحدث مجد الدين عن ضرورة بقائهم ـا حـ ـتى تصلهما تعليمات بالمغادرة فسأله دميان عن العمل الذي يمكن أن يعم ـلاه الآن . قال مجد الدين ، إن تحويل القطار إلى الخط الحديدي القديم ليبيـ ـت فوقه ويعطى الفرصة لقطار آخر يصل المحطة عادة بالليل عمل مهم يجب ألا يتخليا عنه . ذلك برغم إنه لم تعد هناك فائدة للمزلقان فالقطارات لا تبتعد عن المحطة ، ومن ثم لا عمل للسيمافور الآن . وكانت هالة النور تـ ـزداد في الليل ، ويزداد لمعانها الهامس ، وسمعا صوت وقع أقـ ـدام تقتـ ـرب . كان ـا بالحجرة الداخلية لكن الباب الخارجي كان مفتوحاً . ازداد اقتراب صوت الأقدام وأصبح عند الباب ، ثم صار بالصالة فملأ فضاء البيت ثم رأياهم ـا يقفان أمامهما . إنه الضباط الإنجليزي ، مستر سبايك شخصياً ، الذي غاب عن الحضور طويلاً ، وإلى جواره رجل قصير مهوش الشعر طويـ ـل الـ ـذقن أحاطت وجهه كله ، والوجه معفر ومتعب للغابة والثياب ممزقـ ـة في كـ ـل

مكان . مجرد شورت كاكي وسترة من الك ـاكي ، والس ـاقان س ـوداوان محترقان . لقد وقف مستر سبايك محملقاً في دميان ومجد الدين ثم قال :

- This man is Egyptian , We found him in the desert , please help him .

وترك لهما الرجل المتعب ومضى ، والرجل المتع ـب ب ـدوره وق ـف يتأملهما ثم قال بصوت مرتعش :

– ألا تعرفني يا شيخ مجد . ألا تعرفني يا دميان .

– من ؟ حمزة ؟

هتفا معاً وانقضا عليه يحتضنانه ويخلعانه عن الأرض فرحاً ، وما ه ـى إلا لحظات حتى صار جالساً بينهما يبكي ويضحك ويحكى .

***

أبدأ منين يا شيخ مجد ؟ أقول إيه يا دميان ؟! حكايتي دى لابد عن يوم يحيكها الناس على الربابة زى حكاية أبو زيد والزير سالم . أى والله . آخر شيء فكرت فيه هو الرجوع لمصر . هي كانت فين مصر ؟! من ساعة م ـا شدنى العسكري الأفريكي الغبي ابن الكلب وضاع أملي في الرج ـوع . الله يسامحه انفجرت بطنه قدامي . الله يسامحه خدنى منكم ، من أولادي . م ـن أهلي وبلدي وبعدتم عنى كلكم . شفتكم طايرين في الهوا لورا والتراب قام غطى حتى على عيني ما عتش شايف حد ... أنا بصيت لقي ـت نفس ـي في مرسى مطروح . أيوه . مرت عليَّ ليلة كاملة في القطر العساكر بتض ـحك عليَّ وتمسخر فيّ ماعاطونيش أى فرصة أقرب ناحية الباب كنت نطيت إنشا

الله أموت ..يا الله .. طول الليل يضحكوا عليَّ استراليون وهنود وأفريكان وإنجليز . كل الدنيا كانت تهزأ فيَّ ، أي والله . وأنا تايه وسطيهم ، يسألوني اسمك إيه ، وات إذ يورنيم ؟ أقول حمزة يقولوا هم زة وأم زة وجم زة ويضحكوا ويزقوني من واحد لواحد وأنا مذعور وسطيهم زي الفار أبص في عيونهم وأترجاهم بليز هيلب مي ، بليز ليت مي جو هوم ، ولا حياة لمن تنادي ، وياريتني ما كنت أعرف ولا كلمة إنجليزي كنت قعدت ساكت ، لكن لأني أعرف كنت أطلب و ألح عليهم يسيبوني وأبقى عارف إنهم فاهمين كلامي ولا يهتموا ولا يتحركوا . كنت أتألم . لو كنت أخرس أو جاهلاً كنت سكت وانتظرت ورضيت لكن ركعت على ركبتي وتوسلت بليز ليت مي جو باك. ليت مي جو هوم . هوم بليز ، ماي هوم . هوم ، يضحكون ويقولوا هوم : هوم! وات إذ هوم ؟ وى آر هومليس . يو آر لايك أص هومليس همزة ، ويضحكوا ، همزة إذ هومليس . ويضحكوا لغاية ما جه ضابط شاب عجبه عجزى وحيرتي وانزعاجي وربت على كتفي يطمئنى . تحدث مع الجنود فازدادوا ضحكاً وشراسة في الضحك وأدركت أنه هو أيضاً لن يساعدني لكنه أشار إلى ركن في العربة فجلست فيه ووضعت يدي على خدى ، وأدركت أني ضائع لا محالة وسمعت الضابط يقول وهو بيشاور عليَّ لايك مونكى ! وضحك العساكر وفقدت الأمل ، تذكرتك والله يا شيخ مجد ، وأنت كمان يا دميان ، والغريب إني خفت لما أرجع وأحكي ما تصدقنيش يادميان وابتسمت رغم المصيبة وقلت بس أرجع وما يصدقنيش حد ، وبعدين قلت زي الشيخ مجد يحلها من لا يغفل ولا ينام وحلها والحمد لله والشكر لكنه تأخر على كثير قوى .

أكيد كان اختبار. أكيد.. لكن كان صعباً ..

المهم . الحمد لله على كل شيء . قلت لنفسي ونمت مكاني . صحيت لقيت نفسي في مرسى مطروح وغارة شديدة على البلد والمحطة والقط ـر . شفت العساكر بتجرى في الصحراء وأنا ساعات قدامهم وساعات وراه ـم وشفت القنبلة وهى بتقع قريب من الأفرنكي الغبي اللي خطفنى فتشيله عن الأرض عشرة متر وزيادة وتترل بيه مفتوحة والدم يشلب منـ ـه . شـ ـفت معدته ومصارينه . قربت منه لا قيته حى لكنه لا يتألم ، بس كان يـ ـبص لى جامد زي اللى حاسس إنى شمتان فيه ومش عايز يبان ضعيف ، لكن أنا كان صعبان على يادوبك اتلوى مرة واتألم مرة وفطس وغطيته بالرمـ ـل في عـ ـز الضرب . أى الله . المهم في النهاية انتهت الغارة وبقينا وسط ثكنات الجنود ، وقفت متحير . توقعت أنهم يتركونى لكنهم زقونى على المطبخ . شـ ـفت الضابط نفسه اللى كان في القطار وسمعته يقول لعسكرى أسود : تيك هـ ـم تو ذا كيتشين . هى إذ آسير فانت . وسحبني العسكرى الأسود أبو سـ ـنان بيضاء وسألني وات إذ يور نيم ؟! قلت زي المذهول : حمزة .؟ سألني وات إذ همزة ؟ قلت : يا ربي لازم الواحد يعنى يعرف معنى اسمه . قلت له حمار ، بالعربي ، سألني : وات إذ همار ؟! قلت له حمزة . بص لي وسكت شـ ـوية وبعدين . قال فيري جود همزة !

قعدت طول النهار والليل أشـ ـيل في أكـ ـل وأغسـ ـل في صـ ـحون وحلل .قلت : زى بعضه أدينى بأكل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خـ ـير لكم ، ومسير حد يعرف حكايتي الحقيقية ، يسيبني أروح المحطـ ـة وآخـ ـذ القطر وأرجع لعيالي لكن ماحدش سأل فىَّ ، قعدت أفتش في المعسكر إزاي

أهرب لقيت نفسي مش عارف الشرق من الغرب ، جنود من كل ملة وسلاح من كل صنف وسط الصحراء ، سلمت أمري لله قلت يارب تيجي غارة ألماني تهد المعسكر على اللي فيه وحلمت إني راجع لوحدى وكان الضابط كل يوم يبص لي ويضحك ويتكلم مع الضباط ويضحكون لغاية يوم شاور لي راح قلبي طب ومشيت وراه لحد عربية كبيرة فوقها عساكر . كان فيه عربيات كتير فوقها عساكر بسلاحهم . قال لي " جامب " وقفت متحير ، العربية عالية وأنا قصير لكن عسكري أسود برضه مد لى إيده ، تعلقت بيها ورفعني ، وشوية ومشيت العربيات حواليها دبابات ومدافع ، وسألت العسكري الأسود وأنا مذعور ،مذعور زى الكلب ، آه والله ، زى الكلب ، اليتيم كمان سألته : " تو وير وي جو سلولدجر " .

قال لي وهو بيضحك : " تو ذا وور " وضحك زي المجانين وأنا عرفت طبعاً أنها الحرب وإن في الحرب نهايتي ، أتغميت وتمنيت من الله شيئاً واحداً هو أنه يهزم الإنجليز والحلفاء في كل حرب ضد الألمان الطلاينة الغلابة وأني أقع أسير في إيد الألمان أو الطليان لأنهم ممكن إذا عرفوا حكايتي يسيبوني . طول الطريق الضابط يزعق ويشخط في العساكر . ظهر أنه شرس وابن كلب . سمعت الضباط ينادونه بشكسبير . الظاهر دا كان اسمه لكن العساكر كانوا بيقولوا عليه ماكبث. الظاهر دا اسم الشهرة . أنا ظنيت كده وجيت في مرة وقلت " مستر ماكبث " فزغر لي زغرة خوفتني ، وعرفت إنه انضحك عليَّ من العساكر وإن ماكبث دى كلمة وحشة ، أمال أية اللي زعله كده . لابد إنها كلمة وحشة أو اسم تجريس وهلس . قلت لنفسي قطيعة تقطع شكسبير على ماكبث في يوم واحد . بعد كده

طلعت عيني في توزيع الأكل على العساكر في مواقعهم . لبسوني طبعاً لا بس الجيش . وكانت الكتيبة اللى باوزع عليها الأكل هنودا، كلها هنود قلت يمكن دول أرحم وخدمتهم تكون أهون ، أهم مستعبدين زينا ، لكن طلعت خدمتهم طين وماكانش فيهم حد مسلم ولا حد أتكلم معايا كلمة ، وكانوا طبعاً كلهم أطول مني لابسين عمم حتقع من على رؤوسهم ولا يهتمون بلبس الخوذ ، وكانت كل أوامرهم لى بالإشارة ، خلوني كما الأخرس ، فكنت بانام بالليل في المطبخ وأقعد أسلي نفسي بالشعر والغنا وأعيط .

شـ ـوف الزمـ ـان مـ ـا عمـ ـل في النـ ـاس وراهـ ـم
إن زهـ ـزه لهـ ـم يـ ـوم جـ ـاه في العقـ ـب وراهـ ـم
زمـ . ـن الهنـ . ـا راح جانـ . ـا زمـ . ـن عايـ . ـب
وادي أنـ . ـدل النـ . ـاس ع الجـ . ـدعان يتعايـ . ـب

وفي أول معركة مع الطليان وقعت أسيراً . أخذني الطلاينة مع عساكر إنجليز وهنود واسترال ومشوا بينا مسافات بعيدة في صحراء حمراء رملتها ناعمة تهب شوية ريح عيوننا تتعمي . صحرا تربط فيها القرد يقطع ، لغاية ماشفنا معسكراً كبيراً متحوط بسلك . ربك الحق ظهرت الشماتة في عيني خصوصاً أني أنا ماشفتش المعركة قبل الأسر " أمال اتمسكتوا أسرى إزاي " لقينا كده بدون مناسبة فرقة مدرعة ألمانية ، وسط المعسكر حواليها عساكر مشاه زي العفاريت . كله عرف إن الألمان وصلوا سلموا نفسيهم . الحرب كانت بعيدة عن المعسكر ومادام ظهر الألمان والطليان يبقى الإنجليز انهزموا . بعد كده لما حيجي روميل حيجنن الإنجليز لأنه أول ما تبدأ المعركة

يسيبها ويعدى في لمح البصر ويبقى ورا الإنجليز فيسلموا على طول . لكن لسة ما ظهرش . أيوه . أمال اسمه روميل ليه . روميل لازم تكون معناه ا تعلب .أيوه يا شيخ مجد . والله يا دميان . " دا أنت حكايتك طويلة يا حمزة " أنا لسه في الأول يا دميان . دا أنا مش مصدق إنها خلصت " طي ب .. طيب .. وماتعيطش إتكلم يا حمزة فك عن نفسك " . وحشتني خالص ي ا شيخ مجد . " وعملت إية الطلاينة " أيوه يا دميان أخذونا معسكراً ك بيراً مليان أسرى من كل الدنيا وكل الملل وكنا نبات فيه ، في الخلاء بالنهار حر وبالليل برد وزي ماشفت الإنجليز بيعملوا في الأسرى شفت الطليان بيعملوا نفس العمل يرموا لنا الأكل من فوق السلك ونجرى عليه زي الحيوانات . لكن الحقيقة كان العساكر بعد ما يجمعون الأكل يعيدون تقسيمه بين هم . كانوا محترمين رغم أن الحرب وحشة وكانت الروح حلوة . أن ا ش فت الأسرى الألمان والطليان قبل كده في مرسى مطروح بيعملوا كده برضه . لا أحد يهين نفسه أو كرامته فليه أهانوني أنا وأهانوا كرامتي ؟!. المهم الطلاينة كانوا بياهخذوا كل يوم شوية يستجوبوهم وما يرجعوش تاني . يشحنوهم على إيطاليا . جه الدور عليَّ خفت ، ما قل تش غ ير كلم ة واح دة " إيجيبشيان " وجملة واحدة " أيام إيجيبشيان " بصوا لبعض الضباط الطلاين ة واتكلموا بصوت عال وبسرعة زي القطر وضحكوا . فجأة قام ضابط من بينهم ولف حواليَّ وهو بيبص لي ويقول " إيجيبشيانو " وحبيت أق ول إني مش جندى ولا رتبة وأني عامل في السكة الحديد المصرية خطفني الإنجليز ، لكن ضاعت مني كل الكلمات الإنجليزية اللى عرفتها في حياتي ومافض لش منها غير " إيجيبشيان " وقعدت أعيط . رجعوني المعسكر وأنا مش مصدق ،

شفتهم بيرحلوا كل اللي استجوبوهم على إيطاليا . حمدت ربنا وقعـ ـدت أمشى جنب السلك العالى في المعسكر أفكر ليه سابونى مخبيين لىَّ إيه ، أبص للسما البعيدة والدنيا الواسعة وأقول معقول ربنا حيسمعنى من هنـ ـا . أى الله يا شيخ مجد . لكن ربنا كبير ، سمعنى ، وشفت بـ ـين جنـ ـود الحراسـ ـة عسكرى ملامحه عربية . كلمته عربي رد علىَّ ، طلع ليبي ومتجند غصـ ـب عنه ، حكيت له حكايتي ولقيت في عينيه نية طيبة إنه يسـ ـاعدنى . قـ ـال لى انتظر كام يوم أكون دبرت لك حل . انتظرت . افتكرت غـ ـارة مرسـ ـى مطروح والقنابل بتنفجر قدام عيني وصوت المدافع بعد كده على الحدود ، والقذائف تنزل على العساكر تطيرهم تقطعهم في الجو حتت ، وافتكـ ـرت الصوات بتاع الجرحى طوال الليل في مستشـ ـفى الميـ ـدان القريـ ـب مـ ـن المعسكر . أنا كنت دايماً في الخطوط الخلفية للإنجليز ، لكنى شفت جهـ ـنم أكثر من مرة لأنهم ساعات كانوا يزقوني قدام مع فريق التموين . أيوه . هى جهنم إيه غير النار . تعرف يا شيخ مجد أنا رأيي إن الأجانب دول أصلاً من جهنم . ناس قلبها حديد بيرموا على بعض كل يوم ملو قطر قنابـ ـل . يـ ـا ستار . تفتكر إحنا المصريين ممكن نحارب كده. إحنا ناس طيبين بنعيط . دا لو حصل حرب وجه العدو قدامنا وقال موال حزايني حنعـ ـيط ونسـ ـيب الحرب . " طيب يا حمزة ما تعيطش . بلاش تكمـ ـل الحكايـ ـة النـ ـهاردة . استريح " أنا استريحت لما شفتكم . الحرب وحشة قوي يا شيخ مجد . يا ما شفت عساكر طارت رؤوسها وهي واقفة وراء المدافع ، ومدافع تطـ ـير في الهواء وتتفكك ميت حتة وعساكر فجأة يتجننوا ويجروا يصرخوا فى الجـ ـو ويركبهم عفريت ويتنططوا فى الأرض وزملاؤهم يكتفوهم ويـ ـدوهم إبـ ـر

منومنة وينقلوهم على بلادهم . أنا شفت مجانين كتير لدرجة أنى فكرت إن إنجلترا وإيطاليا وألمانيا والهند وأفريقيا صارت مورستان . شـ ـفت عسـ ـاكر تبص في السماء وتصرخ وعساكر تجري تقع في النـ ـار ، تنتحـ ـر يعـ ـنى ، وعساكر تنهار وتعيط زي النسوان المكسورة الخاطر . دول غلابـ ـة قـ ـوى العساكر يا شيخ مجد كلهم أطفال يصعبوا عليك . دي الحرب وحشة قوى يادميان . المهم بعد كام يوم لقيت معسكر تاني بيتنصب جنبنـ ـا ويتجهـ ـز مستشفى ميدان وعربيات بتنقل مئات الجرحى وغبار وحركة كأن القيامة قامت . سألت العسكرى الليبي قال لى جاك الفرج يا مصـ ـري . الإنجليـ ـز كسروا جرازياني . انتظر لازم يأتون هنا .. وحصـ ـل . وصـ ـل الإنجليـ ـز وأخذوني مع الأسرى وشحنوني معاهم إلى الحدود المصرية . شفت عنايـ ـة ربنا . لقيت نفسي في مصر تاني لكن أسير المرة دى . مـ ـين يصـ ـدق . " لاحول ولا قوة إلا بالله . دا أنت تعبت قوي يا حمزة " . أسير في بلـ ـدي ، لكن الحمد لله ، في النهاية رجعت . سلموني لأومباشي اسـ ـترالي طويـ ـل . طويل قوي .رجله لوحدها طولى . أى والله أخذني لضابط عظيم . عرفـ ـت إن شكلي هو اللى كان دايماً يخلى اللي يشوفني يشك في . مـ ـش شـ ـكل عسكري ولا يمكن يكون فيه ضابط قصير كده . يبقى أكيد جاسـ ـوس . . أدي كل الحكاية آدي سبب غلبي . سألني الضابط أنت إية ومين ؟ قلت له أنا إيجبشيان غلبان . ماعرفتش يعني أية غلبان بالإنجليزي . لسـ ـة الكـ ـلام الإنجليزي ضايع مني . بص لي الضابط وامتعض بس أنا حسيت إنى أقـ ـوى من الأول . أيوه . أنا واقف على أرض مصرية على كل حال . الضـ ـباط تشكك في فحبسني فى أوضه خشب لوحدى واقف عليها عسكري حراسة

أفريكي أعرف أن الليل دخل من شقوق الخشب لما يختف ي وش ه وتب ان سنانه ! تعرف يا شيخ مجد حسيت إني لي قيمة كبيرة جوه الأوضة المقفول ة دي . انتشيت . فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالى وأصحابي كلهم . فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالي وأصحابي كلهم . لكن بعد ك دة كنت أحس بحاجة للعياط . أحبس دموعي وأفتكر المواويل .

بصوا ش وفوا ف لاح مكس ور ذلي ل من هان ،
ج وا حن لك تمس اح م ن س الف الأزم ان
ي ا م ن رم اك ده رك في ف م دا التمس اح
ق ول لي عل ى أم رك وم ا ده اك ي ا ص اح

وبعد شهر أطلقوا سراحي من الحبس ، قلت ضروري أتقصوا ع نى وعرفوا إنى غلبان وحيسيبونى أروح ، لكن ما حصلش . حطونى في المط بخ أطبخ للعساكر ومع الهنود تاني . كأنهم عارفين اللي حصل قبل كده ، قلت زي بعضه ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، وصبرت لغاية ما ش فت بع يني العساكر الإنجليز راجعة من على الحدود متبهدلة قدام روميل . كان ت دي أول مرة نسمع فيها اسم روميل اللي حل محل جرازياني وسمعت أن جنرال الإنجليز الكبير " ريتشي " أتجنن . صار عندي احساس إن نج اتي حتك ون على ايد روميل . واتحسرت . أن ا في بل دي ومحت اج القائ د الأل اني ينقذني .وحصل . كنت في المطبخ لما شفت ال دخان ط الع م ن غ رف

الضباط . كانوا بيحرقوا كل حاجة بسرعة ويركبوا عربياتهم الجيب ويرمحوا . ماسمعتش غير كلمة واحدة ، روميل . لقيت جماعة جرحى قعدت معاهم . فين أروح ؟ ولقيت المعسكر امتلأ ألمان والدنيا حولنا دخان ونار .

أخذني الألمان لضابط كبير فهداني تفكيري وقلت " روميل " . يسألوني بالألماني أقول " روميل " ، بالإنجليزية أقول " روميل " قلت لازم يكون فيه عاقل يخلصني من الورطة اللي طالت ولا عاقل إلا " روميل . " وعرفوا إنك عايز تشوف روميل ؟ " أيوه حصل . رجل غريب وشه مدور وعينه خضرا غويطة وشعر رأسه خفيف وما بيتكلمش كتير . بعد ثلاثة أيام أخذوني ليه . ثلاثة أيام رعب — ونظر دميان إلى مجد الدين قائلاً في نفسه ها هو حمزة يعود لأصله القديم — وفي غرفة روميل شفت واحد بدوى واقف جنب روميل اللي قاعد .؟ حكيت لهم قصتي وسمعت البدوي بيترجمها ألماني وروميل يبتسم بدهشة ووشه راح زي وش طفل . أى والله . قال جملة واحدة ترجمها لى البدوي . قال إني حافضل معاهم شوية وهما بيطاردوا الإنجليز والجيش الثامن حتى إذا وصلوا إسكندرية أدلهم على شوارعها وبعدها يتركوني . ساعتها دعيت ربنا أنهم يوصلوا إسكندرية بسرعة ، واستغربت إزاي البدوي يعرف ألماني وقلت أكيد أنه جاسوس لابس بدوي ." طيب يا حمزة كفاية كده النهارده ونام " استني يا دميان الحكاية قربت تخلص أنت أكيد مش مصدق . " أبداً يا حمزة دا أنت حتى شكلك تعبان أكتر من اللي حكيته " . بعدها يا دميان تقدم الألمان إلى مرسى مطروح وأنا في الخلف مع فرق الإمداد . حطوني عهدة سواق جيب مجنون خلع عظامي من المطبات والسرعة ، يشوفني بتألم يضحك ويقول (إيجيتر)

يعني مصري وأنا أقول يارب كملها على خير خايف من الألغام . في مرسى مطروح شفت المعركة الكبيرة . شفت الدبابات وهي بتضـ ـرب قـ ـذائف والدبابات وهي بتولع والمدافع تتنطط من القذائف والطيارات تيجـ ـي مـ ـن البحر وتروح وبالليل سمعت أصوات الموتى وأنين الجرحى والأحياء الـ ـدنيا راحت سواد في حمار في غبار وبالليل كنت أقعد وسط الظلام واتكور وعايز أخش في بعضي من اخوف وأقول يارب خدني بأه . يارب كفاية على كده ، لكن الألمان كسبوا ودخلوا مرسى مطروح والضبعة بعد كده لغايـ ـة مـ ـا وصلوا هنا . إسكندرية بقيت قريبة وما حدش سأل فيّ وأنا قلت لنفسـ ـي معقول روميل يكون محتاج لواحد زيي يدله على شوارع إسكندرية وقعدت بالليل أقول مواويل لنفسي .

الـ . .بين عطـ . .اني بـ . .لاوي زود أمراضـ . .ـي
مرعـ .ـوب منـ .ـها قـ .ـوي دخـ .ـلاش في مـ .ـرادي
القلـ ـب قـ ـال لي زمانـ ـك سـ ـد مـ ـش راضـ ـي
تنتنى أبكـ ـي لـ ـا جفـ ـن العـ ـين صـ ـب منـ ـه دم

كل دا وأنا لسه عهده العسكري المجنون سواق الجيـ ـب ، وفي ليلـ ـة أخذني ومشي بي أكتر من نصف ساعة بالعربية وشاور لي على النجـ ـوم في السما ووقف ونزل ونزلت ، فشاور لقدام بإيده وقال الكسندريا وكـ ـرر الكلمة أكتر من مرة وبعدين شاور لي أمشي فمشيت زي المسحور ، بسرعة حددت لنفسي نجم قدامي وكنت عارف إن البحر على شمالي وإن الوشيش اللي باسمعه هو صوت البحر اللي مش شايفه ومشيت لكن بعد شوية ضاع

صوت البحر وتشاهت على النجوم وافتكرت إن الجيوش وهي بتنس حب دايماً تحط في الأرض ألغام وأكيد الإنجليز عملوا كده بينسحبوا قدام روميل وعرفت إن نهايتي حانت وإني لازم حادوس على لغم في الضلمة دي ، ولو حتى في النور ، رحت قاعد في الأرض زي العيل التايه وبص يت للس ماء البعيدة وقلت ياربي أنت شايفني وأنا مش شايفك وسامعني وأنا مش سامعك ، يارب أشكو لك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، ي ارب إذا كان بيك غضب على فأجله وكفاية عليّ كده . يارب أنا مديت إيدي آخذ علبة بسكويت للأطفال دا كل اللي عملته فهل استحق كل دا العذاب ي ا كريم يا أرحم الراحمين ، يارب خد بإيدي ، لمين سايبني ؟ مرة لأعداء أشرار بهدلوني ، ودلوقت للصحراء والألغام والديابة . أيوه إن كانش لغم ينسفني ديب يطلع عليَّ ياكلني . يارب فين رحمتك اللي وسعت الدنيا كلها. يارب أرض عنى وأنقذني ... يا سلام . كنت تعبان قوي يا شيخ مج د ، فنم ت مكاني . نمت كتير ؟ دقيقة لاقيت فيها وشه منور ولابس أخضر وقاع دين بين أصحابه منورين ولابسين أبيض رميت السلام ورد السلام وسألني أنت مين قلت أنا حمزة يا رسول الله راح مبتسم لي ووسع لي مكان جنبه وقال لي تعال أقعد مع أصحابي أبو بكر وعمر يا حمزة دا أنت اسمك غالي ، رح ت قاعد جنبهم وقمت من النوم شبعان كأني نمت ميت سنة واتأكدت إن ربنا حينجيني ، وحسيت بإيد دافية حنونة تمسك بإيدي قمت ماشي بثقة وصوته ، الرسول ، يقول لي يمين أمشي يمين شمال أمشى شمال وكل ما رجلي تغوص في الرملة يمسكني الرعب ، يقول لى ماتخافش ويروح الرعب وأمشي عل ى كده لحد ما طلع النهار . أول مرة أشوف النهار شكله جميل وحلو الشمس

فرحانة قوي . أيوه أنا شفتها كده . قلت يارب تم جميلك ، بصيت لا قيت قدامي عسكري هندي كأن الأرض انشقت عنه هو اللي أخـ ـذني لمركـ ـز القيادة الإنجليزي ، وهناك استغربوا إزاي عديت حقول الألغام وشكوا طبعاً فيّ ، لكني افتكرت كل الكلمات الإنجليزية اللي كانـ ـت ضـ ـاعت مـ ـني ، وحكيت لهم القصة حجزوني ثلاثة أيام لغاية ما تأكدوا من صحة كلامـ ـي وبعدها جابني الضابط ليكم والحمد لله ... ياه .. دانتم وحشـ ـتوني قـ ـوي قوي ... و ..... ي ...

وتحشرج صوت حمزة فلم يعد قادراً على الكلام .

***

" أيها الموت..

يا موتى.

يا آخر إنجازات حياتي

تعال وتحدث إليَّ همساً ،

لقد انتظرتك يوما بعد يوم ،

وتحملت من أجلك ،

أفراح الحياة وأتراحها .. "

-28-

تركهما حمزة بعد يومين استرد فيهما قوته وأعصابه . أخذ طريق ـه إلى الإسكندرية سيراً على قدميه حتى " الحمّام " . رفض أن يركب أي قط ـار جنود . المسافة أربعون كيلو متر يا حمزة حتى الحمام . " أمشيها ولك ـنى لا أركب أبداً مع الجنود " وكان معروفاً أن حمزة سيركب من الحم ـام قط ـار الركاب العادي .

أخذ حمزة طريقه بين القضيبين الممتدين إلى الإسكندرية . ه ـذه ه ـي الطريقة الوحيدة للوصول بسلام . وحين غاب حمزة في الفضاء فكر كل من مجد الدين ودميان في هذه الدنيا الواسعة التي تح ـدث فيه ـا ك ـل ه ـذه الحكايات . كيف حقاً تتحمل كل هذه القصص المؤلمة ؟ وظلا لعدة أيام بعد ذلك لا يتحدثان إلا همساً ، وقليلاً حتى أقبل الصافي النعيم ذات مس ـاء ، وأعلنهما بأنه لن يراهما بعد اليوم .كان قد تغيب طويلاً عنهما من قب ـل .

قال إن قائداً جديداً اسمه مونتجمري تولى قيادة الجيش الثامن وهو قائد شديد في التعامل مع الجنود وضع برنامجاً قاسياً للتدريب . وقال يبدو أن حرباً جديدة ستنشب قريباً بين روميل ومونتي . هكذا صار اسم الضابط الجديد بين الجنود .

لقد أحضر لهما الصافي النعيم عدداً كبيراً من علب الجبن والبولوبيف والشاي والسجائر ، ونقل لهما تحيات الجنود الهنود الشباب وحدثهما عن مصرع بهادور شاند ، ثم ابتسم وهو ينظر إلى دميان ويقول : إن بهادور كان مصمماً على قتلك بعد العودة ثم قال " يبدو أن الألمان يحبونك يا دميان " . وكان دميان قد أحس ببعض الضيق حقاً لموت بهادور شاند . يعرف أن الذي يحميه هو ماري جرجس نفسه لكنه تمنى لو شمله بالحماية بطريقة أخرى هذه المرة ، أن يعود بهادور إلى الهند مثلاً . إلا أنه بسرعة اعتذر لماري جرجس ووضع على صدره علامة الصليب وقال هي الحرب تأكل الجنود .

كان تشرشل قد زار مصر ، والتقى مع الجنرال ألكساندر القائد الجديد للشرق الأوسط الذي حل محل أوكنلك ، وزار معه الجيش الثامن بالعلمين بعد أن التقيا بالجنرال مونتجمري في مقر قيادته ببرج العرب . لقد شاهد تشرشل بنفسه التغير الذي أحدثه مونتي في الجنود .. ورأى عدداً من الجنود يترلون إلى البحر في الصباح بسراويل داخلية قذرة فضايقه ذلك ، وتألم للجنود ، وعاد مع ألكساندر إلى القاهرة وزار كهوف طرة ، تلك المغارات التي حدثت في الجبال بأثر اقتطاع أحجار الأهرام قديماً ، والتي صارت الآن كهوفا سرية لإصلاح وإخفاء المعدات العسكرية . لقد تمنى تشرشل لو كان الفراعنة قد اقتطعوا أحجاراً أكثر . لو حدث لكثرت

المستودعات السرية للمعدات الإنجليزية ، واتخذ مع ألكساندر الترتيبات الدفاعية عن القاهرة إذا سقطت الإسكندرية ، وعلى رأس هذه الترتيبات الخطط المائية لإغراق الدلتا . وعرقلة تقدم الألمان بفتح القناطر والسدود . ثم أمر بتوزيع البنادق على الموظفين البريطانيين في كل البلاد وعاد إلى إنجلترا .

لقد وعده ألكساندر أن يرسل إليه بكلمة (زيب) ، إذ اندلع القتال وزيب هى ماركة ملابس تشرشل .

***

كان معروفاً أن روميل لن يتوقف عند العلمين ، وكان الاستعداد يتم لاستقباله . لابد أن تكون العلمين آخر نقطة يصل إليها روميل وأول نقطة ينسحب منها إلى الغرب ، ولا يجب أن يأتي أبداً اليوم الذي تنفذ فيه خطط إنقاذ القاهرة ! وطبيعة المكان كان لا تترك لروميل فرصة المناورة ، فليس أمامه إلا طريق واحد هو اجتياز نطاق الألغام بالمدرعات في الطرف الجنوبي من الجبهة ليتجه بعد ذلك شمالاً لتطويق مؤخرة القوات البريطانية وجناحها من الأيمن . وحتى يفعل روميل ذلك كان عليه أن تحتل روابي علم حلفا ، لذلك وزع مونتي قواته بحيث يصبح سقوط هذه الروابي مستحيلاً .

استعدادات للهجوم واستعدادات للدفاع حول مجد الدين ودميان اللذين يزدادان وحشة ، وذات ظهيرة لمح دميان باب غرفة التليغراف مفتوحاً فدخلها . الحقيقة أن الباب مفتوح منذ ترك عامر الغرفة لكن هكذا رآه دميان الآن كما لو كان لأول مرة . ليس هناك شيء في الغرفة غير

دولاب خشبي قديم مفتوح به دفاتر صغيرة ، وكبيرة صفراء متربة وأوراق مبعثرة على الأرفف والأرض والمنضدة التى فوقها آلة الإرسال والاستقبال متربة كالحة وكذلك الآلة التى فجأة راحت تدق ..تك تك تك .. تـ ـك .. تك ..تك تكتكتكتك .

كان مجد الدين قريباً على الرصيف .؟ بسرعة ناداه دميان . شاهد مجد الدين وسمع آخر دقات الجهاز . وحط صمت .

– من يا ترى الذي يرسل هذه البرقية ؟

تساءل دميان بينما كان مجد الدين شارداً عنه بذهنه وهما في طريقهم ـا إلى البيت . صارت الأيام تمضى في صمت . صمت اتسع ليشـ ـمل الصـ ـحراء كلها . وجوم ثقيل منذر استقر حتى بالهواء .طوابير المدرعات التي تتحـ ـرك طول النهار لم تفلح في طرد الإحساس بالصمت ، كذلك لم تفلـ ـح حركـ ـة الطائرات التي تأتي وتعود بسرعة إلى البحر والشرق . الطائرات الإنجليزيـ ـة والأمريكية التي يبدو أنها تتدرب على المعركة القادمة ، وازدادت قطـ ـارات الأسلحة يقودها الهنود وصارت تعود فارغة بلا جنـ ـود ، لا مرضـ ـى ولا أفواج للراحة . يتحرك الجنود حول قطارات الدبابات والمدافع والـ ـذخائر دون حديث ، ويمضون بها جميعاً إلى الصحراء الواسعة التي يبدو أنها تبتلـ ـع كل شيء . الصمت هو الإحساس الذي تلبس مجد الدين ودميان وشمل كل شيء متحرك حولهما وساكن . حتى الشمس بدأت تبتعد فيتسـ ـع الكـ ـون ليساهم في ازدياد الصمت والوحشية ، ورأي مجد الدين ساعة الحـ ـائط في غرفة ناظر المحطة وقد علاها التراب وتوقفت ، وإنه هو نفسه انقطع عـ ـن

الأذان في الفضاء ., كل شيء صار قديماً هنا ينذر بالنهاية . لكنه حتى لا تختلط عليه المواقيت ، غرس عصا بالقرب من كشك المزلقان يعرف منها موعد الظهر إذا اختفى ظلها ، وموعد العصر إذا ظل الظل شرقاً ، والمغرب إذا طال وتضاعف طوله ، أما موعد صلاة العشاء فلم يكن في حاجة لشيء يرشده إليه فهو يصلى عادة في وقت متأخر من الليل ... وبالليل ، والوقت يقترب من الفجر ، وليل الصحراء قد نصب خيمته على الدنيا ليس فيه غير صوت حركة حشرات مبهمة ، تساءل دميان الذي أدرك أنه يخفي من زمان رغبته في عدم البقاء هنا :

– ماذا يحدث يا شيخ مجد ؟

كان يقصد حركة القطارات التي زادت تحمل السلاك ، وحركة الطائرات بالنهار والليل في بعض الأحيان . كان مجد الدين يقرأ القرآن فارتفع صوته (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (155) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)* وتوقف ليرد على دميان :

– لابد أن الحرب واقعة يا دميان .

أحس دميان بشيء من الضيق في كلام مجد الدين . ضيق لم يلحظه من قبل . هل هذه أول مرة يدرك فيها مجد الدين أن هناك في الدنيا حرباً ؟ وقال دميان :

– لو قلت الحرب ونحن هنا سنموت يا شيخ مجد .

أجاب مجد الدين :

– (وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ...)

أطرق دميان واستمر مجد الدين :

– (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون ...)

إنك تخيفني الليلة يا شيخ مجد ، أنا أرى كل ليلة ماري جـ ـرجس يخلـ ـص نفسه من النار وأنت تخيفني أيضاً الآن . ثم لماذا لا تكف عـ ـن النظـ ـر إلى وجهى كل حين ؟ . لقد رأيته فى المرآة أكثر من مرة فوجدته أصفر شاحباً هلى سأموت هنا ؟ لابد أن نهرب . إذا لم تهرب معي في الصباح سـ ـأهرب أنا . لقد عدت من أجلك لكنك تخذلني . هل تعرف ماذا كانـ ـت تعـ ـنى دقات التلغراف التي سمعناها . رسالة أن نغادر المكان . لا يمكن أن تكـ ـون غير ذلك . إذا لم تكن من المصلحة فهي من عند ربنا . هل عندك كـ ـلام ياشيخ مجد .. لماذ لا ترد عليَّ ؟

وجاء الرد من بعيد .. أصوات انفجارات جبارة متتالية كأنها السموات تقع فوق الأرض وضوء يكشف السماء عريض أحمر خاطف . الله . مـ ـا هذا يا شيخ مجد ؟ وأصوات صراخ طويل رفيع حاد ، صـ ـفير المقـ ـذوفات الطائرة من الأرض والساقطة من السماء . الأرض ترتفع وتنخفض بمجـ ـد الدين ودميان فينهضان في ذعر يبتعدان عن البيت ينظران إلى النـ ـار الـ ـتي تشعل الليل وديب الأرض تحت أقدامهما لا ينقطع .

كان روميل قد انتهى لتوه من كتابة رسالة إلى زوجته ... " عزيـ ـزتي لـ ـو . لدينا بعض أوجه العجز الشديد الخطورة لكني أقدمت على المخـ ـاطرة .إذا

نجحت ضربتنا فسوف تقرر بعض الشيء مصير الحرب كل ها " . وك ان الجنرال ألكساندر قد أرسل إلى تشرشل من القاهرة بكلمة (زيب) وكان مونتى مطمئناً إلى خطته الدفاعية . كانت هناك أربعمائة دبابة ألمانية نص فها من ذات المدفع الشيطاني عيار خمسة وسبعين ملليمترا ، تنتظرها س بعمائة دبابة بريطانية وأمريكية . لقد جرت العادة أن يهاجم روميل بقوات صغيرة قوات العدو الكبيرة بسرعة ويطوقها ثم يعمل على تص فيتها .. وب دأت الطائرات الألمانية غاراتها على مواقع الجنود المتقدمة والخلفية في وقت واحد لإرباكها وإحداث الفوضي بينها .

– الضرب بعيد يا دميان لا تخف .

لكن دميان كان يتلو رقي وتعاويذ يسمع مجد الد دين فيه ا كيرياليس ون وجورجيوس ويسوع ويؤانس ويوساب وكيرلس والعذراء ويتراجع دمي ان إلى البيت وهو ينتفض ويتبعه مجد الدين . ما كاد يقتربان حتى انهار دميان مستنداً على الجدار وتمدد مجد الدين جواره وأشعل لنفسه سيجارة وأخرى لدميان متظاهراً بالتماسك .

– الدنيا نور وسيجارة لن يهتم بها الألمان وسط هذا الضرب .

وراحا يدخنان في صمت .لاحظ مجد الدين أنه لم يخلع ملاب س العم ل ، وكذلك دميان ، بل إن في قدمى كل منهما حذاءه . الحقيقة أنهم ا كان ا عائدين من عند المحطة منذ قليل حيث وصل قطار ذخائر قبل الضرب .

كانت كتائب الرويال تانكس والرويال سكوتش تدافع عن هض بة عل ى حلفا أمام الهجوم الألماني المدرع ، وكانت الطائرات الألمانية ق د انقطع ت

لكنها مع اقتراب النهار عادت أكثر ، وبشكل مخيف وراحت تضرب من جديد في كل مكان . ومن الشمال والشرق جاءت الطائرات البريطانية والأمريكية ودارت في الجو معركة مخيفة وبسرعة انتهت وعادت طائرات الحلفاء مستعرضة في الفضاء إلى مواقعها في الإسكندرية والدلتا وإلى حاملة الطائرات الأمريكية في المتوسط ، بينما عادت الطائرات الألمانية والإيطالية إلى مطاراتها في الصحراء لتعود بعد قليل بكثافة أكثر وتتوغل في مؤخرة الجيش الثامن القريبة للغاية من محطة السكة الحديد ومن البيوت المهجورة ومن مجد الدين ودميان . لقد حملهما الهواء بعيداً عن مكانهما ليصطدما بالأرض صدمة قوية . يالها من قذيفة تلك التي سقطت من السماء فخلخلت الهواء حولهما و وأطارتهما . لقد رأى مجد الدين وجه زهرة الذي كادت تضيع منه ملامحه ، وسمع صرختها في الفضاء لكنه هتف بصوت متحشرج (دميان) فلم يسمع جواباً . كان دميان بعيداً يتلفت باحثاً عنه . رآه مجد الدين فاقترب منه .

- هل أنت بخير ؟

- لا .

- أصبت ؟

- لا.

وفهم مجد الدين ماذا يقصد دميان فسكت .وقال دميان يائساً ..

- هل مازل لوجودنا هنا أي قيمة ؟

وسقطت قذيفة أخرى بالقرب منهما كانت أصغر من السـ ـابقة فلـ ـم تخلخل الهواء لكن مجد الدين هتف :

– هيا يا دميان .

***

وجدا نفسيهما يسرعان جوار المحطة بين قضيبي السكة الحديـ ـد في اتجـ ـاه الشرق . من خلفهما يسمعان صوت القنابل الساقطة والطائرات فتـ ـزداد قوتهما . وحينما ابتعدا كثيراً عن المحطة حدث انفجار جبار اهتز له الهواء ، وفقدا اتزانهما وسقطا فوق الفلنكات وأضاء الكـ ـون باللـ ـهب الجحيمـ ـي وأدركا أنها النهاية وتذكر دميان رؤياه الكابوسية واستسلم للموت وتاقت نفس مجد الدين إلى شوقي الذى لم يره بعد ، لكنهما شاهدا اللهب بعيـ ـدا واستقرت عيونهما على صفحة السماء الحمراء فأدركا أنه عند المحطة . لقد انتظمت الرؤية الآن واستعادا اتزانهما وشاهدا القطار الواقف عند المحطـ ـة وهو يتحول بكل عرباته إلى نهر من لهيب لاتزال الطائرات الألمانيـ ـة تلقـ ـي حممها فيه ، وشاهدا الكشكين الخشبيين ، حجرة الناظر وحجرة التلغراف ، وهما يطيران مشتعلين في الفضاء ويصيران هباء . كل شيء خلفهما يصـ ـير هباء . يا أرحم الراحمين . ساعدنا يا حي يا قيوم يا يسوع ساعدينا يا عذرا يا رسول الله أدركنا وأغثنا فليجريا من جديد ..

ويجريان ويجريان و إحساس بأى جروح أو رضوض مـ ـن أثـ ـر السـ ـقطة ويالنهار الجميل ، هذا النهر من اللبن الذي بدأ يشق الظلام ، ويتفجـ ـر في قلبه بالضوء المغسول . هذا العالم الذي خلقه الله جميلاً لماذا يفسده الناس ،

والطائرات لا تنقطع قادمة فوقهما من الشرق والغرب تل تحم في مع ارك قصيرة ثم تختفي لتظهر من جديد الطائرات الألمانية تلقي قذائفها فوق ك ل شيء حتى تبدأ معركة جوية جديدة وهما لا يكفان ع ن الج ري والع رق يتفصد من مسام الجسدين والنار تشتعل في الجلد والصدر والأقدام تك اد تتخاذل لكن من يستطيع التوقف وسط كل هذه النيران . إنني أط ير ي ا دميان ، ورآه جواره وسمعه وأنا أطير يا مجد الدين .. الله .. الله . إن ني لا أجري بل أطير يا دميان أطير وأنا يا مجد الدين . أي طائر هذا الذي يحملنا على جناحه الآن ، إنه جبريل ولا أحد غيره هو الذي أتى بالبشارة لرسول الله ، وهو الذي جاء يخبر مريم البتول بحملها الطاهر ، وانقطعت أنفاس هما فلم تعد تسمع وصارا شبه مخدرين نائمين فوق موج حان ، الطائر يس بح بهما في الفضاء في اطمئنان ودعة ويجف عرقهما ويرتويان من ماء س حري وتسرى في عروقهما البهجة . هل يأخذهما جبريل إلى الإسكندرية أم إلى الله في السموات العلى ؟ كلاهما اطمأن إلى نهاية آمنة ...

***

المسافة بين العلمين حتى بلدة الحمام أربعون كيلو مترا تلبستهما فيها ق وة إلهية والضرب خلفهما إذا نقطع يعود فالمعركة لاحتلال روابي علم حلف ا لم تنته وروميل يعرف أن مركز قيادة مونتي في " ب رج الع رب " وحول ه احتياطي استراتيجي كبير من المركبات والمعدات يجب مهاجمتها أيضاً .

لقد صعد النهار وتقدم وعبرتهما الشمس إلى الجبهة الألمانية وهما لا يشعران بغير أنهما محمولان على جناحي جبريل حتى لقد ناما وهما يجربان !! ول و لم

يكن هناك في الحمام قطار واقف لاستمرا في الجري حـ تى الإسـ كندرية . كيف حدث حقاً أنهما لم يشعرا بجوع أو عطش . لقد هدأ الضرب مع أول الظلام الجديد ، في اليوم التالي ، وكان القطار المدني يقف خالي ـا بالمحط ـة الخالية بدورها من البشر . كانت العربة الأخيرة هي الأولى بالنسبة إليهما . دخلا العربة وعلى أقرب مقعد ألقى كل منهما بنفسه وعـ ـادت أصـ ـوات المدافع تزداد وتهيأ القطار للرحيل بل ما كادا يتنفسان النفس الطويل الذي يحدث بعد أن يبلغ كل أمرئ غايته ، نفس الطمأنينة ، حتى تحرك القطار . يا للفأل الحسن : نظر كلاهما للآخر راضياً بالحال وسقطا معاً في نوم عميق .

هل كانت لحظة أم ساعة أم دهرا تلك الدقائق التى استسلما فيها للنـ ـوم ؟ لكنها كانت كافية للراحة كي تدب في جسديهما . لم يكن ممكناً الإيغال في النوم وسط كل هذا الهدير للمدافع الذي انطلق مع المساء الجديد . وأحس دميان بالعطش فنهض يمشي بين العربات حتى وجد صنبور ميـ ـاه في أحـ ـد الأركان ففتحه لتترل مياه صفراء صدئة لكنه شربها وعاد . لقد كان القطار خالياً تماماً ومظلماً إلا من ضوء البدر الذي يدخل عبر النوافذ المحطمة .

– لقد فزنا يا شيخ مجد ، الآن أدركت أن الكابوس الذي كنـ ـت أري فيه جورجيوس وسط النيران كان من عمل الشيطان .

– الحمد لله على كل شيء يا دميان

وبدأ القطار يهتز وصوت الانفجارات يقترب والخوف ينفجر في عيونهم ـا لكن سرعان ما استقام القطار وابتعدت أصـ ـوات الانفجـ ـارات وازدادت السرعة كثيراً .

- لابد أن السائق هندي .

- الهنود لا يقودون القطارات المدنية .

- لكنه يجري بجنون .

- ليته يسرع أكثر يا دميان . أين وجدت مياه الشرب ؟

- في العربة الخامسة .. مياه مخزونة لكني شربتها .

- سأذهب لأشرب وأعود لك ... انتظرني .

ابتسم دميان بدهشة .. أين يمكن أن يذهب ؟

أسرع مجد الدين ليشرب . لماذا يسرع ؟ إنه يهتز بقوة بين المقاعد الخالية والقطار يتأرجح ، ويصل إلى صنبور المياه ويفتحه ويحفن من مياهه الصفراء الصدئة ويشرب لكن صوت الانفجارات يقترب فيهتز القطار ويختل توازن مجد الدين فيسقط جالساً فوق المقعد القريب ويرتطم رأسه بظهر المقعد يكاد يتهشم . إنه لا يستطيع أيضاً الاحتفاظ بتوازنه جالساً . يقف فيميل القطار ميلاً عنيفاً إلى الجانبين فيرتطم بالمقاعد على الجهتين ويصرخ هاتفاً " دميان " ويرى من النوافذ المفتوحة القذائف المتوالية تسقط غير بعيدة عن القطار تثير الغبار وتطير الأحجار التى ترتطم بجانبي القطار ويقع ممدداً بين صفي المقاعد .. الطرقة التي بين صفي المقاعد ضيقة فليظل ممدداً بها ويمسك بيديه في حوامل المقاعد من أسفل فلا يؤذيه اهتزاز القطار ولا يتخبط في مقاعده . إن وضع المصلوب الجالس هذا أفضل وضع لمن كان مثله . وكان دميان قد اهتدى إلى الوضع نفسه لكن كانت اهتزازات عربته أكثر وأعنف فهي

الأخيرة ذيل القطار .. وفي الوقت الذي كان فيه دميان يقول أنت هو الله الرحوم مخلص كل أحد الذي تجسد لأجل خلاصنا الذي أضاء لنا نحن الخطاة الذي صام عنا أربعين يوماً وأربعين ليلة الذي أنقذنا من الموت .. في هذا الوقت كان مجد الدين يتمتم (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (39) وأن سعيه سوف يرى (40) ثم يجزاه الجزاء الأوفى (41) وأن إلى ربك المنتهى (42) وأنه هو أضحك وأبكى (43) وأنه هو أمات وأحيا (44) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (45) من نطفة إذا تمنى (46) وأن عليه النشأة الأخرى) . ولايزال القطار يميل الميل العنيف . ويهتز ، وتقعقع عجلاته وتتوالي القذائف التي تسقط حتى الآن غير بعيدة ، (هذا نذير من النذر الأولى (56) أزفت الآزفة (57) ليس لها من دون الله كاشفة).

ويدخل ضوء القنابل من النوافذ يشعل فضاء العربة التي كان يتسلل إليها ضوء القمر الضعيف ويهتز القطار بعنف ويميل أكثر من كل مرة ويسمع صوت ارتطام وصوت شيء ثقيل يجر جراً على الأرض ، ويحتك بالقضبان والفلنكات والقطار يقفز إلى أعلى أكثر من مرة وإلى اليمين وإلى الشمال . إنها إحدى عربات القطار قد سقطت فوقها قذيفة هى التي تقاوم الانفصال وهى التي يجرها القطار على الأرض . دميان . دميان . ولم يستطع الوقوف . القطار يمكن أن ينقلب إذا لم تنفصل العربة أو يتوقف .. إنه لا يتوقف والعربة لا تنفصل .

هل استغرق ذلك وقتاً طويلاً ؟ هى أجزاء من دقيقة لكنها طالت مثل عمر كامل . كأنما حياة كاملة قد مرت على مجد الدين . لقد استقام القطار أخيراً

وانتهت الضجة . صار كل شيء ناعماً وهادئاً بعد القعقعات والضـ ـربات العنيفة .

أنتهت الحشرجة وصعد الغريق فوق الماء . حتى أضواء القنابل ابتعدت وعاد ضوء القمر يدخل إلى العربة والهواء الذي كان يصفعه رق . لقـ ـد اتـ ـزن القطار وانتظم صوت عجلاته ويستطيع مجد الدين الآن أن يقف في اطمئنان ويستطيع كذلك دميان . دميان ! إذا كانت العربة الأخيرة هل التي أصيب فقد ضاع دميان ، إذا كانت عربة قبلها فقد ضاع أيضاً . وبسرعة غـ ـادر مجد الدين العربة غير مبال بأي شيء يمكن أن يصيبه ، ثم غادر العربة التالية لها ثم الثالثة فالرابعة ولم يبد أن هناك العربة الأخيرة . كتلة من اللهب الأحمر وسط الليل الأسود والصمت الذي نزل على الدنيا الآن . ليس ثمة شيء له وجود غير النار .دميان . صرخ . لكنه رآه يرتفع وسط النار ذهبي الجسد . ذهبي الوجه . يمسك في يده الذهبية رمحاً طويلاً من ذهب ويقود فرساً مـ ـن ذهب أيضاً ويغرز الرمح في رؤوس التنين التي تفح النار ويسـ ـمع صـ ـوت صهيل الحصان الذهبي . دميان وينغرز الرمح في رأس التنين فينفثئ الدم ناراً متجددة فيصوب للرأس الآخر لتجدد النيران . الفارس محاصر لا يبالى يشد رمحه من كل رأس بعد الآخر ويعود للضرب وتصعد النار تحيط بوجه دميان الشاحب وصهيل الجواد لا ينقطع في الفضاء ، دميان . ويراه وقد ارتفعت به الفرس يسبح نحو السماوات العلى ، تطارده النار حتى ترتفع خلفه تكاد تلمس قدميه وينقطع الصهيل ويظل دميان يمضي في الأعـ ـالى مشعشـ ـعاً في الكون الفسيح . دميان . لقد تضاءلت الشعلة الذهبيـ ـة وصـ ـارت نقطـ ـة تلاشت وساد الظلام . لقد ابتعد القطار كثيراً وهو لايدرى فتراجع ليجلس

على أقرب مقعد والنار قد احتلت صدره والعرق يتفصد من جلده ويتمدد
على المقعد خالعاً حذاءه مستنداً بظهره إلى القطار مدركاً لأول مرة أنه
يتيم . هل كان لابد أن يأتي إلى الإسكندرية ويقابل دميان ؟ دميان ..
دميان . وبدأ يرتعش ، برد الصحراء يأتي مبكراً وإلا لماذا يرتعش . لكن
العرق لا يزال يتفصد إنها الحمى يا دميان . دميان . دميان (الرحمن (1)
علم القرآن (2) خلق الإنسان 3) علمه البيان (4) الشمس و القمر
بحسبان (5) والنجم والشجر يسجدان(6)) " دميان . دميان" (والسماء
رفعها ووضع الميزان(7) ألا تطغوا الميزان) " دميان . دميان " ويرتفع صوته
فجأة ثم يتلاشي ، ويرتعش ويقول في نفسه (فبأي آلاء ربكما تكذبان(25)
كل من عليها فان(26) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(27) فبأي
آلاء ربكما تكذبان) " دميان . دميان " (يسأله من في السموات والأرض
كل يوم هو في شأن (29) فبأي آلاء ربكما تكذبان) " دميان . دميان "
(سنفرغ لكم أيها الثقلان (31) فبأي آلاء ربكما تكذبان) وتسقط
دموعه غريزة " دميان دميان " والقطار الذي اقترب من الإسكندرية لم
يدخلها ، فتح له الطريق ليمضي إلى القاهرة فالغارات الشديدة لا تنقطع
فوق المدينة والمعارك لم تنته حول علم حلفا . لقد تجاوز القطار بلدة كفر
الدوار تاركاً الإسكندرية خلفه . لقد أدرك مجد الدين ذلك الظلام الذي
يلف القري واختلاف نسمة وأبراج الحمام البيضاء فتنفس غير مصدق أن
الله هو الذي يحمله إلى القرية الآن حملاً . هل كان لابد من فقد دميان ليعود
إلى القرية .. " دميان . دميان " (فإذا انشقت السماء فكانت وردة
كالدهان (37) فبأي آلاء ربكما تكذبان) (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

دميان . دميان (فبأي آلا ربكما تكذبان (47) ذواتا أفن ان (48) فب أي آلاء ربكما تكذبان) " دميان دميان (فيهما عينان تجري ان) ولا ت زال دموعه تنثال (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) " دميان دمي ان " لم يمت ولم يحرق بل رفعه الله إلى السماء ولقد رآه وإلا من ذلك الذي ك ان يصعد فوق الجواد الذهبي مبتعداً عن نار التنين في الفضاء . دميان دمي ان . وراح يعيد تلاوة السورة الجميلة التى لم يعد يتذكر من القرآن غيره ا الآن واسم صاحبه حتى سحبه النوم سلطان الوجود .

***

أيقظه الهواء البارد الذي يدخل خفيفاً من النوافذ .. من النافذة رأي الظلام عميقاً في برزخ مستطيل فأدرك أنه إنما يعبر فوق النيل هذه الأض واء ه ى البيوت الصغيرة لمدينة كفر الزيات ، إنه لا يخطئ رائحة الهواء هن ا مهم ا ابتعد وطال ابتعاده ولا يخطئ رائحة الأشجار ، التي تمتد على الشاطئ جوار الفيللات والبيوت الصغيرة . لقد اقترب كثيراً من بلدته وعليه أن ين هض ويركز عينيه جيداً حتى إذا أدرك الرصيف قفز . أجل ل يس أمام ه غ ير ذلك . القطار لم يقف في محطة كفر الزيات نفسها فهل سيقف عند الق رى الصغيرة . لابد أن مع السائق جهازاً يتلقى منه الأوامر بالمضي بس رعة إلى القاهرة وبلا توقف . لقد ابتعد عن الغارات بما يكفي ولا ي زال الس ائق مسرعاً . وقف بقرب باب العربة المفتوحة ... الهواء البارد يجفف عرق ه . وأدرك أنه يقف حافياً لقد ترك حذاءه ، بجوار المقعد . لم يفكر فى ارت داء الحذاء . لقد غادر القرية حافياً وها هو الرصيف الأبيض يقت رب بس رعة

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) ومد قدمه يترل بهدوء كشخص مخدر ... طار في الهواء

....

....

آه .. خرجت عميقة وبطيئة واهنة .

كان ناظر المحطة يتأخر كثيراً بالليل بسبب عمليات التهجير التي لا تنقطع من الإسكندرية . لقد سمع صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض . ارتطام عريض مكتوم . بل لقد رأى شيئاً يطير فوق الرصيف ليسقط على الأرض الترابية بعده بقليل . إنه ليس صوت انفجار قنبلة على أى حال . بل هو شبح ذلك الذي رآه يطير .

– آه ..

ترددت الآهة .. شجع الصوت الإنساني ناظر المحطة على الاقتراب وإن كان ببطء . كانت أصوات الجنادب وصريرها ، ونقيق الضفاع لا ينقطع من الترعة المجاورة للسكة الحديد ، وتقدم الناظر وفي يديه قنديل أزرق الضوء ويشده إلى الخلف كل ميراث الريف من الخوف من الأشباح والعفاريت . لكن العينين الخضراوين لمعتا في الظلام .يا الله يا أرحم الراحمين .. هذا ابن آدم حقيقي . اقترب أكثر وقرب القنديل إلى وجه الإنسي وهتف :

– الشيخ مجد الدين ؟!

كان الناظر ولا يزال هو " عبد الحميد " زميله في حفظ القرآن منذ ربع قرن ، والذي وقف يودعه يوم خروجه . سمع مجد الدين صوته فأغمض عينيه في ارتياح ..أيقن أنه لن يموت ..

.....

.....

***

" وقال لى :
أى عيش
لك في الدنيا
بعد ظهورى ؟ "

-29-

لم يفلح روميل في اختراق جبهة العلمين . لستة أيام يحاول ولايفلح . تكلف ثلاثة آلاف ضابط وجندى بين قتيل وجريح وأسير ، وسبعمائة مركبة مدرعة بينها خمسون دبابة . خسر الحلفاء أيضاً ألفاً وستمائة ضابط وجندي بين قتيل وجريح وأسير وسبعين دبابة . كفل التفوق الجوي وقرب خطوط الإمداد النصر للحلفاء . وكانت هذه أول خسارة لروميل في

الصحراء . الجنود في الجيش الثامن يدركون الآن أن روميل ليس أسطورة هو قائد عسكرى يمكن أن ينجح أو يفشل .

استغل منتجمري الموقف ، واستمر في تدريب الجنود ، وإقامة المناورات الجبارة بالصحراء من الإسكندرية حتى العلمين ، توقفت الغارات على الإسكندرية بعض الوقت . استمر الهلع في القنصليات الأجنبية ، ومازال اليهود يتدفقون على القنصلية البريطانية لاستخراج تأشيرات دخول لفلسطين وجنوب أفريقيا ... ومجد الدين الذي نقله ناظر المحطة إلى مستشفي طنطاً في أول سيارة تعبر الطريق لا يزال في الجبس . لقد تكسرت ساقاه وعظامه وعدد من ضلوعه وعاش بمعجزة ..نقل ناظر المحكمة الخبر إلى القرية فوارته زهرة وأخواته وأزواجهن وأمه التي قضت أيامها في الدنيا . كان عليه أن يمضي في الجبس شهوراً ثلاثة لا يبرح فيها المستشفى ، وخلالها تم القبض على حمكت فهمي في القاهرة والجاسوسين هانز أبلر وساندي بتهمة التجسس لصالح الألمان ، ودخلت الجيوش الألمانية ضواحي ستالينجراد فوقعت مجازر بالسلاح الأبيض وأحاطوا بها الجيوش .
كان تصميمهم على إسقاطها كبيراً فهى مدينة الصناعة الحربية التى تحمل اسم ستالين ، وكان تصميم السوفييت على الصمود كبيراً لأن المدينة تحمل اسم ستالين! وزحف الجنرال المسلم " تيموشنكو " إلى نهر الدون محاولاً قطع مواصلات الألمان واحتفلت البلاد في صمت بعيد ميلاد الملكة فريدة الثاني والعشرين ولم ترتفع الزينات أو تشتعل الأضواء في الإسكندرية مسقط رأسها ، وكان مونتجمري مشغولاً بتكوين فيلق جديد هو الفيلق العاشر ليكون في قوة الفيلق الأفريقي الألماني ، وتوالت الدبابات الأمريكية شيرمان

وجرانت والمدافع ذاتية الحركة عيار مائة وخمسة ملليمترات على الجبهة واستمرت القاذفات البريطانية والأمريكية في تعقب امدادات الجيش الألماني في البحر والبر فاشتد ضغط الدم على روميل وآلام الكبد فسافر إلى ألمانيا للعلاج وحل محله الجنرال شتومي القادم من الجبهة الروسية وكان شهر رمضان قد بدأ فازدادات أحزان مجد الدين الراقد بلا قدرة ، إن أسراته وأهله حوله الآن حقاً لكنه لا ينسى رمضان الماضي ، وخلاء الصحراء وخشوع غروبها ، ووحدته مع دميان عند الإفطار . دميان . دميان . كيف حقاً ستمضي الحياة بدونه لقد عرف إن أخواته بعن أرضه لأنفسهن في غيابه ولم يعلق ، وارسل إليه العمدة شيخ البلد يزروه ويعلنه أن العمدة سيزوره قريباً ويعتذر عن كل ما مضي ولم يعلق . لقد اعتبر كل ما مضى من قضاء الله الذي لا راد لقضائه .

***

كان شتومي أكبر من روميل بست سنوات ، ومصاباً مثله بضغط الدم العالي الذي يصيب القادة عادة ، وكانت الأهمية الاستراتيجية لمصر كبيرة لعمل كماشة كبرى تنطلق منها القوات الألمانية فى حالة احتلالها للتقدم شرقاً لمقابلة القوات القادمة من القوقاز الروسي . وكان هتلر قد وعد روميل من قبل بالدبابات التايجر الحديثة المخيفة والمدفع الهاون متعدد المواسير لكنه لم يف بوعده ، وأحس روميل بالخذلان بعد فشله في علم حلفا وقرر ألا يهاجم مرة ثانية ، وأن يلجأ إلى الحرب الدفاعية لأول مرة منذ تولى القيادة في الصحراء ، فأقام حقول الألغام الكثيفة بينه وبين الجيش الثامن ، حقول الشيطان الجبارة .

كان الضغط شديداً على تشرشل ليفتح الجبهة الثانية ، وإذ اقتنع ستالين وروزفلت بأن تكون هذه الجبهة في الصحراء الأفريقية كان عليه أن يبدأ .

كانت الخطة الإنجليزية العادية أن يتم تدمير مدرعات الألمان ثم يتم التعامل مع مشاته لكن مونتجمري اقترح العكس . كان يشعر بثقة أكبر في المشاة وبصفة خاصة الأستراليين والنيوزيلانديين ، وكان ينتظر منهم بطولات كبيرة كذلك كانت فرقة الهايلاند الحادية والخمسون التي أعيد تشكيلها حديثاً بديلاً عن فرقة الهايلاند الأولى التي تبددت في فرنسان عام 1940 . وكانت الأخيرة حريصة على الانتقام .

صار على الجيش الثامن التقدم وسط نصف مليون لغم ألماني . احتاج ذلك روحاً معنوية جديدة للجنود جعلها مونتجمري شغله في الشهرين اللذين فصلا بين معركة علم حلفا التي انتهت والعلمين التي على الأبواب .

كانت هناك مائتان وثلاثون ألف من الجنود الحلفاء يقابلهم سبعة وسبعون ألفا من جنود المحور . ألف وأربعمائة دبابة للحلفاء بينما أربعمائة طراز باتون وشيرمان وجرانت الأمريكية يقابلها ستمائة دبابة ألمانية . ألف وخمسمائة مدفع مضاد للطائرات للحلفاء يقابلها ألف مدفع للمحور ، وتسعمائة طائرة للحلفاء يقابلها أربعمائة طائرة للمحور ، وأهم من ذلك كله خطوط إمداد قصيرة للحلفاء ، مائة كيلو متر حتى الإسكندرية ، تقابلها خطوط إمداد طويلة المحور ، ألف كيلو متر حتى طبرق .

كانت القناصل الأجنبية قد انتهت من حرق أوراقها في الإسكندرية . وخفت حدة الهجرة من المدينة إذ لم يتبق فيها غير القليلين من أهلها الأصليين أو الهاربين إليها من بلادهم من قبل . أجل . يمكن للإنسان أن يلجأ إلى النار في بعض الأحيان إذا كانت هناك فرصة للنجاة من الموت! .

***

كان شهر رمضان قد انتهى ، وأيام العيد بعده ، وفي منتصف شوال وليلة الرابع والعشرين من أكتوبر ، والقمر بدر ، والنسمة منعشة ، كان كل شيء يشي بالانفجار . ليس من المعقول أن تشهد الصحراء ليلة بهذا الجلال في زمن مليء بالبغضاء والجنون . في تمام التاسعة وأربعين دقيقة انطلقت غلالة من القذائف والحمم من ألف مدفع في واقت واحد على العدو البعيد وحقول الألغام التي أمامه .. في الوقت نفسه أقبلت الطائرات من الإسكندرية والدلتا تلقى بالقنابل الهائلة على دفاعات المحور الحصينة ، وتقدم الفيلق الثلاثون والفيلق الثالث عشر وخلفهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر الجبار . الجنود يتقدمون في حالة هياج هيستيري بأثر صوت القذائف ، التي تسقط وسط حقول الألغام فتصعد النيران الوامضة السريعة تخطف الأبصار ، وتتراقص وسط الأرض الحرام ،وميض قادم من السماء ووميض صاعد من الأرض ، وميض قادم من الشرق ، ووميض قادم من الغرب ، ومهرجان من نيران شيطانية الجمال تتجاوز حدود الخيال .

بعد ثلث ساعة ، في العاشرة تماماً ، حل موعد نوم مونتجمري فدخل إلى مكمنه مطمئناً ونام بينما ظل العالم كله يقظاً ينتظر المعركة الفاصلة ،

ووصل صوت المدافع إلى الإسكندرية ، ورأى الناس حركة الطيران فوقها ، فارتعدت القاهرة وسهرت سائر البلاد .

تقدم المشاة وسط الغبار والتراب والنار بسراويلهم القصيرة ، وفانلاتهم الصوفية واختفى برد الصحراء القارس وسط النيران . على أكتاف المشاة البنادق ذات السناكي وفوق ظهورهم كل ثروتهم . بسكويت وبلوبيف معلب وسجائر . وبعضهم يحمل هاون خفيفاً أو رشاش البريت ومعهم جميعاً قنابل يدوية وأكياس رمل فارغة سيملأونها حين يكسبون أرضاً جديدة يتمركزون فيها .

كان يقود كل موجة اقتحام ضابط ملاحة يحمل في يده بوصلة صغيرة ومعه لفة من شريط تفرد وراءه ليرشد من خلفه إلى طريق السير وسط الألغام والغبار . لقد مات كثير من ضباط الملاحة تلك الليلة وفي الليالي التالية ، أما جنود الفرقة الأسكتلندية العازفون على القرب وسط هذه البراكين ، فلقد خفتت أصواتهم تمزقهم الألغام ويخنقهم الغبار ، وتدمرهم المدافع وتغطى على موسيقاهم أصوات القنابل وأزيز الطائرات . مجموعات المهندسين تتقدم الجميع وتكشف عن الألغام المضادة للدبابات والأفراد وتخسر كثيرا من رجالها ، الأستراليون على اليمين ، والنيوزيلانديون على اليسار ، ونافخو القرب المبثوثون بينهم يتساقطون والجنود يهذون بالضحك والبكاء . لقد تحول الهجوم إلى ما يشبه الفوضى . ذهل الجميع عن الجميع ، وقذائف المحور أطلقت بين الحلفاء ألسنة الجحيم ، وطلع النهار ولا صوت لموسيقى القرب في أى مكان ... الفرقة الثلاثون مشاة كانت قد أحدثت

ثغرة كبيرة في جبهة المحور .. والقائد شتومي م ات بنوب ة قلبي ة . لق د استطاعت كتيبة استرالية أن تتقدم وسط الخطوط الألمانية وتهاجم سيارته !

استيقظ مونتجمري مبكراً صباح اليوم التالي . كانت طلعات الطيران لا تزال مستمرة . لقد أنجز سلاح الطيران بالليل ألف طلعة بالإض افة إلى مائة وخمسين طلعة للطيران الأمريكي . لقد اختفى الطيران الألماني في السماء ، وصارت السيادة الجوية للحلفاء . لقد امتلأ مونتى بالسرور .

***

في اليوم الثالث للحرب وصل روميل إلى الجبهة قاطعاً رحلة علاج ه وفي اليوم الخامس للحرب قرر مونتي القيام بهجومه الرئيسي ال ذي أسم اه " الشحنة الزائدة " وكتب روميل لزوجته .

" مازالت هناك فرصة اليوم . ربما لا يزال في وسعنا الصمود . لك ن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة على الحرب كلها .. "

قرر روميل الانسحاب إلى فوكة ستين ميلاً إلى الغرب . وأرجأ مونتى الشحنة الزائدة إلى الثاني من نوفمبر . وأرسل هتلر أوامره بالصمود لكن بلا فائدة . صار جيش المحور منهكاً وخرج الأمر من يد روميل . ق ام الل واء الهندي الخامس بشن هجوم خاطف بالسيارات على بعد خمسة أميال جنوب تل العقاقير ، أصبح بعده الطريق مفتوحاً أمام سلاح المدرعات لمطاردة المحور في الصحراء . الجنود الأطفال المبتهجون من فقراء الهند أتباع غاندي ونهرو ومحمد على جناح فوق مدرعاتهم يطاردون جيشا ك ان ب الأمس وحش ا

أسطورياً والآن يتحلل وسط الصحراء الواسعة بعد حقول الألغ ام ال تي أخترقوها ونفذوا منها نفاذ الشيطان من الجحيم .

بدأ روميل انسحابه السريع الكامل . لم تكن لديه وسائل نقل كافي ة فضلاً عن نقص الوقود ، دبت الفوضى بين المحور ولاذ الألمان بالس يارات تاركين ست فرق إيطالية هائمة بالصحراء دون غذاء أو ماء وليس أم امهم إلا الأسر . كان يمكن للحلفاء أن يحولوا الإنسحاب إلى مجزرة كبرى لك ن المطر تحالف مع روميل . نزل فجأة وبقوة فتعطل الحلفاء حتى ترك رومي ل الحدود . الصحراء الآن مقبرة للدبابات العطوبة والمحترقة والمدافع المحطم ة والسيارات المشتعلة وجثث الجنود كاملة ومشوهة ، خ وذ فيه ا رؤوس عيونها مفتوحة . أحذية فيها أقدام . أذرع بلا أجساد . س يقان . ملاب س محترقة . رائحة الشواء تملأ الصحراء ..وحومت الحدأ والنسور العج وزة . لقد انتشرت رائحة الموت في الفضاء .وكتب روميل لزوجت ه .." ج ارى سحقنا ببساطة ، قمت بمحالة لتخليص جانب من الجيش . هل ستنجح ؟ في الليل أستلقى مفتوح العينين مجهداً عقلى في سبيل إيج اد مخ رج لجن ودي المساكين من هذه المحنة . إننا نواجه أياماً صعبة ، ومن أصعب ما يمكن أن يمر به إنسان . الموتى محظوظون فقد انتهى كل شيء بالنسبة لهم " .

***

أمر تشرشل أن تدق أجراس الكنائس في لندن لأول مرة منذ اندلا ع الحرب ، فاشتعلت لندن وسائر المدن الإنجليزية بدقات النواقيس ، وخ رج الناس إلى الشوارع مبتهجين ، وابتهجت الإسكندرية فأضيئت ش وارعها

لأول مرة منذ ثلاث سنوات . أضيئت هكذا فجأة قبل أن ينتصف الليل فصارت مثل كمهرمانة لا نهاية لحجمها ، لقد امحى اللون الأزرق من فوق مصابيح أعمدة الإنارة العالية بالشوارع بمرور الوقت ، وتغيرت الأحوال الجوية فصار للمدينة سقف من عناقيد الفوسفور لا أول لها ولا آخر ، والذين كانوا في الشوارع صرخوا من الفرح وهللوا والذين كانوا في البيوت خرجوا يتفرجون على اللؤلؤ والماس الذي صار يعلو فضاء الشوارع . هل كان من الممكن أن تظل الإسكندرية مظلمة أكثر من ذلك ؟ لقد خرج أصحاب المحلات المغلقة وفتحوها بالليل ، وخرج الرجال إلى المقاهي التي قررت السهر حتى الصباح وزغردت النساء من النوافذ وتركت الأطفال يهللون في الشوارع وسط البرد ، اتفق الجميع على السهر حتى الصباح وصدحت الموسيقي في المونسينور واللوفر والوندسور وتبادل الجنود القبلات مع فتيات الأتسا في الشوارع وانفجرت زجاجات الويسكي والشمبانيا في المواخير الراقية التي ارتفعت فيها الأصوات الضاحكة والروم والبراندى ، والعرق في المواخير الفقيرة التي عاد إليها الصخب في لحظة كأن الجميع ، العاهرات وطالبي المتعة ، كانوا يقفون في الشوارع المجاورة ينتظرون أن تضيء المدينة ورمحت عربات الحنطور بالعشاق على الكورنيش وصوت الموج صار أكثر انتظاماً بسبب الريح الخفيفة ، والمدمرات والسفن الحربية أضاءت مصابيحها وراحت تطلق صواريخها الملونة فوق المدينة، وصعد الآلاف فوق أسطح المنازل وأطلقوا البلونات إلى السماء ، وانطلقت المدافع من الطوابي ، فأفزع صوتها الناس للحظة ، أدركوا بعدها أنها طلقات احتفال . فهتف رجل على الكورنيش وهو يرى السماء الملونة بالقذائف

الفوسفورية والموج يرتفع عالياً : " يا أسكندرية هَدِّى . هَدِّى يا إسكندرية هدى علاكى ، يا إسكندرية هتلر ما جاكي ! " ، وسمع ـه آخ ـر فردده ـا ومشت الكلمات في المدينة فصارت على كل لسان ثم ص ـارت أغني ـة ولم يتوقف الناس عن الكلام يحكون لبعضهم قصصاً يعرفها الجميع ع ـن أي ـام الحرب التي انتهت بالأمس فقط ، وقررت البلدية إقامة الزين ـات في ك ـل مكان ، كما قررت شركة الترام أن تنقل الناس بالمجان لعدة أيام ، وأقيمت الأحتفالات في المدارس ، وبدأ المهاجرون يعودون بسرعة ومش ـت ف ـرق الجيش والبوليس الموسيقية تصدح في الشوارع والميادين ، وصعدت الشمس بيضاء فوق الدنيا لينة ، شمس خريف حقيقية ، وأطلق سراح حميدو ال ـذي كان قد اعتقل من جديد ولم يفده ما كتبه على الجدران وأقامت ل ـه أم ـه الزينات كالعادة ووقف يضحك وسط المهنئين السعداء ، وخل ـع غف ـارة طربوشه مقررا ألا يعود إليه ، وفوجئ أنه بعد أن فقد الزجاج فقد الفلت ـر وأنه كان يتنفس الهواء العادي . كيف حقاً لم يشعر بسقوط الفلتر الثقيل ؟ ضحك وأعاد لعربته جوانبها الخشبية وكتب عليها " عربة نشارة . الحمولة أربعة أطنان . النقل لعموم القطر " واستعد للعودة إلى عمله القديم ، وظهر الخواجه ديمترى أمام مترله ومعه عدد من العمال سرعان ما راحوا يزيلون ما تهدم استعداداً لإعادة بناء البيت من جديد ، وظهر جندى الجيش الم ـرابط الذي كان يشترى اليوسفي من أم حميدو . فجأة وجدته يقف فوق رأس ـها يضحك ويهز رأسه ويقول :

يا بتاع اليوسفندى .

ما تقول لي العشرة بكام .

وضحكت أم حميدو ، وجلجلت ضحكتها وقالت وهى تهز كتفها :

العشرة اليوسفندى

يا حبيبي ببلاش

وزيادة

فرقص أمامها وأمسك بيديها وقال :

أنا عايز الزيادة يا أم حميدو بالحلال .

ولم ترد طامنت رأسها ، وأغمضت عينيها ، فأنكفأ عليه ا يحتض نها ويقبلها وهى جالسة ففزعت ، ودفعته بعيداً وهى تنظر إلى الشارع .

وافقت هذه المرة على الزواج . هى غير مصدقة عودته وه و غ ير مصدق موافقتها وأدرك رشدي أن ألمانيا إذا هزمت مرة ستهزم كل م رة ، فصار على يقين باقتراب انتهاء الحرب وسفره إلى باريس وأعل ن مكت ب الصحة بالإسكندرية أن عدد مواليد هذا الأسبوع مائة فقط بسبب التروح الكبير الذي كان قد حدث للسكان ، وأجنبي واحد للسبب نفسه ، بينم ا كانت الوفيات خمسين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعه ا والدوسنتاريا والتيتانوس والسعال الديكي ، وخمسة من الأجان ب بس بب السكر ، ولم توجد حالة واحدة بسبب الانتحار . بل سجل مكتب الصحة لأول مرة خمس حالات وفاة بين السكندريين بسبب توقف القل ب أثن اء الجماع! واقترب موعد مغادرة مجد الدين للمستشفى فطال ت نظرت ه إلى زهرة ، وطالت نظرتها إليه . لقد دبت فيه الروح من جديد وأشرق وج ه زهرة كوردة وفهم كلاهما مشاعر الآخر .

– لن أبقي في البلد .

– أعرف .

– ستأتين معي ؟

– طبعاً .

وسكتا ، ورأته قد دخل فى وجوم .. ظل من الحزن هبط فوق وجهه .

– لا أعرف كيف ستكون الإسكندرية دون دميان ، ولا كيف ستكون عندى القدرة على العودة إلى العمل دون أن يكون معى .

ومسح دمعه الذي ترقرق لكنها لم تشأ أن تثنيه عن العودة إلى المدينة التي ذهبت إليها من قبل مكرهة ، وتركتها مكرهة إذ خلفته وراءها .. ستذهب هذه المرة راضية مسرورة حتى لو لم تجد الناس ، كما كانوا بنفس الروح الصافية والمرح . المدينة البيضاء زرقاء البحر والسماء ستعيد الروح لأبنائها .

قالت :

– نسافر في الصباح الباكر هذه المرة .

– قال :

– طبعاً .. دخول المدينة بالليل أمر صعب .

وكانت نذر الشتاء قد أتت متعجلة ، فهطل مطر كثير غزير لم ينقطع بالليل والنهار ، واستمر لعدة أيام لكن لا أحداً لم يضج ، والحركة لم تنقطع،

والمحلات لم تغلق ، وأصوات الراديو لم تنخفض في المقاهي ، لقد بدا للجميع أن السماء تغسل المدينة . لقد كانت السحب عالية وبيضاء وتلك كانت معجزة . فمن أين حقاً يأتي كل هذا المطر ، وعندما جاءت موجة من السحب السود واستقرت فوق المدينة نسى عامل محطة الكهرباء الرئيسية في كرموز أن يقطع الكهرباء عن مصابيح الشوارع بالنهار فظلت المدينة مضاءة بالنهار والليل . كان الناس قد أزالوا اللون الأزرق من فوق نوافذ البيوت وواجهات المحلات ، وكشافات السيارات ، وترك الجميع النور في البيوت والمحلات بالنهار والليل أيضاً . صارت الإسكندرية مدينة من فضة تسرى فيها عروق من ذهب .

***

انتهت

القاهـــرة **1996**

ببليوجرافيا نقدية :

كتب تناولت الأعمال الروائية بالدراسة

– (الملامح الأسطورية في رواية المسافات) السهم والشهاب دراسات في القصة والرواية . د. شاكر عبد الحميد – مطبوعات مجلة الرافعي – طنطا **1986** .

– (الإسكندرية في ثلاث روايات جديدة) الصياد واليمام لإبراهيم عبد المجيد – دراسات أدبية في القصة والرواية – حسين عيد – أصوات أدبية – القاهرة 1989 .

– (الصياد واليمام) الرواية في الوطن العربي – د. على الراعي – دار المستقبل العربي 1991 .

– (حول قصة الحرب) أدب معركة حرب 6 تشرين 1973 أحمد محمد عطية ، دار الجبل ، بيروت 1974 .

– (المسافات – ليلة العشق والدم) أسئلة الرواية ،جدل الرؤية والتسجيل في الرواية المعاصرة ، محمدج الجزائري ، الموسوعة الصغيرة ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، 1989 .

– (البنية الدالة لبيت الياسمين) شفرات النص ، د. صلاح فضل ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1990 .

*** من أهم المقالات والدراسات في الصحف والدوريات عن أعماله الروائية :**

- نظرة في رواية ليلة العشق والدم – د. على الراعي – المصور أغسطس 1983 .

- المسافات ورأس الثور – د. عبد الحميد إبراهيم – إبداع – أغسطس 1985 .

- ليلة العشق والدم قراءة في رواية جديدة ، حسين عيد ، أدب ونقد 1984 .

- ليلة العشق والدم (رواية) – شوقي فهيم – إبداع يناير 1983 .

- نجمة جامعة في ليلة العشق والدم – محمود حنفي كساب – الطليعة الأدبية ، آذار 1984 .

- البناء الفني في رواية المسافات ومحاولات الهروب من المصير المحتوم – حسين عيد – إبداع – نوفمبر 1984 .

- الإسكندرية في ثلاث روايات جديدة (الصياد واليمام) حسين عيد – آفاق عربية . شباط 1985 .

- نحو واقعية أسطورية في الرواية المصرية المعاصرة – د. سيد البحراوي – إبداع – أبريل 1986 .

- الصيام واليمام – شمس الدين موسى – القاهرة 15 ديسمبر 1986 .

- آه لو عاد اليمام – د. علي الراعي – المصور – 11 إبريل 1986 .

- الواقعية السحرية والجنس في رواية المسافات – عبد العزيز موافي الطليعة الأدبية – فبراير 1986 .

- بيت الياسمين – شوقي بدر يوسف – الإذاعة والتليفزيون – 21 مارس 1987 .

- الوحيد الذي ربح من زيارة نيكسون (رواية بيت الياسمين لإبراهيم عبد المجيد) د. محمد برادة – اليوم السابع – 27 أبريل 1987 .
- بطل من هذا الزمان (قراءة لرواية بيت الياسمين) عايدة لطفي – القاهرة 15 أكتوبر 1988 .
- بيت الياسمين (رجل بلا صفات) محرر المجلة – الشاهد – يونيو 1988 .
- بيت الياسمين الواقع – الحداثة – د. حامد أبو أحمد – العربي 1989 .
- المسافات أيديولوجيا الثابت والمتغير – د. وليد منير – شئون أدبية .
- تأملات ساخرة في شخصية الموظف الانتهازي (قراءة في بيت الياسمين) محمد زهدى – الشرق الأوسط – 26 يوليو 1989 .
- إبراهيم عبد المجيد يعيد تراثنا في أدب السخرية – عبد المنعم تليمة – القبس الكويتية 13 يونيو 88 .
- بيت الياسمين بين الظل والنور – زينب منتصر – جريدة العرب بلندن – 19 يونيو 1989 .
- الملامح الأسطورية في رواية المسافات د. شاكر عبد الحميد – القاهرة مايو 1988 .
- البنية الدالة لبيت الياسمين د. صلاح فضل – المنار – سبتمبر 1989 .

- الصعود من بئر النسيان – د. شكرى عياد – الهلال – يونيو 1990 .

- الشكل الفني فى رواية بيت الياسمين – مفرح كريم – البيان الكويتية – فبراير 1990

- مسافات إبراهيم عبد المجيد وصياد اليمامة – محرر المجلة – نصف الدنيا – 7 يونيو 1991 .

- البلدة الأخرى والأوهام الضائعة – عبد الرحمن أبو عوف – أدب ونقد – أغسطس 1992 .

- المسافات ودائرة القهر الجماعي – محمد كشيك – الثقافة الجديدة – مايو 1991 .

- البلدة الأخرى – د. على الراعي – المصور – 21 فبراير 1992.

- تبوك أرض الحكايات – بلال خبيز – الناقد – يونيو 1992 .

- البلدة الأخرى والفرار من المكان إلى الكتابة – حسن خضر – إبداع – عدد الرواية – ديسمبير 1992 .

- البلدة الأخرى من عزلة الفرد إلى عزلة الجماعة – حسام الدين محمد الشاهد – سبتمبر 1992 .

- قراءة سياسية للبلدة الأخرى – د. شكرى عياد – الهلال – فبراير 1993.

- قراءة في البلدة الأخرى – محمود عبد الوهاب – الثقافة الجديدة – مايو 1993 .

- قتل اليوتوبيا (قراءة في البلدة الأخرى) د. رمضان بسطاويسي – القاهرة – يناير 1993 .

- تراجيديا الثورة والقهر في رواية الستينيات (البلدة الأخرى) عبد الرحمن أبو عوف – فصول ربيع 1993 .

- من البلدة الأولى إلى البلدة الأخرى – أحمد درويش – فصول 1993 .

- التجوال في مدن الغربة (إبراهيم عبد المجيد) محمد كشيك – الطليعة الأدبية – كانون الأول 85 .

- قصاصون سكندريون (إبراهيم عبد المجيد) د. السعيد الورقي – نادي القصة – يونيو 1980 .

- " قناديل البحر " الواقع الهلامي وتأثيراته الخارقة – كريم عبد السلام – الثقافة الجديدة – سبتمبر 1993 .

- قراءة في رواية البلدة الأخرى (قهر الأنا وقهر القهر) د. مدحت الجيار – الرافعي – أبريل 1993 .

- المسافات / الصياد واليمامة – محرر المجلة – الثقافة الجديدة – أكتوبر 1991 .

- المسافات أو لفح الأسطورة – د. شاكر عبد الحميد – الإذاعة والتليفزيون – 12 يناير 1985 .

- قناديل البحر وأزمة جيل – عبد الرحمن أبو عوف – إبداع – 10 أكتوبر 1993 .

- في مواجهة أدب الضد (حول تجربة إبراهيم عبد المجيد الروائية) نادية المسلماني – فاطمة الرشيدي – جريدة صوت العرب – 25 يوليو 1993 .

- الأدب والرواية في الإسكندرية (حول إبراهيم عبد المجيد) عبد الله هاشم – المساء 21 سبتمبر 1990 .

- موج يجري وراء موج – د. شاكر عبد الحميد – القاهرة – يونيو 1996

- هل يستطيع الإنسان أن ينام في الإسكندرية . د. سيد البحراوي – أخبار الأدب 1996/8/18 .

- أساطير وبحث عن زمن ضائع . عبد العزيز موافي – الحياة اللندنية 1996/8/22 .

- حكايات إسكندرية . نبيل زكي – الأخبار 1996/148 .

- لا أحد ينام في الإسكندرية . علاء الدين – صباح الخير 1996/8/15 .

- إسكندرية إبراهيم عبد المجيد . د. صلاح فضل – المصور، أغسطس **1996** .

- لا أحد ينام في الإسكندرية . د. محمد برادة – الوسط **1996/9/2** .

- لا أحد ينام في الإسكندرية– د. حامد أبو أحمد – الرياض **1996/11/21** .

- لا أحد ينام في الإسكندرية– محمد زهدي – الشرق الأوسط **1996/8/15**

- لا أحد ينام في الإسكندرية – ربيع جابر – الحياة اللندنية **1997/2/15**.

- مع رواية لا أحد ينام في الإسكندرية– د. محمد علي الكردي – إبداع – نوفمبر **1997** .

- التفكير البصري وأحلام الليل والنهار في رواية البلدة الأخرى– د. شاكر عبد الحميد – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

- التاريخ السري للإسكندرية في بيت الياسمين – عبد الرحمن أبو عوف– الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

- إبراهيم عبد المجيد (البلدة الأخرى)– فتحي إمبابي – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994**.

- العين والذاكرة (قرءة في قناديل البحر) – مجدى توفيق – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

- بيت الياسمين والطفل الذي سيأتي – محمد برادة – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

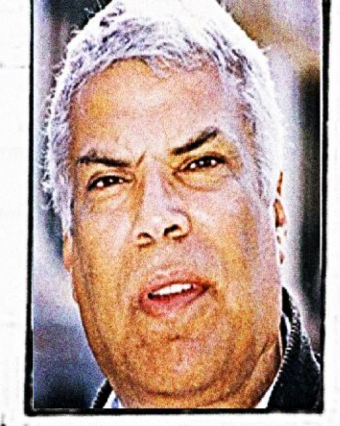
- تخطيطات حول (الصياد واليمام) – كريم عبد السلام – الثقافة الجديدة – عدد يناير **1994** .

- رؤية العالم في (ليلة العشق والدم) – سيد عبد الخالق – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

- ما وراء الواقعية السحرية – تأليف حسام أبو العلا– ترجمة: محمد عيد إبراهيم – الثقافة الجديدة – القاهرة – عدد يناير **1994** .

(لورانس داريل)

-



ابراهيم عبد المجيد

● مولود في مدينة الاسكندرية عام ١٩٤٦.

● درس الفلسفة في كلية الاداب جامعة الاسكندرية وتخرج فيها عام ١٩٧١

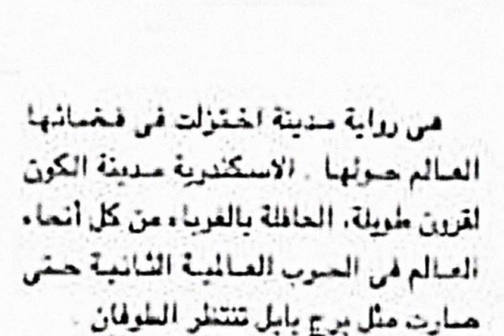
● بدأ ينشر أعماله مع بداية السبعينيات

● من رواياته «المسافات»، «الصياد واليمام»، و «بيت الياسمين»، «قناديل البحر»، «البلدة الأخرى».

● من مجموعاته القصصية «الشجرة والعصافير»، «إغلاق النوافذ»، «فضاءات».

● تُرجم العديد من قصصه القصيرة الى لغات مختلفة، وتُرجمت روايته «البلدة الأخرى» الى الفرنسية عام ١٩٩٥.

● ترجمت روايته «بيت الياسمين» الى الانجليزية، ويجري تحويلها حاليا الى فيلم سينمائي.



هذه الرواية

هى رواية مدينة اختزلت في فضائها العالم حولها. الاسكندرية مدينة الكون لقرون طويلة، الحافلة بالغرباء من كل أنحاء العالم في الحرب العالمية الثانية حتى صارت مثل برج بابل تنتظر الطوفان.

وهي رواية الناس العاديين، مسلمين ومسيحيين، في ظروف الحرب حيث تتجاوز المصائر وتتحد الارواح، وتمتزج بالحب والخوف والأمل، وتستوعب الروح الانسانية اختلاف الأديان والأجناس. ان الأبطال المسيحيين في هذه الرواية لهم النور نفسه للأبطال المسلمين كما هو الحال في بلدنا دائما. والرواية في خطها الرئيسي صداقة كبيرة بين مجد الدين ودميان وحول هذا الخط نجد المتمردين والأرواح المعذبة بالحب رغم اختلاف الأديان.

في هذه الرواية يبدو السكندريون كأهل للتمرد والنزق مثل مدينتهم في محنتها وصفوانها